الدكتورة نجدة خمّاش

مدرسة تاريخ العرب والاسلام
في قسم التاريخ في جامعة دمشق

الشام في صدر الإسلام

(مِنَ الفتح حتّى سُقوط خلافةِ بني أُميّة)

دراسة للأوضاع الاجتماعية والإداريّة

دمشق ـــ أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

الشام
في صدر الإسلام

الطبعة الأولى
١٩٨٧

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الشام، بلد الأصالة العربية والشموخ، بحدوده الشاملة، قبل أن تمعن فيه عوامل الضعف والوهن ومعاول التجزئة والتمزيق.

المؤلِّفة

المقدمة

هذا البحث محاولة لدراسة الأوضاع الاجتماعية والإدارية في الشام منذ الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية، وقد دفعني إلى اختياره إهمال المؤرخين لدراسة أوضاع الشام في هذه الفترة، بينما حظيت الولايات الأخرى، لا سيما العراق ومصر، باهتمام الباحثين. وبالرغم من كثرة المؤلفات التي تبحث في الشام بشكل عام، فانها كثيراً ما تتخطى هذه المرحلة على أهميتها؛ فولاية الشام احتلت في هذه الفترة بالذات مكانة عظيمة، ولذلك فان سقوط الأمويين لم يكن معناه زوال أسرة وقيام أسرة غيرها في الحكم فحسب، بل زالت بسقوطهم عظمة إقليم الشام الذي كان يحتل مركزاً استراتيجياً هاماً في الدولة الاسلامية أثّر كثيراً في توجيه النشاط الاقتصادي والسياسي والحربي. وبقيام دولة العباسيين، انتقل مركز الاسلام إلى الشرق، إلى

بغداد، عاصمتهم الجديدة، وأخذوا يؤقلمون سياستهم على أساس هذا الوضع الجديد، ومن ثم كان لذلك نتائجه البعيدة المدى.

لم يكن إعداد هذه الدراسة ليخلو من المصاعب، إذ أن تقديم صورة للوضع الاجتماعي والإداري للشام في فترة صدر الاسلام اقتضى جمع كل الشذرات والنبذ المتناثرة في بطون المصادر على أنواعها ثم سد الثغرات بالاستنتاج المنطقي أو بالقياس إلى ما كان يطبق في الولايات الأخرى؛ فالشام جزء من الدولة الإسلامية، وبالرغم من أن جغرافية كل منطقة وأوضاعها الاجتماعية والإدارية السابقة قد لعبت دورها في إيجاد نوع من التمايز بين ولاية وأخرى، فان القواعد العامة تكاد تكون واحدة تقريباً. ونظراً لأن بحثي السابق كان يتعلق بإدارة الولايات بشكل عام، فان هذا قد مهّد وساعدني على إعطاء صورة شاملة مكنتني من إجراء مقارنات، بين الحين والآخر، لاظهار أوجه الشبه أو الاختلاف بين الأوضاع الاجتماعية والتنظيمات الإدارية المطبقة في الشام وتلك التي كانت مطبقة في الولايات الأخرى.

يتناول القسم الأول من بحثي طبقات المجتمع ودورها في الإدارة والحكم وتوطيد حكم بني أمية، ولذلك كان لابد لي في الفصل الأول من أن أبحث في العناصر السكانية التي كانت في الشام قبل الفتح ومناطق

تواجدهم، من عرب وروم ويهود وسامرة وفرس وجَراجِمة ونَبَط. ولقد تبيّن لي أن مصادرنا العربية تذكر أسماء بعض القبائل، الّا أن هناك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة، لأنه لم يكن لعلماء الأنساب علم بها، وأعني بذلك القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية والقبائل التي دوّنت تلك الكتابات، فهي كتابات عربية وإن اختلفت عن عربيتنا، فقد سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير، فقال: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»، ولكن هؤلاء العلماء لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مخالف للساننا. وقد ألقت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ليس في الجنوب وعلى مشارف البادية فقط، وإنما في مناطق داخلية وإلى الشمال. بالإضافة إلى العرب وجد بالطبع الروم ومرتزقتهم في مدن الساحل والمدن الداخلية الهامة، كإيلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر، ثم اليهود والسامرة في فلسطين والأردن، والفرس في بعلبك وحمص وأنطاكية، والجراجمة في منطقة اللُّكام، وأخيراً تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النبط والتي تشير النصوص إلى كثرتهم في الأرياف والمدائن، كما أن النصوص المبعثرة في المصادر تحوي قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة، وكلها تدل على أن المقصود بالنبط طريقة الحياة وليس النسب، وان كان البعض يعتبرونهم من بقايا الشعوب القديمة التي

سكنت بلاد الشام والعراق ومترسبات الآراميين، وليس من المستغرب أن يكون قد اندمج فيهم الكثير من العرب الذين سكنوا هذه المناطق وبادت أسماؤهم. ولقد حاولت أن أتبين نسبة هذه العناصر السكانية بعضها إلى بعض، فلم أوفق، لأن الروايات لا تهتم إلاّ بذكر أعداد المقاتلة من جهة، ولأن التفاوت في الروايات حول هذه الأعداد كبير جداً، وان كان قد ظهر أن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة، وأن الروم البيزنطيين قد اعتمدوا عليهم في الوقوف في وجه العرب المسلمين، وأن هؤلاء العرب قد أيدوهم في كثير من المواقف، بينما تشير الروايات إلى أن العرب استخدموا النبط كجواسيس وكفيوج لأنهم كانوا إلى المسلمين لبرّهم أميل، وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك. ولكن موقف العرب وموقف غيرهم من سكان الشام النصارى لم يكن موقفاً جامداً، لاسيما بعد أن أمسك العرب بزمام الموقف، وتبيّن لهم حسن المعاملة التي كان يلقاها من يدخل ذمتهم.

فاذا أتينا إلى توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح، وهو ما بحثته في الفصل الثاني، فإن مما يسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرة القبلية أن القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة

الواحدة مواطن شتى ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولا ستيطان قبائل العرب الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في إطار روابط النسب الواسعة ، كالعدنانية والقحطانية والمضرية والربعية ، ومنها تصدع الوحدة القبلية ، لأن القبيلة الضخمة العدد، قلّما كانت تنزل برمتها في موطن واحد .

وكانت جيوش المسلمين ، التي قدمت لفتح بلاد الشام، نواة القبائل التي استوطنت الشام، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا إلى معرفة القبائل التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده، إلّا أننا نستطيع استخلاص إحصاء تقريبي لها عن طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات ، واعتماداً على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين إبّان الفتنة الأولى والثانية والثالثة .

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولها بلاد الشام تزايداً سريعاً ، فقد كان عدد المسجلين في ديوان العطاء بدمشق في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك خمسة وأربعين ألفاً ، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعة وثمانين ألفاً في سنة ١٢٦ هـ ، ومقاتلتهم خمسين ألفاً ، وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل. ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين إلى الشام وحدهم، وإنما تمثل

أيضاً من انضم إليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانضموا بعد إلى جيوش المسلمين .

ومن دراستنا لتوزع العناصر السكانية في بلاد الشام بعد الفتح ، يتبين لنا أمور ثلاثة ، أولها أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم ، بحيث أن اليعقوبي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثالث لا يذكر الروم على الاطلاق ، وإنما يطلق اسم العجم عليهم ، ولا نجد لهم ذكراً في الأجناد الشمالية في دمشق وحمص وقنسرين ، وإنما في جندي الأردن وفلسطين ، وثانيها أن قبائل قضاعة واليمن تستوطن الجانب الأكبر من الشام ، فجلّ أهل حمص كانوا يمانية قضاعية ، ولكثرتهم في جند حمص ضرب المثل بذلة القيسي فيها ، كما أنهم تواجدوا بكثرة في جند دمشق والأردن وفلسطين . أما مواطن قيس ، فكانت في قنسرين ، بالإضافة إلى وجود قلة منهم في مدينة دمشق وفي الغوطة وحوران والغور والجولان . ولما كانت قضاعة وكلب خاصة هما أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر الأموي ، كان انحياز هذه الكتلة إلى أي حزب سياسي خليقاً بترجيح كفته ويمنحه تأييداً حربياً وسياسياً له شأوه ، وكذلك كان انحياز هذه القبيلة إلى إحدى الكتلتين: العدنانية والقحطانية خليقاً بترجيح كفتها العددية وباختلال ميزان القوى القبلية ، ومن هنا احتدم النزاع حولها

وتجاذبتها العدنانية والقحطانية، وقام نسّابو كل من الكتلتين والأخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ مستهل العصر الأموي حتى منتصف العصر العباسي في ضم هذه القبيلة إلى شجرتهم النسبية، أما الأمر الثالث، فانه نظراً لعدم تجاوب أهل الساحل في بادىء الأمر لتأثرهم بالصبغة الرومية، فقد اضطر معاوية إلى نقل قوم من الفرس إلى سواحل الأردن وصور وعكا وإلى أنطاكية، كما أسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الأردن طرابلس، ثم اقطع عبد الملك فرس بعلبك الخمس في مدينة طرابلس، ولذلك فانه مما يثير الانتباه، أن سكان كور جند دمشق الساحلية معظمهم من الفرس واليهود، في حين يشكل العرب الأكثرية الساحقة في مدن جند حمص الساحلية.

في الفصل الثالث، بحثت في طبقات المجتمع الشامي ووضعها الاجتماعي ودورها في الإدارة والحكم، فتوضح لي أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في بادىء الأمر في تحديد المكانة الاجتماعية للعرب المسلمين في الشام، وهما عامل العطاء منذ فرضه الرسول ونظمه عمر بن الخطاب، وعامل صحبة الرسول ونصرته في دعوته، وما كان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التي انشطرت بدورها شطراً اتجه إلى المعرفة والعلم وشطراً اتجه نحو السياسة والحكم، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الاسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة وتمثيل

لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذه الدعوة لاسيما أن عددهم، حسب ما ورد في كتاب الطبقات، كان ١١٣ صحابياً. ويبدو أن جند حمص بالذات كان ملتقى لأصحاب الرسول حتى كان يسمّى الجند المقدّم، وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الأجناد دور كبير في ارساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسننهم، فكانوا أساتذة لمن خلفهم، كما أن عمر بن الخطاب اتبع في الشام سياسة خاصة لنشر الدين، وهي بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة.

وكان للصحابة كذلك المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة، وقد جعل معاوية أثناء ولايته للشام والجزيرة ولاته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة وأبنائهم، إلا أنه كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل اليمانية التي نصرت معاوية، مما دفعه في عهد خلافته إلى انتقاء ولاة الأجناد من زعماء القبائل حسبما يتوفر لهم من استقرار وكثرة، ولكن معاوية في الوقت نفسه لا ينقاد لليمانية تماماً، لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعاً من التوازن.

وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرافهم بقيت لهم مكانتهم في العهد المرواني، إلاّ أن اخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم إلى الشام سنة ٦٤ هـ ومعركة مرج راهط ومانجم عن ذلك من احتدام العصبيات، دفع

خلفاء الفرع المرواني، باستثناء عمر بن عبد العزيز، إلى الاعتماد على أمراء البيت الأموي في شؤون إدارة وحكم الأجناد وقيادة الحملات، لاسيما الصوائف والشواتي، وأصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة لم يكونوا يتمتعون بها في العهد السفياني.

ومن دراستي لسير ولاة بني أمية الشخصية، تبيّن لي أن الفترة المروانية تميزت بازدياد اعتماد الخلفاء اما على أمراء من الفرع المرواني أو على ولاة من أهل الشام لإدارة الولايات ذات الأهمية الكبرى، وأظهرت مدى ما حققه هؤلاء الولاة في ميدان الإدارة والتنظيم الإداري، فكأنّ الشام كانت المدرسة التي يتم فيها هذا التدريب، إذ أن معظم التنظيمات الإدارية الهامة في العراق ومصر وافريقيا تمت في الواقع على يد ولاة من أهل الشام سواء من العرب أو الموالي فيما بعد.

أما فكرة العطاء فقد عاشت رمزاً للمكانة الإجتماعية وتعبيراً عن السابقة إلى النصرة، ثم تعبيراً عن الشجاعة والبلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ساهموا فيها. وكان شرف العطاء في العهد الراشدي يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الإدارية أو القيادية أو من يبدي بسالة في الحروب. وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموي، إلّا أن عامل الدعم لمعاوية وللحكم الأموي في الشام أصبح عاملاً أساسياً. وبالرغم من أن مقدار ما كان يدفع في

شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجعل ممّن يأخذه غنياً، إلاّ أنه كان يعتبر شرفاً عظيماً يستحق التسجيل.

وكان لعامل العطاء دوره كذلك منذ البدء في تحديد المساواة بين العرب المسلمين والموالي، وقد اتضح لي من دراسة الروايات المتعلقة بهم في الشام أنه كانت لهم مكانة تكاد توازي مكانة العرب المسلمين. صحيح أن مجموعة كبيرة من هذه الروايات متعلقة بموالي بني أمية، وهم موالي عتاقة، إلا أن هناك روايات أخرى متعلقة بالموالي بشكل عام، وكان هؤلاء يعاملون بكل احترام وتقدير، ويفرض لهم في العطاء، ويتم تسجيلهم في الديوان. وقد ازداد اعتماد الخلفاء في الفترة المروانية على الموالي سواء في الدواوين أو الإدارة، وفي هذا دليل على المكانة التي كانت لهم وعلى ازدياد من دخل في الاسلام من سكان الشام من غير العرب أو من الرقيق. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن أهل الذمة، وميّزت بين وضع العرب النصارى، والنصارى من غير العرب، كما أوضحت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة ومدى حقوقهم وواجباتهم، وصلة المسلمين بهم، وموقف الدولة من اليعاقبة والملكانيين أو الملكيين، وعوامل هذا الموقف. كما ناقشت قضية الشروط العمرية المتعلقة بملابس أهل الذمة، ثم بينّت مدى اعتماد خلفاء بني أمية عليهم في الإدارة وتناقص هذا الاعتماد تدريجياً، نتيجة لتدابير الخليفة عمر بن عبد العزيز من جهة وازدياد من دخل في الاسلام من جهة أخرى.

ومن الطبيعي أن أتطرق إلى الرقيق ووضعهم الاجتماعي في الشام، لاسيما أن أعدادهم تضخمّت نتيجة للفتوح وارسال الخمس إلى دمشق، مما اقتضى ايجاد موظف خاص مسؤول عن أمور الرقيق بدءاً من خلافة سليمان بن عبد الملك، وأشرت إلى الأعمال المختلفة التي كان يكلف بها العبيد عامة، ورقيق الخمس خاصة، وبالرغم من أنه ليست بين أيدينا روايات تلقي ضوءاً على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من سادتهم في الشام، فان أمراء بني أمية وولاتهم كانوا يعتقون الكثير من رقيقهم، وكثرة الموالي لدى خلفاء وأمراء بني أمية كلها دلائل تشير إلى ذلك.

في الفصل الرابع بحثت في دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية، إذ أن أهل الشام كانوا القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الحكم الأموي للخطر، وقد أظهرت مدى دعمهم لمعاوية ثم لمروان بن الحكم وعبد الملك من بعده، وموقفهم من الفتنة الثالثة، وكيف أن خذلانهم لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كان من الأسباب الهامة والأساسية في سقوط الحكم الأموي، وأشرت إلى العوامل التي أدّت إلى دعمهم لخلفاء بني أمية بشكل عام وإلى خذلانهم لمروان بن محمد. ثم أشرت إلى ازدياد اعتماد ولاة العراق، خاصة في الفترة

المروانية، على القوات الشامية في قمع الحركات الخارجية والشيعية أو في الثورات الأخرى، كثورة ابن الأشعث ويزيد بن المهلب، وكان لذلك نواح ايجابية وأخرى سلبية.

أما في الفصل الخامس، فقد أظهرت دور أهل الشام في الفتوح ولا سيما فتوح أرمينية واللاّن وبعض مناطق بلاد الخزر، وفي فتوح عدد من جزر البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقية، واشتراكهم كذلك في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي، وفي فتوح جُرجان بقيادة يزيد بن المهلب. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الفضل في تحقيق الفتوحات في المشرق يعود بشكل عام إلى مقاتلة الكوفة والبصرة.

يتضمن القسم الثاني من رسالتي الإدارة في الشام. وقد بحثت في الفصل الأول منه النظام الإداري وتقسيم الشام إلى أجناد، وأسباب هذا التقسيم ومدى تأثره بنظام البنود البيزنطي، وانقسام هذه الأجناد إلى كور، وكون مراكز هذه الأجناد كلها مدناً داخلية، ثم اتبعته بالحديث عن أهم الموظفين الإداريين ابتداءا من الخليفة، الرئيس الإداري الأعلى، وأظهرت مدى التغيير الذي طرأ على مفهوم الخلافة ونوع المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتق الخليفة، ثم انتقلت إلى المستشارين أو الوزراء فولاة الأجناد فالكتاب وأصحاب الشرط والبريد والقضاة، فبينت القواعد التي اعتمد عليها الخلفاء في انتقائهم

والمهمات والواجبات التي كانت توكل إليهم مع اظهار الفروق في هذه الواجبات التي كانت ملقاة على عاتق هؤلاء الموظفين في العراق ومصر، وبين تلك التي كانت ملقاة عليهم في الشام لكونها الولاية المركزية ومستقر الخليفة.

وبالرغم من أنني كنت قد تحدثت عن الدواوين بشكل عام في بحثي عن إدارة الولايات في العصر الأموي، فانني هنا ركزت اهتمامي على الدواوين المتواجدة في الشام، ذلك أنه بالإضافة إلى الدواوين الأساسية التي كانت في الأمصار، ظهرت في الشام دواوين خاصة، كديوان المستغلّات وديوان الزمني وديوان الرقيق والنفقات. وبالرغم من عدم ذكر ديوان للذراري في الشام، فلا شك أنه كان موجوداً، وان لم يذكر ذلك صراحة، لكثرة الروايات المتعلقة بعطاء الذراري في الشام.

وقد حاولت في الفصل الثاني عند البحث عن النظام المالي في الشام أن أشير إلى أن بعض الضرائب والتدابير العملية، مثل الجزية فردية ومشتركة، والعشر والزكاة ومعاملة الأراضي العربية في عهد الرسول كان لها أثرها على نظام الضرائب الذي طبق. كما أن نظامي الضرائب اللذين وجدهما العرب في الأراضي المفتوحة قد استعملا مصطلحات ولكنهما طبّقا وفقاً للمفهوم الاسلامي. ثم ان مما يثير الانتباه أننا لا نكاد نجد فقيها

مسلماً واحداً يؤكد وحدة التطبيق في كل أطراف الدولة الاسلامية، بل ان الروايات تشير إلى العكس من ذلك، وتحاول أن تظهر الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة، ولا تحاول مطلقاً تقديم صورة لنظام موحّد في كل أجزاء الدولة الاسلامية. فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة، لأنها تأثرت بالأوضاع المحلية، ولذلك كان لابد لي عند دراستي للنظام المالي في الشام من أن أعود إلى النظام المالي البيزنطي الذي كان مطبقاً لأبرهن أن نظامي الضرائب في الشام استعملا مصطلحات فقط، أما التطبيق فكان وفقاً للمفهوم الاسلامي. كما أنني عمدت إلى دراسة أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي قد يبدو لأول وهلة عندما ندرس الروايات المختلفة المتعلقة بعهود الصلح، وقد نصت المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام والجزيرة بوضوح على وجود جزية وخراج، فبحثت في الجزية ومقدارها وممن أخذت ومن أعفي منها، وإلى التعديل الذي أحدثه عمر بن الخطاب بعد ذلك في مقدارها، ثم إلى التعديل الثاني في خلافة عبد الملك بن مروان. أما الخراج فان الروايات المتعلقة بالشام في هذا الصدد قليلة، ولذلك اضطررت إلى الاعتماد على الاجراءات التي تمت في العراق لايضاح بعض الأمور، لا سيما عندما تكون لدى المؤشرات التي تسمح لي بأن أقيس ماحدث بالشام بما حدث بالعراق. وكذلك اعتمدت على الروايات الخاصّة بالعراق، فيما يتعلق بأراضي الصوافي في الشام

وموقف عمر بن الخطاب منها، وهي تختلف في الواقع عما يرد في كتب بعض الفقهاء كأبي يوسف الذي يعكس وضع الصوافي في العصر الأموي، كما تعرّضت إلى الضرائب الإضافية في الشام وقارنت بينها وبين تلك التي أضيفت في العراق ومصر، فتبين أن هذه الضرائب في الشام هي التي نصت عليها المعاهدات التي عقدت أثناء الفتح، في حين أن الضرائب في المشرق ومصر أضيف بعضها في العصر الأموي.

وجد في الشام في العصر الأموي بيت مال خاص لأموال الفيء وآخر للصدقات، وهناك رواية تشير إلى أن عمر بن عبد العزيز أوجد بيت مال خاص للخمس، فتكلمت عن الأموال التي كانت ترد بيت مال الفيء ومقدار ما كانت ترسله الولايات المختلفة من فائضها إلى دمشق، وموقف العراق خاصة من هذا الفائض، وهذا بدوره يفسر لنا كثرة الأموال التي كانت ترد من جهة وعدم حاجة الخلفاء إلى فرض ضرائب إضافية على أهل الشام الذين تمتعوا في هذه الفترة بميزات لم يتمتع بها غيرهم من سكان الولايات الأخرى.

وكان لابد لي أثناء الكلام عن النظام المالي أن أبحث في النقود المتداولة وإلى تعريب النقد ولاسيما الدينار الذي كان يتم سكه في دمشق خاصة، وقد تبيّن لعلماء الآثار أن الدنانير الأموية العربية الصافية في إفريقية قد ضربت في

دمشق لصالح المغرب بعكس الدراهم، حيث استمر الولاة بضرب الدراهم حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي أمر خالد بن عبد الله القسري والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السكك من كل بلدة إلاّ واسطاً، وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي، فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان.

لا شك أن اصلاح عبد الملك للنقد وإيجاده نقداً قومياً عربياً كان بمثابة حجر الأساس للنهضة التجارية الاسلامية، ولكن كان لعمله بالمقابل أثر فعال على العلاقات البيزنطية العربية وعلى اقتصاد الشام ومصر بشكل خاص، ذلك أن البيزنطيين عادوا إلى تطبيق القيود التجارية التي كانت مطبقة سابقاً أثناء صراعهم مع الساسانيين، في حين لم يعمد خلفاء بني أمية إلى تطبيق مثل هذه القيود على التجار المسلمين في تعاملهم مع البيزنطيين. فبيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار العرب هي مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية، لذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين من استقبال التجار المسلمين منهما طرابزون (Trebizond) الذي كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة. واختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة، فطرابزون

مرفأً أمين على البحر الأسود غير مهدد ، وباتخاذهم طرابزون محطة نهائية للتجارة العربية ، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة إليها من مصر والشام ، المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين ، إلى بلاد العراق التي لم تكن تشكل خطراً عليهم . فاذا أضفنا إلى ذلك قوة الأسطول البيزنطي الذي خرج منتصراً سنة ١٠٠ هـ وأخذ يمخر عباب البحر المتوسط ويقطع بشكل فعّال التجارة ليس مع الغرب فقط ، وانما بين الشام ومصر وشمالي افريقيا ، ثم انتقال الحكم إلى العباسيين حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، نجد أن الشام خسرت مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية من جهة ، كما خسرت من جهة ثانية مركزها التجاري الهام وبقيت بعد سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢م عاجزة مدة عشرين عاماً عن تشكيل اسطول لها ، وهذا أثّر بدوره على فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر ، إذ مرّت بفترة ركود إقتصادي بعد سنة ٩٨ هـ/٧١٦م ، فلم تعد ترى تجاراً سوريين في موانئها التجارية أو تجاراً من مناطق اسلامية أخرى .

آخر فصل في البحث يتعلق بالتنظيم العسكري البري والبحري ، حيث تحدثت عن عناصر الجيش من عرب وموالي وإلى نسبهم في هذا الجيش ، وظهور فرق للموالي في الفترة المروانية ، كالوضاحية والذكوانية والمحمّرة

وغيرهم، وإن كانت نسبتهم أقل بكثير من نسبة المقاتلة من العرب. ثم تطرّقت إلى التعبئة ومفهومها، والقيادة والقواعد التي كان يعتمد عليها الخلفاء في تعيين قوّادهم، كما تحدثت عن الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام وأظهرت مدى التقدم السريع الذي أحرزه المسلمون ولاسيما مقاتلة أهل الشام في هذا المضمار، وأنهيت البحث بالتنظيم المالي للجيش، وهو تنظيم قائم على أسس اسلامية، وخلصت من بحثي هذا إلى أن الجيش الشامي كان أشبه ما يكون بالجيش النظامي لأن مقاتلته كانوا على أهبة الاستعداد دائماً طيلة خلافة بني أمية، فالغزوات في الجبهة الشمالية كانت متواصلة تقريباً، بالإضافة إلى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة، فاذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال المقاتلة بقمع فتنة. ولا شك أن هذا النظام الذي ظلّ معمولا به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومناورات جماعية جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين، حتى أن ليون الأيسوري نفسه يبين أن البيزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة كخطط العرب، وأن القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج إلى قدراته الاستراتيجية، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة إذا أراد أن ينجح في صدّ العرب.

تحليل المصادر

إن دراسة الأوضاع الاجتماعية والإدارية في الشام في صدر الاسلام اقتضت دراسة معمقة ودقيقة للمصادر على أنواعها التاريخية منها (كتب التاريخ العام والمحلي، والطبقات والتراجم والأنساب) والأدبية والجغرافية، بالإضافة إلى كتب الفقه ولاسيما كتب الخراج؛ وبالرغم من أن كل صنف يركّز على ناحية معينة، إلاّ أنه لا يهمل النواحي الأخرى، ولذلك فقد أمكنني الافادة من مختلف المصادر، ولو جزئياً، في كل موضوع من مواضيع الرسالة، وان لم تكن نسبة الفائدة واحدة.

يجد الباحث المدقق في الكتب التاريخية العامة، رغم تركيزها على النواحي السياسية معلومات ذات قيمة كبيرة في النواحي الإدارية والاجتماعية والمالية، كما أنها تتناول بشكل واسع القبائل التي اشتركت في الفتح واستقرارها في الأمصار. وقد تميّز الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه بكثرة المعلومات الهامة التي أفادتني في مناحي البحث كله، سواء في الاشارة إلى أماكن استقرار القبائل قبل الفتح وبعده أو في عرض الأوضاع الاجتماعية للعرب المسلمين والعوامل التي أثّرت في تحديد مكانتهم، كما أنه حوى معلومات مفيدة عن الأرض والصوافي ونظرة القبائل تجاهها، والخطوات الأولى التي اتخذها عمر بالنسبة للأرض، كذلك تضمن تاريخه معلومات عن الديوان

والعطاء والتعبئة العسكرية وعناصر الجيش والقيادات والأسلحة التي استخدمها العرب أثناء الفتح وبعده في العصر الأموي، ولا يقل كتاب فتوح البلدان وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ) أهمية وقيمة، فقد أفادت المعلومات الواردة فيهما البحث في جميع فصوله، لاسيما وأن البلاذري في كتابه فتوح البلدان، يتميز بالاهتمام الزائد في النواحي الإدارية والمالية، ويورد عنها أخباراً كثيرة غير مذكورة في المصادر الأخرى. وما دمنا في صدد الكلام عن كتب الفتوح، فلا بد من التعرّض لكتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤ هـ/٩٢٦ م)، إذ يعتبر كتابه من أقدم الكتب التاريخية التي ألّفت عن القرنين الأول والثاني الهجريين، ولذلك فهو لا يعطي فقط روايات تاريخية عن الأحداث المختلفة، ولكنه برواياته يعتبر مصدراً تقاس عليه روايات من سبقه أو عاصره من المؤرخين، كالبلاذري والطبري واليعقوبي والمسعودي والدينوري وغيرهم، وبمقارنة الروايات يمكن الوصول إلى فكرة أوضح عن الأحداث التاريخية ذات العلاقة بالموضوع.

ومن مصادر التاريخ الهامة كذلك كتاب تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) الذي أغنى البحث بالقوائم التي يوردها بأسماء الدواوين المركزية وموظفيها، وكذلك القضاة ورؤساء الشرطة وولاة الأجناد في نهاية عهد كل خليفة أموي. وهذه القوائم تسترعي انتباه دارسي

الأحوال الإدارية، وقلما نجد مثل هذا الاهتمام بالإدارة من قبل مؤرخي الأحوال السياسية .

وضمّت مؤلفات الدينوري (ت ٢٨٢ هـ) واليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) والمسعودي (ت ٣٤٥ هـ) معلومات هامة تختلف عما أورده الطبري والبلاذري، وهذا يدل على أنهم استمدوا معلوماتهم من مصادر مختلفة، ولكن عدم ذكرها للأسانيد يجعل من الصعب تعيين هذه المصادر .

وتناول ابن سعد (ت ٢٢٠ هـ) في كتابه الطبقات الحديث عن الصحابة والتابعين الذين أقاموا في الشام ودورهم في نشر الاسلام وارساء قواعده، كما أن الروايات الواردة في ترجمة عمر بن عبد العزيز أمدّت البحث بمعلومات قيمّة عن تدابير عمر بن عبد العزيز في مختلف المجالات، لاسيما المالية منها والمتعلقة ببيوت الأموال في دمشق، وبالعطاء وخاصة عطاء الأسرى، والغائبين ومفاداة الأسرى .

ولكتب التاريخ المحلي قيمتها لأنها تعبر عن الرباط الوثيق الذي يربط الناس بمكان مولدهم ولأنها تورد حوادث محلية قد يهملها المؤرخون الذين يهتمون بالحوادث العامة والتي تعطي مع مالدينا من معلومات صورة أعمّ وأشمل، إلاّ أن الباحث في التواريخ المحلية تواجهه عراقيل متنوعة منها عدم وجود تواريخ محلية لكل الأقاليم أو المدن الاسلامية،

فلم تكن كل المدن الاسلامية محظوظة مثلاً، مثل دمشق أو حلب، بحيث تيسّر لتاريخها أن يكتب على يد أحد أبنائها أو الساكنين فيها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان بعض التواريخ المحلية لها صفة كتب (التراجم) أكثر من صفة (التاريخ)، وأشهر مثل على ذلك كتاب بغية الطلب لابن العديم، وتاريخ دمشق لابن عساكر؛ وليس بخاف أن البحث عن المعلومات التاريخية المتناثرة بين طيات هذه الكتب يحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير.

وتأتي أهمية كتب الفقه من عنايتها بالضرائب والشؤون الاقتصادية والإدارية والاجتماعية. ومن المصادر الفقهية التي أغنت البحث بشكل جليّ، كتب الخراج ككتاب الخراج لأبي يوسف (ت ١٨٢ هـ)، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم (ت ٢١٣ هـ)، وكتاب الأموال لأبي عبيد (ت ٢٢٤ هـ)، والأحكام السلطانية للماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، بالإضافة إلى بعض المصادر الفقهية الأخرى، كالمدونة لمالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ)، وكتاب الأم للشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، والمسند لابن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، وجامع المسانيد لأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ)، وكتب الخراج والفقه هذه تقدم مادة تاريخية واسعة ذات أهمية وفائدة خاصة تنفرد بها عن غيرها من المصادر، لاسيما إذا انتبه الباحث إلى أن الفقهاء بشكل عام لا يراعون في تقديم مادتهم التطور التاريخي، كما

أنهم لا يراعون النواحي الجغرافية، مما يخلق الارتباك وتعدّد الآراء. هذا ما نلاحظه مثلاً في الروايات التي يوردها أبو يوسف أو أبو عبيد أو يحيى بن آدم والمتعلقة بالاجراءات التي اتخذها عمر بن الخطاب بشأن السواد أو بشأن تحديد الجزية، ويعود السبب في ذلك إلى أن اهتمام الفقهاء موجّه بالدرجة الأولى إلى السوابق التي يفيدون منها لوضع تعاليم أو قواعد فقهية مبنية على التدابير والاجراءات التي اتخذها الرسول (صلعم) والخلفاء الراشدون ولاسيما عمر بن الخطاب ثم عمر بن عبد العزيز من بعده.

لا يستغنى عن الأدب في كتابة التاريخ الاسلامي لأن المؤرخ الواعي يستنبط من المصادر الأدبية الكثير من حقائق التاريخ، ومن أهم المصادر الأدبية التي استفدت منها كتب الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م)، وأبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ/٩٦٧ م)، وابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ)، هذا بالإضافة إلى دواوين الشعراء المعاصرين لفترة صدر الاسلام كديوان جرير والأخطل وغيرهما.

وتقدم الكتب الجغرافية عوناً كبيراً ومتمماً في مجال البحث من حيث تحديد منطقة الشام وثغورها وأجنادها وامتداد هذه الأجناد والمدن الساحلية التابعة لكل جند منها والقبائل التي استقرّت فيها بعد الفتح، بالإضافة إلى العناصر السكانية الأخرى، ومن أهم هذه الكتب، كتاب

البلدان لليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ)، والأعلاق النفيسة لابن رستة (ت ٢٩٠ هـ)، والمسالك والممالك للإصطخري (ت ٣٢١ هـ)، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م).

المصادر الذمية

لا يكتمل البحث في الأوضاع الاجتماعية والإدارية في الشام دون الرجوع إلى أهم مصدر بيزنطي، وهو تاريخ تيوفانس، وبعض المصادر السريانية المترجمة إلى الفرنسية أو الانكليزية أو العربية. وبالرغم من أن هذه المؤلفات قد أمدتني ببعض المعلومات القيمة غير المتوافرة في مصادرنا، إلاّ أنه لا بد من القول بأن المادة المتواجدة في مصادرنا أعمق وأغنى وأشمل. كما أن التعاليل التي ترد في مصادرنا، وان كانت ترد بشكل غير مباشر، فانها تدلّ على فهم للأحداث عميق، بينما نجد تيوفانس والمؤرخين السريان يرجعون الأمور كلها إلى القدرة الالهية وبركة القديسين والأولياء عند الفوز والانتصار، أو إلى الغضب الالهي ونقمة القديسين في حال الفشل والهزيمة.

المصادر التاريخية المتأخرة

يعتمد المؤرخون المتأخرون بصورة عامة على روايات من سبقوهم من المؤرخين الأوائل. إلاّ أن الباحث قد يعثر بين طيات هذه المصادر على روايات فريدة غير واردة في كتب الأوائل، ولذلك فالأجدر بالباحث أن يرجع إلى هذه

المصادر المتأخرة ويدرسها. ومن المصادر المتأخرة التي أغنت البحث كتب ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي والذهبي والسيوطي وابن الجوزي والقلقشندي والنويري وغيرهم.

المراجع الحديثة

قدمت المراجع الحديثة، العربية منها والأجنبية، ولاسيما تلك التي تبحث في النظم الاسلامية عامة والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والمالية خاصة، فوائد جمة لما تضمنته من آراء وتعليقات وتحليلات، وأخصّ بالذكر منها ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري في النظم الاسلامية سواء في كتابه «مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي» أو في مقالاته عن الاقطاع والضرائب والعرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام.

كما اعتمدت على المراجع الأجنبية عند البحث عن العرب في الشام قبل الفتح ومناطق تواجدهم، بناء على ما توصل إليه علماء الآثار، وكذلك في البحث عن النظام المالي في الشام في العهد البيزنطي وفي النتائج الاقتصادية والسياسية الهامة التي نجمت عن تعريب الدنانير. ومن أهم هذه الكتب، كتاب دانيل دينيت عن الجزية والاسلام، وكتاب أوستروغورسكي عن تاريخ الدولة البيزنطية، بالإضافة إلى بحوث كبار المؤرخين المنشورة في المجموعة المعرفة باسم (Byzantium) وفي الموسوعة الاسلامية.

وختاماً أتوجه بالشكر والامتنان للاستاذ الدكتور نبيه عاقل لملاحظاته وتوجيهاته القيمة ، كما أتوجه بالشكر إلى عدد من زملائي الأساتذة الكرام في قسم التاريخ وإلى الاستاذ الدكتور وليد عرفات رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة لانكستر لما أمدوني به من كتب ومصادر .

وآمل أن أكون قد وفقت بتزويد المكتبة التاريخية ببحث يتناول حقبة تعتبر بحق من أهم فترات تاريخنا العربي الاسلامي .

د . نجدة خماش

تمهيد

الشَأْم والشَأْم والشَآم[1] هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على المنطقة التي يحدها بحر الروم من الغرب، والبادية الممتدة من أَيْلَة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها حد مصر وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها ممايلي مصر رَفَح ومما يلي الروم الثغور[2]. أي أن الشام كانت تضم الرقعة التي تشغلها الآن سورية ولبنان والأردن وفلسطين، وتلك كانت بلاد الشام على مدى تاريخ طويل، ولم يتم تقسيمها سياسياً إلى دول أربع إلا بفعل الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ط ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م جـ٣ص ص٣١٢.

(٢) الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق دي غوجه De Geoge ط ١٩٧٢ — ص/٥٥/، ويرى الإصطخري أنه بالرغم من أن بعض الثغور تعرف بثغور الشام وأخرى كانت تعرف بثغور الجزيرة فان كليهما من الشام، لأن كل ما وراء الفرات (ويقصد بذلك كل ما هو غربي الفرات) من الشام. وإنما سمي من ملطيه إلى مرعش ←

وسورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامي منذ عهد قديم ؛ قال البكري : « سورية بضم أوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء اسم للشام[٣] » ، وفي فتوح البلدان للبلاذري ، أن هرقل لما بلغه خبر أهل اليرموك وايقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية فلما جاوز الدرب قال : « عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو يعني أرض الشام[٤] » . ويرى ارنست هرتزفيلد Ernest Hertzfield أن سورية اسم مقتضب من اسم أشورية لغلبة الآشوريين عليه[٥] والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية ، وقد ظهر اسم سورية لأول مرة عند هيرودوت (٤٨٥ ـ ٤٢٥ ق . م[٦]) . ويظهر بشكل Shryn في آداب أوغاريت وسيريون Siryon في العبرية حيث يطلق على لبنان الشرقي[٧] ، وفي العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم وأطلق على البلاد كلها ، واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى[٨] .

ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لأنها من الجزيرة ، أما قدامه بن جعفر فيجعل مرعش والحدث من ثغور الجزيرة ، وطرطوس وأذنه والمصيصه من ثغور الشام . قدامه بن جعفر ، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ليدن ، ١٣٠٦ هـ ص ٢٥٣ .

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥م ج ١ ص ٤٧ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، مصر ١٩٥٩م ، ص/١٤٢/ .

(٥) أرنست هرتزفيلد ، مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٢٢ ـ ١٩٤٧ ص ١٧٨ ، ١٨١ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ج ١ ص ٤٧ .

(٦) فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان . ج ١ ص ٦٢ .

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٦٢ .

(٨) The Modern Encyclopaedia, First Edition, 1961 Art. Syria Histoy.

وكانت فلسطين بالنسبة لهيرودوت قسما من سورية(٩)، واعتبر وليم الصوري وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سورية أيضاً(١٠).

واستخدمت كلمة سوري Syrian بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها، غير أنها تستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية العربية السورية فقط(١١). وكمصطلح ديني فان إسم سوري يشير إلى أتباع الكنيسة السورية القديمة أو السريانية بفئتيها السريان الكاثوليك Syrian Catholic والسريان الارثوذكس Syrian Orthodox(١٢).

أما كمصطلح لغوي فان كلمة سرياني Syriac وليس سوري Syrian هي التي تشير إلى الفئة التي تتكلم السريانية(١٣)، أما اللغة العربية فتستعمل اسم سوري للمفهوم العرقي والجغرافي، واسم سرياني للمفهوم اللغوي والديني.

وللغويين والجغرافيين في سبب تسميته شاماً آراء مختلفة(١٤)،

---

(٩) فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان ص ٦٢.

(١٠) المصدر السابق ص ٦٢ A History of Deeds Done Beyond the Sea, tr. Emily A. Babcock & A.C. Krey New York, 1943 Voli II P. 5.

(١١) M.E.Art., Syria, History.

(١٢) E.britannica, 15th. Edition Art., Syria, Religeous groups

(١٣) M.E. Art., Syriac.
Donner, F. Mc graw, The Early Islamic Conquests, Princeton New Jersey p. 94 (Syriac is a dialect of the Aramaic Language).
أما فيليب حتي فيرى أن اسم سوري Syrian يشير إلى الشعوب التي تتكلم السريانية (تاريخ سورية ولبنان ص ٦٣).

(١٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٢.

فقيل إنما سميت الشام شاماً لأن قوماً من كنعان نزلوها فتشاءموا إليها فسميت شاماً لذلك[١٥] . وقالت طائفة انما سميت شاماً لما تشاءم لها أهل اليمن من يمنهم كما يقال تيامنوا وتياسروا فسميت لذلك[١٦] ، وقيل سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض، فشبهت بالشامات، أو لأن أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والبياض والسواد فسمي شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الانسان شامة[١٧]، وقد تجمع الشام على شامات[١٨]، وتسمى بلاد الشام بذلك، كما أن اطلاق الشام على دمشق وارد أيضاً من باب اطلاق العام على الخاص، والعرب كثيراً ما كانوا يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها، فكانوا يقولون بلا فرق، دمشق أو الشام، الفسطاط أو مصر، شبام أو حضرموت[١٩] .

وكان أول جغرافيين أعطيا للديار الشامية وحدة جغرافية، الإصطخري (ت ٣٢١ هـ) ثم المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) إذ عنون الإصطخري الفصل الخاص بالشام بقوله «أرض الشام»، أما المقدسي فقد استعمل «اقليم الشام» قاصداً بذلك وحدة جغرافية، كما أن المقدسي هو أول من تكلم عن التكوين الطبيعي لإقليم الشام

---

(١٥) المصدر السابق ج٣ ص٣١٢، أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ ص/١٣/.

(١٦) نزهة الأنام، ص /١٣/.

(١٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق غازي طليمات، ط ١٩٨٠م ص /١٤٠/.

(١٨) خليفة بن خياط، تاريخ خليفه، ط ١٩٦٧ ص /١٥٧/.

(١٩) كرد علي، خطط الشام ج ١ ص/٤٨/.

فقال : ووضع هذا الاقليم ظريف ، هو أربعة صفوف ، فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل ، رحال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل ، والصف الثاني الجبل ، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع ويقع فيه من البلدان بيت جبريل وايلياء ونابلس واللجون وقدس والبقاع وأنطاكية ، والصف الثالث ، الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان أَيْلَه وتَبوك وصغر (زغر) وأريحا وبيسان وطبريه وبانياس ، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وحلب .

إن هذا الوصف الذي يقدمه المقدسي قريب من الوصف الذي يقدمه علماء الجغرافيا لتضاريس بلاد الشام التي تتألف من المناطق المتميزة التالية إذا ما اخترقنا سورية الطبيعية أو الشام من غربها إلى شرقها .

١ ـــ السهول الساحلية

السهول الساحلية الشامية هي بالاجمال ضيقة محدودة لانحصارها بين البحر والجبال الغربية ، ولكنها تتسع في جنوب حيفا فتشكل سهولاً زراعية رحبة ، وقرب الجبال منها يغذيها بالأتربة والمجروفات وبمياه الري ، لكن السيول الهابطة نحو الساحل تجف في الصيف فلا يستفاد منها حين الحاجة إليها ، وهي تفيض في الشتاء فتضر بالزرع ، ولا يمكن استخدامها في الزراعة إلا إذا شيدت لها خزّانات وأقنية .

وتمتاز السهول الساحلية بخصب تربتها ووفرة أمطارها ، لذلك فهي صالحة لزراعات متنوعة ، لكنها ليست من الاتساع بحيث تكفي سكانها بالمنتوجات الزراعية ، ولابد لها من التعامل الزراعي مع بلاد الداخل لتقيم التوازن في مواردها الغذائية[٢٠] .

وتبدأ السهول الساحلية في الشمال بسهل الإسكندرون الذي يمتد على أكثر من (٤٨٠٠) كم^2 ثم سهول اللاذقية وجبلة وبانياس ، وتمتاز هذه السهول بثرواتها الزراعية ، تأتي بعد ذلك سهول لبنان الساحلية ، وهي سهول ضيقة لاسيما بين طرابلس وبيروت ، فالجبال تقترب من البحر حتى لا تدع بينها وبينه سوى متسع صغير للزراعة[٢١] .

وتبدأ سهول فلسطين بسهل عَكَّار الذي يتصل به مرج ابن عامر الممتد نحو الداخل والمتميز بتربته السوداء الملائمة لزراعة الحبوب ، وعند جبل الكَرمِل يضيق السهل الساحلي حتى لا يبعد عن البحر أكثر من ١٨٠ م ، ويعرف السهل الواقع بين جبل الكرمل ويافا باسم سهل سارونه ، يليه نحو الجنوب سهل فلسطين العظيم ، وجميع هذه السهول مشهورة بخصبها لكنها قليلة المياه ، بسبب شح الأمطار ، وهي موطن الحمضيات المشهورة في العالم ، وسهل فلسطين يتصل عند غزة وبئر السبع بصحراء النَّقَب القاحلة وتزيد مساحتها عن نصف مساحة فلسطين ، وساحل فلسطين مستقيم

(٢٠) د . رجاء دويدري ، جغرافية سورية والوطن العربي ، دمشق ١٩٨١ ص ٣٩ .
(٢١) حسن سيد أحمد أبو العينين ، لبنان ، بيروت ١٩٦٨ ص ٩٨ .

رملي لا يلائم نشوء الموانىء، لذلك كانت أكثر المدن الفلسطينية داخل البر، وهذا هو الفارق بين فينيقيا القديمة وفلسطين، فالأولى تلائم الحياة البحرية والثانية توافق الفاعلية الزراعية، ومرفأ حيفا إنما نشأ بحمى جبل الكرمل، وساعد على نشوء مرفأ يافا عوامل ائتكالية بحرية[٢٢].

منطقة الجبال الغربية

هي منطقة ذات التواءات تتجه بصورة عامة من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، ولكن هذا الاتجاه يتبدّل حسب المواقع، وتتناول الصدوع هذه السلاسل الالتوائية في وسطها وعلى جوانبها وأعظمها شأناً صدع طولاني يكسرها في شرقها، فتبدو قممها الشاهقة على طرفها الأيمن، بينما طرفها البحري يهبط متدرجاً ويؤلف أحياناً هضاباً خفيفة التموج تخترقها مجازات عرضانية ضيقة وعميقة وهي في الغالب من عمل الائتكال النهري، وتتقارب رؤوس الأودية أحياناً فلا تترك بينها سوى ظهور أُومتون جبلية ضيقة كما هو الحال في لبنان[٢٣]. وقد أثرت وعورة هذه الجبال في مصيرها التاريخي، فكانت ملجأ أميناً للأقليات العرقية والطائفية[٢٤]؛ ولعلّ ما يعكس هذا الوضع وصف ياقوت الحموي لهذه المنطقة بقوله: «ان في هذا الجبل سبعين لساناً، لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلاّ بترجمان[٢٥]».

(٢٢) د. دويدري، المصدر السابق ص ٣٩ ــ ٤٠.

(٢٣) المصدر السابق ص ٤١.

(٢٤) حتي، تاريخ سورية ولبنان ص ٣٩.

(٢٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٥ ص ١١.

تبدأ منطقة الالتواءات الغربية في الشمال بجبال الأمانوس التي يقع في وسطها ممر بيلان (٦٨٤ م) يليها نحو الجنوب جبل الأقرع، ثم جبال الساحل السورية فجبال لبنان التي يصل علوها إلى (٣٠٨٨ م) في قمة القرنة السوداء، ثم ينزل الارتفاع في الوسط إلى (٢٦٢٨ م) في جبل صنين وإلى (١٩٥٠ م) في الجنوب في جبل الباروك، والممر الرئيسي الذي يخترق جبال لبنان هو ممر ظهر البيدر (١٥٠٠ م).

تلتحم جبال لبنان بعد مصب نهر الليطاني بجبال فلسطين، وأول جبال فلسطين في الشمال جبل الجليل (قمة جبل الجرمق ١٢٠٨ م) وجبل الكرمل الذي يشرف على مدينة حيفا، وبين مدينة جنين ومشارف القدس تقوم جبال نابلس أو السامرية ثم جبال القدس والخليل، ويعلو جبل الزيتون المشرف على القدس (٨١٥ م). وتنتهي جبال فلسطين جنوباً بمحدوبات صحراء النقب التي تتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بينما يكون اتجاه جبال فلسطين من الشمال إلى الجنوب[٢٦].

منطقة الوهدة الانهدامية

بين الجبال الساحلية والجبال الداخلية يمتد أخدود طولاني ضيق ناجم عن خسف عميق، وهو جزء من الانهدامات السورية الافريقية[٢٧]، وهذا الأخدود أو الغور لايتشابه في جميع أرجائه من

---

(٢٦) د. دويدري ــ المصدر السابق ص ٤٠ ــ ٤٢.

Gregory J.W.The Rıft Valleys of East Africa, London, 1971, PP. 337-380.

حيث البنية ، وشكل السطح ونوع التربة والمناخ ، بل ينقسم إلى مناطق متباينة تجتازها أودية متعاكسة في الاتجاه ، وهو في الغالب مقعر التوائي متصدع ، والصدوع الجانبية ليس لها علو واحد ، ففي فلسطين يهبط قعر الغور إلى (٣٩٢ م) تحت سطح البحر في قاع البحر الميت(٢٨) ، وعند بعلبك يرتفع حتى (١١٠٠ م) فوق سطح البحر ، وفي أمكنة عدة خرجت الحمم من الصدوع وسالت نحو قرارة الغور فخلقت فيه سدوداً طبيعية تجمعت وراءها المياه وشكلت بحيرات ، وقد جفّت بعض هذه البحيرات وتركت مكانها رسوبات صلصالية نجدها اليوم في سهل الغاب وسهل العمق ، تكسوها طبقة سطحية من الرسوبات النهرية الحديثة وهكذا نجد في الغور صخوراً صلصالية وكلسية وبركانية ولحقية ، والاختلاف في أجزاء الغور لايقتصر على الاتجاه والارتفاع ونوع الأرض ، بل يتعداه أيضاً إلى المناخ ، ففي الشمال تهطل أمطار كافية ، بينما الوديان الجنوبية حارة جافة(٢٩) .

تبدأ الوهدة شمالاً بمجرى نهر قره صو الذي يلتقي بمياه نهر العاصي في بحيرة العمق ، ثم يشغل الوهدة نهر العاصي فيؤلف سهل العمق ، فسهل الغاب ، ثم سهل البقاع ، ويفصل بين حوض الليطاني وحوض الأردن ، عتبة بركانية ، ثم ينبسط سهل الحولة الذي يرتفع (٧٠ م) يليه بحيرة طبرية التي تنخفض (٢٠٩ م) عن سطح

---

(٢٨) Quennel, A.M.The Structural and geomorphic Evolution of The Dead Sea Rift quart. jour. geol. Soo. ;vol. 114. 1959, P 7.

(٢٩) صلاح الدين بحيري ، حغرافية الأردن ، عمان ، ١٩٧٣ ص ٧٩ .

البحر ، وينتهي نهر الأردن بالبحر الميت الذي ينخفض سطحه عن البحر (٣٠٩ م) ، وفي جنوب البحر الميت يمتد وادي عربة مائلاً من الجنوب نحو الشمال ، ويستمر الغور الخسفي في خليج العقبة[٣٠] .

منطقة الجبال الشرقية

وهي تراصف الجبال الساحلية على الطرف الشرقي من الوهدة ، ولكنها على قربها منها تختلف عنها أشد الاختلاف ، فهذه جافة جرداء وتلك مروية مكسوة بالغابات ، وهذه متقطعة قليلة الانتظام ، وتلك مستمرة إلاّ حين تخترقها مجازات الأنهار ، والجبال الغربية أكثر علواً ، أما الشرقية فهي أكثر تفرعاً ، لأنها ترسل نحو الداخل مجموعة محدودبات تصل حتى نهر الفرات ودجلة وندعوها بالسلاسل التدمرية .

وأول جبال المنطقة الشرقية جبل الأكراد ، ويليه نحو الجنوب الشرقي جبل سمعان (٨٧٠ م) ثم جبل الزاوية (٩٣٩ م) فجبال لبنان الشرقية التي يصل ارتفاعها إلى (٢٦٢٩ م) وبعد مقعر الزبداني المنخسف نصل في الجنوب إلى جبل حرمون (٢٨١٤ م) الذي يشاهد في أفق مدينة دمشق وتكلل هامته الثلوج أشهراً من السنة ، لذلك يدعى أيضاً بجبل الشيخ .

يتفرّع من الجبال الشرقية محدودبات تشكل مجموعتين ، أولاهما تبدأ عند حمص (جبل بَلعاس) ، والثانية تتشعب عند دمشق

---

(٣٠) King, L.C. The Morphology of The Earth, Newyork 1962 PP. 293-295.

وتؤلف جبال وهضاب القلمون ؛ والمجموعتان تقتربان حول تدمر في البادية السورية حيث نجد جبل البشري (٨٦٠م) الممتد حتى الفرات ، ثم جبل عبد العزيز القائم في شمال الجزيرة الفراتية ثم جبل سِنجار في العراق .

وفي الجنوب من غوطة دمشق وجبل حرمون تقوم منطقة بركانية واسعة تشكل اقليماً متميزاً بين الجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية وتتألف من مخاريط بركانية (جبل العرب) يصل ارتفاعها إلى (١٨٠٣م) ومن هضاب وسهول مغطاة بِحرّات البازلت ، (الجولان وحوران) ومن فجوات بركانية وعرة (الصفا واللجاة) .

والتواءات المنطقة الجبلية الشرقية تتحول في بلاد الأردن إلى هضبة مرتفعة ، وأهم العوارض الطبيعية في هضبة الأردن جبال عجلون (١٢٠٠م) في الشمال وجبال البلقاء (١٠٩٧م) عند السلط وجبال مآب (٩٠٠م) وجبال الطفيلة (١٢٠٠م) ثم جبال الشراة (١٥٠٠م) الملتحمة بجبال السراة في شبه جزيرة العرب[٣١] .

منطقة الهضاب والبوادي والسهول الداخلية

ان منطقة واسعة من البوادي تمتد غرب العراق وشرق بلاد الشام ، وهي تتحول إلى شبه صحراء في منطقة الحماد ، وقد رأينا أن

(٣١) صلاح الدين بحيري ــ جغرافية الأردن ص ٩٣ .

سلسلة الالتواءات تجتاز بوادي الشام من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي بادئة من القلمون ومنتهية عند الفرات ودجلة أطلق عليها الجغرافيون اسم السلاسل التدمرية .

ولا تخلو البادية الشامية من نتوءات بركانية مبعثرة ، كما يتخللها شبكة من الأودية الجافة والسبخات ، مما يدل على أن المناخ كان قديماً أكثر أمطاراً والسيول أكثر انتشاراً وأغزر ماء . وحتى في صحراء الحماد نجد عدداً كبيراً من الأودية المتجهة نحو الفرات ، يتخذ منها البدو ممرات لنجعاتهم ، والمناطق المأهولة بشكل ثابت هي بعض الواحات ذات المياه الباطنية كتدمر مثلاً ، ويطلق البدو على هذه الواحات اسم المناظر ، وعندما يخترق هذه السهوب نهر أو ينبوع أو تتوافر فيها الأمطار تنقلب إلى سهول مزروعة ، كما هو الحال في غوطة دمشق وسهل حمص وسهول حلب وأطراف نهر الفرات وسهول الخابور في منطقة الجزيرة .

الباب الأول

الفصل الأول

العناصر السكانية في الشام قبل الفتح وموقفها منه

العرب وتوزعهم

تتميز الشام بكثرة القبائل التي كانت قاطنة فيها أثناء الفتح والتي ترد أسماؤها في مصادرنا العربية ، إلا أن هنالك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة لأنه لم يكن لعلماء الأنساب علم بها ، ذكرت في التوراة وكتب اليهود الأخرى وفي المصادر اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية ؛ وإذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات الكتبة الكلاسيكيين على اعتبار أنهاأخطأت في إدخالها في جماعة العرب ، فان هذا الجواز يسقط حتماً بالنسبة إلى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية وبالنسبة إلى القبائل التي دونت تلك الكتابات ، فهي كتابات عربية وان اختلفت عن عربيتنا ، وباينت لهجتها لهجتنا .

سُئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا[1] » . ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مخالف للساننا ، بل عدوهم من صميم العرب ، وقد ألقت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ، فالنصوص

(١) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، ليدن ، ١٩١٣ ، طبعة أوفست بيروت ، دار النهضة ص /٤/.

الكثيرة المنقوشة على صخور البازلت في المنطقة التي يطلق عليها اسم الصفا في الجنوب الشرقي من دمشق تشير إلى أن السكان الذين نقشوا تلك النصوص في القرون الميلادية الأولى هم من أصل عربي ، فلغتهم لهجة عربية وكتابتهم تمت إلى الكتابات التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية ، وأهمية هذا الاكتشاف هو أن علماء الآثار قد تعرّفوا على عرب الصفا قبل أن يمتزجوا بغيرهم امتزاجاً تاماً ، فتعرّفوا بواسطة هذه النقوش على كتاباتهم وآلهتهم وعاداتهم[٢] ، كما أن الرأي السائد اليوم بين العلماء أن الأنباط عرب مثل سائر العرب وان استعملوا الآرامية في كتاباتهم ، ولم يذكرهم الاخباريون ، بدليل أن أسماءهم أسماء عربية خالصة ، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز مثل ذي الشرى واللات والعزّى ، وأنهم رصعّوا كتاباتهم الآرامية بكثير من الألفاظ العربية ، وبدليل إطلاق اليونان واللاتين والمؤرخ اليهودي (يوسفوس) كلمة العرب على الأنباط واطلاق اسم العربية الصخرية Arabia Petraea على أرضهم ، ولو لم يكن الأنباط عرباً لما أطلق الكلاسيكيون اسم العرب عليهم ، وما كانوا ليدخلوا بلادهم ضمن العربية ويجعلونها جزءاً من أجزائها الثلاثة[٣] . أما استخدام الأنباط للآرامية في كتاباتهم فيعود إلى أن الآرامية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى ، وصارت لغة الكتابة والتدوين والتجارة في هذه المنطقة قبل الميلاد وبعده بقرون ، تغلّبت على العبرانية مثلاً وزاحمتها حتى فضلّت عليها عند المتكلمين بها من الخاصة والسواد إلى نهاية القرن السابع بعد الميلاد[٤] ، فلا عجب أن يدون الأنباط وغيرهم من العرب بالآرامية ، لغة الفكر والثقافة والتجارة ، وأن يتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان . وقد كان الأعاجم في الاسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ويدونون باللسان العربي ، لسان القرآن والعلم والفكر . وما ذكرناه عن الأنباط ينطبق على سكان تدمر ، فقد أخذ العنصر العربي بالمعنى الأصلي للكلمة يتغلب عليها تدريجياً اعتباراً من مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، حتى أصبح هذا العنصر حوالي العهد السلوقي هو النواة

---

(٢) رينيه دوسو ، العرب في سورية قبل الإسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص /١/.

(٣) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م ج ٣ ص /٩/.

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ص /١٠/.

الثابتة في تدمر والغالبة عليها ، وتلك نتيجة توصل إليها الباحثون ، ونوه بها البعض تنويها وأكدها البعض الآخر تأكيداً جازماً[٥] ، كما أكدتها أحدث دراسة في أسماء الأعلام التدمرية[٦] ، وكانت القبائل العربية في بادية الشام ترفد مدينة تدمر بصورة خاصة نظراً لكونها أكبر مركز في تلك الأرجاء ، ولاقتصادها التجاري القافلي الذي يحتاج للرجال والخيل والجمال وتوطيد العلاقات البدوية الحضرية على أساس المصلحة المشتركة ، وأقدم الكتابات التدمرية حافلة بالأسماء العربية الصريحة سواء بالنسبة للأشخاص أو القبائل[٧] .

بالإضافة إلى الأنباط والسكان العرب في تدمر ، فان مدينة حمص كانت تحت سلطان أسرة عربية قبل وصول بومبي إلى سورية والدليل على عروبتها ، أن أمراءها يحملون أسماء ذات طابع عربي خالص شبيهة بتلك التي عثر عليها العلماء في نصوص صفوية[٨] . وحكمت أسر لها نفس الأسماء العربية بلدة الرها ، كما أن الايتوريين ، وهم من أصل عربي[٩] ، كانوا يسيطرون على مملكة تقع في لبنان الداخلي عاصمتها خلكيس Chalcis عنجر في البقاع ، ومن هناك إمتد سلطانهم في لبنان حتى الشاطيء الفينيقي ،

---

(٥) Cock. G.A.A Text Book of North Semetic Inscriptions, Oxford, 1903, P.264. The bulk of the Population of Palmyra Was of Arab race. Hence many of the Proper names are Arabic and Several Arabic Words Occur.

(٦) Stark, J.K., Personal names in Palmyrene Inscriptions, Oxford, 1971, P.20. Astatistical Survey of the names given in the main list Would show that more than half of them can be best explained through Arabic, or can have a Possible Arabic etymology, When one further Considers that names like HYRN, MGYMW, MLKW Which Lexically require an Arabic explanation are attested With far greater frequency than other names, the balance Weighs even more in favour of Arabic.

(٧) عدنان البني ، تدمر والتدمريون ، رسالة دكتوراة منسوخة ، دمشق ١٩٧٧ ، ص ٩٢ .

(٨) دوسو ، العرب في سورية قبل الإسلام ، ص /١١/.

Donner, The Early Islamic Conquest, Princeton, New Jersey, P.95

(٩) Jones, V., Journal of Roman Studies, 1931 P. 257.

وكانوا يقلقون جبيل Byblos وبيروت Beryte إلى أن تدخل بومبي ليضع حداً لتعسفاتهم(١٠).

ثم ان الدراسات التي قام بها رينان تبين أن أسماء الأعلام العربية التي تقدمها النصوص التي اكتشفت في حوران لها ما يماثلها في دمشق وحمص وتدمر(١١)، كما يشير رينان إلى ذلك الضبط التام الذي كتبت به الأسماء العربية في النقوش مما يثير انتباه الفقيه اللغوي، فقد روعيت فيها أدق خصائص اللغة العربية، والتوافق الموجود بين خصائص العربية قبل الاسلام والعربية التي يتحدث بها اليوم هو توافق يدعو إلى العجب حقاً(١٢). ويضيف دوسو أن آلاف النصوص التي ظهرت منذ ذاك الوقت حتى الآن في شرقي سورية، سواء أكانت نصوصاً أغريقية أم نبطية أم صفوية، إلى جانب نصوص ثلاثة عربية قبل الاسلام أكّدت صدق آراء رينان التي استوحاها من دراسته لاثني عشر نصاً إغريقيا قد كتبت كتابة ناقصة، وكان رينان قد نشر آراءه في مذكرة عنوانها «في بعض أسماء عربية موجودة بنقوش إغريقية في حوران(١٣)». هذا وان اكتشاف نقش بيزنطي رسمي مكتوب باللغات الثلاث، الاغريقية والسريانية والعربية، بالقرب من حرّان وعائد إلى النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، يكشف أن المتكلمين باللغة العربية كانوا يشكلون نسبة لا يستهان بها، وإلا لما كتب النص بالعربية بالإضافة إلى اليونانية لغة الإدارة والحكم، والسريانية وهي اللغة التي كان يتكلم بها القسم الأكبر من السكان في سورية(١٤).

ومن سوء الحظ أن المصادر العربية لا تقدم سوى معلومات شديدة الغموض فيما يتعلق بهجرة العناصر العربية إلى الشام والآثار التي تركتها، ولولا التأييد الذى حصل عليه العلماء، من النقوش الكتابية ومن مؤلفات معاصرة، لأضحت هذه المعلومات عديمة الجدوى.

---

(١٠) دوسو، المصدر السابق ص ١٤. Donner, Op. Cit. P.95

(١١) المصدر السابق، ص ١٤.

(١٢) المصدر السابق، ص ١٥.

(١٣) المصدر السابق، ص ١٥.

(١٤) Donner, Op. Cit P.95.

يشير اليعقوبي أن قضاعه كانت أول من قدم الشام، وكان أول من قدمها من قضاعه تنوخ، فملكهم الروم على من ببلاد الشام من العرب، ثم غلبت بنوسليح[١٥].

أما الطبري، فيذكر بأن كثيراً من تنوخ الذين كانوا قد توجهوا مع مالك وعمر ابني فهم ومالك بن زُهير لحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاعة، بعد أن ضبط أردشير بن بابك أول ملوك الساسانيين العراق لأنهم كرهوا أن يقيموا في مملكته[١٦]، أي أن هذه الهجرة نحو الشام كانت حوالي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي لأن أردشير بن بابك هو مؤسس السلالة الساسانية التي يبدأ حكمها سنة ٢٢٥ م. أما الهجرة الأولى من قبائل تنوخ[١٧]سواء نحو العراق أو الشام فربما كانت في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي.

ونستنتج مما يرد عند الطبري واليعقوبي والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم أن تنوخ التي استقرّت في الشام كانت من قبائل قضاعة، وأن بني سَليح غلبت عليهم وتنصرّت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام، وبنو سليح هم عرب نسبهم النسابون إلى سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف من قضاعة[١٨]، ثم صارت غسان إلى الشام فقدموا أرض البلقاء وسألوا سليحا أن يدخلوا معهم فيما دخلوا فيه من طاعة ملك الروم، فكتب سليح إلى ملك الروم وكان منزله بأنطاكية فأجابهم إلى ذلك وشرط عليهم

---

(١٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م، ح ١ ص ٢٠١.

(١٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف ـــ الطبعة الثانية ج ٢ ص ٤٢.

(١٧) تنوخ: حي مى اليمن اختلف النسابون فيه، فقال ابن خلدون بأنهم من بني أسد بن وبره بن تغلب بن حلوان بن مرو بن الحافي بن قضاعة، وقال الزبيدي تنوخ قبائل اجتمعت وتألفت منهم بنوفهم، وقال الزمخشري، تنوخ قبائل تحالفت فتنخت في مواضعها، وقال النويري: تنوخ وهو مالك بن زهير بن عمرو ابى فهم بن تيم الله بن أسد، وقال ابن عبد ربه وأبو الفداء، تنوخ من قبائل قضاعة، وقال ابن سعيد: ومن الناس من يطلق تنوح على الضجاعمة ودوس الذين تنخّوا بالبحرين، ويذكر الطبري أن تنوخ تضم قبائل عدة من العرب تحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التوازر والتناصر، فصاروا يداً على الناس، وضمهم اسم تنوخ. الطبري ج ١ ص ٦١٠، عمر رضا كحاله، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، ج ١ ص ١٣٣، ١٣٤.

(١٨) ابن عبد البر، الأنباه على قبائل الرواه، القاهرة، ١٣٥٠ هـ ص ١٢٣؛ المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، الطبعة الثانية، بيروت ١٣٩٣ هـ عام ١٩٧٣ م ج ٢ ـــ ص ٨٣.

شروطاً[١٩]، أما ابن عبد ربه فيذكر أن سليح هو عمرو بن حلوان بن عمران، بينما الضجاعمة هم من بني سعد بن سليح، وأن الضجاعمة هم الذين كانوا ملوك الشام قبل غسّان[٢٠] ويبدو مما يذكره المستشرق نولدكه أن الضجاعمة كانوا عمّالاً للروم على عرب مشارف الشام وأن جدّهم ضجعم عاش في أواخر القرن الرابع للميلاد وأخذ من الروم لقب فيلارك Phylarch[٢١]، وأنه تنصّر وتنصّر معه عدد كبير من أتباعه، ولم يتغلب الغساسنة على الضجاعمة بسهولة ويسر، على أن هذا النصر الذي أحرزه الغساسنة على بني سليح لم يؤد إلى زوالهم، أوزوال الضجاعمة نهائياً أو هجرهم للمنطقة، إذ يرد ذكر بني سليح بن حلوان في حاضر قنسرين[٢٢] كما كان الضجاعمة من القبائل العربية المعروفة عند ظهور الاسلام، فقد وقفوا مع سكان دومة الجندل في عنادهم ومقاومتهم لخالد بن الوليد وكان رئيسهم إذ ذاك ابن الحَدْرَجان[٢٣]، كما زار الشاعر النابغة الذبياني أحدهم ببصرى وذكر ذلك في إحدى قصائده:

لعمري، لنعم المرء من آل ضَجْعَم
نزور ببصرى أو ببرقة هارب[٢٤]

أما الغساسنة فهم باجماع النسابين من الأزد، أزد اليمن، التي افترقت فيما ذكره ابن عبد ربه وغيره من علماء النسب على نحو من سبع وعشرين قبيلة منهم الأنصار — الأوس والخزرج، وكل الأوس والخزرج غسّاني إلا ما كان منهم بِعُمان[٢٥]. وقد شذ عن الخزرج قبيل من قبائلها كانت دارهم الشام فهم غسّانيون، وليسوا في الأنصار، إلا رجلين كانا بالمدينة فأسلما ونصرا مع قومهما من الأنصار، وهما أبو الدرداء، وعدى

(١٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ١ ص ٢٠٧، المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ — ص ٨٣.
(٢٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، القاهرة، ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢م ج ٣ — ص ٣٧٣.
(٢١) نولدكه، أمراء غسان، ص ٦.
(٢٢) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص ١٥٠.
(٢٣) الطبري، ج ٣ ص ٣٧٨.
(٢٤) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار بيروت صادر، ص ٢٥.
(٢٥) ابن عبد البر، الانباه على قبائل الرواه، ص ١٠٦.

بن كعب من الخزرج[٢٦]. ويذكر ابن حزم أن الغساسنة بطون شتى من الأزد، ومن بطون غسّان التي سكنت الشام أولاد جَفْنة بن عمرو مُزيقياء[٢٧] وكانت ديار ملوك غسّان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام[٢٨]، ويستفاد مما يذكره الشعراء أن مركز الجفنيين الأهم كان الجولان الذي كان يقع في ولاية فلسطين الثانية[٢٩]، كما يذكر هؤلاء الشعراء أن الغساسنة كانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجِلّق[٣٠]، يقول حسّان بن ثابت:

للـــــه درّ عصابـــــة نادمتهم
يومـــا بجِلّـــق في الزمـــان الأول
يسقـــون من ورد البريص[٣١] عليهم
بردى يصفـــق بالرحيـــق السلسل

كما يذكر في قصيدة أخرى:

أنظـر خلـيلي ببطـن جلّـق هل
تؤنس دون البلقـــاء من أحـــد[٣٢]

---

(٢٦) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٢٧) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٥١؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٨٣.

(٢٨) المسعودي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٣.

(٢٩) فلسطين الثانية Palestina Secunde كان مركزها بيسان ومدنها الرئيسية جدرة وطبرية.
Le Strange, Palestine and the Muslims, 1890, P. 26.
نولدكه ـــ أمراء غسان، ص ٥.

(٣٠) يرى ياقوت الحموي أن جلق هو اسم لكورة الغوطة كلها ويضيف وقيل جلّق موضع لقرية من قرى دمشق، معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٥.

(٣١) يستنتج ياقوت الحموي من قصيدة حسان المذكورة ومن قصيدة وعله الجرمي «ولا سرطان أنهار البريص» على أن البريص اسم الغوطة بأجمعها، فيقول: «ألا تراه نسب الأنهار إلى البريص، وكذلك حسان فانه يقول: يسقون ماء بردى من ورد البريص». معجم البلدان ج ١ ص ٤٠١، محمد كرد علي، غوطة دمشق، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق، الطبعة الثانية ص ١١.

(٣٢) حسان بن ثابت ـــ الديوان، تحقق وليد عرفات، دار صادر، بيروت ١٩٧٤م ج ١ ص ٢٧٩.

وذكر حسّان مواضع عديدة تقع في ملك غسان من جنوبي الجولان إلى أطراف دمشق[٣٣] ولم تكن سلطة الأمير الجفني تقف عند حدود ولاية ما، بل كانت تتجاوزها وتمتد على كل القبائل الرحل، أو شبه الرحل التي كانت دائماً أو في أوقات معلومة في فلسطين الثانية، والولاية العربية وفينيقية لبنان، وربما أيضاً في ولاية سورية الشمالية، أما في البيداء فان ملكه كان يمتد إلى الحد الذي كان العرب يخشون فيه بأسه وسلاحه، أي إلى ما وراء سلسلة القلاع الأخيرة التي تعين حدود امبراطورية الروم[٣٤]، وبالرغم من المنطقة الواسعة التي كان يمتد إليها النفوذ الغسّاني، فإننا لا نرى كما يقول نولدكه إشارة إلى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أياً من الأماكن الحصينة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش، كدمشق، وبصرى أو تدمر التي حصنها جوستينان[٣٥].

ويبدو أن دخول الفرس لبلاد الشام سنة ٦١٣ ــ ٦١٤م ضعضع ملك بني جفنه ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر إلى داخل الصحراء، ومن الطبيعي أن لا يترك الفرس في الشام عمال الروم من العرب، وكانوا قد ذاقوا منهم الامرّين، ويؤيد هذا الافتراض ما يذكره حسّان من تهدم ملك بني غسّان وكيف أن بطريق الفرس (وكان لقب بطريق قد أصبح شائعاً بين أهل تلك البلاد) قد سطا على ملك بني غسّان وتربّع في عقر دارهم وأباح رعاية الإبل فيها حتى جبل الحارث في الجولان[٣٦]. أما

(٣٣) المصدر السابق ص ٧٤، ٢٥٥، ٢٧٩،

القصيدة رقم ١٣ ــ

أسألت رسم الـــــدار أم لم تسألِ ... بين الجوالي فالبضيـــ ـم فحومـــل

والمرج مرج الصُّفَّريــــن فجـــاسم ... فديـــار سلمـــى (٥٦) تحلّـــلِ

القصيدة رقم ١٢٣ ــ

لمن الـــدار أوحشت بمعـــان ... بين أعلى اليرمـــوك فالخمّـــان

فالقريّـــات من بلاس فداريـــا ... فسكـــاء فالـــقصور الـــدواني

فقفـــا جاسم فأوديـــة الصفـــر ... مغنـــى قنابـــل وهجـــان

القصيدة رقم ١٣٦ ــ

من دون بصرى وخلفهـــا جبـــل التلـــج عليـــه السحـــاب كالقـــدد

(٣٤) نولدكه، امراء غسان، ص ٥١، النابغة الذبياني، الديوان، ص ٤٣، ٥٥.

(٣٥) نولدكه، المصدر السابق، ص ٥١، نقلاً عن ملالا ١٥٢/٢، تيوفانس ص ٢٦٧.

(٣٦) حسان بن ثابت، الديوان، ص ١٩٤، قصيدة رقم ــ ٨٤ ــ

قصيدته التي أنشدها على ما يبدو قبل هجرة النبي (صلعم) بزمن قليل، فتدل على أن منطقة نفوذهم كانت تمتد من جبل الشيخ إلى أيله[٣٧]، وفي فترة الفتوح، تذكر المصادر العربية وجود قبائل غسّان في مؤتبه[٣٨]، وفي مرج راهط[٣٩]، ومرج الصُفّر[٤٠]، والثَنِيَّه[٤١]، ومرج عذرا[٤٢]، ومعظم هذه المناطق قريبة من دمشق.

بالإضافة إلى قبائل غسّان ترد أسماء قبائل كلب في بادية الشام في قراقر وسِوى مع قوم من بهراء[٤٣] وكانت مساكن كلب السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة أحد، ويحدد الهمداني مناطق سكناها من حوران في ديار كلب عن يمينك في السماوة ثم في الدهناء إلى أن ترى نخل الفرات ولا يخالط كلباً سواها[٤٤]، أما ديار عاملة فمجاورة للأردن، وجبل عاملة مشرف على عكا وإلى الغرب من حمص تقع أرض بهراء[٤٥]، ويطلق الاخباريون لفظ عرب الضاحية أو المستعربة عندما يذكرون القبائل العربية في الشام أثناء الفتح، ففي رواية السَّرى عن شُعيب عن سيف: «أن أبا بكر أمر خالد بن سعيد أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه.... فأقام

أبـاح لها بطريـق فارس ،ائطـا	له من ذرى الجولان بقـل وزاهـر
تربّـع في غسّان أكفـاف محبـل	إلى الحارث الجولان فالنـي ظاهـر

(٣٧) المصدر السابق ص ٣٠٨ ـ قصيدة رقم ـ ١٨٣ ـ

من يغـر الدهـر أو يأمنـه	من قبيـل بعـد عمـرو وحجـر
ملكـا من جبـل الثلـج إلى	جانبـي أيلـة من عبـد وحـر
أتيـا فارس في دارهـم	فتناهـوا بعـد إعصام بقـر
ثم صاحـا يا آل غسان اصبروا	انـه يوم مصالـيت صبر

(٣٨) الواقدي، المغازي، ج ١ ص ٤٠١.

(٣٩) البلاذري، فتوح، ص ١١٩؛ الطبري، ج ٣ ص ٤٠٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٣٥، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٤٠٩؛ ابن حبيش، الفتوح، مخطوطة، ص ١٣٧.

(٤٠) الطبري ج ٣ ص ٤١٠.

(٤١) الأغاني، ج ١٥ ص ١٦٤.

(٤٢) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٣٩.

(٤٣) البلادري، فتوح، ص ١١٨؛ وقراقر، واد لكلب بالسماوة، وسوى، ماء لبهراء من ناحية السماوة. مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ص ٥.

(٤٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الاكوع الحوالي، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ص ٢٧٢، وص ٢٧٤.

(٤٥) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

فاجتمع إليه جموع كثيرة ، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث .... فنفر إليهم من بهراء وكلب وسليح ، وتنوخ ، ولخم وجذام وغسّان[٤٦] .

أما في أحداث سنة ١٤ هـ فيذكر الطبري نقلاً عن ابن اسحاق ، أن هرقل سار في الروم حتى نزل أنطاكية ، ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة[٤٧]، ثم يضيف ثانية ، ومعه من المستعربة من غسّان وتلك القبائل من قضاعة ، وعندما يطلق الاخباريون لفظ العرب المستعربة فهم لا يقصدون نسبها ، لأن من بينها من هو من أصل قحطاني ، على حسب مذهب أهل الانساب في نسب القبائل ، وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت في الشام وأطرافها وخاصة ، تلك التي دانت بالنصرانية وتأثرت بالثقافة الآرامية وبلهجتها ، وذلك لظهور هذا الأثر فيها وعلى لهجتها خاصة ، مما حدا بعلماء اللغة أن يتحرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة[٤٨] . وقد فضلت غالبية القبائل العربية المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي ، عرفت عندهم بالحاضر ، فكان في أكثر مدن الشام مثل حلب ، ودمشق ، وقنسرين وحمص حاضر يقيم فيه العرب ، فكان حاضر قنسرين لتنوخ ومنهم بنوسليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[٤٩] ، كذلك كان يسكن في طرف قنسرين قبائل طيء ، ويطلق على منطقة سكناهم بحاضر طيء نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم واستدعت تفرّقهم[٥٠] وكان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم[٥١] . ويذكر ابن حزم « أن قبيلة جديله من ولد فطرة بن طيء وتيم الله وحبيش والأسعد جلوا كلهم عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بكلب وحاضر طيء[٥٢] »

(٤٦) الطبري ، ج ٣ ص ٣٨٩ ؛ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٠٢ ؛ تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧) الطبري ، ج ٣ ص ٥٧٠ ، البلاذري ، فتوح ص ١٤٠ .

(٤٨) جواد علي ، المفصل في التاريخ ، ج ٦ ص ٢١٦ .

(٤٩) البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٠ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٥١) المصدر السابق ، ١٥١ .

(٥٢) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٧٥ .

بالإضافة إلى هذه المناطق وجد العرب في بعلبك(٥٣)، وفي قيسارية(٥٤)، ويبدو أن منطقة فلسطين كانت آهلة بالقبائل العربية إذ يذكر ابن الأعثم اجتماع الروم في أجنادَين وأن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوهم بالمساعدة(٥٥)، كما يطلق الطبري على أرض فلسطين أرض قضاعة(٥٦). إلى جانب العرب وجد الفرس في بَعلبك(٥٧)، وحمص وأنطاكية(٥٨)، والسامرة واليهود في قيسارية(٥٩)، والأردن وفلسطين(٦٠)، واليهود في حمص ومدن أخرى(٦١)، والجراجمة في جبل اللُّكام(٦٢)، والروم ومرتزقتهم في مدن الساحل(٦٣)، وفي المدن الداخلية كايلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر(٦٤)، وحلب، يضاف إلى هؤلاء تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النبط(٦٥)، ويستنتج من الروايات الواردة في لسان العرب كثرة النبط في العراق والشام في منطقة الأرياف والمدائن(٦٦)، كما أن النصوص المبعثرة في المصادر تحوي قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة وكلها تدل على أن المقصود بالنبط طريقة الحياة وليس النسب،

---

(٥٣) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦.
(٥٤) المصدر السابق، ص ١٤٧.
(٥٥) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٤٣.
(٥٦) الطبري، ج ٣ ص ٤٠٨.
(٥٧) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، ١٣٦.
(٥٨) المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٥٩) المصدر السابق، ص ١٤٧.
(٦٠) المصدرالسابق، ص ١٤٧.
(٦١) المصدر السابق، ص ١٤٣.
(٦٢) المصدر السابق، ص ١٦٣.
(٦٣) المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٦٤) ابن الأعثم فتوح، ج ١ ص ١٤٠.
(٦٥) المصدر السابق، ج ١ ص ١٧٤، ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ١٨٧.
(٦٦) ابن منظور، لسان العرب، مادة نبط، ورد في لسان العرب أنهم انماسموا أنباطا لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين، وفي حديث عمر رضي الله عنه، «تمعددوا ولا تنبطوا» أي تشبهوا بالنبط، وفي الحديث الآخر: لا تتنبطوا في المدائن أي لا تشبهوا بالنبط في سكناها واتخاذها العقار، ومنه حديث عمرو بن معد يكرب، سأل عمر عن سعد بن أبي وقاص، فقال: أعرابي في حبوته، نبطي في جبوته، أراد أنه في جباية الخراج وعمارة الأرضين كالنبط حذقاً.

أما المسعودي، فيشير إلى أن النبط هم السريان الذين يسكنون العراق والجزيرة والشام[٦٧]، ويبدو أن الدكتور جواد علي قد أخذ برأي المسعودي، ولكنه جعله أكثر شمولاً فهو يعتبرهم بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق ومترسبات الآراميين في هاتين المنطقتين وذلك قبيل الإسلام وفي الإسلام[٦٨]، وكان النبط يتكلمون بلهجات عربية ولكن برطانة أعجمية، وبلكنة غريبة ظاهرة، وقد ضرب المثل في رطانة كلام النبط بالعربية وقبحه «وقد قبح الكلام وصار على كلام النبط[٦٩]».

هذه هي العناصر السكانية التي وجدت في الشام إبان الفتوح، إلا أنه من الصعب أن نتبين نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض، فالروايات لا تذكر عدد السكان إلا عرضاً، كما أنها لا تذكر سوى المقاتلة أحياناً مع اختلاف كبير في الأرقام بين رواية وأخرى، ففي الحديث عن فتح قيسارية مثلاً نجد أن عدد السامرة ثلاثون ألفاً حسب رواية البلاذري، وثمانون ألفاً عند ابن عساكر وياقوت الحموي، أما عدد اليهود فهو عند البلاذري وابن عساكر مائتا ألف وعند ياقوت مائة ألف، وعدد مقاتلة الروم حسب رواية هشام بن عمّار أثناء محاصرة معاوية لها كان (٧٠٠) ألف من المرتزقة وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف[٧٠]، أما ابن عساكر وياقوت فيشيران إلى أن مقاتلة الروم فيها كانوا مائة ألف[٧١]. ونجد نفس هذا الاختلاف عند ذكر المقاتلة من المستعربة العرب، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء بمائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب المستعربة[٧٢]، ويذكر ابن الاعثم أن جبلة بن الايهم الغساني نزل الغوطة من أرض دمشق في أربعين ألفاً من العرب المتنصرة بالخيل والعدد والسلاح[٧٣]، أما ابن اسحاق فيشير أن عدد المستعربة

---

(٦٧) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ١٥١.

(٦٨) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٣ ص ١١.

(٦٩) الأغاني، ج ٥ ص ١٦.

(٧٠) البلاذري، فتوح، ص ١٤٧.

(٧١) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤ ص ٣٩٩، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة قيسارية.

(٧٢) الطبري، ج ٣ ص ٣٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٩٤، ٩٨.

(٧٣) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٢٥.

من غسّان وتلك القبائل من قضاعة التي كان يقودها جبلة بن الأيهم الغسّاني في معركة اليرموك، كان عددهم اثنى عشر ألفاً[٧٤]. إن هذه الروايات بالرغم من اختلافها تظهر بأن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة، لاسيما بعد أن جلا قسم كبير من أهل المدن الساحلية كصيدا وعَرَقه، وجبيل، وبيروت[٧٥]، وجبلة[٧٦]، كما نفهم من روايات أخرى جلاء سكان المدن الداخلية، ففي دمشق مثلاً يذكر الواقدي أن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية[٧٧]، كما جلا قسم من أهل حمص عنها[٧٨].

إن القبائل التي كانت قاطنة في الشام في الفترة السابقة للفتح كانت إما قضاعية أو قحطانية، وكانت النصرانية منتشرة فيهم وأكثر وضوحاً وأوسع انتشاراً منها بين عرب العراق، فأمراء الغساسنة عند ظهور الإسلام وسادات القبائل النازلة في مناطق حكم الروم ونفوذهم كانوا على هذه الديانة[٧٩]، وإن كانوا على مذهب يخالف مذهب البيزنطيين، فالنصرانية وجدت المساعدة الرسمية من الروم في بلاد الشام، وكان لدخول الرؤساء فيها أهمية كبيرة في انتشارها، لأن ذلك يؤدي إلى حصولها على الحماية الرسمية، وعلى انتشارها في قبيلة الرئيس محاكاة وتقليداً لعمله[٨٠]، ونظراً لاعتناق سكان الشام عامة للمذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الالهية الواحدة للمسيح، هذا المذهب الذي اعتبر هرطقة بموجب قرارات المجمع الكنسي الذي انعقد في خلقدونية سنة ٤٥١ م فان كثرة كثيرة من المؤرخين يرون أن انتشار العرب في هذه المنطقة واضطهاد سكان الشام من قبل البيزنطيين دينيا كانا من أكبر العوامل التي مهّدت للفتح العربي طريقه وأعانت عليه[٨١]، وليس منهم من يذكر هذه العلاقة بين عرب

(٧٤) الطبري، ج ٣ ص ٥٧٠.
(٧٥) البلاذري، فتوح، ص١٣٣، ابن الأثير، ج ٢ ص٤٣٣.
(٧٦) ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٩٢.
(٧٧) البلاذري، فتوح ص ١٢٨.
(٧٨) المصدر السابق، ص ١٣٧.
(٧٩) ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٥٧.
(٨٠) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، القسم الديني، ص ٢١٣.
(٨١) د. ابراهيم العدوي، الامبراطورية البيزنطية، والدولة الإسلامية، ١٣٧٠ هـ/١٩٥٣ م وقد اعتمد في ذلك

الجزيرة وعرب الضاحية الا ويشير إلى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق النصر ، حتى أن فيليب حتي يرى أن الفتح كان حركة قومية وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الاسلامي[٨٢] .

لا نستطيع في الواقع أن نطلق القول في هذه القضية منكرين له أو مؤمنين ، إلا بعد أن نتتبع موقف العرب النصارى من حركة التحرير والفتح التي امتدت (إذا مانحينا مؤته وتبوك وبعث أسامة) بين ١٣ هـ/ ٦٣٤م وهي السنة التي التقت فيها الجيوش الإسلامية بالروم في داثن[٨٣] ، ووادي عربة وبين سنة ١٩ هـ، ٢٠ هـ/ ٦٤٠م السنة التي استسلمت فيها قيسارية ، وفي خلال هذه السنوات استطاعت الجيوش الإسلامية أن تركز أقدامها في معارك قاسية ، أما بعد ذلك فقد كانت المقاومة يسيرة ليس فيها كبير جهد ، ولم تتخذ حركات الجيوش الإسلامية في الواقع شكل المعارك الكبرى ، إلا بعد أن جاء خالد بن الوليد من العراق ممداً لأهل الشام ، ومع إمداد خالد تبدأ مرحلة جديدة في تطور الفتح العربي ، وتتمثل هذه المرحلة في مظاهر ثلاثة : توحيد جيوش المسلمين ، توحيد القيادة تحت امرة خالد ، تغيير نظام التعبئة ، ويبدو من تتبع الفتوح أن فتح دمشق وهزيمة اليرموك كان يشبه إسلام زمام بلاد الشام والجزيرة إلى المسلمين ، لأنه مكن لهم أن يسيطروا على هذه المنطقة المتوسطة من الشام والتي تحمي ظهورهم

على ما ورد في كتابي بيوري Bury وميور Bury, A History of The Later Roman Empire II, (Muir) P.269.

Sir William Muir, The Caliphate, Its rise, Decline and Fall. P.140.

كذلك نجد فازيليف Vasiliev يشير إلى أن الانتصارات العسكرية الرائعة التي حققها العرب ، تعود إلى ذلك التذمر الديني لدى سكان سورية ، وأن الإسلام كان متأثراً بالمذهبين النسطوري واليعقوبي وأن علماء اللاهوت البيزنطيين نظروا إلى الإسلام على أساس أنه مذهب من المذاهب المسيحية المنشقة ، ولذلك فان شعوب المنطقة دعمتهم ، ويؤكد البروفسور غريغوار Gregoire على الصلة بين الإسلام والمونوفيزية Monophysitism «وأن يوتيخوس Eutyches أحد مؤسسي المذهب المونوفيزي هو الذي أوجد محمداً» .

Vasiliev, Byzantium and Islam in Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization ed. Norman H.Baynes and H.St. B.Moss XI P.309.

(٨٢) حتي ، تاريخ العرب مطول ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٨٣) البلاذري ، فتوح ص ١١٧ .

بالبادية، ثم أن يتابعوا هجماتهم في الشمال وفي الجنوب، أما في الجنوب فانتهى بهم الأمر إلى الاستيلاء على بيت المقدس، بعد ثلاث سنوات من فتح دمشق سنة ١٧ هـ/٦٣٨م وإلى الاستيلاء على قيسارية وهي المدينة الساحلية التي أتاح لها مركزها الساحلي أن تتلقى المدد والعون من الروم بحراً، ولكنها استسلمت في ولاية معاوية لجندي دمشق والأردن، أما في الشمال، فقد توالت الفتوح بعد حمص، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تدخل حلب وأنطاكية حصن المسيحية الحصين في هذه المنطقة الشرقية، ثم توجهت بعد ذلك إلى الشرق نحو مدن الجزيرة، فصالحها أهل الرها ونصيبين، وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمرا وأيسره فتحاً، وكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيها من المسلمين[٨٤].

موقف عرب الشام: ان الروايات التي يمكنها أن تقدم صورة عن تلقي عرب الشام للحركة الإسلامية، تعطى المطالع للمرة الأولى انطباعاً سيئاً، فأول هذه الاحداث هو قتل شرحبيل بن عمرو الغسّاني للحارث بن عمير الازدي، رسول رسول الله (صلعم) إلى ملك بصرى[٨٥]، وفي مؤتة في العام الثامن ــ ٦٢٩م، واجه زيد بن حارثه قائد الجيش الإسلامي المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل جيش الروم، ويقتل زيد، ثم جعفر بن أبي طالب، وبعده عبد الله بن أبي رواحة، ويستشهد من يستشهد ممن لم تحفظ لنا أسماؤهم ولا اعدادهم، ويأخذ اللواء خالد بن الوليد. فكان أكبر همه أن يستنقذ الجيش وأن ينقذ المسلمين من هزيمة محققة ماحقة «فيدافع عن القوم ويحاشي بهم وينحاز ويتحيز[٨٦]» وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا وحدهم هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون العرب المسلمين، ويقتلونهم، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير، أن المسلمين نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضمت إليه المستعربة من لخم وجذام، وبلقين وبهراء وبَلِي في مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي اسمه مالك[٨٧]، وفي

(٨٤) الطبري، ج ٤ ص ٥٤.

(٨٥) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٩٤.

(٨٦) الطبري، ج ٢ ص ٤٠.

(٨٧) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٩٤، ٩٨، ٩٩.

تاريخ ابن عساكر ، عن رجل من أهل البلقاء ، أن الذين لقوهم يومئذ من أهل المشارق من النصارى من لخم وجذام وبلقين[٨٨] .

وفي عام الوفود ، أي في العام التاسع للهجرة ، بعد أن فتح الله على المسلمين مكة ، ومكّن لهم من البيت وبدأت الوفود تنطلق من كل صوب متجهة إلى النبي (صلعم) ، لا نتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام ، إلا ما يذكره ابن هشام عن إسلام فَروة بن عمرو الجُذامي الذي بعث إلى رسول الله (صلعم) رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء ، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله بمعان وما حولها من أرض الشام ، ولكن الروم عندما بلغهم إسلامه حبسوه ثم صلبوه على ماءٍ يقال له عَفْراء بفلسطين[٨٩] .

وإذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الأولى إلى الفترة الثانية التي بدأ فيها الخليفة الأول تجهيز الجيوش وتوجيهها إلى الشام ، نجد أن موقف العرب لم يكن في كثير من الأحيان استجابة أو تأييداً ، وأن الروم كانت تضرب البعوث على عرب الضاحية وكانت تستنفرهم ، فينفر إليها من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان[٩٠] . وكانت ولا شك تحارب بهم في المواقع المختلفة بل انها كانت تجد منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع ، ففي أجنادَين أرسل قائد عسكر الروم رجلاً عربياً من قضاعة من تزيد بن حَيْدان يقال له ابن هزارف ، وطلب منه أن يدخل بين العرب وأن يقيم فيهم يوماً وليلة ثم يأتيه بأخبارهم[٩١] ، وهناك رواية واحدة ينفرد بها سيف عن أولى مراحل الطريق إلى الشام حين «أمر أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة ، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث ، وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ونفر إليها من بهراء وكلب وسليح ... فكتب إليه أبو

(٨٨) تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٩ .

(٨٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ـــ بيروت ١٩٧٥ ، ج ٤ ص ١٧٦ .

(٩٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٩١) الطبري ، ج ٣ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

بكر: أقدم ولا تحجم، واستنصر الله، فسار إليهم خالد، فلما دنا منهم تفرّقوا وأعروا منازلهم ودخل عامة من كان تجمع له في الإسلام[٩٢]» . وهنا لابد أن نتساءل عن قيمة هذه الرواية المفردة، وهل في الوسع أن نتحقق من صحتها، وهل دخل هؤلاء عامة في الإسلام وانضموا إلى جيش التحرير؟ ربما يغنينا عن ذلك رواية ابن اسحاق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء المسلمين من قريش فيها، إذ أنه يخص القبائل العربية بهذا النص، «وكان انضم إلى المسلمين حين ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين[٩٣]»، وفي رواية البلاذري أن هرقل جمع جموعاً كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية وولى عليهم رجلاً من خاصته، وبعث على مقدمته جبلة بن الايهم الغسّاني في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم وعزم على محاربة المسلمين، فلما هزم الروم في اليرموك، وعقد أبو عبيدة لحبيب بن مسلمة الفهري على خيل الطلب، جعل يقتل من أدرك فانحاز جبلة بن الايهم إلى الأنصار فقال: «أنتم اخوتنا وبنو أبينا[٩٤]» وعندما بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين بعد فتح حمص نزل بالحاضر، حيث التقى بجيش الروم وقتل قائد الجيش ومعظم من معه، فأرسل أهل الحاضر إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم[٩٥]، ولكن عندما أغزى هرقل ثانية جيشاً عظيماً توجه نحو حمص واستمد أبو عبيدة خالدا الذي كان قد عينه على قنسرين، أمده خالد بمن معه، «فكفر أهل قنسرين وكان أكفر من هناك تنوخ[٩٦]» .

أما قبيلة تغلب بن وائل فقد حاربت في البدء ضد جيش المسلمين وذلك لما اجتمع المسلمون بالفِراض[٩٧] سنة ١٢ هـ، «وحميت الروم واغتاظت واستعانوا بمن

(٩٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٩، ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٠٢، تهذيب، ج ١ ص ١٣١، ١٣٢.
(٩٣) الطبري، ج ٣ ص ٥٧١.
(٩٤) البلاذري، فتوح، ص ١٤٠، ١٤١.
(٩٥) الطبري، ج ٣ ص ٦٠١.
(٩٦) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ج ١ ص ٣٠، ٣١، ابن حبيش، الفتوح، ص ١٤٧.
(٩٧) الطبري، ج ٣ ص ٣٨٣، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة.

يليهم من مسالح أهل فارس ، واستمدوا تغلب وإياد والنمر[98] » ، ولكن تغلب عادت وقاتلت مع العرب في سنة ١٣ هـ حين رأوا نزول العرب بالعجم فقالوا : « نقاتل مع قومنا[99] » موقف عرب الضاحية يبدو إذن موقفاً واضحاً فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام إليها وهم كذلك لم يولوها العطف والحدب ، وقد قاتلوا إلى جانب أهل أرمينية والروم ، فهل كان هذا كله اضطراراً واكراها ؟ وكيف نفسر لحاق بعض القبائل بهرقل ومضيها معه إلى بلاد الروم ، فقد لقي ميسرة بن مسروق العبسي عندما سلك درب بَغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم ، جمعاً للروم معهم عرب من غسّان وتنوخ يريدون اللحاق بهرقل[100] ، كما ارتحلت قبيلة إياد بن نزار إلى أرض الروم ، فكتب عمر إلى ملك الروم يطلب منه إعادتهم ، فأخرجهم ملك الروم فخرجوا ، فتمّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد ، وخنس بقيتهم فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الشام[101] .

* **موقف النصارى عامة**

لا يتميز موقف الروم بأكثر من أنه كان محاولة جاهدة عنيفة للوقوف دون امتداد هذه الموجة الجديدة العارمة ، ومن الطبيعي أن يدرك الروم مركز بلاد الشام من امبراطوريتهم ، وأن اقتطاعها سيؤدي بالتالي إلى اقتطاع مصر أيضاً وأنها كذلك تهديد لهم ، فهم لهذا لن يتنازلوا عنها بيسر وبساطة ، جهزوا كل ماقدروا عليه من جيوش ، وخاضوا كل مااستطاعوا أن يخوضوا من معارك ، واستنفروا كل ما كان في وسعهم أن يستنفروه من العرب ، وأهل أرمينيا وسكان المقاطعات الأخرى ، كما أن الروم لجأوا إلى استثارة مشاعر الجماعة الدينية ، واستثمروا في ذلك رجال الدين ، وتطالعنا التفاصيل التي وردت في بعض روايات المؤرخين ، أن قواد الروم كانوا يقدمون أمامهم الشمامسة

---

(٩٨) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٩٩) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٦٤ .

(١٠٠) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٩٦ .

(١٠١) الطبري ، ج ٤ ص ٥٤ ، ٥٥ .

والرهبان والقسيسين ليغروهم ويحضضوهم على القتال[١٠٢]، وأن هؤلاء الشمامسة والقساوسة كانوا جزءاً من الجيش، وسلاحاً من أسلحته، يقيمون إذا أقام ويرتحلون إذا ارتحل، ويخندقون إذا خندق، يثيرون فيه حماسة الدين «إذ ينعون له النصرانية[١٠٣]» ويبدو هذا الطابع الديني واضحاً في صنيع أشراف الروم الذين كانوا يرون أنهم في هذه الحروب إنما يمنعون النصرانية، فإذا لم يستطيعوا منعها، فلا عليهم أن يتخطفهم الموت، وقد أنموا رؤوسهم «لا يحبون أن يروا يوم السوء إذا لم يستطيعوا أن يروا يوم السرور» وقد حدث هذا غير مرة تجلل الفيقار وأشراف من أشراف الروم في معركة اليرموك وأصيبوا في تزملهم[١٠٤].

ولم يكن ذلك موقف القادة ورجال الدين، ولكنه كان موقف النصارى بشكل عام، فقد استطاع الروم استثارة العاطفة الدينية لدى العرب أكثر مما استطاعوا ذلك لدى النبط، إذ نجد تكراراً عند ابن الاعثم حول استخدام الروم لمن يليهم من نصارى العرب في حين أن المسلمين كانوا يستخدمون الانباط كجواسيس، وهؤلاء الأنباط قوم نصارى كما يقول ابن الاعثم، «غير أنهم كانوا إلى المسلمين لبرهم أميل فكانوا فُيُوجاً[١٠٥] للمسلمين وجواسيس وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك[١٠٦]».

على أن موقف النصارى لم يكن موقفاً جامداً، ولم تلازمه هذه الصلابة في كل مراحل الفتح، فبعد أن كانت هزيمة اليرموك وبعد أن أمسك المسلمون بزمام الموقف حين تم لهم الاستيلاء على الأقسام الوسطى من الشام وأضحى تقدمهم نحو الجنوب باتجاه القدس ونحو الشمال باتجاه الجزيرة أمراً مضمون النتائج، بعد هذا أخذت النصرانية سبيلاً آخر في مداراة الفاتحين المسلمين، فارتضى أهل ايلياء الصلح، وقيل أنهم طلبوا أن يتولى الخليفة نفسه العقد[١٠٧]، وإذا كان بطريرك أورشليم صفرونيوس قد

---

(١٠٢) المصدر السابق، ج٣ ص٣٩٣، ٣٩٥، تهذيب ج ١ ص ١٦٤. ابن حبيش، الفتوح، ص ١٨٥.

(١٠٣) الطبري، ج٣ ص٣٩٥.

(١٠٤) المصدر السابق، ج٣ ص ٤٠٠ ــ تهذيب ج ١ ص ١٧٤.

(١٠٥) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٤٤، الفيج هو رسول السلطان الذي يسعى على رجليه، فارسي معرب.

(١٠٦) المصدر السابق، ج ١ ص١٤٣، ١٤٤، ابن حبيش، الفتوح، ص ١٣١.

(١٠٧) الطبري، ج ٣ ص٦٠٧، ٦٠٨.

استقبل عمر وطاف به على أنحاء البلدة وأراه الأماكن المقدسة(١٠٨)، فان أرطبون الروم والتذارق لحقا بمصر(١٠٩).

أما الجزيرة فكانت أسهل البلدان وأيسرها فتحاً(١١٠)، إذ سرعان ما صالح أهل الجزيرة على الجزية(١١١) وليس من شك في أن الموقع الجغرافي للجزيرة بين العراق والشام وقد خضعا للمسلمين، يجعل من اليسير تطويقهم وإمداد كل من الجيشين في الشام والعراق أحدهما للآخر، وكان ذلك أحد العوامل الكبرى التي أملت على النصارى هذا الموقف، وليس أدل على ذلك من رواية سيف عن السرى عن شعيب: «أنه حين كتب عمر إلى سعد بتوجيه القعقاع في أربعة آلاف من جنده مدداً لأبي عبيدة حين قصدته الروم وهو بحمص، سلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراض، حتى انتهى إلى الرقة، وقد أرفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة، فنزل عليهم فحاصرهم حتى صالحوه، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم «أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء، فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل وسط من الجزيرة فرأى أن يقبل منهم(١١٢)».

وهكذا نرى أنه من العسير أن يطمئن الانسان إلى أن الخلاف المذهبي بين أتباع الكنيسة السورية المونوفيزية التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة إلهية واحدة والكنيسة البيزنطية التي تؤمن بما أقر مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م من إقرار طبيعتين للمسيح الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية كان له من أثر في الترحيب بالمسلمين، وتسهيل مهمتهم أو الميل إليهم، وأن العداء استفحل إلى أن يفسح المجال لدين جديد أقل ما يوصف به أنه لا يرتضي المذهبين معاً وإنما كان يحل المسيح عليه السلام محل الإيمان بنبوته وكتابه ولكنه يجرده من الوهيته بطبيعتها أو بطبيعتيهما كلتيهما، فلا يرى فيه غير

(١٠٨) حتي تاريخ العرب مطول، ج ١ ص ٢٠٨ نقلاً عن تيوفانس.
(١٠٩) الطبري، ج٣ ص ٦٠٨.
(١١٠) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٤.
(١١١) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٣.
(١١٢) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٤.

مايرى في محمد بشراً رسولاً، وصحيح أن الإسلام قد أتاح لهؤلاء النصارى قدراً من الحرية لم يجدوه عند البيزنطيين، ولكن هل كان نصارى العرب يعرفون مسبقاً كيف سيسير المسلمون بهم وكيف سيعاملونهم؟. ان من واجبنا أن لا ننسى التفريق بين النظر إلى الأمور قبل وقوعها وبين النظر إليها بعد أن تقع.

لقد دخل الإسلام بلاد الشام فلقي من مقاومة النصارى مثل مالقي من مقاومة العرب على اختلاف من البواعث وتباين في الأغراض، ولعل حركة الفتح وجدت منفذاً من خلال هذا الاختلاف والتباين، أما الأسباب الكثيرة التي يحاول المؤرخون أن يفترضوها سواء ما اتصل منها بالروم أو العرب أو النصارى عامة فهي لا تعدو أن تكون أسباباً واهية، لا تدل على الحقيقة التي تكمن في أنه كان في حركة الإسلام دعوة، وأن أصحابها يتمتعون بروح معنوية رفيعة لم تكن موجودة لدى القوى المعادية، فالروم ومرتزقتهم يوقنون أن الأرض لم تكن أرضهم، والعرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة العيش، فإذا جد الجد فسيلتقون معهم بحبل من قرابتهم لهم ولذلك فإنه ما أن ثبتت أقدام المسلمين في المنطقة ورأوا معاملتهم الجيدة ووفاءهم لأهل الذمة، انقلبوا من أعداء إلى مؤيدين، فعن أبي حفص الدمشقي أن المسلمين عندما أرادوا أن يردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنهم لن يستطيعوا نصرتهم والدفع عنهم، قال أهل حمص، «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن ضد هرقل عن المدينة مع عاملكم[113]».

* موقف اليهود والسامرة

ليست لدينا إشارات يمكنها أن تعطينا صورة واضحة عن موقف اليهود والسامرة من حركة التحرير العربية الإسلامية، إلا أن معاملة أبي عبيدة الخاصة للسامريين، وإسكان معاوية اليهود في طرابلس ومدن ساحلية أخرى، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن العداء كان مستحكما بين هؤلاء والروم البيزنطيين، وتعود جذور العداء مع اليهود إلى

(113) البلاذري، فتوح، ص ١٤٣.

عهد الرومان عندما هدم تيتس Titus سنة ٧٠م مدينة القدس، وعندما أعاد هادريان بناء المدينة أطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا، وهو الاسم الذي يرد في مصادرنا (ايلياء) وبنى هيكلا لجوبيتر مكان الهيكل القديم، مما أدى إلى انـدلاع ثورة قضي عليها سنة ١٣٥م وأعدم الأسرى أو بيعوا كرقيق، ومنعوا من الاجتماع للصلاة أو من دخول القدس وأطلق على منطقة يهوذا اسم فلسطين السورية Syria Palaestina وبعد انتشار المسيحية تأثر اليهود من الاعتراف الرسمي لمنافسيهم المسيحيين كما أنهم أبعدوا بعد سنة ٤٢٨م عن الوظائف المدنية والعسكرية(١١٤).

ويبدو أن اليهود بقوا مبعدين عن القدس، إذ نلاحظ في النص الذي يورده الطبري أنه من ضمن الشروط التي منحها عمر بن الخطاب لأهل ايلياء «أن لا يسكن بايلياء أحد من اليهود(١١٥)». كما يرد في الروض المعطار أنه بعد أن تم الاتفاق ما بين أهل بيت المقدس وأبي عبيدة بن الجراح على أن تسلم مفاتيح المدينة إلى الخليفة نفسه، كتب عمر كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وكنائسهم، واشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها(١١٦).

إن هذه الروايات على قلتها تشير إلى ذلك التوتر الذي كان قائماً بين اليهود والسلطة الحاكمة منذ عهد الرومان حتى الفتح العربي، ولذلك لا نشك بأن اليهود رحبوا ضمنياً بمجيء المسلمين وإن لم تكن لدينا روايات تؤكد ذلك، إلاّ أنه عندما ردّ المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنه بلغهم أن هرقل قد جمع الجموع، نهض اليهود وقالوا: «والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّ أن نغلب ونجهد، فأغلق اليهود وسكان حمص من النصارى الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود(١١٧)».

---

(١١٤) E.B. Art. Syria, History of Syria

(١١٥) الطبري ج٣ ص٦٠٩.

(١١٦) عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٨، ص٦٨، ٦٩.

(١١٧) البلاذري، فتوح ص١٤٣.

أما السامريون فهم الذين يدّعون بأنهم ينتمون إلى قدماء اليهود الذين كانوا مقيمين في السامرة والذين لم يتعرّضوا للسبي الآشوري سنة ٧٢١ ق . م لذلك فهم يدعون أنفسهم أبناء إسرائيل Bene Yisrael أما اليهود فإنهم يدعونهم بالسامريين بينما يطلق عليهم في التلمود اسم كوتيم Kutim دلالة على أنهم من سلالة الكوشيين Cuthaeans الذين كانوا مقيمين في بلاد ما بين النهرين ثم نقلهم الآشوريون إلى السامرة بعد غزو سورية ليحلوا محل اليهود الذين تم سبيهم إلى أماكن بعيدة ، وقد تمّ انعزال هذه الطائفة كلياً عن المجتمع اليهودي بعد رجوع اليهود من السبي البابلي ، ولم يسمحوا لهم بأن يشاركوا في بناء الهيكل الثاني في القدس ، ونتيجة لذلك بنى السامريون في القرن الرابع ق . م هيكلهم الخاص في نابلس عند جبل جريزيم ، Mt . Gerizim[١١٨] وفي رواية للبيروني أن السامريين أعانوا نبوخذ نصر ودلوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل لذلك لم يمسهم بأي أذى « وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني إسرائيل فلم يحركهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وانزلهم فلسطين من تحت يده[١١٩] ... » .

وبالرغم من العداء بين اليهود والسامريين ، إلا أن وضع السامريين لم يكن بأفضل من وضع اليهود ، وكان أحلك عصر مرّ بالسامرة هو العهد الذي بدأ بهادريان وانتهى بقضاء العرب على سلطان البيزنطيين في الشام[١٢٠] وقد قام السامريون بثورات زمن الامبراطور زينو (٤٧٤ ــ ٤٩١) م فطردهم من مقرهم في جبلهم المقدس جريزيم وبنى فيه كنيسة ، وثاروا زمن الامبراطور جوستنيان ، فنكّل بهم ودمرّ معبدهم ، وأقام كنائس في المدينة ، ولذلك فلا شك أن السامريين قد رحبوا بفتح العرب لفلسطين أحرّ ترحيب لأن هذا الفتح حرّرهم من ربقة الحكام البيزنطيين والكنيسة وخلصهم من استبداد هؤلاء وتعطشهم إلى الانتقام[١٢١] .

---

(١١٨) E.B. Art. Samaritan

(١١٩) البيروني ــ الآثار الباقية في القرون الخالية ، طبعة ليبزيغ Leipzig عام ١٩٣٢ م ص ٢١ .

(١٢٠) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة عن الأصلين الانجليزي والفرنسي ــ طبعة انتشارات جهان مهران بوذر جميري ، مادة السامرة .

(١٢١) المصدر السابق ، مادة السامرة .

الفصل الثاني

توزيع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح

من الأمور التي تسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرات القبلية، أن القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح، فالقبائل التي تندب لفتح قطر كان الأمر ينتهي بها غالباً إلى الإستقرار فيه، وهي لذلك كانت خليطاً من قبائل شتى، فإذا نزلت هذه القبائل أحد المواطن لتستقر به احتلت كل قبيلة خطة لها فيه، وبعد استقرار القبائل في خططها ربما لحقت بها جماعات أخرى، فتنزل كل جماعة في خطة قبيلتها ثم تندب القبائل لفتح مناطق أخرى فتفد من الجزيرة العربية موجات قبلية جديدة، وقد تنضم إليها جماعات من القبائل التي سبقت هجرتها، فإذا حققت الحملة الجديدة غايتها من الفتح التمست لها موطناً تستقر فيه، وهكذا نجد أن حركة الاستيطان القبلي لم تكن تسير وفق خطة ملتزمة، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة الواحدة مواطن شتى، ولو أن هذه الهجرات لم تكن مرتبطة بحركة الفتح لكان من المحتمل أن نجد القبيلة برمتها في موطن واحد حرصاً على وحدتها وسلامتها، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولاستيطان قبائل العرب الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في إطار روابط النسب الواسعة كالعدنانية والقحطانية، والمضرية والربعية، ومنها تصدع الوحدة القبلية لأن القبيلة الضخمة العدد قلما كانت تنزل برمتها في موطن واحد، وإنما كانت تتفرق بطونها في مواطن متعددة.

وكانت جيوش المسلمين التي قدمت لفتح بلاد الشام نواة القبائل التي استوطنت الشام ومصر بعدئذ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا إلى معرفة القبائل العربية التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده، إلا أننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي للقبائل العربية التي كانت بالشام بعد الفتح عن طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات واعتماداً على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين إبان الفتنة الأولى والثانية والثالثة، واعتماداً على ما نجده في بعض المصادر التاريخية، ففي كتاب الفتوح للبلاذري، نجد أن أبا بكر عقد لكل أمير في بادىء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة، ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً[1]. وعن عبد الرحمن بن جبير أن أبا بكر جهّز الجيوش إلى الشام فاجتمع له أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح وامداد اليمن وأهل العالية[2]، وفي رواية الطبري أنه قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع، وقدم عليه عكرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين[3]، ونجد لدى إبن الأعثم تفصيلاً لمن توجه مع عمرو بن العاص إلى الشام بعد أن عسكر بإزاء المدينة، فقد خرج إليه سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم، وخرج إليه أبو الأعور السلمي، ومعن بن يزيد إبن عمه في ألف وسبعمائة فارس، وخرج إليه الضحاك بين قيس الفهري في ثلاثمائة وعمير بن حرام المرادي في مائتي فارس[4].

وما أن دخلت جيوش المسلمين أرض الشام حتى كتب أبو عبيدة يخبر الخليفة أن هرقل قد نزل أنطاكية وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشرهم وأنه قد اجتمع إليه منهم خلق كثير يزيدون عن ثمانين ألفاً سوى ما في سائر المدن بالشام من الخيل والجنود[5]،

(١) البلاذري، فتوح، ص ١١٦، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٣١، ١٣٢.
(٢) تهذيب، ج ١ ص ١٣٣.
(٣) الطبري، ج ٣ ص ٣٨٩، ابن حبيش، الفتوح، ص ١١٩.
(٤) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٢٣.
(٥) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٠١.

فأمده أبو بكر بهاشم بن أبي عقبة بن أبي وقاص الذي انضم إليه خلق كثير من همدان وأسلم وغفار ومزينة ومراد والأزد وجميع القبائل[٦]، ثم لا يلبث أبو بكر أن يطلب من خالد بن الوليد التوجه إلى الشام لدعم إخوانه هناك، وهنا تختلف الروايات في عدد المقاتلة، فالبلاذري يذكر أن خالدا سار من العراق في ثمانمائة ويقال في ستمائة ويقال في خمسمائة[٧]، أما الطبري في رواية السرى عن شعيب عن سيف، فيشير إلى أنه قدم على المسلمين في تسعة آلاف[٨]، بينما ذكر ابن الأعثم أن خالدا جمع أصحابه الذين قدم بهم من الحجاز واليمامة، فكانوا سبعة آلاف فارس فخرج بهم خالد من الحيرة متوجها إلى الشام[٩]. وأعتقد أن الروايتين اللتين يوردهما الطبري وابن الأعثم أقرب إلى المنطق والواقع، إذ لا يعقل أن يطلب أبو بكر من خالد أن يتوجه لمساعدة المسلمين في الشام فيمدهم بهذا العدد الضئيل. ونتيجة لهذا الاختلاف في عدد المقاتلة الذين قدموا مع خالد اختلفت الروايات تبعاً لذلك في عدد المقاتلة المسلمين في معركة اليرموك، فهم أربعة وعشرون ألفاً عند البلاذري[١٠]، وستة وثلاثون ألفاً عند الطبري بانضمام خالد إليهم[١١]، أما ابن الأعثم فيشير إلى أن عساكر المسلمين التي اجتمعت بدمشق وقبل موقعة اليرموك كانوا سبعة وثلاثين ألفاً، ثم قدم عليهم عامر بن حذيم في ثلاثة آلاف فصار المسلمون في أربعين ألفاً[١٢]، ولم يلبث أن وصل مدد آخر من الخليفة بقيادة سويد بن الصامت «ممن كان بالمدينة ممن يصلح أن يوجه به إلى العدو فعرضهم فكانوا ثلاثة آلاف»، فكان عدد المسلمين الذين اشتركوا في معركة اليرموك ثلاثة وأربعين ألفاً[١٣]. أما القبائل التي اشتركت في معركة اليرموك، فيرد ذكر لها في تاريخ

---

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤، هذه القبائل المذكورة كلها يمانية، فهمدان من قبائل كهلان، وأسلم من بطون خزاعة من الأزد من الخزرج ومراد من بطون مذحج، والأزد من أعظم قبائل كهلان، (ابن عبد ربه ج٣ ص ٣٨٩، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٩٨، ٣٧٥.

(٧) البلاذري، فتوح ص ١١٨.

(٨) الطبري، ج ٣ ص ٣٩٤.

(٩) ابن الأعثم، فتوح ج ١ ص ١٣٤.

(١٠) البلاذري، فتوح ص ١٤١.

(١١) الطبري، ج ٣ ص ٣٩٤.

(١٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ٢٢٨.

(١٣) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ٢٣٤.

دمشق ومخطوطة ابن حُبيش، فقد شكل الأزد وفق هذه الرواية ثلث الناس، وفيها حمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم وفيها كنانة وقضاعة وجذام وكندة وحضرموت، وليس فيها أسد ولا تميم ولا ربيعة لأن تلك الأماكن لم تكن دارهم وإنما كانت دارهم عراقية، فقاتلوا أهل فارس بالعراق، وفي معركة اليرموك استحر القتل في الأزد فأصيبوا بما لم يقتل مثله من القبائل(١٤). ونلاحظ من هذه الرواية ومن مواطن القبائل فيما بعد أن القبائل اليمانية كانت تؤلف الأكثرية في هذا الجيش ولعبت الدور الأكبر في فتوح الشام، ذلك أن القبائل كانت تفصح في بعض الأحيان عن إيثارها منطقة دون أخرى وقتال قوم من المشركين دون آخرين، ووراء هذا الاختيار تكمن نزعات قبلية وعوامل أخرى تتصل بالبيئة والجوار والعادات المألوفة وغير ذلك، وعندما سأل عمر سروات بجيلة ووفده: «أي الوجوه أحب إليكم؟» قالوا: «الشام، فإن أسلافنا بها». «فقال: «بل العراق فإن الشام في كفاية». فلم يزل بهم ويأبون حتى عزم على ذلك وجعل لهم ربع خمس ما أفاء الله على المسلمين إلى نصيبهم من الفيء(١٥)، وحين أراد عمر ندب الناس مع سعد بن أبي وقاص أراد أهل اليمن من النخع التوجه إلى الشام وكرهوا المسير إلى العراق، فاضطر عمر إزاء إصرارهم إلى توجيه نصفهم إلى العراق والنصف الآخر إلى الشام(١٦). ولوحظ بصورة عامة أن أهل اليمن كانوا ينزعون إلى الشام، ومضر تنزع إلى العراق(١٧). ونظراً لنزول القبائل الربعية منذ العصر الجاهلي على حدود فارس، ولما كان لها من تجارب سابقة في قتال الفرس، لم يكن أجرأ على فارس من ربيعة(١٨)، ومن ثم كانت طلائع جيوش العرب في قتال أهل فارس كلها من هذه القبيلة(١٩)، وعندما توجه سعد بن أبي وقاص إلى العراق لحرب الفرس كان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة، ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة(٢٠).

---

(١٤) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٦٣، ابن حبيش، الفتوح، ص ١٧٤.
(١٥) الطبري، ج ٣ ص ٤٦٢.
(١٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٤.
(١٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٨٧.
(١٨) الطبري، ج ٣ ص ٤٨٧.
(١٩) البلاذري، فتوح، ص ٢٤٢.
(٢٠) الطبري، ج ٣ ص ٤٨٦.

كانت القبائل العربية الوافدة إلى بلاد الشام تتفرق في حواضرها وتنزل المنازل التي جلا عنها أهلها أو يقاسمونهم منازلهم أحياناً[٢١] ، وكانت المدن أحياناً تقسم خططاً بين المسلمين كما فعل السمط بن الأسود الكندي بحمص[٢٢] ، أما الطبري[٢٣] ، فيشير إلى أن أبا عبيدة عندما صالح أهل حمص أنزلها السمط بن الأسود الكندي في بني معاوية[٢٤] ، والأشعث بن مئناس في السكون[٢٥] والمقداد بن الأسود في بلي[٢٦] ، ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس[٢٧] ، كما نجد اهتماماً بالغاً بإسكان المقاتلة المدن الساحلية ، إذ كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة ويجعلهم مرابطة[٢٨] ، واهتم معاوية بشكل خاص سواء في خلافة عمر أو في خلافة عثمان عندما ولي الشام والجزيرة بالمدن الساحلية وشحنها بالمقاتلة كما فعل باللاذقية[٢٩] ، وبأنطرطوس وبانياس[٣٠] ، وعن الواقدي عن مشايخ من أهل الشام أن معاوية رم عكا عند ركوبه إلى قبرص ورم صور ، وأنهم نزلوا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ، ثم لم يلبث أن نزع إليهم أهل بلدان شتى فنزلوها معهم وكذلك جميع السواحل[٣١] .

وعندما حدثت الأحداث بالمدينة في خلافة عثمان ، خرج منها رجال إلى الأمصار مجاهدين ، فمنهم من أتى البصرة ومنهم من أتى الكوفة ومنهم من أتى الشام ، وقد

---

(٢١) المصدر السابق ج٣ ص ٤٤٤ .
(٢٢) البلاذري ، فتوح ، ص١٣٧ .
(٢٣) الطبري ، ج٣ ص ٦٠١ ، ابن الأثير ج٢ ص ٤٩٢ .
(٢٤) بنو معاوية من كندة من قبائل اليمن ، (ابن عبد البر ، الانباه على قبائل الرواة ص ١١٣ ، ١١٤) .
(٢٥) السكون من كندة كذلك ، (ابن عبد البر ، المصدر السابق ص ١١٥) .
(٢٦) بلي من قضاعة ، (ابن عبد البر ، المصدر السابق ص ١٢٢) .
(٢٧) البلاذري ، فتوح ، ص١٥٥ .
(٢٨) البلاذري ، فتوح ، ص١٥٣ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

بقي من كان بالشام بينما رجع الباقون جميعاً إلى المدينة(٣٢)، وبعد مقتل عثمان خرج ربيعة بن عاصم العقيلي مع قبيلته قيس من الكوفة يريدون معاوية، فمر بالجزيرة هو وقيس، فرأوا بلاداً خصيبة ريفية ومزدرعاً واسعاً وقلة أهل، فلما وصلوا إلى معاوية ردّهم إلى أرض الجزيرة وأسكنهم بها(٣٣)، كما ترك بنو الأرقم بن النعمان بن عمرو من آل كندة الكوفة وتوجهوا إلى معاوية لأنهم كانوا عثمانيين وقالوا: «لا نقيم ببلد يسب فيه عثمان»، فأنزلهم معاوية الرها(٣٤). إذ أن معاوية في خلافة عثمان كان والياً على الشام والجزيرة وثغورهما(٣٥) وكانت الجزيرة في خلافة معاوية تابعة إدارياً إلى قنسرين، ثم جندها عبد الملك، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها(٣٦)، وكذلك نزل خالد بن عقبة ابن معيط الجزيرة أثناء الفتنة وولده بها(٣٧).

ويؤخذ من تعداد ألوية القبائل التي كانت مع معاوية يوم صفين ومن تعبئة جيشه أن جلّ من قاتل معه كانوا من القبائل اليمانية والقضاعية، والعنصر الغالب في القبائل المضرية التي كانت معه هو العنصر القيسي، أما ربيعة فلم يكن في جيش معاوية أحد منها أو كانوا قلة لا يعتد بها، وأبرز القبائل التي شاركت في القتال معه، حمير وقضاعة (كلب، بهراء، تنوخ، لخم، وجذام) وهمدان وخثعم، وغسان ومذحج وعك والأشعريين وكندة والأزد(٣٨)، ويبدو أن الأزد كانوا يشكلون نسبة كبيرة في الشام كما نستخلص من قول معاوية لرجل طلب منه أن يجعله حيث شاء فقال: «عليك بهذه الأزد الطويلة العريضة الكثير عددها(٣٩)».

وفي أثناء الفتنة الثانية عندما نزل عبد الله بن الزبير دار البلاط بمكة وجعلها دار

---

(٣٢) الطبري، ج ٤ ص ٣٩٨.

(٣٣) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٩٨، تهذيب، ج ٥ ص ٣٠٧.

(٣٤) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٠.

(٣٥) البلاذري، فتوح، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٣٧) الكلبي، جمهرة النسب، مخطوطة في مركز الوثائق والتوثيق، الجامعة الأردنية رقم ٣٨٢، ص ١٧ آ.

(٣٨) نصر بن مزاحم، وقعة صفين، القاهرة، ١٣٦٥ هـ/ص ٢٣٢، ٢٩٩. خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٢٢، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٧٢.

(٣٩) الأغاني، ج ١٦ ص ٤٠١.

إمارته، تفرّقَ من كان بمكة من شيعة بني أمية خوفاً على أنفسهم فصاروا إلى الشام[٤٠]. كما أخرج أهل المدينة من كان مع عمرو بن سعيد بن العاص من بني أمية[٤١].

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولهم بلاد الشام تزايداً سريعاً، فقد بلغ عدد المسجلين في ديوان العطاء في حمص في خلافة مروان بن الحكم من اليمانية فقط عشرين ألفاً[٤٢]، وفي ديوان دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك خمسة وأربعين ألفاً[٤٣]، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعاً وثمانين ألفاً في سنة ١٢٦ هـ ومقاتلتهم خمسين ألفاً[٤٤]. وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل[٤٥]، ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين إلى بلاد الشام وحدهم وإنما تمثل أيضاً من انضم إليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانضموا بعد ذلك إلى جيوش المسلمين.

واتبع في توزيع القبائل العربية في الشام وتجنيدها نظام يختلف عن نظام الأخماس والأسباع الذي اتبع في العراق، وهو نظام الأجناد، فقد وزعت الجيوش العربية أجناداً تعسكر قرب مدن الشام الرئيسية، وكل جند كان ينسب إلى المكان الذي هو فيه، لا إلى القبائل التي يتألف منها، فيقال، جند دمشق وجند الأردن وجند قنسرين ونحو ذلك، وبينما نجد عمر يكتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ومساجد للقبائل، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، ويكتب إلى سعد بن أبي وقاص على الكوفة وإلى عمرو بن العاص في مصر بمثل ذلك، فإننا نراه يكتب إلى أمراء الأجناد في الشام ألا يتبددوا إلى القرى وأن ينزلوا

(٤٠) ابن الأعثم، فتوح، ج ٥ ص ٢٠٩.
(٤١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٠٩.
(٤٢) الأغاني، ج ١٦ ص ٣٤.
(٤٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ص ٥.
(٤٤) الطبري، ج ٧ ص ٢٦٧، تهذيب، ج ٧ ص ٦٢.
(٤٥) الطبري، ج ٧ ص ٢٨٢.

المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً ولا تتخذ القبائل مساجد، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده(٤٦).

أما مواطن القبائل العربية بالشام بعد الفتح فنستطيع تحديدها على وجه التقريب اعتماداً على ما انتهى إلينا من المصادر التاريخية والجغرافية، ففي فلسطين استقرّت قبائل من لخم وجذام(٤٧)، وعاملة وكندة وقيس وكنانة(٤٨)، وفي الأردن نجد بطونا من غسّان ومذحج وهمدان وكلب والسكاسك والسكون(٤٩)، وأغلب القبائل التي نزلت دمشق كانت من اليمانية إلى جانب قلة من قيس، وقريش، بينما نزلت قبائل قيسية ولا سيما بني مُرَّه في الغوطة وحوران والثنية وفي الظاهر والغور والجولان ووجدت غسّان في الغوطة وكلب في السويداء(٥٠)، وجل أهل حمص كانوا يمانية قضاعية، من طيء وكندة وحمير وهمدان وكلب وبهراء وتنوخ مع قلة من قيس، وإياد في جبلة وفي صوران وتلمنّس(٥١). ولكثرة القبائل اليمانية في جند حمص ضرب المثل بذلة القيسي فيها(٥٢)، وكانت مواطن قيس قنسرين وما حولها(٥٣)، بالإضافة إلى تنوخ وطيء(٥٤). واحتلت قبيلة كلب البقاع ودعي بقاع كلب، ومنهم بنو عامر الذين نزلوا المرج الفلسطيني المنسوب إليهم (مرج ابن عامر(٥٥)).

---

(٤٦) المقريزي، الخطط، دار التحرير للطباعة والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج٣ ص ١٠٥
E.I. ed. 1936. Art., Masdjid.

(٤٧) البلاذري، أنساب الأشراف، مؤسسة الدراسات الشرقية، الجامعة العبرية، القدس ١٩٣٦ ج٥ ص ١٢٨.

(٤٨) خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٢٢، اليعقوبي، البلدان، ليدن ١٨٩١م ص ٣٢٩. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٥، ٣٩٦.

(٤٩) خليفة ج ١ ص ٢٢٢، الطبري ج ٥ ص ٥٣٥، ٥٤٧، المسعودي، مرج الذهب ج ٣ ص ٢٤٩.

(٥٠) اليعقوبي، البلدان ص ٣٢٥، ٣٢٦، تهذيب تاريخ دمشق، ج٧ ص ١٨٩.

(٥١) اليعقوبي، البلدان ٣٢٤، خليفة، ج ١ ص ٢٢٢، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٤٧.

(٥٢) أبو الفضل النيسابوري، مجمع الأمثال، القاهرة، ١٣٥٢ هـ. ج ١ ص ٢٩٤.

(٥٣) الطبري، ج ٥ ص ٥٣٥، ٥٣٨.

(٥٤) البلاذري، فتوح ص ١٥٠، ١٥١، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٤٩.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٠٤.

(٥٥) تهذيب، ج ٣ ص ١٧٩، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ١، القسم الأول ص ٧١٤.

أما منطقة الساحل فنظراً لعدم تجاوب أهلها في بادىء الأمر لتأثرهم بالصبغة الرومية، فقد اضطر معاوية إلى نقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا سنة ٤٢ هـ(٥٦)، ونقل من أساورة البصرة والكوفة إلى أنطاكية(٥٧)، ونقل سنة ٤٩ أو سنة ٥٠ هـ قوماً من زط البصرة والسيابجة(٥٨) إلى سواحل أنطاكية(٥٩). وأسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الأردن طرابلس(٦٠)، ويذكر اليعقوبي أن كورة عرقة فيها قوم من الفرس ناقلة، وكذلك طرابلس أهلها قوم من الفرس، كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها، وكذلك جبيل وصيدا وبيروت، فأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان(٦١).

وأقطع عبد الملك فرس بعلبك الخمس في مدينة طرابلس، فسكنوها وسكنوا غيرها من مدائن الساحل(٦٢)، ونقل الوليد بن عبد الملك إلى أنطاكية قوما من زط السند ممن حملهم محمد بن القاسم إلى الحجاج، فبعث بهم إلى الشام. وفي القرن الثالث الهجري كان بأنطاكية محلة تعرف بالزط وببوقا من عمل أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط(٦٣)، ومما يثير الانتباه أن سكان جند دمشق الساحلية كان معظمهم من الفرس واليهود، بينما يشكل العرب الأكثرية الساحقة في كور جند حمص الساحلية، فقد سكن مدينة اللاذقية قوم من يمن وسليح وزبيد وهمدان ويحصب، كما

---

(٥٦) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.
(٥٧) المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٥٨) السيابجة قوة فارسية كانت عند البحرين والخط والطفوف، (الطبري، ج٣ ص ٣٠٤). وينقل كايتاني رأي دي عويه أن السيابجة أصلهم من الهند، وجزر الهند الشرقية وأنهم كانوا يقومون بالملاحة بين ساحل الخليج الفارسي وشرقي آسيا.
Caetani, L. Annali dell Islam, Milan, Vol. III P.920.
(٥٩) البلاذري، فتوح، ص ١٦٦، ٣٦٩.
(٦٠) البلاذري، فتوح ص ١٣٣، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٣٣، ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٣١.
(٦١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧.
(٦٢) تهذيب، ج ٦ ص ١٨٧.
(٦٣) البلاذري، فتوح، ص ١٦٦، ٣٦٩.

سكنت همدان في مدينة جبلة مع قوم من إياس ومن إياد ، وأهل أنطرطوس كانوا من كندة ، في حين أن مدينة بلنياس فقط كان أهلها أخلاط[٦٤] .

أما الجَراجِمة الذين كانوا يقطنون الجُرجومة من جبل اللُّكام ، فقد تفرّق قسم منهم في خلافة عبد الملك بن مروان بقرى حمص ودمشق ، أما أكثريتهم فقد رجعوا إلى مدينتهم باللُّكام بعد ثورتهم والقضاء عليها . وفي عهد الوليد بن عبد الملك أخرب مسلمة بن عبد الملك مدينتهم لكثرة ما كانوا يكاتبون الروم ويمالئونهم ، وأسكنهم جبل الحوّار وعمق تيزين[٦٥] ، وصار بعضهم إلى حمص ونزل بطريق الجُرجومة في جماعة معه أنطاكية ثم هرب إلى بلاد الروم ، ويبدو أن بعضهم بقي مقيماً في أنطاكية[٦٦] ، أما تيوفانس فيذكر أن جستنيان الثاني نتيجة للصلح الذي عقده مع عبد الملك نقل ١٢ ألف من المردة وأسكنهم آسيا الصغرى[٦٧] .

هذه صورة للعناصر السكانية في بلاد الشام في صدر الإسلام ، وهي تشير بوضوح إلى أمرين ، أولهما أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم بحيث أن اليعقوبي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثالث الهجري ، لا يذكر الروم على الاطلاق ، وإنما يطلق اسم العجم عليهم ، ولا نجد لهم ذكرا في الأُجناد الشمالية وإنما في جندي الأُردن وفلسطين فقط حيث يذكر وجود العجم في عكا وقدس وبيسان ، وفحل وجرش من كور الأُردن ، وفي كورة إيلياء ولد وعمواس من جند فلسطين . أما الأمر الثاني فهو أن قبائل قضاعة[٦٨] واليمن كانت تستوطن الجانب الأكبر من بلاد الشام ، ولما كانت قضاعة وكلب خاصة هي أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر

---

(٦٤) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٥ .

(٦٥) عمق تيزين ، تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب ، كانت تعد من أعمال قنسرين ثم صارت في أيام الرشيد من العواصم مع منبج وغيرها (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦) .

(٦٦) البلاذري ، فتوح ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٦٧) Sir George Hill, The History of Cyprus, Vol.II P.286.

Archibald Lewis, Naval Power & Trade in the Mediterranean P.80.

(٦٨) قبائل قضاعة ، كلب ، تنوخ ، بلي ، بهراء ، خولان ، أسلم ، جهينه ، عذره ، نهد ، بنو القين ، سليح ، ابن عبد البر النمري ، الانباه ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ اليعقوبي ، تاريخ ج ١ ص ٢٠١ .

الأموي، كان انحياز هذه الكتلة إلى أي حزب سياسي خليقاً بترجيح كفته ويمنحه تأييداً حربياً وسياسياً له شأوه، وكذلك كان انحياز هذه القبيلة إلى إحدى الكتلتين العدنانية والقحطانية خليقاً بترجيح كفتها العددية، وباختلال ميزان القوى القبلية. ومن هنا إحتدم النزاع حولها وتجاذبتها العدنانية والقحطانية، وقام نسابو كل من الكتلتين والاخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ مستهل العصر الأموي حتى منتصف العصر العباسي في ضم هذه القبيلة إلى شجرتهم النسبية، وذهب بعض نسابي اليمن إلى أن قضاعة نسبت إلى معد أيام العصبية، وفي زمن معاوية وابنه يزيد بوجه خاص، وأن معاوية وابنه بذلا لرؤساء قضاعة أموالاً جسيمة لقاء الانتفاء من اليمن والانتساب إلى معد، ولكن قضاعة كما يبدو تغضب غضباً شديداً لشيوع هذا القول وتنكره أشد الانكار، ثم تجمع جموعها وتدخل مسجد دمشق يوم الجمعة وهي ترتجز بقول شاعرها:

يا أيها الداعـــي ادعنـــا وبشر
وكـــن قضاعيـــاً ولا تنـــزر
نحن بنـو الشيـخ الهجـان الأزهـر
قضاعـــــة بن مالك بن حمير
الـنسب المعـروف غير المنكـــر
من قال قولاً غير ذا يبصر(٦٩)

ويرد الشرقي بن القطامي ومحمد بن حبيب هذا الاضطراب في نسب قضاعة إلى الحرب التي ثارت بين قيس وكلب إثر معركة مرج راهط، فيذكر أن خالد بن يزيد أشار على أخواله من كلب بمحالفة اليمن والانتساب إليهم لاذلال بني مروان ومن انحط في هواهم من قيس، فأجابه إلى ذلك بعضهم وعصاه آخرون، فكان بعضهم يقولون

---

(٦٩) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١ ص ١٨، وينسب هذا الرجز إلى أفلح بن يعبوب القضاعي، نشوان الحميري، منتخبات في أخبار اليمن، ليدن ١٩١٦، تحقيق عظيم الدين أحمد ص ٨٧.

حالفنا اليمن وبعضهم يقول بل نحن منهم(٧٠)، كما يذكر الشرقي بن القطامي أن أول من ألحق قضاعة بحمير عمرو بن مرة الجهني، وكانت له صحبة وسابقة في الإسلام وطاعة في قومه(٧١)، ولكي يؤيد كل فريق دعواه عمد إلى وضع الأحاديث على لسان الرسول، فوضعت نزار حديثاً ينسب فيه الرسول قضاعة إلى معد بل يجعله بكر ولده(٧٢) ووضع أهل اليمن أحاديث تنقض هذا القول وتؤيد نسبة قضاعة إلى حمير(٧٣)، وكذلك دعم الفريقان دعواهما بأبيات من الشعر لشعراء قدماء ومحدثين.

ولقد لاقى القول بانتماء قضاعة إلى حمير والجذم اليماني هوى في نفوس القضاعيين، لأن في انتسابهم إلى حمير ذات الماضي العريق في الحضارة والملك ما يرفع من شأنهم عند مفاخرة القبائل النزارية، فأخذ الشعراء يؤكدون هذه النسبة في أشعارهم ويفخرون بنسبهم اليماني، وأجابهم شعراء نزار ساخرين تارة ومعاتبين أخرى(٧٤).

ومن القبائل التي تنازعتها القحطانية والعدنانية أيضاً، جذام، وهي عند نسابي اليمن قحطانية النجار، ولكن نسابي مضر يدّعون أن جذام هو ابن أسدة بن خزيمة أخي أسد ويحتجون على دعواهم ببيتين ينسبونهما إلى امرىء القيس أو لبشر بن أبي خازم الأسدي(٧٥)، ويبدو أن القول بانتماء جذام إلى مضر، إنما شاع كذلك في العصر الأموي، وأن بني أمية أرادوا تألف هذه القبيلة التي كان لها عدد وقوة بالشام، فأغروا بعض رؤسائها بالانتماء إلى معد، ووافقهم في ذلك روح بن زنباع الجذامي والشاعر العاملي عدي بن الرقاع، ولكن هذا النبأ ما كاد يبلغ أسماع الجذاميين المتعصبين لأصلهم اليماني حتى قدموا على يزيد وعلى رأسهم سيدهم ناتل بن قيس الجذامي الذي

---

(٧٠) ابن عبد البر، الأنباه ص ٦٠، ٦١.

(٧١) ابن عبد البر، الأنباه ص ٦٠.

(٧٢) المصدر السابق، ص ٥٩، البلاذري، أنساب، ج ١ ص ١٦.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٦٠.

(٧٤) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٧٥) المصدر السابق، ص ١٠٤، البلاذري، أنساب، ج ١، ص ٣٦.

أعلن أنهم يمانون من قحطان وأنهم ليسوا بمتخلين عن نسبهم وشتم روحا لمحاولته نسبة قومه إلى غير أصلهم واضطر روح إلى التراجع، وكذلك رجع عدي بن الرقاع العاملي عن مقالته، وقال في تأكيد نسبته إلى قحطان أبياتاً منها قوله :

قحطـان والدنـا الـــذي ندعـــى له
وأبـــو خزيمة خنـــــدف بن نزار[٧٦]

وما قيل في جذام قيل مثله في أختها لخم، فقد جعلها نسابو مضر معدية وقرنها أكثرهم بجذام في انتمائها إلى أسدة بن خزيمة بن مدركة، وذهب بعضهم إلى أن قنص ابن معد هو أبو لخم وأيدوا قوله بما نقلوه عن النسابة القرشي جبير بن مطعم من نسبته ملك الحيرة اللخمي، النعمان بن المنذر، إلى أشلاء قنص بن معد[٧٧]. ويظهر أن القحطانية لما فاخروا العدنانية بملوكهم في الجاهلية ادّعت العدنانية هذه الدعوى لتضم إلى شجرة نسبها آل نصر ملوك الحيرة ولا سيما النعمان بن المنذر الذي كان لاسمه صيت يملأ أرجاء الجزيرة العربية.

إن هذا الخلاف في ادّعاء كل من النسابين من مضر وقحطان بالحاق هذه القبائل بهم تظهر المكانة الكبيرة التي كانت لهم، وتلقي الأضواء على بعض الأحداث التي سترد في الفصول القادمة، وان كانت المصادر التاريخية، عندما تتكلم عن الأحداث في العصر الأموي، تدخل قضاعة ضمن اليمن.

---

(٧٦) الأغاني، ج ٩ ص ٣١٤.
(٧٧) البلاذري، أنساب، ج ١ ص ٢٣، ابن عبد البر، الأنباه، ص ١٠٤.

الفصل الثالث

طبقات المجتمع ودورها في الإدارة والحكم

المسلمون من العرب

من المبادئ الأصيلة في الدعوة الإسلامية عدم المفاضلة بين الناس على أساس الأنساب، والمفاضلة إنما تكون بالتقوى، وعليه الآية الكريمة «يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1]»، وأكد الرسول هذا المعنى في خطبة الوداع: «تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين إخوة[2]». ولكن الرسول أدرك كذلك بثاقب بصره أن حرص زعماء القبائل على مراتب الشرف التي يتبوءونها في قومهم، والمنافع المادية التي تحققها لهم مناصب الرئاسة هي عقبة كؤود تعترض سبيل انتشار الدعوة الإسلامية واعتناق القبائل العربية لها، ورأى أن تذليل هذه العقبة لا يأتي إلا عن طريق اصطناع رؤساء القبائل وتألفهم، فكان لذلك يؤثر من كان منهم بالعطاء والهبات ويقسم لهم نصيباً أوفى من الغنائم. وكانت خطته هذه مدعاة لاستياء أنصاره في بعض الأحيان[3]. جاء في الطبري عن أبي سعيد الخُدري أنه لما أعطى رسول الله ما أعطى للمؤلفة قلوبهم — وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألفهم ويتألف به قلوبهم — ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة[4]، فكان جواب الرسول لهم بأنه إنما

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٢

(٢) الطبري، ج ٣ ص ١٥١.

(٣) المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٠، البخاري، الجامع الصحيح، ليدن ج ٢، ص ٢٨٧.

(٤) الطبري، ج ٣ ص ٩٣.

تألف بها قوما ليسلموا ووكلهم إلى إسلامهم، وبأنه لو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلك رسول الله (صلعم) شعب الأنصار[٥].

وبالرغم من أن الإسلام جعل مدار التفاضل بين الرجال على التقوى، والإيمان لا على الاحساب والأنساب فانه لم يلغ مراتب الشرف القبلية إلغاء تاماً، وإنما جعلها منوطة بحسن الإيمان وقوة العقيدة، فحين سأله قوم عن اكرم العرب كان جوابه: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[٦]». وقد جرى خلفاء الرسول على الموقف نفسه الذي وقفه الرسول من الروح الجاهلية والعصبيات القبلية، فاتخذ أبو بكر موقفاً صارماً لا هوادة فيه من حركة الردة، وأمر بقمعها بكل وسيلة لأنه وجد فيها خطراً على كيان الدولة الإسلامية الناشئة، كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة، تهدد بعودة العرب سيرتها الأولى في الجاهلية من التنابذ والتفرقة؛ وكان عمر بن الخطاب أشد عنفاً من سلفه في قمع الدعوة العصبية والنزعات القبلية وفي تجاهل امتيازات الشرف الموروثة عن الجاهلية، وكان يأذن في مجلسه للموالي الذين عرفوا بسبقهم إلى الإسلام كصهيب وبلال قبل أن يأذن للاشراف الذين لم يكن لهم سابقة في الإسلام أمثال عيينه بن حصين الفزاري والأقرع بن حابس التميمي[٧]. وحين فرض عمر العطاء للمسلمين وغضب بعض أشراف قريش أن يكون نصيبهم دون نصيب غيرهم، أجابهم أنه أعطى على السابقة في الإسلام لا على الأحساب[٨]. ووقف عمر من الأنساب موقف الرسول قبله، إذ حض القوم على رعايتها لا ليتعصبوا لها، وإنما ليصلوا أرحامهم، ويعرفوا روابط القربى التي تصل بينهم، ومن المحتم في مجتمع كانت تسوده المفاهيم والتقاليد القبلية أن يقوم الصراع بين الاتجاهات الإسلامية وبين التقاليد القبلية سواء أكان ذلك واضحاً مكشوفاً أم خفياً مستوراً، ومن المتعذر فهم تاريخ صدر الإسلام ان لم يلاحظ هذا التصادم والاحتكاك.

---

(٥) الطبري، ج ٣ ص ٩٤.

(٦) البخاري، الجامع الصحيح، ج ٢ ــ كتاب المناقب، ص ٣٨١.

(٧) الجاحظ، العثمانية، القاهرة، ١٩٥٥ م ص ٢١٧.

(٨) الطبري ج ٣ ص ٦١٣.

ونحن إذا أتينا إلى العرب المسلمين في الشام نجد أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في تحديد مكانتهم الاجتماعية، وهما عامل العطاء منذ فرضه الرسول ونظمه عمر وعامل صحبة الرسول ونصرته في دعوته، وما كان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التي انشطرت بدورها شطراً اتجه إلى المعرفة وشطراً اتجه نحو السياسة والحكم، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الإسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة، وتمثيل لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذه الدعوة، وعاشت فكرة العطاء رمزاً للمكانة الاجتماعية وتعبيراً عن السابقة إلى النصرة[9]، ثم تعبيراً عن الشجاعة والبلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ساهموا فيها، فقد كان عطاء المقاتلة الذين اشتركوا في معركة اليرموك الفين[10]، وفرض عمر لأهل البلاء البارع منهم في ألفين وخمسمائة ثم تدرّج العطاء ما بين ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة[11].

وكان الحد الأعلى للعطاء ويدعى شرف العطاء محدداً بألفين وخمسمائة في العهد الراشدي[12]، ثم انقصه معاوية وجعله ألفي درهم[13]، وكان الأشراف في الشام الذين عطاؤهم ألفين يأخذون بالإضافة إلى عطائهم قطيفة[14]، ولا نجد إشارة لذلك في العراق ومصر، وربما تأثر معاوية بما كان يجري في الدولة البيزنطية حيث كان الموظفون الكبار يأخذون بالإضافة إلى أرزاقهم عطاء نقدياً وملابس وكان العطاء والملابس توزع مرة في السنة[15].

وكان شرف العطاء يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الإدارية أو القيادية[16]، أو من يبدي بسالة في الحروب، وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموي، إلا أن عامل

(٩) الطبري، ج ٣ ص ٦١٤، البلاذري، فتوح ص ٤٣٧.
(١٠) الطبري، ج ٣ ص ٦١٤.
(١١) البلاذري، فتوح، ص ٤٣٨.
(١٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٥٥، ج ٦ ص ١٥١.
(١٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٥، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٦، الطبري ج ٥ ص ٢٤٢.
(١٤) ابن سعد، ج ٥ ص ٢٥٥، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٦.
(١٥) Byantium, An Introduction to East Roman Civilization, ed. Norman H.Baynes and H.sr. K.Moss, Oxford, the Clarendon Press, P.75.
(١٦) الطبري، ج ٨ ص ١٧٧، ١٧٨، الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ←

الدعم لمعاوية وللحكم الأموي في الشام أصبح عاملاً أساسياً في منح الشرف في العطاء؛ ففي الأخبار الطوال للدينوري، أن معاوية قال لعمرو في معركة صفين: «قدّم عَكٍ والأشعريين فإنهم كانوا أول من انهزم في هذه الجولة، فأتاهم عمرو فبلغهم قول معاوية، فقال رئيسهم مسروق العكي، انتظروني حتى آتي معاوية، فأتاه فقال: افرض لقومي في ألفين ألفين، ومن هلك منهم فابن عمه مكانه، قال: ذلك لك(17)». وكان يفرض أحياناً لأشخاص في شرف العطاء لإعجاب الخلفاء بتصرفاتهم، فهذا معاوية يأمر ليزيد ابن شجرة الرهاوي بخمسمائة ألف درهم ويأمر بزيادة عطائه ألفاً، ويقول: «لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وكماة أو حماة أهل صفين» وما ذلك كما يقول الجاحظ إلا لأنه وفاه حق الرياسة وأحسن الاصغاء إليه ولم يهتم بالدم الذي سال على وجهه بسبب حجر عائر(18).

ويمكننا أن نستنتج من نص يورده البلاذري أن من بلغ سناً يجب أن يعطى شرف العطاء، لا سيما وأن في الطبري نصوصاً تشير إلى مكانة ذوى السن(19). فقد كتب أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم إلى عمر بن عبد العزيز: «أن قوماً من الأنصار قد بلغوا أسناناً ولم يبلغ عطاؤهم الشرف، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر اثباتهم في شرف العطاء فليفعل». فكتب إليه عمر «.... وأما ما ذكرت عن أمر الرجال الذين بلغوا سناً ولم يبلـغ عطاؤهـم الشرف، فإنما الشرف شرف الآخرة والسلام(20)».

وبالرغم من أن مقدار ما يدفع في شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجعل ممن يأخذه غنياً إلا أنه كان يعتبر شرفاً عظيماً يستحق التسجيل، وقد استدعى فرض نظام

١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م ص٢٥٦. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ليدن ١٩٣٠م ص١٤٣. البلاذري، فتوح ص ٤٤٢.

(١٧) الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد، الإقليم الجنوبي، ص١٨٦، (كان ما فرض لعك في أيام عمر بن الخطاب ٣٠٠ درهم) الطبري ج ٤ ص ٩١.

(١٨) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، بيروت ١٩٧٠ ص٦٢.

(١٩) الطبري، ج ٤ ص ١٣٠، ج ٤ ص٣١٩.

(٢٠) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩م، ص١٥٣، عن البلاذري، أنساب الأشراف ج٣ ص ١٣٩. مخطوطة القاهرة.

العطاء إلى تصنيف الناس حسب قبائلهم وأصولهم، فنشط النسابون لتدوين الأنساب، وتصنيف القبائل حسب أصولها وأجذامها فتجددت معالم الرابطتين العدنانية والقحطانية، وكان لهذا التدوين أثره في عناية القبائل بأنسابها وحرصها على تدوينها، وأدى ذلك إلى تعصبها لنسبها واعتزازها به وميلها إلى القبائل التي تربطها بها رابطة النسب والقربى، وهكذا نرى أن وضع ديوان العطاء قد أدّى عن طريق غير مباشر إلى ظهور الروابط القبلية وشيوع المعارف النسبية وأدّى بالتالي إلى ظهور العصبية في صورها المختلفة.

وأما عامل صحبة الرسول ونصرته لدعوته، فقد كان له أثره في الشام واضحاً لا سيما زمن الخلافة الراشدة والفترة السفيانية، وما أكثر الصحابة الذين اشتركوا في الفتح من المهاجرين والأنصار، وقد بلغ عددهم حسب ما ورد في كتاب الطبقات ١١٣ صحابياً[٢١]، ويبدو أن حمص كانت ملتقى لأصحاب الرسول، فعن أبي مسلم الخولاني أنه دخل مسجد حمص، فإذا فيه نحواً من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي (صلعم[٢٢]) وأدرك كثير بن مرّه الحضرمي في حمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله، ولذلك كان يسمى الجند المقدّم[٢٣].

وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الأجناد دور كبير في إرساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسننهم، فكانوا أساتذة لمن خلفهم، وقد تفقه معظم أفراد الطبقة الأولى من التابعين في الشام على يد عبادة بن الصامت وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل[٢٤]، وكلهم من الأنصار، بالإضافة إلى أخذهم الحديث عن أبي بكر وعمر، فمنذ أن كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب

---

(٢١) ابن سعد، الطبقات، ج٧ قسم ٢ ص ١١١ — ١٥١.

(٢٢) المصدر السابق ج٧ قسم ٢ ص ١١٥.

(٢٣) المصدر السابق ج٢ قسم ٢ ص١٥٧. وقد جاء في مخطوطة ابن حبيش أن جند حمص إنما سمي بالجند المقدم لأنها كانت ادناها من الروم ودمشق والأردن وفلسطين كلهن وراءها، ابن حبيش، الفتوح ص ١٨٤.

(٢٤) تهذيب تاريخ دمشق، ج٧ ص٢١٣، ج٦ ص ٢٩٠، ج٦ ص٣٤٣.

«أن أهل الشام كثير، وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم»، أرسل عمر مُعاذ ابن جبل وعُبادة بن الصامت وأبا الدرداء، وطلب منهم أن يبدأوا بحمص، ثم أن يخرج واحد منهم إلى دمشق وآخر إلى فلسطين، فأقام عبادة في حمص وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين(٢٥)، واتبع عمر في الشام سياسة خاصة لنشر الدين وهو بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة(٢٦)، ولذلك انتشرت المساجد في بلاد الشام، وتابع الأمويون هذه السياسة في بنائها(٢٧)، وأصبحت المساجد هي دور العلم في العصر الأموي، والمراكز التي يتدفق عليها الناس طلباً لسماع الحديث، ولا نجد ذلك في مساجد مراكز الأجناد فقط بل في الساحل كذلك، فعن شُراحيل العنسي قال: «أتيت بيروت أنا وعمير بن هانيء العَنسي، فإذ نحن برجل عليه الناس في المسجد، فإذا عليه قميص كرابيس إلى نصف ساقيه، وقلنسوة صغيرة، يقال له حيان بن وبرة المُرّي، فقلت لعمير بن هانيء، أمِن أصحاب رسول الله (صلعم) هو؟ قال: لا ولكنه صاحب لأبي بكر(٢٨)» وقد أمدّ الله بعمر بعض هؤلاء الفقهاء من الصحابة، فقد توفي واثله بن الأصقع بن عبد العزى سنة ٨٥ هـ وقيل سنة ٨٣ هـ وكان ينزل بيت المقدس ومات فيها، ولكنه كان يمر بدمشق وحمص حين يشهد المغازي(٢٩)، وكان آخر

---

(٢٥) المصدر السابق، ج٧ ص٢١٣.

(٢٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ١ ص ٥٢١.

(٢٧) البلاذري، فتوح، ص١٣٥، ١٤٨، ١٤٩، ولعل أهم المساجد التي بنيت في الشام هي قبة الصخرة، المسجد الأقصى، ومسجد بني أمية، ومسجد الرملة، وقد أظهرت النقوش التي كانت تزين داخل قبة الصخرة بوضوح روح مناظرة المسيحية، فالكتابات بالرغم من تأكيدها على نبوة المسيح وأنه نبي حق فإن عبارة «لا شريك له» قد تكررت خمس مرات في هذه النقوش، كذلك سطرت الآيات ٣٤ـــ٣٧ من السورة ١٩ (سورة مريم) هذه الآيات التي تنكر بشدة بنوة عيسى إلى الله، وكتب بعناية فائقة دعاء «اللهم صلّ على رسولك وعبدك عيسى بن مريم» وهذا دليل على أن مناظرة المسيحية والرغبة في إظهار روح رسالة الإسلام كانتا واردتين أثناء تشييد قبة الصخرة الشهيرة. (جواتيابن، س. د دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصى، الكويت ١٩٨٠ ص ٤٤. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١ القسم الأول ص ٣١.

(٢٨) تهذيب، ج٥ ص٢١، ٢٢، القاضي عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠م ص ٩٤.

(٢٩) ابن سعد، الطبقات، ج٧ قسم ٢ ص ١٢٩.

من توفي بالشام من أصحاب رسول الله (صلعم) عبد الله بن بُسر المازني توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك[٣٠]، وتوفي أبو أُمامة الباهلي قبله بسنتين ٨٦ هـ[٣١]، وكان عمرو البكائي يعتبر أفقه من بقى على وجه الأرض من أصحاب رسول الله (صلعم[٣٢]).

بالإضافة إلى هؤلاء الصحابة من الفقهاء الذين كان يحوطهم المسلمون بكثير من الاحترام والرعاية كان للصحابة المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة كأبي عبيدة بن الجرّاح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنه وعياض بن غنم، وسعيد بن عامر بن حذيم، وعمير بن سعد، ومعاوية بن أبي سفيان، وقد توفي أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل في طاعون عمواس، وتوفي الباقون في أواخر خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان، أما معاوية الذي كان له الدور الأكبر في فتح عدد كبير من مدن الساحل، فقد استطاع أن يحتل مكانة رفيعة في الشام فهو من أصحاب رسول الله، كما أنه حصل على ثقة أبي بكر وعمر وعثمان، فولاه عمر جند دمشق والأردن إثر وفاة أخيه[٣٣]، ثم جمع له عثمان الجزيرة والشام كلها[٣٤]، وتمتع معاوية في خلافة عثمان بصلاحيات واسعة[٣٥]، استطاع أن يستغلها في جعل ولاية الشام وحدة منسجمة تنقاد له[٣٦]، وجعل ولاته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة أو أبنائهم. فقد عين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد «لعظم قدره في أهل الشام ولما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد[٣٧]»، على جند حمص[٣٨]، وولى على قنسرين حبيب بن مسلمة

---

(٣٠) المصدر السابق، ج٧ قسم ٢ ص ١٣٣.

(٣١) المصدر السابق، ج٧ قسم ٢ ص ١٣١.

(٣٢) المصدر السابق، ج٧ قسم ٢ ص ١٣٨.

(٣٣) الطبري، ج ٤ ص ٦٢، ص ٢٨٩.

(٣٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩.

(٣٥) الطبري ج ٤ ص ٣٣١.

(٣٦) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٦٢، ابن الأثير، ج ٣ ص ١٩٧، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٦.

(٣٧) مصعب الزبيري، نسب قريش، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٣٨) الطبري، ج ٤ ص ٤٢١، ٤٢٦.

الفهري القرشي[٣٩]، وعلى الأردن أبو الأعور السلّمي[٤٠]، عمرو بن سفيان من بني سليم من بطون قيس عيلان[٤١]، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني[٤٢]، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري[٤٣]، وعلى القضاء أبو الدرداء[٤٤]. ونلاحظ أن ولاة معاوية في خلافة عثمان كانوا كلهم من القيسية وأنه عينهم في المناطق التي كان لهم فيها ذكر نابه كما يتبين لنا ذلك من تتبع أعمالهم، أما أبو الدرداء فقد كان أنصارياً خزرجياً، وكان قد عينه قاضياً منذ خلافة عمر بن الخطاب وبأمر منه.

وقد استطاع هؤلاء الولاة أن يفرضوا احترامهم على القبائل العربية التي رأينا أن معظمها كانت إما قضاعية أو يمانية، بحيث أن الشام هي الولاية الوحيدة التي لم تشترك في الثورة على عثمان، ونلاحظ أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد يدعم معاوية تجاه الذين أخرجهم أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم بأمر من عثمان إلى معاوية لاقناعهم بالعودة إلى جادة الصواب، فلما أعياه ذلك وقف عبد الرحمن بن خالد موقفاً حازماً منهم حتى شعر أنهم تابوا[٤٥]. وخيرهم بين أن يقيموا أو بين أن يخرجوا، وفي رواية ثانية أن عبد الرحمن أنزلهم الساحل وأجرى عليهم رزقاً[٤٦].

(٣٩) حبيب بن مسلمة له صحبة ورواية، وجاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك أميراً (الذهبي، سيرة أعلام النبلاء ج٣ ص١٨٨) وولاه أبو عبيدة أنطاكية واستعمله عمر بن الخطاب على عجم الجزيرة وحربها (الطبري ج ٤ ص ٣٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣٧).

(٤٠) الطبري ج ٤ ص ٤٢١.

(٤١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٣ ص٣٥٣، وهو من قادة الفتوح اشترك في معركة اليرموك (الطبري ج ٣ ص٣٩٦) وكان من القادة الذين وجههم أبو عبيدة إلى فحل والذي صالح أهل طبريه، (الطبري ج ٣ ص٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٤، ٦٠٥).

(٤٢) الطبري ج ٤ ص ٤٢١ وعلقمة بن حكيم قائد من الصحابة دخل دمشق مع خالد وتوجه مع مسروق إلى ايلياء وعينه عمر بن الخطاب على نصف فلسطين وأنزله الرملة (الطبري ج٣ ص ٤٤١، ٦٠٨، ٦١٠).

(٤٣) الطبري ج ٤ ص ٤٢١.

(٤٤) عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، وفي الحديث، عويمر حكيم أمتي، ونعم الفارس عويمر، ولاه معاوية القضاء في دمشق بأمر من عمر بن الخطاب، (الذهبي، سير أعلام النبلاء) ج ٣ ص ٣٣٥ ــ ٣٥٢.

(٤٥) الطبري، ج ٤ ص ٣٢٢.

(٤٦) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٢٦.

وعندما جمع عثمان الأمراء ليستشيرهم فيما قد صنع الناس، كان معاوية الوحيد الذي أشار عليه أن يأمر أمراءه أن يكفيه كل رجل ماقِبلَه «واكفيك أنا أهل الشام[٤٧]» ذلك أنه كان واثقاً من تضامن أهل الشام معه كافة بعكس بقية الأمراء الذين اقترحوا عليه آراء مختلفة، وعندما تنقل عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم في خلافة عثمان يحاول ضلالة الناس لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر[٤٨].

بالإضافة إلى المكانة التي احتلها الصحابة وقادة الفتوح وأبناؤهم في بلاد الشام فإن معاوية أدرك بثاقب بصره منذ أن كان والياً على الشام مدى الفائدة السياسية التي يجنيها من مصاهرة قبيلة كلب أقوى القبائل القضاعية بالشام وأكثرها عدداً، فاختار له ميسون بنت بحدل الكلبي التي أنجبت له ابنه يزيد، وقد حققت الأحداث بعدئذ سداد نظرة معاوية، إذ كان لقبيلة كلب اليد الطولى في تأييد خلافة يزيد وفي تثبيت دعائم الحكم الأموي في الشام، ثم جرى خلفاء بني أمية على خطة مؤسس دولتهم في الإصهار إلى القبائل لكسب تأييدها، وكانوا يؤثرون الإصهار إما إلى قبيلة كلب القضاعية وإما إلى قبيلة قيس المضرية، ويبرز من بين الأسر القيسية التي حرص بنو أمية على مصاهرتهم اسم آل عقيل بن علّفة المرّي، وكانت أسرته من أعرق الأسر القيسية شرفاً وأنبهها ذكراً، ومن هنا رغب الخلفاء من بني أمية وأمراؤهم وولاتهم في الإصهار إليه على الرغم مما عرف به من شدة الجفاء والعنجهية[٤٩].

كذلك أدرك معاوية أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه أشراف القبائل بالإضافة إلى أشراف أهل بيته، فكان لايقر أمراً قبل أن يستشيرهم، ولذلك فانه عندما قتل عثمان وأرسل علي جريراً بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الدخول في طاعته والبيعة له أو

---

(٤٧) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٤٠.

(٤٨) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٤٠.

(٤٩) ابن حزم، جمهرة الأنساب، ص ٢٤١، الأغاني ج ١٣ ص ٢٥٤، ابن عبد ربه، العقد الفريد، كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ج ٣ ص ٤١٥، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ج ٦ ص ٩٨.

الإيذان بالحرب ، استعان معاوية بأشراف أهل بيته ، فنصحه أخوه عتبه أن يستعين على أمره بعمرو بن العاص الذي بيّن له أنه ليس لمعاوية مثل سابقة علي وقرابته[٥٠] ، وأنه لا يستطيع أن يتصدى لعلي ويدعو أهل الشام لبيعته ، إلا بعد أن يحصل على دعم أشراف الشام له ، وأنه إذا حصل على تأييد شُرَحبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام فانه يحصل على تأييد أهل الشام كافة[٥١] ، وانه لمما يثير الدهشة إذا صدقت رواية الدينوري أن نرى تأثير شرحبيل على القبائل في الأجناد ، أما رواية سيف في الطبري فتشير إلى أن معاوية استغل قميص عثمان المخضب بالدماء والذي وضعه على المنبر ، وكتب بالخبر إلى الأجناد ، فثاب إليه الناس ، « وآلى الرجال من أهل الشام ألاّ يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل إلاّ من احتلام ، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان[٥٢] » ووقفت القبائل العربية في الشام كلها إلى جانب معاوية في معركة صفين ، قيسية ، ويمانية وقضاعية[٥٣] ، إلاّ بعض الصحابة كأبي الدرداء ، وأبي أمامة الباهلي اللذين رفضا الاشتراك ولحقا ببعض السواحل ولم يشهدا شيئاً من تلك الحروب[٥٤] . وبالرغم من أن أهل الشام كانوا قلة بالنسبة إلى أتباع علي ، فقد كان مع معاوية قوم « لا يقولون إذا سكت ، ويسكتون إذا نطق ولا يسألون إذا أمر ، ومع علي قوم يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت ، ولذلك فقليله خير من كثيره[٥٥] » . وكذلك يشير القزويني إلى أن معاوية قد تمشى له الأمر لأنه كان في أطوع جند بينما كان علي في أعصى جند وهم أهل العراق[٥٦] .

كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل اليمانية التي نصرت معاوية وليس أدل على ذلك مما قاله الضحاك بن المنذر بن سلامة بن ذي قابس الحميري

---

(٥٠) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٥٨ .
(٥١) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .
(٥٢) الطبري ، ج ٤ ص ٥٦٢ .
(٥٣) الدينوري ، الأخبار الطوال ص ١٧٢ .
(٥٤) المصدر السابق ص ١٧٠ .
(٥٥) الدينوري ، المصدر السابق ص ١٥٥ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٤١ .
(٥٦) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٦ .

لمعاوية: «نحن نصرناك ومنعناك يوم صفين، ونصرناك على الانصار والمهاجرين، وآثرناك على الامام التقي، فبنا علوت المنابر ولولا نحن لم تعلها[٥٧]». ونجد أشراف قبائل اليمن وساداتها، حيوة بن شريح الكلاعي، وكريب بن أبرهة بن شرحبيل، ويزيد بن حبيب المرادي، وناتل بن قيس الجذامي، وفروة بن المنذر الغسّاني كلهم يتخذون الموقف نفسه ويبينون له صراحة أنه إذا مالأ بني نزار ولم يآس بينهم وبين قومه فسوف يكون هو الخاسر، لأنهم أكثر منه نفراً وجمعاً[٥٨]، ولذلك نجد معاوية في خلافته ثم يزيداً من بعده يتجهان اتجاهاً مختلفاً في تعيين ولاة الأجناد فيعمدان إلى انتقائهم من زعماء القبائل حسبما توفر لهم من استقرار وكثرة فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي عمال من عرب الشمال أو القيسية بينما كانت حمص والأردن وفلسطين بأيدي عمال من عرب الجنوب أو قضاعة، فكان زفر بن الحارث الكلابي عاملاً لمعاوية ويزيد على قنسرين والجزيرة، ومالك بن هبيرة السكوني على حمص في خلافة معاوية[٥٩]، والنعمان ابن بشير الأنصاري في خلافة يزيد وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي عاملاً لمعاوية ثم ليزيد على فلسطين والأردن[٦٠]. ونلاحظ أن معاوية لاينقاد لليمانية تماماً لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعاً من التوازن، وانضمام قضاعة إليه منحه تأييداً حربياً وسياسياً عظيم الخطر، إلا أن هذا التأييد كان له شروطه، وهو أن يفرض معاوية لألفي رجل منهم ألفين، ألفين، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وأن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي ومشورة منهم[٦١]، ولكن معاوية الرجل الإداري يعمد إلى الاستفادة من كل أصحاب الكفاءات من القبائل المختلفة أو من شيعته المخلصين، فكان كاتب رسائله غسّانيا، واستخدم حميريا على ديوان الخاتم وهو عبد الله بن محصن الحميري، وعلى ديوان الجند عمرو بن سعيد ابن العاص[٦٢]. وعلى شرطته قيس بن حمزة الهمداني، ثم زمل بن عمرو العذري،

(٥٧) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٣٠.
(٥٨) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣١.
(٥٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦ ص ١٤٥.
(٦٠) الطبري، ج ٥ ص ٥٣١، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٢٧.
(٦١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٦.
(٦٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ص ٢٤.

وهناك رواية تشير إلى أن الضحاك بن قيس الفهري كان على شرطة معاوية قبل وفاته بينما تذكر رواية أخرى إلى أنه كان والياً على دمشق(٦٣)، أما في مجال القضاء فقد جعل معاوية الأولوية للصحابة والتابعين من الفقهاء، فقد عين فضاله بن عبيد الأنصاري(٦٤)، فلما توفي سنة ٥٣ هـ استقضى أبا ادريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني(٦٥). واشتهر عدد من القادة كأمراء للصوافي والشواتي، وكان معاوية يعينهم حسب كفاءاتهم القيادية دون النظر إلى انتماءاتهم القبلية، فكان منهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد(٦٦)، ومالك بن هبيره السكوني من رؤساء كنده(٦٧)، وفضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٠، ٥١ هـ(٦٨) وسفيان بن عوف الأزدي الذي كان من الصحابة القادة فقد كان مع أبي عبيدة حين افتتحت دمشق، وولاه معاوية الصوائف، وعندما أدركه أجله في أرض الروم استخلف على الناس عبد الرحمن بن مسعود الفزاري(٦٩)، بالرغم من أنه أبعد العرب نسباً منه وذلك «لأن له نية حسنة وعفافاً»: ولما بلغت وفاته معاوية كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه، فبكى الناس عليه في كل مسجد، وكان معاوية بعد ذلك إذا رأى خللاً في الصوائف قال «واسفياناه ولا سفيان لي(٧٠)».

سار يزيد على خطى والده في تعيين ولاة الأجناد من سادات القبائل، كما أنه كان يعتمدهم في القضايا التي كانت تعترضه، فعندما بلغ يزيد بن معاوية ما فيه عبد الله بن الزبير من بيعته الناس واجتماعهم إليه دعا بعشرة من وجوه أصحابه وهم يمثلون

(٦٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣ ص ٢٤٢.
(٦٤) المصدر السابق، ج٣ ص ١١٤ ــ ١١٦.
(٦٥) خليفة بن خياط، ج١ ص ٢٧٦، الطبري ج٥ ص ٣٣٠، الجهشياري، ص ٢٤، وأبو ادريس الخولاني، تابعي فقيه وكان عالم أهل دمشق (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤ ص ٢٧٢، ٢٧٦).
(٦٦) الطبري ج٥ ص ١٠٧، ٢١٢، ٢٢٦، ٢٢٧.
(٦٧) المصدر السابق ج٥ ص ٢٢٧، ٢٢٩.
(٦٨) المصدر السابق ج٥ ص ٢٣٤، ٢٥٣.
(٦٩) تهذيب تاريخ دمشق ج٦ ص ١٨٤.
(٧٠) المصدر السابق، ج٦ ص ١٨٥.

مختلف القبائل في الشام، النعمان بن بشير الأنصاري، وشريك بن عبد الله الكناني، وزمل بن عمرو العذري، ومالك بن هبيرة السكوني، وعبد الله بن عضاة الأشعري، وروح بن زنباع الجذامي، وأبو كبشه السكسكي، وسعيد بن عمرو الهمداني، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الرحمن بن مسعود الفزاري(٧١)، وطلب منهم التوجه إلى الحجاز وأن يعظموا حق ابن الزبير وحق أبيه وأن يخبروه بالذي بلغ يزيدا عنه، ثم أن يسألوه بعد ذلك أن يلزم الطاعة ولا يفارق الجماعة(٧٢)، وبرهن يزيد بعمله هذا عن رغبة صادقة في التفاهم مع عبد الله بن الزبير، وأخذ البيعة منه بالرفق، وأشهد على ذلك أفراد الوفد كله، ومن ثم وقفت الأجناد كلها إلى جانب يزيد في حربه ضد أهل المدينة وعبد الله بن الزبير(٧٣) وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرافهم بقيت لهم مكانتهم في العهد المرواني(٧٤) إلاّ أن اخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم إلى الشام ومعركة مرج راهط وماتجم عن ذلك من احتدام للعصبيات دفعت عبد الملك رغبة منه في ابقاء الوحدة الداخلية لما لها من أهمية كبرى في تثبيت دعائم الحكم، لأن يوسد إمارة الأجناد إلى أبنائه وإخوته، أو أفراد من الفرع المرواني(٧٥)، واتبع الوليد أسلوب والده فأسند جند دمشق والأردن وحمص إلى أبنائه عبد العزيز، وعمر بن الوليد، وعباس بن الوليد، أما جند فلسطين فقد ولى عليه أخاه سليمان بن عبد الملك(٧٦)، وتابع الخلفاء هذا النهج ماعدا عمر بن عبد العزيز الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عمال وفق الأكثرية القبلية في المنطقة، فعين عبيد بن الحسحاس

---

(٧١) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠، ابن الأعثم، فتوح ٥ ص ٢٧٩.

(٧٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٥ ص ٢٨٠.

(٧٣) الطبري، ج ٥ ص ٤٩٣، البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٣٣، اليعقوبي تاريخ، ج٢ ص ٢٥١، تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول، ص ١٩٧؛ ابن الأثير ج ٤، ص١١٢، تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ٦٠.

(٧٤) النويري، نهاية الأرب ج ٢١ ص ١٣١ (زفر بن الحارث وابناؤه هذيل وكوثر) تهذيب، ج ٥ ص ٣٤٠ (روح بن زنباع الجذامي) ابن عبد ربه ج٣ ص ٣٨٢، الطبري ج ٥ ص ٤١٢ (قبيصة بن دؤيب الخزاعي).

(٧٥) خليفة بن خياط، ج ١ ص٣٩٣، ٣٩٤.

(٧٦) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٧.

العذري على دمشق، وعبادة بن نسي الكندي على الأردن، والنضر بن يريم بن ابرهة الصباح على فلسطين، ويزيد بن حصين السكوني على حمص والوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة على قنسرين، أي أن الولاة كلهم كانوا من قبائل يمانية أو قضاعة سوى والي قنسرين(٧٧).

ونظراً لاعتماد الخلفاء على أمراء البيت الأموي في شؤون الإدارة والحكم وقيادة الحملات، أصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة، فكانت لهم جوائز وأرزاق لحراسهم وقطائع(٧٨)، وكثر عدد من سكن بدمشق من بني أمية، وأصبحت منازلهم وقصورهم أكثر منازل دمشق(٧٩)، كما انتشرت القصور الأموية في بلاد الشام انتشاراً واسعاً، ولم تكن مقتصرة على منطقة معينة، بل نجدها تمتد من جنوبي الأردن الحالي، إلى الجزيرة الفراتية شمالاً، ومن جوف الصحراء شرقاً حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط(٨٠). ولكن الآثار الباقية للقصور الأموية تعود كلها إلى فترة الوليد بن عبد الملك وما بعدها، أي في الفترة التي تحقق فيها المجد السياسي والتوسع الأقصى للدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، وما تبع ذلك من ازدهار اقتصادي وغنى مادي، كما أن كثرة القصور التي وجدت أطلالها في البادية تشير إلى شدة صلة الخلفاء والأمراء من بني أمية بالبادية، مما دفع بعض المستشرقين والمؤرخين العرب إلى القول بأن الخلفاء الأمويين أولاً ثم امراءهم ورجالات دولتهم ثانياً تركوا المدن واتجهوا إلى البادية لسببين، هروبهم من أوبئة المدن، ومناخاتها الفاسدة، ثم حبهم للبادية حيث يتعلم الأمراء اللغة العربية الفصحى(٨١) بالإضافة إلى متعة الصيد الصحراوي؛ ويشير كريزول في كتابه

---

(٧٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٥ .
(٧٨) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٥ ؛ ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٢١ .
(٧٩) اليعقوبي، البلدان ص ٣٢٦ .
(٨٠) فؤاد أحمد طوقان، الحائر، بحث في القصور الأموية، عمان ١٩٧٩، ص ٥٧ ـ ١٠٩ .
(٨١) حتي، تاريخ العرب مطول، ج ٢ ص ٢٣٨، عبد الحق، إعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق، الحوليات الأثرية السورية، العدد الأول ١٩٥١ ص ٧ .

إلى أن الأمويين لم يطمئنوا إلى حياة المدن تماماً كالعرب البداة، كما أن غرائزهم كانت بدوية، كما يتكلم عن الحياة نصف البدوية للخلفاء الأمويين المتأخرين(٨٢).

أما غرترود بِل Gertrud Bell فانها حين تتكلم عن تبدي الأمويين تقول: هذه المقرات الصحراوية، إنما هي حاصل طبيعي منطقي لفترة التحول الحضاري التي برز الأمويون خلالها وهي فترة الانتقال الصعب من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، هذه المقرّات تشهد على أن دعوة القفار الفسيحة كانت ملحة، تلك الدعوة التي صورها بأمانة شعراء القرن الأول الهجري ورواة الأدب، وقد كانت الصحراء بالنسبة للعربي أكثر من مكان للسكنى، كانت حامي تقاليده القديمة، تلك التقاليد الأكثر رسوخاً من الإسلام نفسه...، ثم تقول: أما الخلفاء الأمويون فقد رجعوا إلى سيرة آبائهم الأولين، فهربوا إلى البادية إلى المراعي الربيعية في البراري المتصلة(٨٣). إن بعض الأسباب التي يذكرها هؤلاء المؤرخون وعلماء الآثار صحيحة، وبعضها بعيد عن الدقة العلمية، فالتبدي والهروب من الطاعون والأوبئة عبارات تتردد في مصادرنا العربية، ففي الطبري على لسان أحمد بن زهير أن هشاماً كان ينزل الرصافة، وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا يتبدون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس(٨٤). كما يذكر الطبري في احداث سنة ١٢٦ هـ أن الشام كانت وبية فخرجوا إلى البوادي. وكان يزيد بن الوليد متبدياً، كما أن عامل الوليد بن يزيد على دمشق، خاف الوباء فنزل قطنا(٨٥).

أما افتراض علماء الآثار الإسلامية أن الأمويين كانوا بدوا قبل توليهم الخلافة، ولذا كان حنينهم إلى الصحراء التي انبتتهم، فان بني أمية في الجاهلية والإسلام كانوا أهل حاضرة ومدنية، كانوا ارستقراطية مكة وأكثر شخصياتها أخذاً بأسباب الحضارة

(٨٢) Creswell. Early Muslim Architecture, Oxford, The Clarendon Press. 2nd. ed. Vol. I PP. 402-403.

(٨٣) Gertrud Bell. Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, The Clarendon Press, 1914, P. 55.

(٨٤) الطبري، ج ٦ ص ٣٢٢.

(٨٥) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٠٦، ٢٤٠، ٢٤٤؛ بلاذري، فتوح، ص ١٨٤؛ ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ١٠٥.

والمدنية، ولعل الأمويين لم يخرجوا من مكة إلا إلى الطائف[٨٦]، التي كانت تعتبر مصيفاً لأهل مكة، أما الصحراء فكانت طريقهم الشاقة التي تسلكها قوافلهم، فإذا أتينا إلى قضية خروج الأمويين إلى البوادي طلباً للعربية الفصحى، فقد أرسى علماء اللغة قواعد راسخة بخصوص صفاء اللغة العربية، وقرروا بالاجماع أن الذين ينطقون اللغة العربية الفصحى هي ست قبائل، ثلاث منها رئيسية وثلاث تليها مرتبة من حيث الفصاحة والسلامة في اللغة، وهي قيس وتميم وأسد ثم تليها هذيل، وبعض كنانه، وبعض الطائيين[٨٧]، أي أن علماء اللغة اعتمدوا على كلام القبائل في قلب جزيرة العرب وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الأعاجم[٨٨]. فلم يأخذوا عن غسّان أو تغلب أو إياد لأنهم جاوروا الفرس والروم والسريان[٨٩]. ولم يأخذوا شيئاً عن أهل اليمن، «لأنهم ذوو لسان ما هو بلساننا[٩٠]» ولو تفحصنا مجموع القبائل المقيمة في البادية الشامية لرأينا أن معظمها من يمن وقضاعة كغسان وكلب، وهؤلاء نقضوا شرطاً هاماً وهو مجاورتهم للأعاجم، «وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية[٩١]»، واعتقد أن التحليل الذي قدمه الدارسون للآثار في سورية للأسباب التي دفعت الأمويين إلى بناء هذه القصور في أماكن حساسة من البادية هي أسباب منطقية، فقد تبين لهم أن هذه القصور كانت تلعب أدواراً عديدة، منها عمران البادية، الإشراف على النظام والأمن، وتسهيل السفر بإيجاد محطات ومنازل فيها، كما أن هذه القصور كانت منتجعاً للقبائل وزعمائها يلتقون فيها بالخلفاء والأمراء الأمويين، الذين كثيراً ما كانوا يحتكون بأمراء القبائل فيحلون مشاكلهم ويختلطون بهم ويتزوجون منهم ليكسبوا قوة في البادية تؤازرهم وتحميهم[٩٢].

---

(٨٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ١٢.

(٨٧) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد صبحي فرزات، استانبول، مطبعة كلية الآداب، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م ص ٢٧، ٢٨.

(٨٨) سعيد الأفغاني، في أصول النحو. دمشق، ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م ص ١٥.

(٨٩) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٩٠) الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٤.

(٩١) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٩٢) دليل المتحف الوطني بدمشق ص ١٨٣ — ١٨٤.

ويستنتج سوفاجيه Sauvajet بعد مسح أثري للمواقع الأموية في بوادي حماة وتدمر ومآب والبلقاء وشمال سورية والجزيرة الفراتية أن جميع تلك المنشآت الأموية لها طابع ثابت محدد هو: «قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيه آثار استغلال زراعي[٩٣]». ويؤكد سوفاجيه على نظريته مستنداً إلى نصوص تاريخية، تذكر الاقطاعات التي كان الخلفاء يقتطعونها لأمراء البيت الأموي ولاشراف القبائل وكبار رجالاتها، ويورد الدكتور عبد العزيز الدوري أمثلة كثيرة عن هذا الاتجاه في منح الأمراء والاشراف الضياع والاقطاع التي أدّت إلى ظهور طبقة جديدة من الملاكين الكبار من العرب في الشام وأن الاشراف تحولوا إلى ارستقراطية ملاكه[٩٤]. كما أن الدكتور الدوري يشير إلى اهتمام القبائل في نهاية العصر الأموي بالزراعة وانتقالهم من ملاّكين غائبين أو مقاتلين متمركزين في مراكز معينة إلى طور الاهتمام بالزراعة ومزاولتها، ولئن كانت المشاكل القبلية أيام الرشيد سبباً لتعريفنا بهذه القرى، فان استقرار القبائل على الأرض لم يقتصر على منطقة دمشق بل شمل مناطق أخرى مثل منطقة حمص وفلسطين[٩٥].

تميزت الفترة المروانية كذلك بازدياد اعتماد الخلفاء الأمويين إما على امراء من الفرع المرواني أو على ولاة من أهل الشام لإدارة الولايات ذات الأهمية الكبرى، فقد عين عبد الملك أخاه بشر بن مروان والياً على الكوفة وخلّف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام، منهم روح بن زنباع الجذامي[٩٦]. وعين خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي القرشي على البصرة ثم عزله وضم البصرة لأخيه بشر، ثم لم يلبث أن ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي يمكن أن نعتبره في عداد أهل الشام بالرغم من أنه ولد ونشأ في الطائف، إلا أنه انتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع فكان في

---

(٩٣) Jean Sauvajet, Chateaux Omayyades de Syrie, Contribution a L'etude de la Colonisation Arabe aux Ier. et er.siecles de L'Hegire, Revue des Etudes Islamiques XXXV 1967, pp. 1-52-

(٩٤) د. عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ١٩٧٤، ص ٣٠.

(٩٥) المصدر السابق، ص ٣١.

(٩٦) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص ١١٠.

عديد شرطته[٩٧]. ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر جنده ولذلك فان له دوراً بدمشق منها دار الزاوية[٩٨]، وبعد قضائه على عبد الله بن الزبير ولاه مكة والمدينة والطائف[٩٩]، ثم أصبح والياً على العراق سنة ٧٥ هـ والمشرق كله. ورغم تحامل معظم المصادر على الحجاج، إلا أنها تكاد تجمع على أمانته وعدم تلاعبه بأموال الدولة أو محاباته لأقربائه وأصهاره والمقربين إليه، وأنه كان يؤثر مصلحة الدولة على أي اعتبار آخر[١٠٠]، واستطاع الحجاج بعد اخماده لثورات الخوارج ثم لثورة ابن الأشعث في خلافة عبد الملك أن يقطف ثمار جهده الطويل وأصبح العراق ترفرف عليه رايات السلام والهدوء وانصرف الحجاج إلى الاصلاح والإعمار لاسيما وأن الفتن والثورات قد خرّبت الكثير، وأصبح الالتفات إلى الناحية العمرانية أمراً ضرورياً، وكان الحجاج كالخليفة الوليد يحب العمران وتحسين الضياع وتنظيم الري وتعمير الأرض وكري الترع والأنهار وتجفيف المستنقعات، وقد أنتج في هذا الحقل انتاجاً خصباً نجد ثبتاً موسعاً له في الطبري والبلاذري، مما لا ضرورة لذكره هنا، والكثير من الفتوحات العسكرية التي تمت زمن الخليفة الوليد، كان الحجاج صاحب الفضل في المبادرة للقيام بها، فهو الذي بعث قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان لفتح منطقة ما وراء النهر، فأتم قتيبة ما ندب من أجله ووصل إلى حدود الصين، وهو الذي سير محمد بن القاسم الثقفي لفتح حوض نهر السند بالهند، كما أنه هو الذي جهز الجيوش وسيّرها للفتح، وهو الذي كان يجمع الأموال التي تنفق على هذه الجيوش من ولايته وهو الذي كان يحث القادة العسكريين على المضي قدماً في غزوهم ويمدهم بآرائه ونصائحه، وأغلب الظن أنه لولا كل هذا الذي قام به الحجاج لما استطاع عبد الملك وابنه الوليد من بعده أن يسجلا للدولة الأموية في زمنهما كل هذه المفاخر في التوسع واستتباب الأمن، وقد استمرت ولاية الحجاج على العراق مدة عشرين سنة ومات في خلافة الوليد بن عبد

---

(٩٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥ ص١٤، ابن خلدون المقدمة، ج٢ ص ٨١٨ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١١٢.

(٩٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤ ص ٥١.

(٩٩) الطبري، ج ٦ ص١٩٣.

(١٠٠) إحسان صدقي العمد، الحجاج بن يوسف الثقفي، بيروت، ص ٣٧٠.

الملك، وكان المنصور يتمنى لو أن الله هيأ له حكاماً كالحجاج في إخلاصه وطاعته للوليد(١٠١).

لم يكن الحجاج الوالي الشامي الوحيد الذي حكم العراق، بل إن كل ولاة العراق باستثناء يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـــ ٩٩ هـ) كانوا من أهل الشام. فعدي بن ارطاة الفزاري الذي عينه عمر بن العزيز والياً على البصرة كان من أهل دمشق(١٠٢)، وكذلك عمر بن هبيرة الفزاري(١٠٣) الشامي الذي ولي العراقين ليزيد بن عبد الملك (١٠١ ـــ ١٠٥ هـ) بعد عزل أخيه مسلمة بن عبد الملك(١٠٤). فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـــ ١٢٥ هـ) عزل عمر بن هبيرة وعين خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق (١٠٥ ـــ ١٢٠ هـ) وكان جده يزيد من صحابة رسول الله قد نزل الشام(١٠٥). ويذكر ابن عساكر أن خالد بن عبد الله القسري من أهل دمشق، وداره بدمشق وإليه ينسب الحمام الذي يقابل باب قنطرة سنان بباب توما(١٠٦). واستعمل هشام كذلك جنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث من أهل دمشق على السند وخراسان(١٠٧)، وولي الحارث بن عمرو الطائي الذي كان قد ولي امرة البلقاء في خلافة عمر بن عبد العزيز على أرمينيه سنة ١٠٧ هـ وأضاف إليه اذربيجان سنة ١٠٨ هـ(١٠٨) وفي سنة ١٢٠ هـ عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله القسري، وولي يوسف بن عمر الثقفي الذي كانت منازل أهله في البلقاء(١٠٩)، على العراق واستمر والياً على العراق وخراسان حتى زمن يزيد بن الوليد بن

---

(١٠١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٤ ص ٧١.
(١٠٢) الزركلي، الاعلام ج ٥ ص ٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ٥٣.
(١٠٣) الذهبي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٦٢.
(١٠٤) الطبري، ج ٦ ص ٦٠٤، ٦٠٥.
(١٠٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١٢٣.
(١٠٦) تهذيب ج ٥ ص ٧١؛ مصعب الزبيري، نسب قريش ص ٩؛ ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٧٩.
(١٠٧) تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ٤١٥.
(١٠٨) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٥٦.
(١٠٩) الزركلي، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠.

عبد الملك الذي ولّى منصور بن جمهور الكلبي من سكان المزّة من ضواحي دمشق(١١٠)، على أن ولايته لم تطل إذ أن يزيدا عزله وأرسل عوضاً عنه عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز وكان محبوباً من العراقيين وله بين الناس مكانة مستمدة من مكانة أبيه(١١١)، وكان آخر ولاة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري(١١٢)، من قنسرين(١١٣)، من رجال مروان البارزين.

أما في مصر، فكان أول وال شامي عليها سعيد بن يزيد الأزدي من أهل فلسطين عيّنه يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ بعد وفاة مسلمة بن مخلد، فلما قدم سعيد والياً على مصر تلقاه عمرو بن قحذم الخولاني، فقال: «يغفر الله لأمير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولي علينا أحدهم(١١٤)» وقد بقي سعيد بن يزيد والياً على مصر حتى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ، فلما دعا إبن الزبير لنفسه بعث بعبد الرحمن بن جحدم الفهري فقدمها في طائفة من الخوارج فاعتزلهم سعيد بن يزيد، وعندما بويع مروان بن الحكم بالشام في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ سار مروان إلى مصر ومعه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وحسان بن مالك بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني وعدد كبير من أشراف الشام(١١٥). فدخلها في جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ وجعل ولايتها لابنه عبد العزيز الذي بقي والياً عليها (٢٠) سنة حتى وفاته سنة ٨٥ هـ(١١٦)، وإذا تركنا جانباً من ولي مصر من أمراء بني أمية(١١٧)، لوجدنا أن

---

(١١٠) ابن حزم، الجمهرة، ص ٤٢٨، الزركلي، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠.

(١١١) الطبري، ج٧ ص ٢٨٤.

(١١٢) المصدر السابق، ج٧ ص ٣٧٦.

(١١٣) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٧.

(١١٤) الكندي، الولاة والقضاة، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ ص ٤٠.

(١١٥) الكندي، ص ٤٢.

(١١٦) المصدر السابق، ص ٤٩ — ٥٠.

(١١٧) بالإضافة إلى عبد العزيز بن مروان وليها عبد الله بن عبد الملك (الكندي ص ٥٨) ومحمد بن عبد الملك (المصدر السابق ص ٧٢) والحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم وليها الهشام بن عبد الملك ثلاث سنين (المصدر السابق ص ٧٤).

ولاتها الشاميين كثيرون، منهم قرة بن شريك القيسي القنسريني[١١٨]، والذي كان كاتباً للوليد بن عبد الملك[١١٩]، ويعتبر قرة من أقدر ولاة مصر، دخلها في شهر ربيع الأول سنة ٩٠ هـ[١٢٠]، وبقي والياً حتى وفاته سنة ٩٦ هـ، وكان من أهم أعماله تدوين الديوان، وهو التدوين الثالث في مصر. وعين يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان الكلبي الدمشقي والياً على مصر سنة ١٠١ هـ[١٢١]، ويعود لبشر هذا الفضل في التدوين الرابع في مصر، وهو الذي رأى افتراق قضاعة في القبائل فكتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الأذن في استخراج من كان في القبائل منهم فيجعلهم دعوة منفردة فأذن له يزيد في ذلك، فأخرج مهرة من كنده، وأخرج تنوخا من الأزد وجهينة مع أهل الراية فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة[١٢٢]. وفي سنة ١٠٢ هـ ورد كتاب يزيد بن عبد الملك على بشر بتأميره على افريقية فاستخلف أخاه حنظلة وهو من أهل دمشق كذلك[١٢٣]، فأقرّه يزيد، فلما مات وخلفه هشام بن عبد الملك صرفه سنة ١٠٥ هـ[١٢٤]، ثم أعاده سنة ١١٩ هـ[١٢٥] فأقام إلى سنة ١٢٤ هـ عندما ورد كتاب هشام بتوليته افريقية.

وكان أول من دخل افريقية من أهل الشام في زمن بني أمية حسّان بن النعمان الغسّاني[١٢٦]، وكان له الدور الأكبر في توطيد الفتح في افريقية، فقد استقامت له بعد القضاء على الكاهنة[١٢٧]، وعمد إلى تدوين الدواوين وتنظيم الخراج وفرضه على عجم

---

(١١٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٤٠، الكلبي، جمهرة النسب ص ١٨٢/آ.

(١١٩) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٣٣٥.

(١٢٠) الكندي، ص ٦٤.

(١٢١) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٣ ص ٢٤٥، ويبين أن ابن يونس في كتابه تاريخ الغرباء يذكر أنه دمشقي.

(١٢٢) الكندي ص ٧٠.

(١٢٣) تهذيب ج ٥ ص ١٤.

(١٢٤) الكندي ص ٧٢.

(١٢٥) المصدر السابق ص ٨٠.

(١٢٦) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، تحقيق حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١م ص ٣١.

(١٢٧) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص ١٧٣. المالكي، رياض النفوس ص ٣١، ٣٢، ابن عذارى ج ١ ص ٢٣.

افريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية(١٢٨)، واتجه إلى إنشاء قاعدة بحرية جديدة تحل محل قرطاجنة ويتوافر لها الحماية والابتعاد عن غارات البيزنطيين، وهذه القاعدة البحرية هي تونس التي تتميز بأنها غير مفتوحة على البحر مثل قرطاجنة(١٢٩)، ولم يكتف حسّان ببناء مدينة تونس وإنما طلب من عبد الملك بن مروان أن يرسل إليه من يعمر دار الصناعة بتونس ويعلم المسلمين صناعة السفن في المغرب، فكتب الخليفة عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجه لتونس ألف قبطي بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش أي تونس(١٣٠). وأكمل موسى بن نصير(١٣١) فتح المغرب كله وفتح الأندلس وساهم موسى في نشر الإسلام في المغرب الأقصى، فترك في طنجة سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام(١٣٢)، وعمد موسى كذلك إلى توسيع دار الصناعة وشق القناة التي توصل بين ميناء رادِس وبين تونس على طول اثنى عشر ميلاً، وبفضل تلك القناة أصبحت المدينة مشتى للمراكب تحميها من العواصف والأنواء(١٣٣)، كما أنه أمر بصناعة مائة مركب(١٣٤)، واهتمام ولاة بني أمية بدار الصناعة بتونس هو الذي مهّد وساعد على غزو صقلية في أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم الأغلبي(١٣٥).

وقد رأينا أن بشر بن صفوان ولي افريقية سنة ١٠٣ هـ، وعندما وفد سنة ١٠٥ هـ على يزيد بن عبد الملك وجده قد هلك، فردّه هشام سنة ١٠٥ هـ إلى

(١٢٨) ابن عبد الحكم ص ٢٠١، ابن عذارى ج ١ ص ٢٩.

(١٢٩) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، دار المعارف بمصر، ص ٢٠٢.

(١٣٠) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ١٣٨٦ هـ، ص ٣٢، ٣٣.

(١٣١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي، المختلف على أصله بين عربي صريح أو مولى. كان أبو نصير على حرس معاوية (ابن خلكان، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٣٤) ونشأ موسى في دمشق وكان على خراج البصرة ثم التحق بعد ذلك بعبد العزيز بن مروان (ابن عذارى ج ١ ص ٣٢)، (الاعلام ج ٨ ص ٢٨٥).

(١٣٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٣٦، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٢.

(١٣٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٥٧.

(١٣٤) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٧.

(١٣٥) المقريزي، الخطط، ج ٣ ص ٥.

افريقية حيث بقي والياً حتى وفاته سنة ١٠٩ هـ فكانت ولايته سبع سنين، وكان أهم أعماله غزوه لصقلية[١٣٦]، ثم عين هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السُلّمي وهو ابن أخي أبي الأعور السُلّمي صاحب خيل معاوية بصفين، فقدم افريقية سنة ١١٠ هـ وعزل سنة ١١٤ هـ حيث توجه إلى الشام بهدايا وتحف عظيمة[١٣٧]، وعندما انتقض البربر سنة ١٢٢ هـ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب أرسل هشام كلثوم ابن عياض القشيري أمير مدينة دمشق والياً على افريقية والمغرب، فلما قتل في المعركة التي قادها ضد البربر بعث هشام إلى افريقية سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان الكلبي عامله على مصر منذ سنة ١١٩ هـ حيث استطاع القضاء على الخوارج في معركتين هما معركتا القرن والأصنام، وبقي والياً حتى دعا عبد الرحمن بن حبيب الفهري إلى نفسه، وأراد حنظلة الخروج إليه والزحف لقتاله، ثم كره قتال المسلمين، إذ أنه كان كما يقول ابن عذاري، ذا ورع ودين فترك افريقية سنة ١٢٩ هـ[١٣٨].

وهكذا نرى كثرة الولاة من العرب الشاميين في العراق ومصر وافريقية ودورهم الكبير في التنظيم والإدارة، والفتوح وعمران الأرض ونشر الإسلام في ربوع الدولة الإسلامية وفي دعم حكم بني أمية فيها.

الموالي

الموالي في نظر مؤرخي التاريخ الإسلامي هم المسلمون من غير العرب، فكان كل فرد من غير العرب من أبناء الدولة الإسلامية يصبح مولى إذا اعتنق الإسلام ويقف على قدم المساواة مع أخيه العربي المسلم لا فرق بينهما ولا فضل لأحدهما على الآخر إلاّ بالتقوى، وقد تجلّت معالم المساواة بين العرب والموالي منذ فجر تاريخ الدولة الإسلامية عندما فرض عمر بن الخطاب لسلمان الفارسي في أربعة آلاف درهم وفرض للهر مزان

---

(١٣٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨.
(١٣٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٠.
(١٣٨) المصدر السابق، ج ١ ص ٦٢.

في ألفين من العطاء(١٣٩). كما فرض عمر لكبار دهاقين فارس والعراق الذين أسلموا، تقديراً لخدماتهم للدولة الفتية(١٤٠)، وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد «ومن اعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوة في العطاء(١٤١)». وعندما بلغ عمر بن الخطاب أن قوماً قدموا على عامل فأعطى العرب وترك الموالي، كتب إليه «أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام(١٤٢)» أي أن عامل العطاء كان له دوره في تحديد المساواة بين العرب والموالي وتحديد مكانتهم الاجتماعية، فإلى أي مدى طبقت هذه المساواة في الشام في العصر الأموي؟

الروايات المتعلقة بالموالي في الشام محدودة إذا قيست بتلك المتعلقة بالعراق والجناح الشرقي، ذلك أن القبائل العربية المتنصرة كانت تشكل نسبة لا يستهان بها كما رأينا، وعندما دخل أفراد هذه القبائل بالإسلام أصبحت مرتبتهم كالعرب المسلمين سواء بسواء، ومن أسلمَ من أهل الذمة من غير العرب على أرض الخراج رفعت الجزية عن رأسه وانتقلت أرضه إلى أصحابه من أهل قريته يؤدون خراجها عنها وأسلموا له ماله ورقيقه وفرضوا له في ديوان المسلمين(١٤٣). وهؤلاء كانت نسبتهم قليلة لأن دخولهم في الإسلام كان بطيئاً كما سنشير إلى ذلك أثناء الكلام عن أهل الذمة، أما الروايات القليلة التي تشير إلى الروم الذين دخلوا في الإسلام فليس فيها ما يوحي بأنه كان يستهان بهم وليس فيها إشارات إلى أنهم نظموا حياتهم الاجتماعية في بادىء الأمر بالانضمام إلى أقوى القبائل العربية كما فعل الأساورة مثلاً الذين انضموا إلى بني تميم لأنهم أقرب الأحياء نسباً إلى رسول الله(١٤٤)، وإنما كونوا قبيلة وحدهم، وإذا اعتمدنا

(١٣٩) البلاذري، فتوح ص ٤٤٣.
(١٤٠) المصدر السابق ص ٤٤٢.
(١٤١) المصدر السابق ص ٤٤٤.
(١٤٢) المصدر السابق ص ٤٤٣.
(١٤٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى ص ٥٩٣.
(١٤٤) البلاذري، فتوح ص ٣٦٦، الطبري ج ٤ ص ٩٠، ويذكر البلاذري في صدد الحديث عن تمصير الكوفة أنه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شاهنشاه، فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ←

رواية الواقدي، نجد أن حاكم قلعة حلب دخل في الإسلام ودخل معه من كان يخدمه بحلب وأن ثلاثة آلاف فارس من فرسان الروم قد دخلوا في الإسلام واشتركوا في فتح الساحل(١٤٥)، ودخل مع عمرو بن العاص من الشام قوم من العجم يقال لهم الحمراء وهم قوم من الروم فيهم بنويِّنَّة، وبنو الأزرق، وبنو روبيل، فنزل هؤلاء كما يقول ابن عبد الحكم الحمراء التي بالقنطرة(١٤٦) ويبدو أن الجماعات الفارسية التي أسكنها معاوية الساحل ألفت قبائل وحدها كذلك، إذ ليست لدينا إشارات إلى انضمامهم إلى قبائل عربية، وهذا دليل على عدم لجوء كل المسلمين من غير العرب إلى الولاء في الشام منذ البدء، بعكس ما حدث في العراق، فهل يعني ذلك أن هؤلاء المسلمين كانوا يشعرون من جهة أن سيطرة الدولة واعتبارها الضمان للمشاركة كان أقوى في الشام منه في العراق، وأن العصبية القبلية كانت متخلخلة في الشام، وأن قوى المبادىء الإسلامية التي تؤكد على المساواة كانت واضحة جلية فيها(١٤٧)؟ هذا فيما يتعلق بالجماعات، أما الأفراد فكان منهم من يلجأ إلى الولاء ومنهم من لا يلجأ، فالأدركون كان قسيساً أسلم على يد خالد بن الوليد حين فتح دمشق وأصبح اسمه أبا اسحق القرشي مولى خالد بن الوليد وإلى أحد أحفاده سنان تنسب قنطرة سنان بنواحي باب توما(١٤٨)، بينما نجد أن أبا عبد رب الزاهد كان رومياً اسمه قسطنطين، فلما أسلم تسمّى عبد الرحمن(١٤٩)، ويبدو أن موالي العتاقة هم الذين كانوا يحملون اسم عشيرة سيدهم مرفقة بكلمة مولى(١٥٠) إشارة إلى أن رابطتهم هي رابطة اجتماعية لا رابطة دم، وأغلب الظن

ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في العطاء، فأعطوا الذي سألوه، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم، وأنزلهم سعد حيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف.

(١٤٥) الواقدي، فتوح الشام ج ٢ ص ١٧.

(١٤٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص ١٢٩.

(١٤٧) عندما يتكلم الدكتور عبد العزيز الدوري عن الموالي في العراق يشير إلى أن ظاهرة عدم اللجوء إلى الولاء هي ظاهرة بدأت في العصر الأموي في العراق وليس كما هو الأمر في الشام. مقدمة في التاريخ الاقتصادي، بيروت، ١٩٦٩م ص ٤٢، ٤٣.

(١٤٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٠٦.

(١٤٩) أبو زرعة، تاريخ أبي زرعة، ج ١ ص ٢٤٧، ٣٦٨.

(١٥٠) كتب عمر إلى بعض عماله: الموالي ثلاثة، مولى رحم، ومولى عتاقه، ومولى عقد، فمولى الرّحم يرث

أن نسبة كبيرة من الموالي في الشام كانوا موالي عتاقة، إما من الرقيق الذي كان موجوداً قبل الفتح أو من الرقيق الذي كان يؤلف الخمس من الأسرى أو السبي والذي كان يرسل إلى المدينة أولاً ثم إلى دمشق بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية، ولذلك فإن هؤلاء كانوا من أصول مختلفة، فارسية، رومية، بربرية، تركية، وكان لموالي العتاقة مكانتهم عند خلفاء وامراء بني أمية، فهذا أبو حفصة يزيد من سبي إصطخر اشتراه عثمان فوهبه لمروان بن الحكم، فشهد أبو حفصة الدار مع مروان[١٥١]، فلما جرح يومئذ احتمله أبو حفصه وداواه حتى برىء، فأعتقه مروان وزوجه أم ولد يقال لها سُكّر، كانت له منها بنت يقال لها حفصة، فحضنها فكني أبو حفصة، فحفصة بنت مروان، وكان مروان إذا ولي المدينة وجه أبا حفصة إلى اليمامة، وكانت مضافة إلى المدينة ليجمع ما فيها من المال ويحمله إليه[١٥٢]، وكان لأبي حفصة مولى مروان بن الحكم ابن يقال له مروان وكان شجاعاً مجرّباً أمدّ به عبد الملك بن مروان الحجاج وقال له: قد بعثنا إليك مولاي ابن أبي حفصة، وهو يعدل ألف رجل فشهد معه محاربة ابن الأشعث، فأبلى بلاء حسناً وعقرت تحته عدة خيول، فاحتسب بها الحجاج عليه من عطائه، فشكاه إلى عبد الملك، فعوّضه ما كان أغرمه الحجاج[١٥٣]، وعندما خطب يحيى بن أبي حفصة إلى مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري، ابنته وأختيه، أنعم له بذلك، وبعث إلى بنيه سليمان وعمر وجميل فزوجهن بنيه[١٥٤]، وكان ميمون الجُرجماني عبداً رومياً لبني أم الحَكَم أخت معاوية بن أبي سفيان وهم ثقفيون، وإنما نسب إلى الجَراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم، فبلغ عبد الملك عنه بأس وشجاعة، فسأل مواليه أن يعتقوه، ففعلوا فعهد إليه بقيادة جماعة من الجند وصيره بأنطاكية، فغزا مع مسلمة بن عبد الملك وهو على ألف من أهل أنطاكية[١٥٥]،

ويورث، ومولى العتاقة، يورث ولا يرث، ومولى العقد لا يرث ولا يورث وميراثه لعصبته، (ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤٣٦).

(١٥١) الطبري، ج ٤ ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(١٥٢) الأغاني، ج ١٠ ص ٧٥.

(١٥٣) المصدر السابق، ج ١٠ ص ٧٥.

(١٥٤) المصدر السابق، ج ١٠ ص ٧٥.

(١٥٥) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥

واعتمد سحيم بن المهاجر في القضاء على ثورة الجراجمة في جبل اللُّكام في خلافة عبد الملك بن مروان بجيش من موالي عبد الملك وموالي بني أمية بالإضافة إلى جند من ثقات جنده[١٥٦] وأرسل عبد الملك أربعين رجلاً من أهل فرغانه مع رجل من بصرى للقبض على الحارث الكذّاب الذي ادّعى النبوة وطلب منهم أن ينطلقوا معه ويطيعوه[١٥٧]. وفي رواية عن ابن لهيعة أن معاوية فرض للموالي خمسة عشر فبلغهم عبد الملك عشرين ثم بلغهم سليمان خمسة وعشرين، ثم قام هشام فأتم للأبناء منهم ثلاثين[١٥٨]. وأغلب الظن أن هذا المبلغ هو بالدينار وأنه فريضة موالي العتاقة، فعن أبي بكر بن أبي مريم أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً[١٥٩]، وفي تاريخ أبي زرعة أن عمر بن عبد العزيز أجرى على عمرو بن المهاجر كل شهر عشرين ديناراً، وعمرو بن المهاجر مولى أسماء ابنة يزيد بن السكن الأنصاري[١٦٠]، مولى الأنصار، وهذا يشير إلى أن موالي العتاقة كانوا يأخذون العطاء إذا سجلوا في ديوان المقاتلة، وكان هؤلاء يسجلون ضمن القبائل التي ينتسبون إليها، فعن رجاء بن حيوة أنه قال: أنا ممن أنعم الله عليه بالإسلام وعدادي في كندة[١٦١]، وكان مكحول فيمن افترض في العطاء فكان يأخذه ويتقوى به على جهاد العدو[١٦٢]. وكان بكير بن ماهان من موالي بني مسلية يسكن الأردن من الشام وكان من أهل الديوان قبل أن يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت[١٦٣]، وألحق الأوزاعى في الديوان وضرب عليه بعث إلى اليمامة وهناك التقى بيحيي بن أبي كثير فقرر متابعة علمه فترك الديوان[١٦٤].

---

(١٥٦) ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٠٤.

(١٥٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٢٤.

(١٥٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤٠.

(١٥٩) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٧٧.

(١٦٠) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٧٧.

(١٦١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٣٧.

(١٦٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٨؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢ قسم ٢ ص ١٦١، ومكحول الدمشقي من أهل كابل وكان لعمرو بن سعيد بن العاص فوهبه لرجل من هذيل بمصر فأعتقه.

(١٦٣) أخبار الدولة العباسية، أخبار العباس وولده، تحقيق د. عبد العزيز الدوري، د. عبد الجبار المطلبي، بيروت ص ١٩١.

(١٦٤) الدهبي، سير أعلام البلاء ح ٧ ص ١٠٩، يعتبر محمد بن سعد، الاوزاع بطن من همدان وان الاوزاعي

كان للفقهاء من الموالي مكانة كبيرة لدى الخلفاء، والأمراء وأهل الشام، فهذا رجاء بن حيوة مولى بني كندة[١٦٥]، كان زاهد بني أميه وهو الحاكم في دولتهم برأيه[١٦٦] وعن مسلمة بن عبد الملك أن في كندة لثلاثة إن الله عز وجل ينزل بهم الغيث وينصر بهم الأعداء، رجاء بن حَيوة، وعُباده بن نسي، وعَدي بن عَدي، وكان رجاء بن حيوة يعتبر سيد أهل فلسطين، كما اعتبر عبادة بن نسي سيد أهل الأردن، وعدي بن عدي سيد أهل الجزيرة[١٦٧].

وكان ميمون بن مهران عالم الجزيرة ومفتيها أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة فنشأ بها ثم سكن الرقة[١٦٨]، وكان يعتبر مع مكحول والحسن البصري والزهري علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك، وكل هؤلاء الفقهاء من الموالي إلا الزهري، وعندما اتهم الزهري بأنه لا يحدث عن الموالي قال: اني لأحدث عنهم، ولكن إذا وجدت أبناء أصحاب رسول الله (صلعم) من المهاجرين والأنصار فما أصنع بغيرهم[١٦٩]، أي أن الزهري يؤمن بأن المكانة الأولى في نقل الحديث إنما هي لأبناء المهاجرين والأنصار ومن ثم للفقهاء من الموالي.

ازداد الاعتماد في الشؤون الإدارية ولا سيما في الدواوين على الموالي في الفترة المروانية، فكان أبو الزعيزعة مولى عبد الملك على الرسائل وسليمان بن سعد مولى خشين على الخراج والجند بعد أن ترجم ديوان الشام إلى العربية[١٧٠]، وبقي سليمان بن سعد على الخراج والجند في خلافة الوليد وسليمان ابني عبد الملك[١٧١]، وكان جناح

هو من أنفسهم، أما البخاري، والهيثم بن خارجه فيرون أنه لم يكن من الاوزاع بل نزل فيهم ويذكر أبو زرعة الدمشقي أن أصله من سبي السند، وأنه ولد سنة ٨٨ هـ، الذهبي، ج ٧ ص ١١٦.

(١٦٥) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٣٣٧.
(١٦٦) العيون والحدائق ج ٤ ص ٣٨، ٩٠.
(١٦٧) أبو زرعة، المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٧، الذهبي — سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٢٤.
(١٦٨) الذهبي — المصدر السابق، ج ٥ ص ٧١.
(١٦٩) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٤.
(١٧٠) خليفة بن خياط — تاريخ — ج ١ ص ٣٩٥.
(١٧١) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨، ٤٣١، ٤٣٢.

مولى الوليد بن عبد الملك على الرسائل، وعمرو بن الحارث مولى عامر بن لؤي على الخاتم، ثم جمع الوليد لجناح مولاه الرسائل والخاتم[172]، وكان ليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان كاتب الرسائل للخليفة سليمان بن عبد الملك، ونعيم بن أبي سلامة مولى لأهل اليمن على الخاتم وعبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي على بيوت الأموال والرقيق والنفقات[173]. وبقي الليث بن أبي رقية كاتباً للرسائل في خلافة عمر بن عبد العزيز[174]، ثم أصبح سالم مولى سعيد بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك، وعَبد الله بن الحَبحاب مولى بني سلول على الخراج والجند، ثم ولاه خراج مصر وجعل مكانه سعيد بن عقبة مولى بني الحارث بن كعب، وعلى الخاتم الربيع بن شابور مولى بني الحريش، وعلى الخاتم الصغير والخاصة اصطخر أبو الزبير مولاه[175]، وكان من أشهر من نبغ من الكتاب الموالي عبد الحميد يحيى بن سعد العامري بالولاء المعروف بالكاتب وتلميذ سالم مولى هشام بن عبد الملك[176].

كذلك ازداد اعتماد الخلفاء على الموالي الشاميين في إدارة ولاية افريقية، فقد عين سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش من الشام والياً على افريقية، فكانت ولايته سنتين وأشهر وسار كما يقول ابن عذارى «أحسن سيرة وأعدلها في افريقية[177]». وفي سنة ١٠٠ هـ. ولّى عمر بن عبد العزيز اسماعيل بن أبي المهاجر، أبو عبد الحميد الدمشقي مولى بني مخزوم[178]، ولاية افريقية «وبها من بها من قريش وغيرهم[179]» وكان قبل ذلك مؤدباً لأولاد عبد الملك من عاتكه، يزيد ومعاوية ومروان[180]، وكان من أهم أعماله حرصه على نشر الإسلام بين البربر، حتى أسلم

---

(١٧٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨، ٤١٩.
(١٧٣) خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣١، ٤٣٢.
(١٧٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٨.
(١٧٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٥.
(١٧٦) الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٦٢.
(١٧٧) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٤، ٤٥.
(١٧٨) الذهبي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٣١٣، أبو زرعة، ج ١ ص ٣٢٨. ابن عذارى ج ١ ص ٤٥.
(١٧٩) أبو زرعة، ج ١ ص ٣٤٨.
(١٨٠) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨.

نقية البربر بافريقية على يديه ، كما أنه علّم أهل افريقية الحلال والحرام وبعث معه عمر ابن عبد العزيز عشرة من التابعين أهل علم وفضل(١٨١) .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أصبح عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول(١٨٢) ، عاملاً على الخراج في مصر وظل عاملاً على الخراج إلى أن عين والياً على افريقية سنة ١١٦ هـ(١٨٣) وقد امتد نفوذه إلى عزل الولاة في مصر وتوليتهم برضى الخليفة(١٨٤) ، ويعود لعبيد الله بن الحبحاب الفضل في نقل قيس إلى مصر سنة تسع ومائة(١٨٥) ، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك ، إلاّ ما كان من فَهم وعَدوان ، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتاً فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على الا ينزلهم الفسطاط(١٨٦) وقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالي ، وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاة بينهم وبين الأهالي ، ولذلك يقول المقريزي « ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلاّ بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب قيساً بالحوف الشرقي ، فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها(١٨٧) . ويرى لين بول Lane Poole ان الذي دعا عبيد الله بن الحبحاب إلى إحضار قيس إلى مصر هو ما رآه من عدم انتشار الإسلام بين الاقباط(١٨٨) .

وعندما قدم عبيد الله بن الحبحاب افريقية والياً ، أرسل حبيب بن أبي عبده على رأس جيش إلى السوس وأرض السودان ، كما يبدو أنه قام بعمليات تنظيمية في

---

(١٨١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٦ .

(١٨٢) خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٤٥ .

(١٨٣) ابن عذارى ج ١ ص ٥٠ .

(١٨٤) الكندي ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(١٨٥) المقريزي ، الخطط ج ١ ص ١٤٦ .

(١٨٦) الكندي ص ٧٦ ، ٧٧ ، المقريزي ، الخطط ج ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١٨٧) المقريزي ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، القاهرة ١٣٥٦ هـ ص ٥٠ — ٥١ .

(١٨٨) Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P. 28.

المغرب الأقصى بتقسيمه إلى قسمين، السوس الأدنى وهو طنجه وما والاها والسوس الأقصى في الجنوب(١٨٩).

وهكذا نرى أن الولاة من الموالي الشاميين قد حققوا كالولاة الشاميين من العرب الكثير في مجال التنظيم الإداري وميدان نشر الإسلام، كما يتبّين لنا بالاسناد إلى الروايات التي بين أيدينا على قلتها المكانة التي كانت للموالي في الشام، ولم يكن الأمر يختلف في العراق عما هو في الشام بالرغم من أن عدداً من المستشرقين ومن مؤرخينا العرب المحدثين قد حاولوا البرهنة بالاعتماد على روايات وأخبار متفرقة وردت في العقد الفريد وبعض الأخبار القليلة المبعثرة في كتاب الأغاني أو في مصادر أخرى أن الأمويين كانوا يتعصبون للعرب وأن الموالي كانت طبقة مستغلة مضطهدة محتقرة(١٩٠)، هذه الأخبار في الواقع تسجل حالات فردية لا يمكن أن نستخرج منها قاعدة تصف سياسة الدولة أو الرأي العام، كما أن جل الأخبار الواردة كما يقول الدكتور الدوري هي أخبار تتصل بالبيئات القبلية وبمفاهيمها، وهي بيئات لا تحترم الحرف اليدوية والفلاحة، وتعتز بالفروسية وبفن القتال، وطبيعي أن تكون نظرة هؤلاء إلى الموالي من فلاحين وصناع نظرة لاتتسم بالاحترام(١٩١)، ثم اننا يجب أن لا ننسى كثرة الموالي في العراق، فقد

---

(١٨٩) ابن عبد الحكم — فتوح مصر، ص ٢١٧ — ٢١٨.

(١٩٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، باب المتعصبين للعرب ص ٤١٢، ٤١٧.

Von Kremer, Kulture Geschichtlische Streifzuge auf dem Gebeit des Islames, Calcutta, 1950, PP.78-82.

Brown, A Literary History of Persia, London, 1959, PP. 232-240.

فان فلوتن، الشيعة والاسرائيليات، لاسيما صفحات ٢١ وما بعدها، و٣٥ وما بعدها عندما يتكلم عن أوضاع الموالي السياسية والاجتماعية.

جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٢١، ج ٤ ص ٥٨ — ٦١ فيليب حتي، تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠.

الخربطلي، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي في بحث الموالي خاصة ص ٢٥٥. ٢٥٦، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ح ١ ص ١٣، ١٤، ص ١٤٧ وما بعدها، ص ٢٦٢، بعنوان تعصب الأمويين للعرب.

(١٩١) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٤٢.

كان عددهم في الكوفة زمن معاوية ٢٠ ألفاً[١٩٢]، ولا شك أن هذه الاعداد قد ازدادت مما جعل العرب يشعرون في قرارة نفوسهم أن معظم الموالي لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة، ولكن لمصالح شخصية ذاتية، ولذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالي أن إسلامهم قد ساواهم بالعرب وشعروا أن ازديادهم ومساواتهم بالعرب قد يشكل خطراً عليهم يتهددهم، هذا ما نفهمه من قول ابن مطيع عامل عبد الله بن الزبير على الكوفة «وإنما ذهب عزكم وسلطانكم وتغيّر دينكم حين يكثرون[١٩٣]».

أما ولاة بني أمية فقد اعتمدوا على الموالي في وقت مبكر، فهذا زياد بن أبيه يكتب إلى معاوية يوصيه باستخدامهم «لأنهم أنصر وأغفر وأشكر[١٩٤]»، كما استخدمهم في جباية الخراج، وكذلك فعل عبيد الله لأنه وجد الدهاقين «أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون على المطالبة[١٩٥]» وعين الحجاج صالح بن عبد الرحمن على ديوان الخراج بعد أن عرّبه[١٩٦]، كما ولّى سعيد بن جبير القضاء. فلما ضج أهل الكوفة وقالوا: لا يصلح القضاء إلاّ لعربي، ولي أبا بردة وأمره ألا يقطع أمراً دونه[١٩٧]، وجعله كاتباً ووزيراً له[١٩٨]، ولكن أهل الكوفة يقبلون بعد ذلك بعامر الشعبي قاضياً في خلافة عمر بن عبد العزيز، كما أن الحسن بن أبي الحسن البصري تولى قضاء البصرة في هذه الفترة، وكلاهما من الموالي[١٩٩]، وكانت منزلة الكتاب ورجال العلم من الموالي محترمة حتى في الأوساط القبلية، فقد عاش الحسن البصري عيشة الزعماء في البصرة، ولقي احترام الجميع وإجلال السلطة ورجالها، ويذكر ابن خلكان أنه عندما توفي الحسن البصري تبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع،

---

(١٩٢) الدينوري، الأخبار الطوال ص ٢٨٨.
(١٩٣) الطبري، ج ٦ ص ٢٥.
(١٩٤) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ١ ص ٢٣.
(١٩٥) المصدر السابق، ج ٤ قسم ٢ ص ١٠٩.
(١٩٦) البلاذري، فتوح ص ٢٩٨، وكان أبو صالح من سبي سجستان.
(١٩٧) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ١ ص ٣٩.
(١٩٨) ابن قتيبة عيون الأخبار، ح ١ ص ٦٢، ابن خلكان، ج ١ ص ٢٠٥.
(١٩٩) الطبري، ج ٦ ص ٥٥٤.

ولا أعلم كما يقول «أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ لأنهم تبعوا كلهم الجنازة ولم يبق من يصلي العصر[٢٠٠]»، والأمثلة على الاحترام الذي كان يلاقيه الموالي من العلماء كثيرة، يكفي أن نقرأ كتب الرجالات حتى نتبين أن مكانة هؤلاء العلماء كانت واحدة سواء كان العالم الفقيه عربياً أو مولى.

وإذا كانت لدينا روايات تشير إلى أن أشراف الكوفة كانوا يرفضون اشراك موالي العتاقة في الديوان، فليس معنى هذا أن موالي العتاقة لم يكونوا يسجلون أو لم يكن يفرض لهم، فقد ورد في البلاذري أن عبيد الله بن زياد سبي خلقاً من أهل بخارى وأنه أسكنهم البصرة وفرض لهم[٢٠١]. كما أننا عندما نقرأ بأن الحجاج بعث إلى شبيب الخارجي، أبا الضريس مولى بني تميم في ألف من الموالي[٢٠٢]، وأن الحجاج عمل على أن يسقط ديوان الموالي لاشتراكهم في ثورة ابن الأشعث[٢٠٣]، فإننا لا نستطيع أن نبرهن بأن هؤلاء الموالي كلهم كانوا موالي حلف وأنه ليس بينهم موالي عتاقة، أما في المشرق فإننا إذا استثنينا الحكام المحليين الذين أسلموا واستمروا يمارسون سلطانهم تحت إشراف العمال العرب، والذين يمكن أن نفترض بأنهم كانوا يعتمدون على أبناء المنطقة في تسيير شؤون إدارتهم، فإن القادة العرب اعتمدوا على رجال من الموالي من أصحاب الرأي والمشورة مثل الفضل بن بسام مولى بني الليث، وعبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سليم والبُختري بن مُجاهِد مولى بني شيبان[٢٠٤]، وكان البختري مستشار نصر بن سيار وكاتبه وصاحب أمره[٢٠٥]، وكان هارون بن السَيَاوشِ قائد خراسان[٢٠٦]، ونَيزك ابن صالح حاكم الشاش من الموالي[٢٠٧]، وفي ولاية قتيبة على خراسان وجد ما يزيد عن

---

(٢٠٠) ابن خلكان ج ١ ص ١٢٩.

(٢٠١) البلاذري، فتوح ص ٣٦٩، ٤٠١، الطبري، ج ٥ ص ٢٠٤.

(٢٠٢) ابن أبي الحديد، ج ٤ ص ٢٤٨.

(٢٠٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤١٦، ٤١٧.

(٢٠٤) الطبري، ج ٧ ص ٧٩.

(٢٠٥) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٥٥/١٥٩/٣٨٤.

(٢٠٦) المصدر السابق ج ٧ ص ١٧٦/١٩٥.

(٢٠٧) الطبري، ج ٧، ص ١٧٧.

٣٠ ألف مقاتل عربي وسبعة آلاف من الموالي وعليهم حيان النبطي مولى بني شيبان[٢٠٨]، وليس هناك إشارة إلى أن هؤلاء المقاتلة من الموالي لم يكن لهم عطاء والا لذكر ذلك.

ثم ان الثورات التي قامت في العصر الأموي في الشرق هي ثورات عربية ولا نجد ثورة للموالي تستحق الذكر قامت تحت رايتهم أو بدعوتهم وإنما شارك فيها الموالي مع حلفائهم (مواليهم) أو مع رؤساء قادة الأحزاب، ولذلك فإننا عندما ندرس الروايات التاريخية يجب علينا أن ننتبه إلى اختلاطها في مطلع القرن الثاني للهجرة بسبب ظهور الفرق الدينية السياسية ونشوب الفتن بين المسلمين، كما يجب الانتباه كما يقول الدكتور فاروق عمر إلى مبالغات الشعوبية ومغالطاتها، وبالرغم من أننا لا ننكر وقوع حالات من الضغط الاقتصادي والتمييز الاجتماعي إلا أنها لم تكن في الحقيقة تدل على الوضع العام للموالي فقط لأنها أصابت العجم الضعفاء كما أصابت العرب الضعفاء كذلك[٢٠٩].

أهل الذمة

أهل الذمة هم الذين شملهم الإسلام من النصارى واليهود بعهده وأمانه ثم أولئك الذين طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد ونظام أهل الذمة، وكان الرسول أول من طبق عملياً قواعد نظام أهل الذمة على النصارى واليهود في الحجاز ثم على مجوس البحرين، إذ فرض الجزية على النصارى واليهود ثم قررها أيضاً على المجوس قائلاً: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب[٢١٠]» وكانت الجزية مقابل المنعة وتعهد المسلمين بالمحافظة على أرواح السكان وأموالهم ودياناتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، ولم تكن كما يحاول البعض توضيحها نوعاً من العقوبة والجزاء، وكيف تكون كذلك وقد فرضت على الذكور البالغين من أهل الذمة ولم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ، وكيف

(٢٠٨) المصدر السابق، ج٦ ص ٥١١.

(٢٠٩) د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م ص ١٣٢.

(١١٠) البلاذري، فتوح ص ٢٦٦.

يمكن اعتبارها عقوبة وهذا خالد يطرح الجزية عن كل شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر؟ ولم يكتف بطرح الجزية عن هؤلاء بل جعل بيت مال المسلمين مسؤولاً عن إعالتهم وإعالة عائلاتهم ماأقاموا بدار الهجرة ودار الإسلام(٢١١).

وقد أُدرك المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السكان وأن يملأ عليهم آفاقهم حتى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الخوف والقلق، وحين تتوافر لهم هذه الاجواء فإنما تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والإعجاب بما يؤمنون به، وقد يكون الإعجاب طريقاً للمشاركة والوحدة، ومن أجل هذا كان أول ما كان في كتب الصلح المختلفة أن يعطي القائد أو الخليفة للسكان الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم، جاء هذا في كتاب خالد لأهل دمشق(٢١٢)، وفي كتاب عمرو بن العاص لأهل غزة وَسَبَسطِية ونابلس(٢١٣)، وكتاب أبي عبيدة لأهل بصرى وحمص وبعلبك(٢١٤)، وكتاب شُرَحبيل بن حسنة لأهل طبرية(٢١٥)، وفي كتاب عمر بن الخطاب إلى أهل بيت المقدس، وبذلك استطاع هؤلاء السكان أن يتنفسوا في جو حر، فالأنفس والأموال في عرف المسلمين آمنة والأموال كلها مدنية تتصل بالأرض والمنازل ودينية تتصل بالكنائس والصلبان، والأنفس كلها ضعيفها وقويها، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، فلهذه الأنفس جميعاً مكانها في المجتمع الجديد، لا يضطهد ضعيفها، ولا يهمل مريضها، ولا تنسى فيه حقوق ولا واجبات، وتدرج كتاب الصلح الذي كتبه عمر لأهل إيلياء تدرجاً رائعاً فهو لم يقتصر على منح الأمان لسكان البلاد وحدهم وإنما منح هذا الأمان للروم كذلك، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله

---

(٢١١) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م، ص٣١٦، ٣١٧.

(٢١٢) البلاذري، فتوح، ص١٢٨.

(٢١٣) المصدر السابق، ص١٤٤.

(٢١٤) المصدر السابق ص ١٢٠، ١٣٧، ١٣٦.

(٢١٥) المصدر السابق، ص١٢٣.

حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء، ووقف كتاب الصلح مثل هذا الموقف أيضاً ممن كان بإيلياء من أمم الأرض جميعاً لم يهمل شأنهم وأتاح لهم الأمان ما أتاح لغيرهم، وآمنهم أن يلحقوا بأرضهم أو يظلوا في مكانهم أو يلتحقوا بالروم «ومن كان بها من أهل الأرض... فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله[٢١٦]».

ووقف الإسلام من النصرانية في الشام موقف التحبب والود، فتفهم الإسلام وتقديسه للأديان السابقة وإيمانه بالأنبياء الذين تقدّموا محمدا (صلعم) واعتباره ذلك شرطاً في صحة العقيدة، كل ذلك كان كفيلاً، أن يكون مرحلة في التطور الديني، وتقبله واعتناقه والاندماج في أصحابه، ولما كان شعار الإسلام أن لا إكراه في الدين فان أهل الشام تمتعوا بحرية لم تتح في ذلك الوقت في العالم إلا في أضيق الحدود، وقد آمنهم عمر على عقائدهم وآمنهم كذلك على كل ما يتصل بهذه العقائد من مقدسات وصلبان وكنائس، ووقف بذمته بينها وبين «أن تُسكَن أو تهدّم أو يُنتَقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم....» وأباح لهم أن يستمتعوا بما يعتقدون في مدى واسع من الحرية، فلا يتطلع إليهم أحد بإكراه ولا ينالهم من أحد إجبار «ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم[٢١٧]». وما أكثر الروايات التي تشير إلى اهتمام عمر بأهل الذمة وتخفيف الجزية على من لا يطيقها وإعانة من عجز على دفعها[٢١٨]. وأوصى عمر بن الخطاب عند وفاته بذمة رسول الله (صلعم) أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم[٢١٩]».

بالرغم من سياسة التسامح هذه تجاه أهل الذمة، فان عمر اضطر أن يتخذ موقفاً معيناً من عرب الشام والجزيرة، فعرب الشام قبل الفتح كانوا كلهم على الدين

---

(٢١٦) الطبري، ج ٣ ص ٦٠٩ من عهد عمر لأهل ايلياء.

(٢١٧) المصدر السابق، ج ٣ ص ٦٠٩، ٦١٠.

(٢١٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٨٠، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٣٤.

(٢١٩) أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة ١٣٤٦، المطبعة السلفية، ص١٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، البخاري، الجامع الصحيح ج ٢ ص ٢٩٣.

المسيحي، وكان للغساسنة مكانة رفيعة بينهم، ولذلك فإن الروايات المتعلقة بجَبلَة بن الأيهَم يشير بعضها إلى إسلامه ثم ارتداده[٢٢٠] وبعضها الآخر على إقامته على دينه وإبائه من دفع الجزية أنفة[٢٢١] ولكنها كلها تشير إلى دخوله إلى أرض الروم مع أتباعه وقومه وأن هرقل أقطعه حيث شاء وأجرى عليه من النزل ما شاء وجعله من سمّاره، ويرى الدكتور جواد علي أن جَبلَة لم يدخل في الإسلام أبدا وأن مارُوِي عن إسلامه وعن زيارته ليثرب أو مكة ليس إلاّ من قصص القصاص وضعوه فيما بعد[٢٢٢].

ان موقف جبلة هذا دفع عمر بن الخطاب إلى أن يُضيعف الصدقة[٢٢٣] على قبيلة تغلب عندما رفضت الدخول في الإسلام وأبت كذلك دفع الجزية، وهمّ أفرادها باللحاق بأرض الروم[٢٢٤]، ويبدو أن قبائل أخرى اقتدت بتغلب فرضيت بدفع الصدقة مضاعفة، مفضلين إياها على دفع الجزية لكي لا تكون في مصاف الأعلاج[٢٢٥].

وإذا كانت قبيلة تغلب قد نجحت في مسعاها فان مكانة العرب النصارى الاجتماعية بقيت دون مكانة العرب المسلمين، وبالرغم من أن الأخطل كان مقرّباً إلى عبد الملك وكان يعتبره أشعر العرب، وشاعر بني أمية إلا أنه كان يتمنى أن يسلم فيفرض له في ألفين أي في شرف العطاء[٢٢٦]، ويعير جرير الأخطل بأنه ممن ضربت عليه الذلة وباء بغضب من الله وادّى الجزية عن يد وهو صاغر[٢٢٧]، وعندما دخل على

---

(٢٢٠) الأغاني، ج ١٥ ص ١٦٢، ١٦٤، البلاذري، فتوح ص ١٤٢.

(٢٢١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٢.

(٢٢٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٤ ص ٤٣٠.

(٢٢٣) البلاذري، فتوح، ص ١٨٦.

(٢٢٤) المصدر السابق، ص ١٨٦، الطبري، ج ٤ ص ٥٤.

(٢٢٥) البلاذري ص ١٨٦، قالوا: (أما إذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا) وعن الزهري، قال: ليس في مواشي أهل الكتاب صدقة إلا نصارى بني تغلب أو قال نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشي فان عليهم ضعف ما على المسلمين.

(٢٢٦) الأغاني، ج ٨ ص ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢٢٧) المصدر السابق ج ٨ ص ٦٢.

عمر بن عبد العزيز قوم من تغلب وطلبوا منه أن يفرض لهم لأنهم عرب، رفض لأنهم نصارى[٢٢٨]، أي أنهم بمثابة أهل الذمة، ويجب أن تطبق على العرب النصارى الأنظمة التي تطبق على النصارى من غير العرب فهم في نظره سواء.

ارتبطت قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية والقضائية برؤسائهم الروحيين، إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين[٢٢٩]، وقد حبس القس الأخطل في كنيسة دمشق لأنه يشتم الناس ويهجوهم، ولما سئل عن سبب هذا الخضوع والاستخذاء الذي يظهره للقس بالرغم من مهابة الناس له وإكرام الخليفة لشخصه جعل يقول: «انه الدين انه الدين[٢٣٠]».

وكان يسمح للذمي أن يوصي للكنيسة أو يوقف لها وقفاً من ماله[٢٣١]، كما أنه من كان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم[٢٣٢]، إلا أن دية المعاهد كان يدخل نصفها بيت المال ويأخذ الخليفة النصف الآخر، فعندما قتل خالد بن المهاجر ومولاه نافع، إبن أثال، وكان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق غضب معاوية وأمر بضرب نافع مائة سوط والزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم، فأدخل بيت المال ستة آلاف درهم وأخذ ستة آلاف[٢٣٣]. فلم يزل ذلك يجري في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأبطل الذي يأخذه الخليفة لنفسه وأثبت الذي يدخل بيت المال[٢٣٤].

حافظ خلفاء بني أمية على كنائس المسيحيين وفقاً لما ورد في العهود المختلفة، وعندما هدمت الزلازل جانباً من بيعة الرُّها الكبرى أمر معاوية بترميمها واعادتها إلى

---

(٢٢٨) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١١٨.

(٢٢٩) العيون والحدائق، ص ٦٠.

(٢٣٠) الأغاني، ج ٨ ص ٣٠٩.

(٢٣١) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٣٦٢.

(٢٣٢) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، ص ٧٦، الفقرة ٢٣٩.

(٢٣٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٢٣٤) المصدر السابق، ص ١٧٤.

سابق عهدها[٢٣٥]، وأمسك معاوية عن زيادة كنيسة يوحنا في الجامع عندما أبى النصارى ذلك، وبذل لهم عبد الملك مالاً كثيراً لكي يتخلوا عنها فرفضوا[٢٣٦]، فلما كان عهد الوليد بن عبد الملك وكثر المسلمون وضاق بهم المسجد تأبوا عليه، بالرغم من أنه حاول أن يقطعهم قطائع كثيرة وأن يبذل لهم الأموال[٢٣٧]، وفي تاريخ دمشق لابن عساكر أنه عرض عليهم أن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا بدمشق وان شاؤوا دفع ثمنها لهم، وأضعف لهم الثمن، وعندما رفضوا هدد بأن يهدم كنيسة توما ويبني المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد فقبلوا[٢٣٨]، وفي رواية ابن شداد أن الوليد أخذ كنيسة يوحنا وأعطاهم مقابل ذلك أربع كنائس[٢٣٩]، وعندما أبى الفعلة النصارى هدمها، لم يجبرهم على ذلك وإنما طلب من اليهود هدمها بعد أن بدأ هو ومن معه من وجوه أهل البلد ذلك [٢٤٠]، وكان في حلب نيف وسبعون هيكلاً للنصارى، بقيت كذلك إلى أن حاصر الفرنج حلب في ثماني عشرة وخمسمائة وملكها يومئذ الغازي بن أرتق صاحب ماردين، وقام بأمر البلد ومن فيه القاضي أبو الحسن محمود بن يحيى بن محمد، فعمد الفرنج إلى قبور المسلمين فنبشوها، فلما بلغ القاضي ذلك أخذ من كنائس النصارى التي كانت بحلب أربعاً، وجعل فيها محاريب، منها كنيسة القديسة هيلانة، فجعلها مسجداً، فاستمرت على ذلك إلى أن ملك الملك العادل نور الدين، فأحدث فيها ايواناً وبيوتاً وجعلها مدرسة لتدريس مذهب أبي حنيفة ووقف عليها وقفاً[٢٤١]، وأما الكنائس الباقية فقد حُوِّل قسم منها في العهد الأيوبي إلى مدارس لتعليم المذهب الحنفي[٢٤٢].

هذه الروايات تدل بوضوح أن المسلمين في كل العهود كانوا يفون للذمة

---

(٢٣٥) ترتون، أهل الذمة في الاسلام ص ٤١.

(٢٣٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص ٥١.

(٢٣٧) المصدر السابق، ص ٥٤.

(٢٣٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٢٠١.

(٢٣٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٥٥.

(٢٤٠) تهذيب، ج ١ ص ٢٠١.

(٢٤١) ابن شداد، المصدر السابق ص ٤٥.

(٢٤٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

بعهودهم، يرعون مصالحهم، يحافظون على كنائسهم، فلما جاء الفرنجة وعاملوا المسلمين تلك المعاملة البشعة، كان رد الفعل طبيعياً وهو تحويل هذه الكنائس إلى مساجد أو مدارس.

تشير الروايات إلى أن المسلمين كانوا على صلة مع أهل الذمة في حياتهم اليومية، ولم يعيشوا منعزلين عنهم، فقد سكن المسلمون مع النصارى في دور واحدة وعندما تولى سمرة بن فاتك أخو خريم بن فاتك الصحابي قسمة المساكن في دمشق بين أهلها بعد الفتح، كان يترك الرومي في العلو والمسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي(٢٤٣)، كما أنه كانت لهم أسواق واحدة شريطة أن لا يبيعوا الخمر والخنازير فيها(٢٤٤)، وكان المسلم يعود جاره النصراني إذا مرض، فقد عاد أبو الدرداء جاراً له نصرانياً(٢٤٥)، وفي بيت لحم وفي الحنية التي اتخذها عمر بن الخطاب مسجداً للمسلمين، جعل على النصارى إسراجها وعمارتها وتنظيفها(٢٤٦)، ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون إلى تلك الحنية ويصلون فيها وينقل خلفهم عن سلفهم أنها حنية عمر بن الخطاب، ولم يغيرها الفرنج عندما ملكوا البلاد(٢٤٧). وكان الأخطل يدخل المسجد مرتدياً جبة خز متقلداً صليباً من ذهب وينشد قصائده(٢٤٨) وكانت بكر بن وائل إذا تشاجرت في شيء رضيت الأخطل، وكان يدخل المسجد فيقدمون

---

(٢٤٣) تهذيب تاريخ دمشق، ج٦ ص ٦٤.

(٢٤٤) أبو يوسف الخراج، ص ١٥٢.

(٢٤٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، المجلد الثاني، ج٣ ص ٤٤. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١ ص ٢٠.

(٢٤٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج١ ص ٥٢٢، وفي رواية ياقوت، أن عمر بن الخطاب عندما ورد إلى بيت المقدس، أتاه راهب من بيت لحم فقال له: معي منك أمان على بيت لحم، فقال له عمر، ما أعلم ذلك، فأظهره وعرفه عمر، فقال له: الامان صحيح، ولكن لا بد في كل موضع للنصارى أن يجعل فيه مسجد، فقال الراهب، ان في بيت لحم حنية مبنية على قبلتكم، فاجعلها مسجداً للمسلمين ولا تهدم الكنيسة، فعفا له عن الكنيسة وصلّى إلى تلك الحنية واتخذها مسجداً.

(٢٤٧) المصدر السابق، ج١ ص٥٢٢.

(٢٤٨) الأغاني، ج٨ ص ٣٠٢.

إليه[٢٤٩] كما أن أولاد المسلمين كانوا يتلقون الفلسفة على أيدي رجال الدين من النصارى، فقد أثر عن يعقوب الرهاوي (٦٤٠ ــ ٧٠٨م/٢٠ ــ ٩٠هـ) أنه أفتى لرجال الدين النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم العالي[٢٥٠]، ونتيجة للاحتكاك بين المسلمين والنصارى أخذوا يتحادثون ويتحاجون في العقائد، يدلنا على ذلك أن أحد المؤلفين في هذا العصر واسمه يحيى الدمشقي ألف رسالة على هذا النمط «إذا قال لك العربي كذا فأجبه كذا[٢٥١]».

واشتهرت الأديار[٢٥٢] في الجاهلية بإيواء المجتاز بها وضيافة اللاجيء والإحسان إلى كل طارق محتاج، ولم يكن فيها وقتئذ دور خاصة بالضيافة، بل كان نزول الأضياف فيها في بعض الحجر، ثم جاء الإسلام، فأوجب على النصارى في جملة شروطهم أن لا يمنعوا كنائسهم من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار[٢٥٣]، وفي رواية أبي يوسف أن أبا عبيدة بن الجرّاح لما صالح أهل الشام اشترط عليهم أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام[٢٥٤]، فلم يكن من ثم بد من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل، ثم كثر الأضياف والمتنزهون في الأديرة، لا سيما من الأمراء وحاشيتهم، فكان لا بد من بناء دور وحجر لهم خاصة إلى جانب الأديار ينزل فيها كل من يغشاها من الناس المسافرين وتقام لهم فيها الضيافات على أقدار كل منهم، ومن

---

(٢٤٩) المصدر السابق، ج ٨ ص ٣٠٣.

(٢٥٠) أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩، ص ١٣١، ١٣٢.

(٢٥١) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٢٥٢) يشترط في كل دير صغير أم كبير أن يكون فيه كنيسة كما يشترط فيه أن يحتوي على صوامع تستوعب من فيه من رهبان بالإضافة إلى المخازن وبيوت الطعام وغيرها من المرافق، والصوامع هي قلالي الرهبان، فكانت في بعض الأديرة تعد بالعشرات وفي بعضها بالمئات وجاوزت في بعضها الألف عداً، إذ لا بد للراهب من صومعة يقيم فيها وحده ولا يباح لزائر أن يقيم في صوامع الرهبان ذاتها، ولذلك فان الديارات الجليلة الشأن لا تخلو من دور ضيافة وبيوت ينزلها زوار الدير (الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد ١٩٥١م ص ٣١).

(٢٥٣) حبيب الزيات، الديارات النصرانية، ص ٥٨. عن أبي يعلي محمد بن الحسين بن محمد الفراء من مخطوطات الخزانة الشرقية.

(٢٥٤) أبو يوسف، الخراج ص ١٦٥.

أعظم هذه الأديرة في الشام، دير مُرَّان ظاهر دمشق، كان يزيد بن معاوية قد اتخذه منتزها[٢٥٥]، ونزله أيضاً جماعة من الخلفاء الأمويين والعباسيين[٢٥٦]، ودير البُخت في دمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمي بهذا الاسم لبُخت كانت لعبد الملك بن مروان مقيمة هناك فعرف بها[٢٥٧]، ودير صليبا مقابل باب الفراديس، ويعرف بدير خالد بن الوليد لأن نزوله كان به عندما حاصر دمشق، وكان الوليد بن يزيد كثير المقام به يخرج إليه ومعه حرمه استحساناً[٢٥٨] ودير يونا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق[٢٥٩]، أقام الوليد بن يزيد فيه أياما، ودير الرصافة، رصافة هشام بن عبد الملك، وهذه الديارات كانت كلها تقع في مناطق جميلة بين رياض مشرقة وأنهار متدفقة وأشجار كثيرة[٢٦٠]).

موقف الدولة من اليعاقبة والروم الملكيين

يجمع كل مؤرخي النصرانية على أن لقب الملكيين نشأ في القرن الخامس الميلادي أطلقه اليعاقبة على من خالفهم من نصارى الشرق ووافقوا امبراطور بيزنطة على قبول مقررات المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ م[٢٦١] ولذلك كان الخلقيدوني مرادفاً للملكي[٢٦٢]، وكان انتساب الملكيين إلى الامبراطور البيزنطي على أثر مجمع خلقيدونية سبباً لاتهامهم بالميل إلى الروم والتجسس لهم ومطالعتهم بأخبار الفرس، ثم بعد بأخبار

---

(٢٥٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٩.

(٢٥٦) شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار، مطبعة الدار، مصر ج ١ ص ٣٥٥.

(٢٥٧) الشابشتي، الديارات، ص ١٣٧.

(٢٥٨) ياقوت الحموي، ج ٢ ص ٥١٩، العمري، مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٤٩.

(٢٥٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢ ص ٥٠٢.

(٢٦٠) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢.

(٢٦١) Donner, The Early Islamic Conquests, P. 94.

L. Duchesne, Autonomie Ecclesiastiqie, Egl.ses Separee, 1896, P. 52.

(٢٦٢) كان الخلقيدونيون عند السريان ينقسمون إلى قسمين، خلقيدونيين مكسيمية، نسبة إلى القديس مكسيموس، الذي اشتهر بالنضال عن المشيئتين، وخلقيدونيين مارونية أتباع بيت مارون أودير مارون.

Chronique de Michel Le Syrien, Edition et traduction de y.B. Chabot, t. II PP. 492-496.

المسلمين، ولذلك كانوا يرغمون أحياناً على العدول عن مذهبهم الخلقيدوني ليدفعوا عن أنفسهم كل ظنة بالتحزب للبيزنطيين أعداء الفرس ثم العرب، وقد ضيق الفرس على من كان في بلادهم من الملكيين، قال ابن العميد: في السنة الثالثة للهجرة ضيق كسرى على أهل الرها وطلب منهم أن ينتقلوا عن مذهب الملكية إلى اليعقوبية لأن طبيبه يونان أوهمه أنهم ماداموا على مذهب الملكية، فقد يميلون إلى الروم ويكاتبوهم، فعرض عليهم القتل أو الانتقال إلى المذهب اليعقوبي فانتقلوا بأجمعهم(٢٦٣)». كما أمر كسرى بطرد الأساقفة الخلقيدونيين أي الملكيين من كل بلاد ما بين النهرين وسورية وزال ذكرهم على حد قول ميخائيل من حد الفرات إلى المشرق، ولم يتمكنوا من العودة إلى مذهبهم وكنائسهم إلا بعد انتصار هرقل على الفرس(٢٦٤).

واتهام الملكيين بالتحزب للبيزنطيين هو الذي حمل الخلفاء الأمويين على منع قيام بطاركة لهم في كراسيهم الثلاثة وجرّأت اليعاقبة على التغلب عليهم، فقد بقيّ الملكيون أكثر من ثمانين سنة بغير بطرك في مصر، من عهد عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام ابن عبد الملك فغلب اليعاقبة في هذه المدة على جميع الكنائس في مصر وأقاموا منهم أساقفة(٢٦٥) وكان البطريرك اسطفانوس هو أول بطريرك ملكي دخل أنطاكية بعد شغورها مدة تنيف على أربعين سنة، وقد فرض عليهم اسطفان لأنه كان عزيزاً على هشام بن عبد الملك(٢٦٦).

ويظهر أن بطاركة بيت المقدس سبقوا بطاركة الاسكندرية وأنطاكية في العودة إلى كراسيهم واستقر أولهم بعد صفرونيوس في زمن الوليد بن عبد الملك وهو البطريرك يوحنا الخامس (٧٠٦ ــ ٧٣٧م /٨٨ ــ ١٢٠ هـ).

---

(٢٦٣) جرجس بن العميد، تاريخ ابن العميد، طبعة ليدن ص ١٢.

(٢٦٤) Chronique de Michel Le Syrien, t II PP. 377, 378.

(٢٦٥) المقريزي، الخطط ج ٣ ص ٥٢٧.

٢٦٦) Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzanz
Das 8 Jahr hundert 717-813, aus der Welt Chronik des
Theophanes. Ubersetst, eingeleited und erklart Von Leopold
Byeyer, Wien, 1957, P. 55.

ويرى البعض أن أوجه ما يعلل به هذا الرضى من الأمويين بعد الامتناع الطويل هو النزاع الذي حدث بين الملكيين من روم بيزنطيين وروم بلديين عندما بدأت الحركة المعادية للايقونات Iconclasm في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ ــ ٧٤١م/٩٩ ــ ١٢٤ هـ) فضعفت ريبة هشام بن عبد الملك في رعيته من الروم وسمح لهم بالرجوع إلى حقوقهم القديمة بإقامة بطاركة لهم من الملكيين البلديين.

وبالرغم من أن المؤرخ تيوفانس Theophanes يذكر أن أول قرار ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية بل في دمشق عاصمة الخلافة في خلافة يزيد بن عبد الملك[٢٦٧]، (١٠١ ــ ١٠٥ هـ)، فإنه يشير إلى أن الخلفاء المسلمين كانوا أحلم وأنصف من ليون الإيسوري وابنه قسطنطين الخامس الذي عمد إلى اضطهاد الرهبان وقتلهم وتعذيبهم[٢٦٨].

ومن يراجع تواريخ فرق اليعقوبية والنسطورية يقف فيها على عدة شهادات ناطقة بتحزبهم للإسلام وانتصارهم على النصرانية البيزنطية[٢٦٩]، ونظرا لدعم النساطرة واليعاقبة للعرب كان من البديهي أن ينظر العرب إليهم بعين غير التي كانوا ينظرون بها إلى الملكيين وهم أشياع أعدائهم بالأمس، ولا يزال لقبهم ناطقاً بالانتماء إليهم، فكانوا من ثم يعتقدون فيهم قلة المناصحة، ولم يكن العرب في ذلك مخطئين، فان الجَراجِمة في جبل اللُّكام (وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم الموارنة) كانوا تابعين لبطريرك أنطاكية قبل الفتح، ولم يقاتل أهل الجرجومة حبيب بن مسلمة الفِهري، بل بدروا إلى طلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللُّكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم في

(٢٦٧) في سنة ٧٢٣م على حد زعم تيوفانس أصدر الأموي يزيد بن عبد الملك أمراً يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته.

(٢٦٨) Theophanes op. Cit. PP. 46, 70, 71

(٢٦٩) المقريزي الخطط ج ٣ ص ٥٣٦، ٥٣٧

Chronique de Michel Le Syrien t. II. P. 433.

مغازيهم[٢٧٠]، ولكن الجَراجمة كانوا يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئونهم، فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وخلافة عبد الملك ابن مروان واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، توجهت خيل للروم إلى جبل اللُّكام واستطاع قائد للجيش الرومي أن يتوجه إلى لبنان، وانضم إليه جماعة كبيرة من الجَراجِمة مما اضطر عبد الملك إلى مصالحتهم على ألف دينار كل جمعه ويصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه كذلك، واقتدى بصلحه بمعاوية حيث شغل بحرب أهل العراق، ولكنه ما أن قضى على فتنة عمرو بن سعيد بن العاص وعلى مصعب بن الزبير حتى أرسل سحيم بن المهاجر الذي استطاع بالخديعة أن يقضي على القائد الرومي ومن معه من الروم ثم نادى في سائر من ضوى إليه بالأمان فتفرق الجَراجِمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللُّكام، وعندما اجتمع إلى الجراجمة سنة ٨٩ هـ قوم من الروم من قبل الاسكندرونة وروس وجه الوليد بن عبد الملك إليهم أخاه مسلمة بن عبد الملك فافتتحها وقرر تخريب مدينتهم حتى لايعودوا إلى ممالئة الروم، ولكنه منحهم مع ذلك ميزات متعددة، إذ نجده يترك لهم حق اختيار المكان الذي يودون النزول فيه بالشام، ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيلاتهم القوت من القمح والزيت وعلى ألا يكرهوا أحداً من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية[٢٧١].

وبالرغم من ذلك الشك الذي كان يُساور نفوسَ الخلفاء تجاه الملكيين، فان اليعاقبة في الشام لم يستطيعوا التفوق على الملكيين كثيراً وغاية ما امتازوا به عليهم اطلاق الخلفاء المروانيين لهم حق اختيار بطاركتهم من رجال كنيستهم واختصاص هؤلاء البطاركة البلديين بالكرامة والحظوة، في حين كان الملكيون محرومين من هذا الحق حذراً من قيام الغرباء بينهم، ولما عقد اليعاقبة البطركية لأسقف أفاميه مار الياس، وفد على الوليد بن عبد الملك فأحسن لقاءه وزاد في تشريفه بينما أخذ كنيسة الملكيين الكبرى بدمشق ليحولها جامعاً[٢٧٢]. وفي السنة الأولى من خلافة يزيد بن عبد الملك أذن

(٢٧٠) البلاذري، فتوح ص ١٦٤.
(٢٧١) البلاذري، فتوح، ص ١٦٥.
(٢٧٢) Chronique de Michel Le Syrien, t. II P. 480.

للبطريرك مار الياس، فدخل أنطاكية بموكب حافل من الرهبان والاتباع، وذلك بعد مضي مائتين وثلاث سنوات من خروج ساويرس رأس شيعتهم منها، قال ديونيسيوس تل محري فيما نقله عن البطريرك ميخائيل الكبير: «ومنذ ذلك الحين لم يستطع أحد من بطاركتنا نحن الأرثوذكس أن يطأ أرض أنطاكية قبل مار الياس دخلها في هذا الزمن من دولة العرب(٢٧٣)».

وقبل أن أنهي البحث عن أهل الذمة لابد من أن أتطرق إلى قضية ملابس أهل الذمة في صدر الإسلام لا سيما وأن الفقهاء يطلقون اسم الشروط العمرية، حين يتعرضون لهذا الموضوع ليشيروا إلى أنها من وضع عمر بن الخطاب، وأول من نسب هذه الأوامر إلى الخليفة عمر، أبو يوسف(٢٧٤) (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) وابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) في كتابه فتوح مصر(٢٧٥). أما العهود الواردة في البلاذري والطبري وابن الأعثم فانها خالية من الإشارة إلى الملابس، مما يدفع الإنسان إلى الشك في حقيقة إصدار عمر لهذه الأوامر، لأن الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس هو سهولة التمييز بين النصارى والمسلمين، وهذا أمر لا يرقى إليه الشك عند كل من أبي يوسف وابن عبد الحكم «هكذا كان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي، حتى يعرف زيهم من زي المسلمين(٢٧٦)»، على أنه يجب أن نلاحظ أنه لم يكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى لبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، فمثلاً كان النصارى قبل الإسلام يتزينون بالزنانير المحلاة بالذهب والفضة ويتباهون بلبسها، وكان النعمان بن المنذر يركب في كل أحد إلى دير اللّج(٢٧٧)، وفي كل عيد معه أهل بيته من آل المنذر ومن ينادمه من أهل دينه عليهم حلل الديباج المذهب وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب

---

(٢٧٣) Ibid P. 490.

(٢٧٤) أبو يوسف، الخراج، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢٧٥) ابن عبد الحكم، فتوح، مصر ص ١٥١.

(٢٧٦) أبو يوسف، المصدر السابق، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢٧٧) دير اللّج بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام مملكته، ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناء ولا أنزه موضعاً (ياقوت، معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣).

وفي أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب المفصصة بالجوهر(٢٧٨)، ونقل عن مار أمّه(٢٧٩) أو أبا الجاثليق أنه كان أول من أمر الأسكلانيين بشد الزنانير في أوساطهم ليتميزوا عن غيرهم(٢٨٠)، فالزنار إذا كان معروفاً عند النصارى قبل الهجرة والخليفة عمر بن الخطاب بريء من تهمة وضعه عليهم قصد إذلالهم، ولكن يبدو أن الحاجة استلزمت هذه الشروط فيما بعد حينما أخذت الشعوب الخاضعة تعمل على الاقتداء بالعرب في ملبسهم والتشبه بهم في ثيابهم، نستشعر ذلك مثلاً في اتفاقية سنة ٨٩ هـ، بين المسلمين والجراجمة حيث تضمنت السماح للجراجمة بأن يلبسوا لباس المسلمين(٢٨١).

وإذا راجعنا ماوقع لنا من أخبار الأمويين والأشعار التي قيلت في عهدهم، لانجد فيها ذكراً للزنار في أوصاف النصارى، إلا فيما زعموه من أوامر عمر بن عبد العزيز وكتبه إلى عماله في التضييق عليهم، وأكثر ما يجيء التغزل بالزنار في خصور الغلمان في الأشعار العباسية، وهذا ما يجعل المرء يعتقد أن شرط الزنار حدث في أوائل عهد العباسيين، وفي الشروط العمرية أن الزنار كان متوجباً على أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس، ولكن لم تشتهر به حقيقة إلاّ النصارى وحدهم وقل جداً ذكر اليهود في الأوامر السلطانية بلبس الزنار(٢٨٢)، ومن الأبيات القليلة التي صرح فيها بلبسهم إياه قول أبي نواس وقد نزل في حانة خمار يهودي:

وفتيان صدق قد صرفت مطيّهم
إلى بيت خمّار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما
ظننا به خيراً فظّن بنا شراً

---

(٢٧٨) الأغاني، ج ٢، ص ٣٩.
(٢٧٩) Book of Governors,, The Historia Monastica of Thomas, Bishop of Marga, A.D. 480. Tr. by E.A. Wallis Budge, London 1893 B. I ch. XXIII P.79.
(٢٨٠) حبيب الزيات، سمات النصارى واليهود في الإسلام ص ٢٠١، عن تاريخ جثالقة النساطرة مخطوط رقم ٦٦٥٣، باريس ص ١٨٠.
(٢٨١) البلاذري، فتوح ص ١٦٥، ١٦٦.
(٢٨٢) حبيب الزيات، المصدر السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣.

فقلنا على ديـن المسيـح بن مريم
فأعرض مزورّا وقال لنا هجراً
ولكـن يهودي يحبك ظاهراً
ويضمر في المكنون لك الغدرا[٢٨٣]

وكان اليهود أكثر ما يعرفون بالغيار أي في اللون الأصفر في عمائمهم، بينما كان النصارى يمتازون بالزنار في أوساطهم.

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أصدر أحكاماً بشأن ملابس أهل الذمة؛ وأقدم النصوص التي تشير إلى ذلك، النص الذي أورده كذلك أبو يوسف ثم ابن عبد الحكم في كتابه سيرة عمر بن عبد العزيز ونص ابن الحكم أكثر اختصاراً، إذ يذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الآفاق: «أن لا يمشين نصراني إلا مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يمشي إلا بزنار من جلد ولا يلبس طيلساناً ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلاً لها عذبة[٢٨٤]». أما الرواية التي ينقلها أبو يوسف عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل له: وامنع قبلك، فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب[٢٨٥]، وقد ذكر لي أن كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم، وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص[٢٨٦]».

وبالرغم من أن ابن عبد ربه يشير كذلك إلى أن الخليفة حرّم على جميع الذميين لبس العمائم أو التشبه بالمسلمين في ثيابهم[٢٨٧]، وأن ابن عساكر يكرر رواية ابن عبد الحكم، فانه مما يسترعي الانتباه، أن ابن سعد في طبقاته، وهو كاتب الواقدي المتوفى

(٢٨٣) المصدر السابق ص ٢٠٣؛ ديوان أبي نواس، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ص ١١٤.
(٢٨٤) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٦.
(٢٨٥) عصب، برد يمانية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشياً لبقاء ماعصب منه أبيض ولم يأخذه الصبغ.
(٢٨٦) أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٢، ١٥٣.
(٢٨٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤٣٦.

سنة ٢٠٧ هـ لا يشير إلى هذه الشروط مع أنه لم يترك أمراً من الأمور المتعلقة بأحكام عمر بن عبد العزيز إلا وذكره، ثم أن أبا هلال في كتابه الأوائل يذكر أن أول من أمر بتغيير زي أهل الذمة هو المتوكل[٢٨٨]، وإذا كانت النصوص السابقة تشير إلى ملابس المسلمين التي يمنع النصارى من ارتدائها فان أبا هلال يتعرض إلى أزياء أهل الذمة وألوانها، ثم ان ابن قيم الجوزية يذكر فقط أن عمر بن عبد العزيز أمر أن تهدم بيع النصارى المستجدة[٢٨٩]، بينما يؤكد على التدابير التي اتخذها المتوكل بحق ملابس أهل الذمة[٢٩٠]، وهو في هذا يتفق مع ما ورد في الطبري عند ذكر كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن بن نعيم: «لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه، ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار[٢٩١] وإنما كان من قرارات عمر عدم الاستعانة بأهل الذمة «فان المسلمين استعانوا بهم في أول الأمر لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم في ذلك مدة قضاها الله»، ولذلك طلب من عماله عزل الكتاب والعمال من أهل الذمة واستبدالهم برجال مسلمين[٢٩٢]، ويؤكد هذا ما ذكره ساويرس عن عمر بن عبد العزيز بأنه أعفى الأساقفة والكنائس من الخراج، وعمّر المدن التي خرّبت وأبطل الجبايات، فعاش القبط في أمن وهدوء، ولكنه لم يلبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أعمالهم في الدولة ما داموا على دينهم «أما من يريد الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد[٢٩٣]». ويرد في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب: أما بعد يا أمير المؤمنين، فان في عملي كاتباً نصرانياً لا يتم أمر الخراج إلا به فكرهت أن أقلده دون أمرك، فكتب إليه، «عافانا الله وإياك، قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد فان النصراني قد مات والسلام[٢٩٤]» أي ماذا نعمل إذا مات؟ ألا تجدون حينئذ من يقوم مقامه؟ ثم يضيف ابن الجوزي بأن الخلفاء الذين

---

(٢٨٨) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ١ ص ٣٩٥.

(٢٨٩) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ٢١٣.

(٢٩٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢.

(٢٩١) الطبري، ج ٦ ص ٥٧٢.

(٢٩٢) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣٦.

(٢٩٣) ساويرس، سير الآباء البطاركة، باريس ١٩١٠ م ج ٥ ص ٧١، ٧٢.

لهم ثناء حسن في الأمة درجوا على ما طبقه الرسول وعمر بن الخطاب في عدم استخدام أهل الذمة في أعمال المسلمين، فيذكر أسماء بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون[٢٩٥]، وفي هذا إشارة إلى أن خلفاء بني أمية كافة باستثناء عمر بن عبد العزيز استعانوا بأهل الذمة، كما أنه يورد روايات مختلفة تظهر منع عمر بن الخطاب عماله من استخدام أهل الذمة ويطلب من المسلمين أن يتعلموا الكتابة فإنما هي حلية الرجال[٢٩٦]، وهذه الأقوال على ما أعتقد لا تنطبق على أحوال زمان الخليفة عمر بن الخطاب، وما عرف عنه من اهتمام بأمور رعيته، وكل عارف بأخبار عمر ومعاوية يعلم أن الدواوين وقتئذ كانت في الشام بالرومية، وأن كل كتابات الخراج والجباية لم تكن تدون إلا بالرومية، فلم يكن بد للعرب من كتاب بلديين يجيدون فهم الرومية، ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب نصراني واحد فقط بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة وكلهم من المسيحيين، فلم يكن ثم من سبيل للاستغناء عن النصارى سكان البلاد، وقد شهد عمر بن عبد العزيز بحاجة المسلمين إلى النصارى كما رأينا، ولذلك فان ما يذكره إبن الجوزية عن استئذان معاوية عمر في استخدام كاتب نصراني واحد وإجابته بأن النصراني قد مات رواية لا يقبلها العقل والمنطق، ولكن قد تقبل من الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي كتب عن ابن زطينا النصراني كاتب ديوان الإنشاء ببغداد حين أبى أن يفارق دينه النصراني، « مات ابن زطينا والسلام ».

تشير المصادر العربية إلى استخدام معاوية لسرجون بن منصور الرومي على الديوان وأمره كله[٢٩٧]، واستخدامه ابن أثال النصراني على خراج حمص[٢٩٨] واستمر

---

(٢٩٤) ابن قيم الجوزيه، أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٠.

(٢٩٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢.

(٢٩٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢١١.

(٢٩٧) خليفة ابن خياط ج ١ ص ٢٧٦؛ الطبري ج ٥ ص ٣٣٠؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب ص ٢٤؛ سيرة يوحنا الدمشقي، ص ١٢.

(٢٩٨) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢٢٣؛ الجهشياري، ص ٢٤.

سرجون على ديوان الخراج حتى خلافة عبد الملك. وكان لسرجون مكانة كبيرة لدى الخلفاء، ويقال أن الكنيسة التي كانت خارج باب الفراديس كانت محدثة بنيت بعد الفتح لسرجون(٢٩٩). وعندما نقل سليمان بن سعد الخُشَني مولى بني أمية الديوان من الرومية إلى العربية كان أول مسلم ولي دواوين الخراج، وكانت النصارى تلي الدواوين قبله(٣٠٠)، وبالرغم من أن اللغة العربية أصبحت لغة الدواوين في عهد عبد الملك فان هذا لا يعني أن الأمويين لم يستخدموا الكتاب النصارى، فقد أورد ابن العبري في كتابه «أن عبد الملك منع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية(٣٠١)»، وهذا دليل على أن الذين يجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم، واستمر استخدام الأمراء والخلفاء للنصارى، فقد قلّد سليمان بن عبد الملك أمر النفقة على بناء الرملة ومسجدها الجامع لكاتب له نصراني من أهل اللد يقال له البطريق بن النكا(٣٠٢)، وكان من كتاب هشام بن عبد الملك تاذري بن أسطين النصراني، الذي قلّده ديوان حمص(٣٠٣). ولا شك أن نسبة النصارى في الوظائف قلت لدخول قسم من سكان البلاد في الإسلام ونتيجة للتدابير التي اتخذها عمر بن عبد العزيز في خلافته، إلا أن تسامح خلفاء بني أمية وأمرائها بشكل عام مع أهل الذمة في الشام جعل انتشار الإسلام بطيئاً، وليس أدل على ذلك كثرة الاسقفيات والكنائس التي بقيت منتشرة في الشام(٣٠٤)، والإشارات إلى كثرة المسيحيين واليهود في المناطق المختلفة في أوائل العصر

---

(٢٩٩) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦ ص ٧٣.

(٣٠٠) الجهشياري، ص ٤٠؛ تهذيب، ج ٦ ص ٢٧٨.

(٣٠١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٤.

(٣٠٢) البلاذري، فتوح ص ١٤٩؛ الجهشياري ص ٤٨.

(٣٠٣) الجهشياري ص ٥٩.

(٣٠٤) يوسف الدبس، تاريخ سورية، ج ٣ المجلد الخامس، ص ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، وهو يشير إلى وجود اسقفيات في حماه وبيروت وصيدا ودمشق ويبرود وداريا وأخرى بالقرب من غزة والى الاسقفيات في فلسطين.

العباسي(٣٠٥)، ومن مقارنة ما ذكره أركولف Arculf في زيارته للمناطق المقدسة في فلسطين وقد زارها سنة ٦٧٠م/٥٠ وزيارة وليبالد Willibald(٣٠٦)، لهذه المناطق سنة ٧٥٤م/١٣٧هـ نرى بوضوح أن المسيحية كانت لا تزال واسعة الانتشار ولا سيما في المنطقة الجنوبية من الشام، كذلك بقي لبنان نصراني المذهب سرياني اللغة إلى ما بعد الفتح بأجيال طويلة(٣٠٧)، ويشير المقدسي (ت ٣٨٠هـ) إلى كثرة أهل الذمة في عصره في منطقة الشام(٣٠٨)، ويعلق قائلاً: أقل ما ترى في الشام فقيها له بدعة، أو مسلماً له كتابة، إلا بطبرية، فانها ما زالت تخرج الكتاب، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى. وأكثر الجهابذة والصباغين والدباغين يهود في هذا الاقليم، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى(٣٠٩)، كما يشير إلى أن بيت المقدس قليلة العلماء كثيرة النصارى قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس(٣١٠).

وفي الحديث عن أهل الذمة في الشام تستوقفنا هذه الحقيقة البالغة الأهمية في تكوين المجتمع الإسلامي، هذه الحقيقة هي أن إيمان المسلمين بالسابقين من الأنبياء وبشرعية وجود أصحاب الديانات الأخرى واحترام الإسلام للإنسان كمخلوق مهما كان اعتقاده، هذه العناصر هي التي أفسحت المجال لبقاء واستمرار تلك الجماعات غير المسلمة وسط مجتمعات المسلمين عبر تاريخ المسلمين الطويل، في حين أن الكنيسة في أوروبا رفضت الاعتراف بنبوة محمد (صلعم) وكان من نتيجة هذا الموقف أن أوروبا المسيحية لم تسمح منذ البداية باستمرار وجود المسلمين، وما جرى في الأندلس خير شاهد على ذلك فقد كانت الخيارات التي وضعت أمام المسلمين هي

---

(٣٠٥) البلاذري، فتوح، ص ١٤٠.

(٣٠٦) The Pilgrimage of Arculfus in The Holy Land about the year 670. Translated and Annotated by the Rev. James Ros Macpherson, London, 1889. The Pilgtimage of Willibald in the Holy Land about 754.

(٣٠٧) حتي، تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٩.

(٣٠٨) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٧٩.

(٣٠٩) المقدسي ص ١٧٩، الجاحظ، ثلاث رسائل، طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ ص ١٤.

(٣١٠) المصدر السابق ص ١٦٧.

في حقيقة الأمر، القتل، التنصير أو الطرد، أي أنها كانت درجات في اقتلاع الجذور وإلغاء كيان المسلمين، وهذا ما حدث بالفعل وأدّى في النهاية إلى اختفاء الإسلام تماماً من الأندلس.

الرقيق

كان الرق أمراً مشروعاً عند الأمم القديمة من مصريين وبابليين وفرس ويونان وروم وعرب، وقد أقرّته اليهودية واعترفت به المسيحية(٣١١). وقد أقرّ الرق جميع الفلاسفة والفقهاء من رومان ويونان، أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وسينيك، واعتبروه من الأمور الطبيعية أو الضرورية، وكان أول من استعبد الأسرى وسخّر الشعوب المغلوبة هم الرومان، وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية بلغت في العدد ثلاثة أمثال الأحرار(٣١٢)، وكانت وجوه الاسترقاق عند الرومان متعددة(٣١٣).

وعندما جاء الإسلام كان الرق يعتبر نظاماً أساسياً في حياة الشعوب القديمة ودعامة في كيانها الاقتصادي والاجتماعي، فلم يتمكن من إلغاء الرق في العالم حتى لا تصطدم دعوته مع مألوف النفوس ولئلا تضطرب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وإذا كان الإسلام يقدر معنى الحرية ويعتبرها الأصل في الإنسان، إلا أن من خصائص تشريعه التدرج في الأحكام، لذلك أقرّ مؤقتاً واقع الأمر ولم يمنع الرق دفعة واحدة ومضى في التدرج بالمسلمين(٣١٤) فهيأ أسباباً للقضاء على الرق وحرّم سائر مصادره

---

(٣١١) أحمد شفيق، الرق في الاسلام، تعريب أحمد زكي، المطبعة الاميرية ــ الطبعة الأولى ١٣٠٩ هـ. ص ٩ ــ ٢٧. أحمد أمين، فجر الاسلام، الطبعة العاشرة ١٩٦٩ م ص ٨٧ ــ ٨٨.

(٣١٢) أحمد أمين، المصدر السابق ص ٨٧.

(٣١٣) مدونة جستنيان في الفقه الروماني، ترجمة الدكتور عبد العزيز فهمي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١١، دروس في الفقه الروماني، محمد محسن البرازي، الطبعة الثانية، ١٣٥٧ هـ/١٩٣٩م ج ١ ص ٧٩ ــ ٨١.

(٣١٤) علي أحمد الجرجاوي، حكمة التشريع وفلسفته، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٣٨م، ج ٢ ص ٤٠٠.

ماعدا رق الأسر بسبب الحرب العادلة لرفع العدوان والرق بسبب الوراثة، والشرع لايبيح أن يسترق مسلم أصلاً[٣١٥].

وكان المسلمون إذا غزوا بلداً دعوا أهله إلى إحدى خصال ثلاث، الإسلام أو الجزية أو القتال، فإن رفضوا الإسلام والدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت الحرب وقوتلوا، وان طلب المحاربون صلحاً أثناء الحرب أجيبوا إليه متى رأى الامام ذلك[٣١٦]، «وان جنحوا للسلم فاجنح لها» ووجب إذ ذاك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا، وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد فهناك أسرى حرب وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب، أما الأسرى فإنا نجد أنه ورد فيهم في القرآن الكريم «فإذا لقيتم الذين كفروا، فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتوهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء[٣١٧]» وهي تدل على أنه ليس للامام في الأسرى إلا أن يمن عليهم ويطلقهم أو يأخذ مالاً فدية لهم أو يفتدي الرجل المسلم بالرجل المحارب، ولكنا نجد من ناحية أخرى أن الرسول (صلعم) كان يفعل أحد هذين الأمرين أحياناً وكان يقتل الأسير ويسترقه أحياناً أخرى، ففي بدر قتل عُقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد أسرهما، وقتل النبي (صلعم) يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد أسره، وقتل بني قريظه بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية، ولكن قتل الرسول لبعض الأسرى في أول الإسلام يعتبر حوادث فردية لظروف معينة، وليس تشريعاً عاماً دائماً، إلا لتجدد نفس الظروف، فقد قتل بعض الأسرى لغلوهم في معاداة الدعوة الإسلامية وللتمادي في ايذاء الرسول عليه السلام والاسترسال في هجائه[٣١٨].

---

(٣١٥) أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، طبعة أولى، ١٣٥٤ هـ، ج ٩ ص ٧٣.

(٣١٦) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٨٦.

(٣١٧) سورة محمد، آية ١٤.

(٣١٨) القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري طبعة بولاق، ١٣٢٧ هـ ج ٥ ص ١٥٧؛ وعن الاوزاعي أن عقبة بن معيط أقبل ورسول الله (صلعم) عند الكعبة فلوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً فقام أبو بكر من خلفه فدفعه عن رسول الله (صلعم). (الطبري ج ٢ ص ٣٣٣) أما النضر بن الحارث من بني عبد الدار فكان ممن اجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما

أما الاسترقاق فقد اضطر الرسول إلى تطبيقه هو وصحابته جرياً على شريعة المعاملة بالمثل وبمقتضى قانون الحرب السائد في ذلك الزمان، ولكي يشعر المسلمون غيرهم أنهم صاروا في مركز ذي كيان دولي يستطيعون تنفيذ تعاليم الحرب وتثبيت الهيبة والسلطان، إذ لو استرق الأعداء أسرى المسلمين دون مقابلتهم بالمثل لاستمرأ العدو فعله، ولكان ذلك سبباً في زيادة عدد الرقيق في العالم دون أن يقيد ذلك بقيد، وفي هذا من المفسدة والضرر ما لا يخفى، ولكن المسلمين كانوا إذا قدروا عفوا وصفحوا وأظهروا فضلهم وإحسانهم، فيكون ذلك مدعاة لقبول الإسلام بما يضم بين جناحيه من إنسانية ورحمة، ويدل على هذا أن أغلب ما استرق من القبائل أو أفراد العدو قد عاد حراً، فقد رد رسول الله ستة آلاف من سبي هوازن من النساء والصبيان والرجال إلى هوازن(٣١٩)، ومَنَّ رسول الله (صلعم) على أهل مكة بقوله «اذهبوا فأنتم الطلقاء» واعتق الرسول حين تزوج جويرية بنت الحارث مائة من أهل بيت بني المصطلق إكراماً لصهر رسول الله (صلعم(٣٢٠)).

وفي خلافة عمر بن الخطاب استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة، فمنع أن يسترق العرب، فقال: انه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً، وقد وسع الله وفتح الأعاجم، واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والإسلام إلا امرأة ولدت لسيدها، وجعل فداء كل إنسان سبعة أبعرة أو ستة أبعرة إلا حنيفة وكندة فإنه خفف عنهم لقتل رجالهم(٣٢١).

إن الإجراءات التي اتخذها الرسول تجاه الأسرى جعلت أئمة الفقهاء يختلفون في

يصنعون بأمر الرسول حين خافوه، واشترك في معركة بدر، (الطبري ج ٢ ص ٤٥٩) وبالرغم من أن الرسول قد من على عمرو بن عبد الله، أبي عزة الشاعر يوم بدر وكان في الاسارى، لأنه كان فقيرا ذا بنات، فإن صفوان بن أمية استطاع أن يقنعه بأن يعينهم بلسانه مقابل اغنائه، فخرج يسير في تهامه ويدعو بني كنانة لحرب الرسول. (الطبري ج ٢ ص ٥٠٠، ٥٠١).

(٣١٩) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤ ص ٩٨، ٩٩؛ الطبري ج ٣ ص٨٦، ٨٧.

(٣٢٠) الطبري، ج ٢ ص ٦١١، ٦١٢.

(٣٢١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٤٠.

حكم الأسرى، وإن اتفق معظمهم على أن هذه الأمور متروكة للإمام يتصرف في كل حال حسب ما يحيط به من ظروف مشددة أو مخففة. أما في حالة إسلام الأسير فالأمر يختلف، فإذا أسلم أحد من السبي من النساء والصبيان فلا يجوز رده إلى بلاد الحرب منعاً للفتنة(٣٢٢)، وإن أسلم الأسير يحرم قتله عند جميع العلماء، ولكن اعتناق الإسلام لا ينافي الرق(٣٢٣).

أما أهل البلد المفتوح من غير المحاربين فالإمام مخير بين استرقاقهم وتركهم أحراراً يدفعون الجزية والخراج، ولكن عمر بن الخطاب وإليه المرجع في كثير من هذه المسائل، ترك أهل سواد العراق أحراراً مقابل دفع الجزية والخراج(٣٢٤)، واتبع عمر الأسلوب نفسه في الشام ومصر في الأراضي التي استولى عليها العرب عنوة(٣٢٥)، وإذا استرق الأسرى أو أهل البلد المفتوح فإنهم يعتبرون غنيمة، ينبغي أن تأخذ الدولة خمسهم وتوزع الأربعة أخماس الباقية بالتساوي على من اشترك بالمعركة من المقاتلة من أهل الديوان وغيرهم(٣٢٦)، وبقيت الغنائم تقسم في عهد بني أمية عندما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر(٣٢٧)، ويبدو أن المسلمين في عمليات فتوحهم الأولى قد أطلقوا عملياً سراح معظم من وقع بأيديهم من السبي ولاسيما سبي القرى سبي الأهواز(٣٢٨)، وسبي مَناذِر(٣٢٩)، وبلهيب وألخيس، وسَلْطيس(٣٣٠)، وسبي

(٣٢٢) سورة الممتحنة، آية ١٠.

(٣٢٣) ابو عبيد، الأموال ص ١٣٦؛ السرخسي، شرح السير الكبير، الطبعة الأولى ١٣٣٥، ج ٢ ص ٢٦٣.

(٣٢٤) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، طبعة ليدن، ١٨٩٥، ص ١٣، البلاذري، فتوح ص ٢٦٨، الطبري ج٣ ص ٥٨٦.

(٣٢٥) البلاذري. فتوح ص ٢١٥، ٢١٦، الطبري، ج ٣ ص ٣٦٩.

(٣٢٦) يحيى بن آدم، ص٣، أبو يوسف، الخراج ص ٢١، ابن تيميه، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، دار الكتب العربية، بيروت ص ٣٠.

(٣٢٧) ابن تيميه، المصدر السابق ص ٣٠.

(٣٢٨) البلاذري، فتوح ص ٣٧٠.

(٣٢٩) المصدر السابق ص ٣٧١.

(٣٣٠) المصدر السابق ص ٢١٧.

تُستَرَ(٣٣١)، إلا سبي المدن(٣٣٢)، ولكنهم عمدوا إلى قتل المقاتلة(٣٣٣)، كما أن الإسلام حرر العبيد المسلمين الذين يفرون من أسيادهم، إذا كان هؤلاء الأسياد من أهل الحرب(٣٣٤).

شرع الإسلام في الواقع منافذ عديدة في سبيل التخلص من رق الأسر وتوابعه، فجعل القرآن الكريم مصير الأسرى إما المن وإما الفداء وجعل العتق كفارة عن كثير من الجرائم والذنوب(٣٣٥)، وخصص الإسلام سهماً لبيت المال من الصدقات التي تجبى لتنفق في سبيل تحرير الرقاب، وفضلاً عن ذلك فإن الإسلام جعل من أسس النجاة في الآخرة فك رقبة(٣٣٦)، وقرر الإسلام مبدأ العدل والمساواة في الحقوق كافة بين طبقات الناس قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم(٣٣٧)» وأحسن لذلك معاملة العبيد في المطعم والمسكن والملبس والتخاطب، روى ابن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله (صلعم) لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي فكلكم عبيد الله وكلكم إماء الله، ولكن لتقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي(٣٣٨).

كانت العلاقة بين السيد وعبده علاقة شخصية ولذلك فليس للعشيرة أو الدولة حق التدخل فيها، وكان من نتيجة ذلك أن العشيرة لم تكن تدفع دية الجرائم التي يرتكبها عبيدها(٣٣٩). كما أن الدولة كانت غير مسؤولة عن القبض على الأباق الهاربين

---

(٣٣١) المصدر السابق ص ٣٧٤.
(٣٣٢) المصدر السابق ص ١٤٧.
(٣٣٣) المصدر السابق ص ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٤.
(٣٣٤) ابن حنبل، المسند، ج ٤ فقرة ٢١٧٦، ٢٢٢٩.
(٣٣٥) محمد سلام مدكور، تاريخ الفقه الاسلامي، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٣.
(٣٣٦) الرازي، تفسير الرازي، المطبعة الخيرية، الطبعة الأولى ١٣٠٧، ج ٨ ص ٤٣٣.
(٣٣٧) سورة الحجرات، آية ١٣.
(٣٣٨) الألف المختارة من صحيح البخاري، اختيار وشرح عبد السلام محمد هارون، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٠٣، فقره ٣٣٣، الطحاوي، مشكل الآثار، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند، حيدر أباد، الطبعة الأولى، ١٣٣٣ هـ ج ١ ص ٤٩٣.
(٣٣٩) أبو يوسف، الآثار، القاهرة ١٣٥٥ هـ. ص ٢٢١، مالك بن انس، المدونه، القاهرة، ١٣٢٤ هـ ج ٤ ص ٤٤٤.

امن أسيادهم[٣٤٠] . وبالرغم من أن العبد كان يعتبر ملكاً لسيده الذي يتمتع بالحق المطلق في بيعه واستخدامه فيما يشاء من الأعمال ، فإنه لم يكن له الحق في قتل عبده[٣٤١] ، وقد روي أن رجلاً قتل عبده متعمداً فجلده الرسول مائة جلدة ونفاه سنة ومحا اسمه من المسلمين[٣٤٢] ، ولكننا في الواقع لا نعلم بماذا كانت الدولة تعاقب من يقتل عبده .

كان العبيد في الإسلام يتمتعون ببعض الحقوق التي لا يمكن أن ينكرها عليهم القانون والمجتمع ، فبمقدورهم بعد استئذان سيدهم أن يتزوجوا[٣٤٣]ويتبع أولادهم الأم في حالة رقها وولائها[٣٤٤] ، وبمقدورهم أن يمتلكوا الأموال ويتمتعوا بها في حياتهم ، ولكن أموال العبيد ترجع إلى سيدهم عند بيعهم أو موتهم[٣٤٥] ، ثم ان لهم أن يعتنقوا ما شاؤوا من أديان ويمارسوا طقوسها ، فإذا اعتنقوا الإسلام كانت عليهم معظم الفرائض الدينية المفروضة على الأحرار من المسلمين ، غير أن صلاة الجمعة مثلاً ليست واجبة عليهم[٣٤٦] ، وكذلك الحج[٣٤٧] ، كما أن حقوقهم في الأمور المدنية أقل من الأحرار فلم يكن لهم أن يتزوجوا أكثر من زوجتين ، والطلاق عندهم طلقتان[٣٤٨] وعدة الجارية شهران[٣٤٩] ، ولم يكن للعبد أن يحارب من غير إذن سيده[٣٥٠] ، كما أنه لا يدون اسمه في

---

(٣٤٠) ابو حنيفه ، جامع المسانيد ، حيدر أباد ١٣٣٢ هـ ، ج٢ ص ٧٣ ـ ٧٥ ، أبو يوسف ، الآثار ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، مالك ، المدونة ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

(٣٤١) فنسنك ، مفتاح كنوز السنة ص ٤٠٩ .

(٣٤٢) ابن ماجه ، السنن ، القاهرة ١٣١٣ ، كتاب الديات ، الباب ٢٣ .

(٣٤٣) ابو حنيفه ، مسانيد ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ، ابو يوسف ، الآثار ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣٤٤) الشافعي ، الأم ، القاهرة ١٣٢١ ، ١٣٢٦ هـ . ج ٦ ص ٣٨٥ ، أبو حنيفه ، مسانيد ج ٢ ص ٨٣ .

(٣٤٥) الشافعي ، الأم ، ج ٣ ص ٣٦ ، ج ٤ ص ٣ ، أبو حنيفة ، مسانيد ج ٢ ص ٢٧ ، ١٦٥ .

(٣٤٦) أبو يوسف ، الآثار ص ٧٣ ، الشافعي ، الأم ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣٤٧) المصدر السابق ص ٧٣ ، الشافعي ، المصدر السابق ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣٤٨) أبو حنيفة ، مسانيد ج ٢ ص ١٣٣ .

(٣٤٩) أبو حنيفة ، مسانيد ج ٢ ص ١٣٣ .

(٣٥٠) ابن سعد ، الطبقات ج ٦ ص ١٨٣ .

الديوان ولا يعطى عطاء(٣٥١)، ولم يكن يسهم له في الغنيمة لأنه تابع لسيده(٣٥٢) إلا أنه كان يرضخ له أي يعطى أجراً(٣٥٣)، غير أنه يجوز للعبد المسلم إعطاء الأمان اعتماداً على قول عمر: «إن العبد المسلم من المسلمين وذمته ذمتهم، وأمانه أمانهم(٣٥٤)» أي أن الإيمان هو أساس اعتبار الشخص أهلاً لإعطاء الأمان، وليس هو الحرية والعبودية، وقد أنفَذَ الخليفة عمر أمان العبد بالفعل عندما أمن عبد أهل حصن، فأرسل القائد يستشيره، فكتب عمر أن أجيزوا أمان العبد(٣٥٥).

وكان لبعض العبيد مزايا شخصية مكنتهم من الحصول على ثقة أسيادهم، فأصبحوا تلامذة أو رواة لأهل العلم منهم(٣٥٦)، أو وكلاء عن أسيادهم في الأعمال التجارية هذا إلى أن عدداً كبيراً منهم أصبحوا مأذونين أي منحوا حق ممارسة المهن والأعمال التي يريدونها وأصبحت لهم حرية في ميادين الأعمال في الصناعة والتجارة(٣٥٧)، على أنه مهما كانت نظرة المجتمع للعبد طيبة، ومعاملة السيد حسنة، فانه كان محروماً من حريته مقيداً في تصرفاته، مرتبطاً بميول سيده وأمزجته وأهوائه، محروماً من التمتع بكل ثمار دخله، فمكانته إذا لا بد أن تكون أقل من مكانة الحر المتمتع بكامل حريته.

كانت الدولة تملك رقيقاً يسمى رقيق الخمس، أو رقيق الإمارة، وكان معظم رقيق بني أمية منهم(٣٥٨). وقد ازداد عدد رقيق الخمس نتيجة للفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً، فقد أخذ موسى بن نصير ٣٠٠ ألف أسير من افريقية وبلغ الخمس يومئذ ٦٠

---

(٣٥١) البلاذري، انساب الأشراف، ج ٥ ص ٢٩٩، ٣٠٠، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٠٤.

(٣٥٢) ابن حنبل المسند، ج ٤ فقرة ٢٩٣١، ٢٩٣٢، ٢٩٣٢، ابن العربي، أحكام القرآن، القاهرة، ١٣٧٦ هـ سنة ١٩٥٧م ج ٢ ص ٨٩٢.

(٣٥٣) أبو عبيد، الأموال، ص ٣٣٣، الطبري، اختلاف الفقهاء، القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٠، ١١٤.

(٣٥٤) البيهقي، السنن، ج ٩، ص ٩٤.

(٣٥٥) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٣.

(٣٥٦) ابن سعد، الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣.

(٣٥٧) E.I New Edition, Art. Abd

(٣٥٨) ابن سعد، المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣.

ألفاً[٣٥٩] ويقال إن قتيبة بن مسلم الباهلي أصاب من خوارزم مائة ألف رأس[٣٦٠]، وعندما صالح قتيبة أهل سمرقند صالحهم على ألفي ألف ومائتي ألف في كل عام على أن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب، أما الباهليون فيقولون انه صالحهم على ١٠٠ ألف رأس[٣٦١]، وهذه الأرقام وإن كان فيها بعض المبالغة إلاّ أنها تشير إلى الأعداد الكبيرة من الرقيق التي تدفقت على الشام إضافة إلى ما كان فيها من العبيد، فقد استطاع يزيد بن أبي النمس الغسّاني الذي لم يشهد الجابية واختبأ بدمشق أن يثور بأهل دمشق في عبيدها، وأن يغلب عليها ويخرج عامل الضحاك[٣٦٢]، وكان لعمرو بن سعيد وهو من امراء البيت الأموي ألف عبد[٣٦٣]، ونلاحظ ابتداء من خلافة سليمان بن عبد الملك تعيين أشخاص يوكل إليهم أمر الرقيق، فقد عين سليمان بن عبد الملك، عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي على بيوت الأموال والخزائن والرقيق والنفقات[٣٦٤]، وعندما سيطر العباسيون على الشام قبضوا رقيق بني أمية من الأخماس[٣٦٥].

كان رقيق الخمس يستخدم في شؤون شتى، فعندما أرسل معاوية سبي قيساريه البالغ أربعة آلاف رأس إلى عمر بن الخطاب، قسّمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب وأعمال المسلمين[٣٦٦]، واستخدم خالد بن يزيد عندما كان والياً على حمص ٤٠٠ عبد في بناء مسجدها[٣٦٧]، كما أن عبد الملك أقام من خمس الأسرى خدما لمسجد قبة الصخرة، وكانوا مماليك له وكانوا يسمون الأخماس ولا يخدمه

(٣٥٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢.
(٣٦٠) الطبري ج ٦ ص ٤٧١.
(٣٦١) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٧٥.
(٣٦٢) الطبري ج ٥ ص ٥٣٧.
(٣٦٣) المصدر السابق ج ٦ ص ١٤٤، ابن الأثير ج ٤ ص ٣٠.
(٣٦٤) خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣٢.
(٣٦٥) ابن سعد الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣.
(٣٦٦) البلاذري، فتوح، ص ١٤٧.
(٣٦٧) البلاذري، انساب الأشراف ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩.

غيرهم[٣٦٨]، وكان عمر بن عبد العزيز إذا كثر عنده أرقاء الخمس فرّق بين كل مقعدين وبين كل زمنين غلاماً يخدمهما ولكل أعمى غلاماً يقوده[٣٦٩]، ولا شك أن الوليد بن عبد الملك الذي كان أول من أجرى على العميان والمرضى والمجذّمين الأرزاق وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً، قد استخدم في ذلك رقيق الخمس[٣٧٠]، وبالرغم من أن كلود كاهن Claude Cahen يذكر في بحثه عن المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام أن العبيد كانوا يستخدمون لإداء الأعمال البيتية والحرف اليدوية وأنهم لم يستخدموا في العمل الزراعي في العصر الأموي[٣٧١] فهناك روايات تشير إلى أن العمل في الأرض كان يعتبر من الأعمال الأساسية للعبيد، وكانت المزرعة إذا وهبت وهبت بآلاتها ورقيقها[٣٧٢].

ليست بين أيدينا روايات تلقى ضوءاً على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من أسيادهم في الشام، إلا أن اشتراك عدد كبير من أباق العبيد مع الجَراجِمة في ثورتهم تجعلنا نتساءل عن سبب هربهم والتحاقهم بالثورة، أهو ناجم عن سوء في المعاملة، أم عن رغبة في الحصول على الحرية التي تعتبر أثمن ما يتوق إليه الإنسان؟ مهما يكن دافع هؤلاء العبيد، فان سحيم بن المهاجر الذي كان قد أرسله عبد الملك للقضاء على القائد الرومي الذي أثار الجَراجِمة، استطاع أن يستميل العبيد إليه عندما أمر فنودى بأن من يأتيه من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان[٣٧٣] فانفض إليه خلق كثير وقاتلوا معه فوفى لهم وجعل لهم ربعاً على حده فهم يسمون الفتيان[٣٧٤]

---

(٣٦٨) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٧١.

(٣٦٩) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨.

(٣٧٠) العيون والحدائق ص ١١، ١٢، القلقشندي، صبح الأعشى ج ١، ص ٤٣٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٤٤.

(٣٧١) Claude Cahen, Economy, Society, Institution, The Cambridge History of Islam, Vol. II The Cambridge University Press 1970, P. 519.

(٣٧٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١١٩، تهذيب ج ٥ ص ٣٤٢، ابن طولون، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٦م ص ٦، ٧.

(٣٧٣) البلاذري، أنساب ج ٥ ص ٢٩٩، ٣٠٠، ابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٤.

(٣٧٤) المصدر السابق ص ٣٠٠.

وكان أمراء بني أمية وولاتهم يعتقون الكثير من رقيقهم، فقد اعتق خالد بن يزيد ٤٠٠ عبد بعد انتهائهم من بناء المسجد بحمص[٣٧٥]، وأعتق سليمان حسب رواية النويري في يوم واحد سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم[٣٧٦]، هذا وإن كثرة الموالي لدى الخلفاء ولدى أمراء بني أمية كلها دلائل تشير إلى ذلك.

---

(٣٧٥) المصدر السابق ج٤ قسم ٢ ص ٦٩.
(٣٧٦) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢١، ٣٥٣.

الفصل الرابع

دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية

دور أهل الشام في دعم خلفاء بني أمية

كان أهل الشام القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الخلافة الأموية للخطر كما سيتبين لنا من خلال البحث، وقد رأينا دعم أهل الشام لمعاوية في صفين، كما دعم أهل الشام يزيد ابن معاوية، عندما رفض عبد الله بن الزبير البيعة له[1]، وانضم أهل المدينة إليه فثاروا على يزيد، وبالرغم من أن معظم المصادر تقسو بشكل عام على يزيد، إلا أنها في الوقت نفسه تحاول أن تبرز محاولات يزيد المتكررة في الوصول إلى حل يمنع سفك الدماء، كما أنها تشير إلى أن يزيد بن معاوية لم يعمد إلى حرب أهل المدينة ثم عبد الله ابن الزبير إلا بعد أن فشلت المفاوضات التي اشترك فيها عدد من الشخصيات البارزة في المجتمع الشامي[2]. وهذا بدوره ساعد يزيد على أن يحصل على دعم القوات الشامية بفئاتها المختلفة، ومن ثم نجد اتفاقاً في عدد كبير من المصادر بأن الجيش الذي انتدب لقتالهم كان مؤلفاً من ١٢ ألف مقاتل يضم مقاتلة من الأجناد الخمسة[3]، كما أنه كان

(١) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٣١.

(٢) المصدر السابق ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠، ٣٢، ابن الأعثم، فتوح، ج ٥، ص ٢٧٩، ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١ ص ١٧٧.

(٣) البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٣٣. الطبري، ج ٥، ص ٤٩٣. تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول، ص ١٩٧. ابن الأثير، ج ٤، ص ١١٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٦٠.

يضم وجوه أهل الشام وفرسانهم[٤]، المؤمنين بأن النصر سيكون حليفهم لأن أهل المدينة قد خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة[٥]، وقد انتصر أهل الشام بفضل طاعتهم لأمرائهم واستقامتهم وصبرهم في لقاء عدوهم[٦] في معركة الحَرَّة في ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، ولكننا يجب أن لا نغفل الدور الذي لعبه عبد الملك والخطأ الذي ارتكبه أهل المدينة بإخراجهم بني أمية منها، وبالرغم من أنهم أخذوا المواثيق عليهم أن لا يدلوا لهم على عورة وأن لا يظاهروا عليهم عدواً[٧]، فإن عبد الملك عندما التقى بمسلم بن عُقبَة المُرّي قائد الجيش الشامي في وادي القرى، نصحه أن يتوجه بجيشه إلى المنطقة القريبة من المدينة التي يمكنه فيها «أن يستظل جيشه بظل نخلها وأن يأكوا من صقره» كما نصحه أن يذكي الحرس الليل كله عقباً بين أهل العسكر، ثم أن يتجه بعد صلاة الصبح مُشرِّقاً بحيث تكون المدينة إلى يساره ثم يدور حول المدينة حتى يأتيهم من قبل الحرة مشرّقاً ثم يهاجم القوم لأن الشمس عند ذلك ستطلع بين أكتاف أصحاب مسلم فلا تؤذيهم، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها ويصيبهم أذاها «ويرون مادمتم مشرّقين من ائتلاق بيضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغرّبين[٨]».

بالرغم من انتصار القوّات الشامية في موقعة الحرّة إلاّ أن هذه المعركة زادت من مكانة عبد الله بن الزبير في الحجاز، إذ بايعه أهل مكة وأهل الحجاز وأتاه أهل الحرّة، كما قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج ليمنعوا البيت من أهل الشام[٩]،وتوجه الحصين بن نمير الذي تولى قيادة الجيش إثر وفاة مسلم بن عقبة المري[١٠] إلى مكة لمحاربة ابن الزبير، فحاصرهم حصاراً شديداً بقية المحرم وصفر ومدة

(٤) الطبري، ج ٥ ص ٥٣٧.
(٥) الطبري، ج ٥ ص ٤٨٦.
(٦) البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٦، الطبري، ج ٥ ص ٤٨٩.
(٧) الطبري، ج ٥ ص ٤٨٥.
(٨) المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٨٦.
(٩) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢، ص ٤٧، الطبري، ج ٥ ص ٤٩٧.
(١٠) الطبري، ج ٥ ص ٤٩٦، ٤٩٧.

أربعين يوماً إثر وفاة يزيد بن معاوية الذي مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ، وقد بويع لمعاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالشام بالخلافة ولعبد الله بن الزبير بالحجاز(١١).

إن الترابط الذي نشاهده في بلاد الشام بين الأجناد جميعها لا يلبث أن يتصدع بعد وفاة يزيد وابنه معاوية في السنة نفسها، ولا يعود هذا الانشقاق إلى الصراع بين قيس ويمن كما يحلو لبعض المؤرخين إظهاره، وإنما لعدم وجود شخصية قرشية بارزة في الشام يمكنها أن تستقطب ولاء أهلها كما استقطبهم معاوية في صراعه مع علي، ولذلك اتجهت الأنظار كلها تقريباً في بادىء الأمر إلى عبد الله بن الزبير، ففي رواية هشام بن عمّار عن مولى لمعاوية، أنه لما مات معاوية بن يزيد مال أكثر الناس إلى ابن الزبير «لأنه رجل كامل السن ابن حواري رسول الله، وابن بنت أبي بكر ذات النطاقين»، فما هو إلاّ أن ورد كتاب ابن الزبير بتولية الضحاك بن قيس دمشق حتى سارعوا إلى طاعته وبيعته(١٢)، ومن المعروف أن الضحاك بن قيس كان من أكثر الناس ولاء لمعاوية وابنه يزيد، كما يشير البلاذري إلى أن ناتل بن قيس الجُذامي أخذ البيعة لابن الزبير في فلسطين، وضبط له النعمان بن بشير الأنصاري بيعة أهل حمص(١٣)، وأخذ له زفر بن الحارث الكلابي بيعة أهل قنسرين(١٤)، فاستقامت لابن الزبير الشام كلها إلاّ الأردن، وهذا هو الثبت كما يقول البلاذري(١٥). ويتبين لنا من رواية ابن سعد عن محمد بن عمر أن مروان بن الحكم نفسه رأى في بادىء الأمر أن ينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه(١٦)، ولكن قدوم عبيد الله بن زياد من العراق أدّى إلى تغيير في الموقف، إذ منعه قائلاً:

---

(١١) الطبري، ج ٥ ص ٥٠١.
(١٢) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٦٤.
(١٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٢٨، الطبري، ج ٥ ص ٥٣١.
(١٤) الطبري، ج ٥ ص ٥٣١، ابن الأثير، ج ٤ ص ١٤٥.
(١٥) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٢٨.
(١٦) الطبري، ج ٥ ص ٥٣٠.

«استحييت لك مما تريد، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنع[17]». أما ابن الأعثم، فيذكر أن رَوْح بن زِنباع هو الذي أشار على مروان أن يطلب هذا الأمر لنفسه «لأنه شيخ كبير بني أمية وهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان[18]»، ذلك أن قسماً من أهل الشام من رؤوس قريش ومن بني أمية ومن أشراف أهل الشام كانوا مستعدين لتقبل عبد الله بن الزبير كخليفة، ولكنهم يجدون صعوبة في تقبل فكرة انتقال الملك من أهل الشام إلى أهل الحجاز[19]، وهذا الرفض نجده كذلك في رواية عُوانَة بن الحكم الذي يذكر أن الحصين بن نمير السكوني الذي كان محاصراً لمكة طلب مقابلة عبد الله بن الزبير بالأبطَح عندما بلغه خبر وفاة يزيد وأنه قال لابن الزبير: «إن يَكُ هذا الرجل قد هلك، فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فهلم لنبايعك ثم أخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان»، ولكنه اشترط على عبد الله أن يهدر الدماء التي كانت بينهما والتي كانت بين أهل الشام وأهل الحرّة، فرفض عبد الله، فكان سعيد بن عمرو يقول: «ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام الآّ تطير، وأن عبد الله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه اثنان[20]». ويبدو أن ابن الزبير ندم على الذي صنع، فأرسل إلى الحصين يبلغ أنه لن يسير إلى الشام لأنه يكره الخروج من مكة، ولكنه طلب منه أن يبايعوا له هنالك، وأنه مؤمنهم وعادل فيهم، ولكن الحصين بن نمير بيّن له صعوبة تحقيق مطلبه، لأنه إذا لم يقدم بنفسه، فإن هناك شخصيات قرشية أخرى ستطلب هذا الأمر لنفسها وستجد تأييداً من الناس إلى ذلك[21]، وقد حدث هذا فعلاً لأن رفضه لهذا الاقتراح، رجح كفة مروان بن الحكم الذي اعتلى عرش الخلافة دون أن يكون له بها أرب، إذ أن خروجه من الحجاز حين نفي مع بني أمية كان السبب البعيد لوصوله إلى هذا المنصب، ولو بقي في الحجاز لما عرفه أهل الشام ولما بايعوه، لا سيما وأن حسّان بن

---

(١٧) المصدر السابق، ج ٥ ص ٥٣٠.

(١٨) ابن الأعثم، فتوح، ج ٥ ص ٣١٢، ٣١٣.

(١٩) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج ٢ ص ١٢.

(٢٠) الطبري، ج ٥ ص ٥٠٩.

(٢١) الطبري، ج ٥ ص ٥٠٢.

مالك بن بحدل كان هواه مع مرشح من الفرع السفياني ، ولكن أهل الأردن بالرغم من استعدادهم للوقوف إلى جانب حسان بن مالك ضد من خالفه من الناس وأطاع ابن الزبير ، فإنهم رفضوا أن يكون الأمر لابني يزيد بن معاوية ، عبد الله وخالد ، « فانهما حديثة أسنانهما ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي[٢٢] » . وكان مالك بن هبيرة السكوني كحسان بن مالك يهوى هوى بني يزيد بن معاوية لأن مروان كما قال مالك للحصين بن نمير « ليحسدنك على سوطك وشِراك نعلك وظل شجرة تستظل بها ، إن مروان أبو عشيرة ، وأخو عشيرة ، وعم عشيرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيداً له[٢٣] » . ومع ذلك فإن أهل الجابية من بني أمية ومن تبعهم وحسّان ورهطه اجتمع رأيهم في النهاية على أن يبايعوا لمروان ، وكان روح بن زنباع الجذامي من أكثر المتحمسين لمروان إذ بيّن أحقية مروان بن الحكم بالخلافة وأنه لم يكن في الإسلام صدع قط إلا وكان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، واقترح أن يبايع الناس الكبير ويستشبوا الصغير ، يعني بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد[٢٤] .

وبالرغم من أن الضحاك كان قد مال بمن معه من الناس في بادىء الأمر يريد الجابية للقاء حسان بن مالك بن بحدل ، إلا أنه لم يلبث أن غير موقفه بتأثير من ثَوْر بن مَعن بن يزيد بن الأخنَس السُلَّمي لأنه كما قال له ثور ، إنما دعاهم إلى طاعة ابن الزبير فبايعوه على ذلك ، أما التوجه إلى حسّان بن مالك فيعني مبايعتهم لمرشحهم أو من سيرشحونه ، وهذا بدوره سيؤدي إلى سيطرة بني كلب وازدياد نفوذهم وهو أمر لا يتقبلونه ، ولذلك مال الضحاك بمن معه من الناس حتى نزل مرج راهط[٢٥] .

بعد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة في الجابية ، توجه نحو مرج راهط في أهل الأردن من كلب وأتته السكاسك والسكون ، وغسّان وربع حسان بن مالك بن

---

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦ .
(٢٣) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦ .
(٢٤) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٧ .
(٢٥) الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٤ .

بحدل[٢٦] . ومن قصيدة يقال إن مروان أنشدها يوم بويع يتبين لنا أن القبائل التي أيّدت مروان كانت كلها يمانية وقضاعية ، كلب ، السكاسك ، طيء ، ألقين ، تنوخ ، والسكون ، وغسّان[٢٧] ، في حين أن القبائل التي أيدت الضحاك كانت قيسية ويمانيه ، إذ يذكر البلاذري أنه كان مع الضحاك خلق من أهل اليمن إلا أن قيساً كانوا رؤوس الناس وعددهم[٢٨] ، فقد استمد الضحاك النعمان بن بشير الأنصاري وهو على حمص فأمده بشرحبيل بن ذي الكلاع ، واستمد أيضاً زفر بن الحارث وهو على قنسرين فأمده بأهل قنسرين ، وأمده ناتل بأهل فلسطين فاجتمعوا عنده في مرج راهط ، فإذا قبلنا رواية خليفة بن خياط وابن عبد ربه لوجدنا أنه كان مع الضحاك ستون ألف مقاتل ومع مروان ثلاثة عشر ألفاً فقط[٢٩] ، في حين تشير رواية ابن الأعثم أن مروان كان في ثمانية عشر ألفاً أكثرهم جماعة اليمن ، وأن الضحاك بعد امداد بشير الأنصاري كان في ٢٢ ألفاً أكثرهم من قبائل قيس[٣٠] ، واعتقد أن الأرقام التي يذكرها ابن الأعثم أقرب إلى الواقع والمنطق من تلك التي ترد عند خليفة وابن عبد ربه ، لأننا إذا قبلنا أن الضحاك كان في ستين ألفاً فمعنى ذلك أن القبائل اليمانية التي كانت معه كانت أكثر من القيسية ، وهذا يتناقض مع الروايات التي تشير إلى أن الأكثرية مع الضحاك كانت قيسية ، وقد رأينا عند دراستنا لتوزع السكان أن العناصر اليمانية والقضاعية هي الغالبة في كل الأجناد ماعدا جند قنسرين ، التي كانت أكثريتها قيسية ، إلا أنه لا يمكن أن يصل عدد مقاتلته إلى أكثر من ٢٠ ألفاً ، وبالرغم من أن بعض الروايات تحاول التأكيد على كثرة القتلى من قيس ، فإن رواية عوانه بن الحكم تشير إلى أن أهل الشام قتلوا يومئذ مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قط بين القبائل[٣١] .

---

(٢٦) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٧ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢٧) الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٨ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٨ ، ابن الأعثم ، فتوح ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٤٩ النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٨٥ .

(٢٨) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ، ص ٣٠١ .

(٢٩) خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٢٦ ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٤ ص ٣٩٦ .

(٣٠) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٣١٣ .

(٣١) الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

ما أن انتصر مروان في معركة مرج راهط حتى أطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له واستعمل عليها عماله[٣٢]، وكان أول ما فعله مروان بعد أن استتب له الأمر في الشام أن توجه نحو مصر بقوات شامية[٣٣]، مع عدد كبير من أشراف أهل الشام[٣٤]، إذ أن أهمية مصر ظهرت في الواقع أثناء الصراع بين علي ومعاوية بسبب موقعها الفريد ومواردها الوافرة، وترجيح كفة من يسيطر عليها، ونجح مروان في استعادة مصر من أنصار عبد الله بن الزبير ثم غادرها أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية للحكم الأموي وولّى عليها ابنه عبد العزيز بن مروان[٣٥].

كان من نتيجة معركة مرج راهط ودعم حسان بن مالك أن بقيت مكانته ومكانة قبيلته رفيعة، واشترط حسان بن مالك على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد منها أن يفرض لهم لألفي رجل، ألفين ألفين، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس، فرضي مروان[٣٦]، كما اشترط الحصين بن نمير بن نايل الكندي ثم السكوني على مروان أن يُنزل البلقاء من كان بالشام من كندة، وأن يجعلها لهم مأكله فأعطاه ذلك[٣٧]، وكان لحسان بن مالك الدور الأكبر في جعل الخلافة بعد مروان لعبد الملك إذ فضل أن تنتقل الخلافة إلى أولاد مروان على أن تنتقل إلى عمرو بن سعيد الأشدق[٣٨].

توفي مروان في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ، وانتقلت الخلافة إلى عبد الملك الذي كان عليه أن يواجه مشاكل عديدة استطاع أن يقضي عليها الواحدة بعد الأخرى، إلا أن أهم أمر كان يشغله هو أمر عبد الله بن الزبير الذي دانت له البلدان كلها إلا الشام ومصر، ومع ذلك لم يتعجل عبد الملك الأمور، وانتظر حتى قضي مصعب بن الزبير

(٣٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٥٤٠.
(٣٣) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٦.
(٣٤) المصدر السابق، ص ٤٢.
(٣٥) الطبري، ج ٥ ص ٥٤٠، الكندي، ص ٤٧.
(٣٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٦.
(٣٧) الطبري، ج ٥ ص ٥٤٤.
(٣٨) المصدر السابق، ج ٥ ص ٦١٠.

على المختـار بن أبي عبيـد الثقفـي[٣٩]، وبالرغـم من أن الـقضاء على المختـار كان سنة ٦٧ هـ فإن انتصار عبد الملك على مصعب ومقتله لم يتم إلا سنة ٧٢ هـ[٤٠]، لأن عبد الملك شغل بفتنة عمرو بن سعيد بن الأشدق الذي تحصّن في دمشق وأعلن العصيان أثناء خروج عبد الملك من دمشق يريد قرقيسيا وفيها زفـر بن الحارث الكلابي[٤١]، أو لحرب مصعب، فاضطر عبد الملك إلى الرجوع، وجرى بينه وبين عمرو قتال انتهى إلى عقد الصلح بينهما، ولكن عبد الملك لم يلبث أن استدرج عمرو ابن سعيد إلى قصره وقتله، وذلك سنة ٦٩، أو ٧٠ هـ[٤٢]. كذلك اضطر عبد الملك لمصالحة الجَراجِمة الذين انضموا للروم في جبال اللُّكام على ألف دينار كل جمعة، وصالح طاغية الروم كذلك على مال يؤديه لكي يتفرّغ لحرب مصعب الذي دانت له أرض العراق وسائر البلدان فأصبح خطراً يهدد عبد الملك، ومن ثم جمع عبد الملك إخوته وأشراف أهل بيته وأوضح لهم قوة مصعب وأنه يخشى أن يغزوهم في عقر دارهم، «وأنه ما من قوم غزوا في عقر دارهم إلا وذلوا[٤٣]». فكانت نصيحتهم إليه أن يجمع رجاله ويعد عدته وأن يسير إلى خصمه قبل أن يسير خصمه إليه، «فوجه عبد الملك إلى كور الشام فاجتمع له جميع الأجناد[٤٤]». ويذكر المسعودي أن عبد الملك خرج في جند الشام ومصر والجزيرة[٤٥] بينما يذكر ابن الأعثم خروج عبد الملك في جند الشام ومصر[٤٦]، إلا أن الكندي لا يشير إلى اشتراك جند مصر إلا في القضاء على عبد الله ابن الـزبير[٤٧]، ولـذلك يمكـن الاستنتـاج بالاستنـاد إلى هذا الاختـلاف الـوارد في

(٣٩) المصدر السابق، ج٦ ص ١٠٩ — ١١٦.

(٤٠) المصدر السابق، ج٦ ص ١٦٠ وفي بعض الروايات أن مصعب قتل سنة ٧١ هـ.

(٤١) قرقيسيا، بلد على نهر الخابور، قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعند مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات.

(٤٢) الطبري، ج٦ ص ١٤٠، خليفة، ج١ ص ٣٣٧.

(٤٣) الدينوري، الأخبار الطوال ص ٣١٠.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٣١١.

(٤٥) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص ١٠٥.

(٤٦) ابن الأعثم، ج٦ ص ٢٦.

(٤٧) الكندي، ص ٥١.

الروايات، أن عبد الملك اعتمد بالدرجة الأولى على القوات الشامية لأنه قبل خروجه لقتال مصعب زحف على الجزيرة قاصداً زفر بن الحارث زعيم القبائل القيسية، وجرت بينه وبين زفر مفاوضات انتهت بعقد أمان بينهما، ويقال أن زفر خرج مع عبد الملك لحرب مصعب ولكنه لم يشترك في القتال(٤٨)، ويبدو أن هدف عبد الملك من هذه العملية كان أن يتجنب ما حدث لعبيد الله بن زياد وأن يحمي ظهره أثناء صراعه مع مصعب(٤٩)، لا شك أن توجه عبد الملك بنفسه لقتال مصعب(٥٠)، ودعم القوات الشامية له لعبا دورهما في الانتصار الذي حققه عبد الملك، ولكننا يجب أن نشير إلى أنه بالرغم من كفاءات مصعب بن الزبير القيادية العظيمة إلا أن أهل العراق خذلوه، إذ تباطأ البصريون بحجة أن الخوارج الحرورية برئاسة قطري بن الفجاءة قد نزلوا سوق الأهواز، وغدوا على مقربة من البصرة، وأن البصريين يخشون هجومهم على مدينتهم(٥١). وإذا قبلنا رواية البلاذري نجد أنه يَدَّعي أن أشراف أهل العراق كتبوا إلى عبد الملك يدعونه إلى أنفسهم ويخبرونه أنهم مبايعوه، فلم يبق بالبصرة شريف إلا كاتبه غير المهلّب(٥٢)، وفي هذا الزعم، إذا صح، دلالة على يأس الأشراف في العراق من حكم ابن الزبير واعتقادهم بأن استقرار مصيرهم لن يتم إلا إذا ضبط لهم الأمور فيها شخص قوي كعبد الملك يستطيع أن يضع حدا لعهد طويل من الفوضى، أضرّ بمصالحهم وعطل أعمالهم وكبدهم الخسائر الكبيرة في الأرواح والأموال، وفتح باباً لأمور يعدونها خطيرة لا سيما ما جرى زمن المختار من علو مكانة الموالي ومساواتهم في العطاء مع الأشراف وإشراكهم في أموال ألفيء، وغير ذلك مما احتج عليه الأشراف ووقفوا ضد المختار بسببه(٥٣)، ومع ذلك نجد بعض الأشراف يتخوفون من ادخال أهل الشام

---

(٤٨) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٤، ٣٣٥.
(٤٩) نبيه عاقل خلافة بني أمية، ص ١٥٥.
(٥٠) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٥، اقترح البعض على عبد الملك أن لا يعمد إلى قيادة الجيش الموجه لقتال مصعب، فكان رده، أنه لو بعث إلى مصعب جميع أهل الشام، لفلّهم وفضهم مالم يكن معهم.
(٥١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٣٢
(٥٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٣٤.
(٥٣) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ١٥٥.

عليهم، فهذا الأحنف بن قيس يقول لزياد بن عمرو العتكي: «أظنك والله يا زياد وأصحابك ستدخلون علينا ذلاً وبلاء عظيماً، أحسبكم والله ستدخلون علينا أهل الشام فيقتلونا وينزلون دورنا[٥٤]»، وهذا قيس بن الهيثم يقول لأهل البصرة «ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليضيقن عليكم منازلكم[٥٥]». وهذا دليل على العصبية الإقليمية التي بدأت تظهر في هذه الفترة من صدر الإسلام.

بعد القضاء على مصعب ومقتله، سنة ٧٢ هـ وفقاً لأغلب الروايات، وأخذ عبد الملك البيعة من أهل العراق، وجه الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الله بن الزبير بمكة وسار في بقية أهل الشام إلى دمشق[٥٦]. ويذكر الواقدي أنه أرسل الحجاج ابن يوسف في ألفين ويقال في ثلاثة آلاف ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام[٥٧]، أما ابن الأعثم فيذكر أن عبد الملك ضم للحجاج أثناء توجهه لقتال عبد الله بن الزبير ستة آلاف رجل، ألفين من أهل الشام وألفين من أهل مصر وألفين من فرض العراق[٥٨]. ولكننا عندما نتتبع سير الأحداث في المصادر نرى أن اعتماد الحجاج في القضاء على عبد الله بن الزبير كان وقفاً على أهل الشام، فقد توجه الحجاج بعد قضائه شهراً في الطائف إلى مكة وحصر ابن الزبير في المسجد وأرسل جماعة من أهل الشام إلى المدينة كي يستولوا على مقاليد الأمور فيها ويخرجوها من سلطان ابن الزبير[٥٩]، وكانت خطة الحجاج ترك الزبير محصوراً في الكعبة حتى يفنى ما معه من زاد فيضطر وصحبه للاستسلام، وفعلاً قل مخزون الطعام وارتفعت أسعار المواد الغذائية، ارتفاعاً

---

(٥٤) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٣٢.

(٥٥) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٤٤.

(٥٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١١٠.

(٥٧) البلاذري، أنساب ج ٥ ص ٣٥٧، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الملك أرسل الحجاج في ألف وخمسمائة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف ثم جعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسلاً، ابن قتيبة، الأمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٤.

(٥٨) ابن الأعثم، فتوح ج ٦ ص ٢٧٢.

(٥٩) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

فاحشاً، حتى بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ومد الذرة بعشرين درهماً[٦٠]، بينما كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السويق والكعك والدقيق[٦١]، ولما طال الحصار على ابن الزبير وجد أن لا فائدة ترجى من الاستمرار في الاعتصام بالكعبة فخرج منها وقاتل حتى سقط قتيلاً بعد أن انفض عنه الكثير من أصحابه[٦٢]، ونفهم من رواية ابن سعد عن محمد بن عمر أن أجناد الشام الخمسة اشتركت مع الحجاج في قتال عبد الله بن الزبير[٦٣] كما اشتركت في قتال مصعب، وهكذا نرى أن دعم أهل الشام لعبد الملك ساعده على ضم المناطق المختلفة المنشقة إلى حظيرة الحكم الأموي، واستتب الأمر لعبد الملك بعد أن تخلص من الحركة الزبيرية، هذه الحركة التي طال أمدها وظلّت نارها مشتعلة مدة ثلاثة عشر عاماً من سنة ٦٠ هـ إلى ٧٣ هـ، كما انتهى بانتهاء ابن الزبير عهد الحجاز باعتباره مقر الخلافة وعاصمتها.

ما أن انتهى عبد الملك من القضاء على عبد الله بن الزبير، حتى عمد إلى جمع شتات القبائل التي فرّقتها أحداث الفتنة الثانية، إذ أن موقعة مرج راهط كانت الشرارة الأولى لحروب ووقائع عنيفة بين قبيلتي قيس وتغلب من ناحية، وبين قيس وكلب من ناحية أخرى، إذ أن قبيلتي كلب وتغلب كانتا مروانية وكانت قيس زبيرية[٦٤]، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن هذه الوقائع جرى معظمها على أطراف البادية، فقد كانت منازل كلب البادية تتاخم منازل بطون قيس التي نزلت بالجزيرة وجلها من بني سليم وبني عامر بن صعصعة، أما الوقائع بين قيس وتغلب فقد جرى معظمها في الجزيرة. وقد استطاع عبد الملك بالحزم تارة، والمداراة تارة أخرى، أن يوطد الأمن في المنطقة كلها كما استطاع بعد أن استتب له الأمر أن يسلك طريقاً وسطاً في ميدان العصبيات،

---

(٦٠) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٦١.
(٦١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٦٠، الطبري، ج ٦ ص ١٧٥.
(٦٢) الطبري، ج ٦ ص ١٨٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٥.
(٦٣) الطبري، ج ٦ ص ١٩٠، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٥٤.
(٦٤) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٠٨ ــ ٣١٤.

فأدت سياسته إلى التخفيف من غلواء السيطرة اليمانية التي عبر عنها عُويج الطائي بقوله :

فلـــــولا أمير المؤمـــــنين لأضحت
قضاعـة أربابـاً وقـــيس عبيدهـــــا[٦٥]

وقد أدى هذا الموقف إلى ترك القيسية سياسة المقاومة لعبد الملك الذي قرّب رجالها ووسّدهم من الأمور ما وسّد خصومهم من اليمانية، فكان زُفَر بن الحارث وأبناؤه هذيل وكوثر من بعده من أكبر الشخصيات وأعظمها جاها في بلاط دمشق[٦٦]، كما أشعر الكلبيين واليمانيين أنهم لا يزالون موضع اهتمامه، وأنهم لا يقلون أهمية عنده من القيسيين كابن بحدل وروح بن زنباع الجذامي[٦٧] وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي من الأزد[٦٨]، أما في مجال الشعر والشعراء فلم يكن عبد الملك يأذن في بادىء الأمر ولا يسمع من شعراء مضر لأنهم كانوا زبيرية، ولم يأذن لجرير إلا بعد تدخل من الحجاج[٦٩]، الذي أعلم عبد الملك أنه لم يكن ممن والى ابن الزبير وأنه لم ينصره بيده ولا بلسانه، ومع ذلك بقي عبد الملك مفضلاً للأخطل التغلبي (من قبائل ربيعة) ولعدي بن رقاع العاملي[٧٠].

دور أهل الشام في دعم ولاة بني أمية في العراق

كان من نتائج انتقال الحكم إلى البيت الأموي انتقال مركز الثقل السياسي والإقتصادي من العراق إلى الشام، ذلك أن العراق كان خلال خلافة علي بن أبي

(٦٥) الطبري، ج ٥، ص ٥٤٤.
(٦٦) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ١٣١.
(٦٧) الطبري، ج ٦ ص ٤١٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥ ص ٣٤٠.
(٦٨) الطبري، ج ٦ ص ٤١٢، ابن عبد ربه، العقد، ج ٣ ص ٣٨٢.
(٦٩) الأغاني، ج ٨، ص ٦٦، ٦٧.
(٧٠) المصدر السابق، ج ٨ ض ٨٠.

طالب وأثناء صراعه مع معاوية مستقراً له ومقراً لحكمه، وكان أهله شيعة له، ولولا التحكيم، وانشقاق الخوارج، وماتلاه من عملية الاغتيال الغادر التي تعرّض لها علي بن أبي طالب لكانت سيادته سيادة حقيقية، لا ينازعها منازع، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القبائل العربية التي هاجرت إلى العراق أثناء الفتح كانت في غالبيتها من قبائل الردة الذين ثاروا أصلاً على فكرة الحكم المركزي، وأن هذه القبائل لم تنكسر حدة تمردها القبلي نتيجة لسكناها في معسكرات خاصة كالبصرة والكوفة، لأدركنا سبب ذلك الصراع الذي قام خلال هذا العصر بين السلطة المركزية المتمثلة بالخلافة الأموية من جهة ورجالات القبائل والشيعة والخوارج من جهة أخرى، وليس مجال بحثي التعرض إلى هذه الحركات والثورات التي نجد لها تفصيلاً وافياً في المصادر والمراجع، وإنما غايتي إظهار مدى اعتماد ولاة بني أمية في العراق على القوات الشامية في الفترة المروانية، بحيث أصبح الاعتماد وقفاً عليها وحدها أحياناً.

آ ـــ مقاتلة الشام ودورهم في قمع حركات الخوارج في العراق

أثار الخوارج في وجه الخلافة الأموية الفتن والقلاقل، ومما زاد في خطورتهم أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم، بل أخذت جموعهم المتفرقة في أنحاء الدولة تقلق الولاة وتناوئهم، فاستغرق ذلك جهودهم، وقد أجبر معاوية أهل الكوفة عندما ثار فروة بن نوفل الأشجعي ومعاوية في النُّخيلَة أن يعمدوا إلى محاربة الخوارج مهدداً إياهم أن لا أمان لهم عنده حتى يكفوا بوائقهم(٧١). فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، واتبع المُغيرة بن شُعبة الأسلوب نفسه عند خروج المستورد بن عُلّفة، إذ جمع الناس وخطب فيهم بعد أن حمد الله واثنى عليه «أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى.... وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف، وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم(٧٢)». وطلب

(٧١) الطبري، ج ٥ ص ١٦٥.

(٧٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٤.

المُغيرة من كل امرىء من الرؤساء أن يكفه قومه وإلا فإنه سيغير سياسته تجاههم[٧٣]، وكان أكثر الناس تحمساً لقتالهم صَعْصَعة بن صَوْحان من أتباع علي الذي بيّن لقومه عبد القيس، أنه لا قوم أعدى لله ولأهل بيت الرسول ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا الإمام علي واستحلوا دماء أتباعه وشهدوا عليهم بالكفر، وحذرهم أن يؤوا أحداً في دورهم، ثم وجه المغيرة فرسان أهل الكوفة، وكان قد أمر بانتخابهم انتخاباً وجعل على رأسهم معقل بن قيس وطلب منه أن يسير إليهم وأن يدعوهم للتوبة وإلى الدخول في الجماعة وأن يقبل منهم ان فعلوا[٧٤]. ومما يثير الانتباه أن أهل كل مصر كانوا مسؤولين عن مناجزة الخوارج في مصرهم[٧٥]، فلما جاء الحجاج أبطل ذلك وكتب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي كان قد أرسله لملاحقة شبيب، أن يطلب شبيباً ويسلك في أثره أين سلك حتى يدركه فيقتله أو ينفيه فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين، وذلك أنه عندما وصل شبيب دقوقاء وشهرزور، قال عبد الرحمن، إنما هو أرض الموصل فليقاتلوا عن بلادهم أو ليدعوه[٧٦]. ان نظرة الحجاج هذه هي التي دفعته فيما بعد إلى الاستنجاد بجند الشام، فالولايات بالنسبة إليه وحدة متماسكة، فلا عراق ولا شام ولا مصر ولا حجاز وإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين، فإذا أخفق مقاتلة مصر في الدفاع عن نفسه ومواجهة عدوه فلا بأس من الاستنجاد بغيره، ومن ثم هدد الحجاج أهل الكوفة قائلاً: «أيها الناس، والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم، أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والغيظ

---

(٧٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٤.

(٧٤) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٩.

(٧٥) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٩٩ — ٢٠٠.

(٧٦) الطبري، ج ٦ ص ٢٥٠: كان صالح بن مسرح وجماعته من الخوارج الصفرية قد خرجوا سنة ٧٦ هـ، وانضم إلى صالح شبيب بن يزيد وجماعته في أرض الجزيرة، وهزموا جيشاً أرسله محمد بن مروان أمير الجزيرة، فأرسل جيشين آخرين أجبرا صالح على الخروج من الجزيرة إلى أرض الموصل، فأرسل الحجاج عند ذلك الحارث بن عميرة الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة وقتل في المعركة صالح (الطبري ج ٦ ص ٢٤٣) واستلم شبيب القيادة، واتسعت رقعة نفوذه، وقد وصل أمره أنه استطاع دخول الكوفة ومعه زوجته غزالة، وكان الحجاج بالبصرة، فلما سمع بتوجه شبيب إلى الكوفة طوى الحجاج المنازل فوصلها صلاة الظهر، ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب (الطبري ج ٦ ص ٢٤٠).

منكم فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيئكم[٧٧] ». وكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره أن شبيباً شارف المدائن يريد الكوفة وأن أهل الكوفة قد عجزوا عن قتاله في مواطن كثيرة في كلها يقتل أمراءهم، ويذل جنودهم، « فان رأي أمير المؤمنين أن يبعث إلى أهل الشام فيقاتلوا عدوهم ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام »، فلما أتى عبد الملك كتابه بعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي[٧٨]، في أربعة آلاف وحبيب بن مَذْحِج في ألفين[٧٩]، فاستغنى بهم الحجاج عن أهل الكوفة، وقام على المنبر فقال: « يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ولا نصر من أراد بكم النصر، أخرجوا عنا فلا تشاهدوا معنا قتال عدو، وأنزلوا الحيرة مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل إلا من لم يشهد قتال عَتَّاب بن ورقاء[٨٠] ».

وعندما توجه شبيب نحو الكوفة للمرة الثانية، صمد جند الشام أمام كتائب شبيب الواحدة بعد الأخرى، وكان الحجاج يصيح بهم قائلاً: « يا أهل السمع والطاعة والصبر واليقين، لا يغلبّن باطل هؤلاء الأوجاس حقكم[٨١] ». وقرر شبيب أن يأتي الحجاج من ورائه، ولكن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو ثلثمائة رجل من أهل الشام ردءاً له ولأصحابه لئلا يؤتوا من ورائه[٨٢]، ونجح الحجاج يومئذ من

---

(٧٧) المصدر السابق، ج ٦ ص ٢٥٨.

(٧٨) سفيان بن الأبرد الكلبي داره بجيرون وكان له سوق الصاقلة قطيعة، وغزا سفيان القسطنطينية مع يزيد بن معاوية وكان من قادة بني أمية، (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٢٧. تهذيب، ج ٦ ص ١٨٢ م.

(٧٩) الطبري، ج ٦ ص ٢٥٨.

(٨٠) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٢٣، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ١٨٨. وكان الحجاج قد أمر أهل الكوفة بالانضمام إلى عتاب بن ورقاء، وأنه لا يسمح لأحد من الناس بالاقامة إلا رجلاً قد ولاه عملاً، وبين لهم أن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة، وأن للناكل الهوان والجفوة، وهددهم بأنهم إذا فعلوا في هذه المواطن كفعلهم في المواطن الأخرى ليولينهم كنفاً خشناً وليعركنهم بكلكل ثقيل (الطبري ج ٦ ص ٢٦٢) ولكن أهل الكوفة لم يثبتوا مع عتاب وانفضوا من حوله وقتل عتاب بن ورقاء وقائده زهرة بن حوية (الطبري ج ٦ ص ٢٦٥).

(٨١) الطبري، ج ٦ ص ٢٦٩، ٢٧١.

(٨٢) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٢٧.

هزيمة شبيب، وقتل أخو شبيب وقتلت غزالة امرأته، ودخل الحجاج الكوفة[٨٣]، وبين لأهلها أن شبيباً لم يقاتل قبلها، فلما جاء جند الشام ولّى هارباً، ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحَكَمي وبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام واشتبك معهم عند الأنبار وأثخن فيهم الجراح، فاضطر شبيب إلى أن يتراجع إلى الأهواز ففارس ثم كرمان[٨٤]، وبعد أن استراح شبيب في كرمان أقفل راجعاً فالتقى مع سفيان بن الأبرد الكلبي الذي كان الحجاج قد أرسله للقضاء على شبيب بجسر دُجَيل الأهواز، فاقتتلوا أشد قتال، وحمل شبيب على أهل الشام أكثر من ثلاثين حملة وأهل الشام على حالهم في ثبات القدم، واستمر القتال حتى اختلط الظلام ثم انصرف، فلما انتهى شبيب إلى الجسر طلب من أصحابه أن يعبروا الجسر ثم يعودوا للهجوم باكراً في اليوم التالي، فعبروا أمامه وتخلف في آخرهم، فنزا فرسه، فسقط في الماء وغرق، فكان مصرعه سنة ٧٧ هـ أو سنة ٧٨ هـ[٨٥].

وهكذا نجح أهل الشام في القضاء على ثورة شبيب الخارجي التي تعتبر من أعنف الحركات الخارجية، وقد عيّر الحجاج أهل الكوفة بأنه وجه لقتال شبيب خمسة وعشرين أمير جيش، وكل له مكانته، فيقتل أميرهم وهم وقوف ينظرون إليه لا يرون له حرمة في صحبة ولا ذماماً في طاعة[٨٦]، كما أرسل الحجاج سفيان بن الأبرد مع جيش كبير من أهل الشام في طلب قَطَرى بن الفُجاءَه، ذلك أنه بعد تشتت أمر الأزارقة نتيجة للاختلاف الذي حدث بينهم بكَرْمان وصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قَطَرى، ضعف أمر قطرى الذي توجه يريد طبرستان، فأقبل سفيان حتى أتى الري ثم اتبعهم، وكتب الحجاج إلى اسحاق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بَطَبَرِستان أن يسمع ويطيع لسفيان، فأقبل إلى سفيان وسار معه في طلب قطرى حتى لحقوه في شعب من شعاب طَبَرِستان، فقاتلوه فتفرق عنه

---

(٨٣) الطبري، ج ٦ ص ٢٧٧.

(٨٤) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٢٧، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ١٨٩.

(٨٥) الطبري، ج ٦ ص ٢٧٩، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ١٩٠.

(٨٦) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج ٢ ص ٣٢.

أصحابه، ووقع عن دابته فهوى حتى خرّ إلى أسفله، وادّعى قتله عدد من أهل الكوفة[٨٧].

وهدأت حركات الخوارج نتيجة لقضاء المهلب على فرقة الأزارقة من جهة وقضاء الحجاج على حركة شبيب، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ) خرج شوذب[٨٨] على عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة، فأمر عمر بن عبد العزيز واليه أن لا يبادئهم القتال إلا إذا أفسدوا في الأرض، وكتب عمر إلى بُسطام يدعوه ليسأله عن سبب خروجه كما طلب منه أن يناظره، فبعث إليه بسطام برجلين يناظرانه[٨٩]، ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز توفي قبل أن يقتنع الخارجيان بوجهة نظره، وأراد عبد الحميد بن عبد الرحمن أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ) فكتب إلى محمد بن جرير البَجَلي يأمره بمحاربة شوذب وأصحابه، وكان معه ألفان من أهل الكوفة، فلما هزم هؤلاء اضطر يزيد أن يرسل من قِبَلِهِ تميم بن الحُباب في ألفين، ثم نجدة بن الحكم الأزدي ثم الشَحَّاج بن ودَّاع في ألفين كذلك، ولكن شوذب استطاع أن يهزمهم الواحد تلو الآخر، فلما دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة شكا إليه أهلها مكان شوذب وما قد قتل منهم فدعا مسلمة سعيد ابن عمرو الحرشي من قادة الشام فعقد له على عشرة آلاف فارس فتمكن من أن ينتصر على الخوارج وقتل شوذب سنة ١٠١ هـ[٩٠].

وفي سنة ١١٩ هـ خرج بهلول بن بشر المُلقَّب بكثارة، وهو من الموصل من بني شيبان، ولما علم خالد بن عبد الله القسري والي العراق (١٠٥ ــ ١٢٠ هـ) بخروجه، خرج من واسط وأتى الحيرة، وكان بها جند قد قدموا من الشام مدداً لعامل الهند، فأمرهم خالد بقتاله ووعد من يقتل منهم رجلاً أن يعطيه عطاء سوى ما أخذ في

---

(٨٧) الطبري، ج ٦ ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٨٨) اسمه بسطام من بني يشكر، وكان مخرجه بجوخى في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، وجوخى كورة واسعة في سواد بغداد. (الطبري ج ٦ ص ٥٥٥).

(٨٩) الطبري، ج ٦ ص ٥٥٥، ٥٥٦.

(٩٠) الطبري، ج ٦ ص ٥٧٦.

الشام وأن يعفيه من الخروج إلى الهند، فسارعوا إلى ذلك، ولكن بهلول هزمهم وزحف يريد الخليفة هشام في الشام، عند ذلك سير خالد جنداً من العراق وسير عامل الجزيرة جنداً من الجزيرة ووجه هشام جنداً من الشام واجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل، وقتل بهلول في المعركة(٩١).

ب ــ مقاتلة الشام ودورهم في القضاء على ثورتي ابن الأشعث (٨١ ــ ٨٥ هـ) ويزيد بن المهلب (١٠١ ــ ١٠٢ هـ)

بالإضافة إلى حركات الخوارج، اضطر ولاة العراق لمجابهة ثورات كان بعضها من العنف بحيث عرّض الدولة الأموية لأزمات قاسية واضطر الولاة إلى الاعتماد على الجند الشامي في سبيل إخمادها.

من أهم هذه الثورات، ثورة ابن الأشعث الذي كان الحجاج قد أرسله مع معظم مقاتلة الكوفة والبصرة للقضاء على ثورة رتبيل في سجستان، فلما ثار ابن الأشعث وخلع جنده الحجاج ثم عبد الملك، ووصل حتى نزل الأهواز، جمع الحجاج الناس وخرج في جيش كبير حتى نزل على سبعة فراسخ من الأهواز ودعا بعبد الله بن رُمَيثة الطائي من أهل حمص، ومَطْهر بن مُر العَكّي من أهل الأردن فضم إليهما ثمانية آلاف فارس(٩٢)، ولكن هذا الجيش هزم عند دُجَيل الأهواز(٩٣)، وتقدّم ابن الأشعث متوجها نحو البصرة، وبلغ ذلك الحجاج، فقطع جسر الأُبُلَّه، وضم الأسواق، ووجه نداءه إلى أهل الشام، أن لا يتركوا بالمكلاّ شيئاً من العلف والطعام إلا ونقلوه إلى العسكر، «فإنما الناس أحد رجلين، فمن لحق بنا أعطيناه من طعامه وعلفه ومن لحق بعدونا فدمه حَلال لنا(٩٤)».

وفي معركة الزاوية سنة ٨١ هـ كان الحجاج يومئذ في ثلاثة وعشرين ألفاً من أهل

---

(٩١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٢١٠، ٢١١، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٤٤٧.
(٩٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٧ ص ١٣٠.
(٩٣) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٠، ٣٤١.
(٩٤) ابن الأعثم، فتوح، ج ٧ ص ١٣٢، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٥.

الشام ومن تبعه من أهل العراق، وابن الأشعث في زهاء ستين ألفاً[٩٥]، ولعب سفيان ابن الأبرد الكلبي مع جند الشام دوراً كبيراً في هزيمة ابن الأشعث في وقعة الزاوية، ومكّن الحجاج من الدخول إلى البصرة، فاضطر عبد الرحمن للتوجه نحو الكوفة حيث استطاع أن يدخلها ويحتوي على بيت مال الحجاج[٩٦]، وعندما سمع الحجاج بذلك توجه نحو الكوفة وعسكر بدير قرّه[٩٧]، واجتمع إلى عبد الرحمن أهل الكوفة، وأهل البصرة، والقرّاء وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم، فكانوا مائة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم[٩٨]، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فأرسل إلى الحجاج أشراف أهل الشام والجزيرة مدداً له في سبعين ألفاً[٩٩]، ولكن عندما اشتد القتال بين الطرفين وجد عبد الملك ورؤوس قريش وأهل الشام أنه إذا كان يرضي أهل العراق أن ينزع عنهم الحجاج، فان نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق، فبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك وبعث إلى أخيه محمد بن مروان بأرض الموصل يأمره بالقدوم عليه وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام وأن ينزل ابن محمد أي بلد من عراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً وعبد الملك خليفة، فإن هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجاج وكان محمد بن مروان أمير العراق، وان أبوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولي القتال، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته[١٠٠]، أما ابن الأعثم فيضيف إلى هذه الشروط شرطاً آخر وهو أن عبد الملك وعدهم بإخراج أهل الشام من بلادهم «ولا يرى العراق شاماً أبداً[١٠١]».

رفض العراقيون شروط عبد الملك بالرغم من أن عبد الرحمن كان يفضل

(٩٥) المصدر السابق، ج٧ ص ١٣٤.
(٩٦) ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٧، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٣٧.
(٩٧) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧، ابن الأعثم، فتوح، ج ٧، ص ١٣٤.
(٩٨) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٦٩.
(٩٩) ابن الأعثم، ج٧ ص ١٣٧
(١٠٠) الطبري، ج ٦ ص٣٤٧، ٣٤٨، ابن الأثير، ج ٤ ص٤٦٩، ٤٧٠، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٣٩.
(١٠١) ابن الأعثم، ج ٢ ص ١٣٧.

قبولها[١٠٢]، واعتمد الحجاج اعتماداً كلياً على قادة الشام، فجعل في ميمنته عبد الرحمن ابن سليم الكلبي، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي، وعلى خيله سفيان بن الأبرد الكلبي، وعلى رجاله عبد الله بن حبيب الحكمي[١٠٣]، وبالرغم من أن أهل العراق كانت تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها وهم في خصب وأهل الشام في ضنك شديد، قد غلت عليهم الأسعار وفقد عندهم اللحم[١٠٤] فقد استطاعوا التغلّب على عبد الرحمن بعد أن دامت الحرب مائة وثلاثة أيام[١٠٥]، وكان لسفيان بن الأبرد كذلك الدور الأكبر في هزيمة عبد الرحمن في دير الجماجم[١٠٦].

بعد هزيمة عبد الرحمن، دخل الحجاج الكوفة وأقام فيها شهراً، وهناك روايات تشير إلى أنه أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة، «أنزلهم الحجاج فيها مع أهلها»، وأن الحجاج أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم، وأن هذه القاعدة استمرّت بعده[١٠٧]، في حين يذكر الطبري أن الحجاج بعد وقعة الجماجم عزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة[١٠٨]، وأمر أن لا ينزل أحد على أحد وأن يخرج الجند فيعسكروا[١٠٩]، وبعث الحجاج رواداً يرتادون منزلاً فوقع اختياره على واسط[١١٠]، وعندما انتهى من بناء

(١٠٢) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٧١، وقد بين ابن الأشعث لاتباعه أهمية هذه الفرصة التي يجب عليهم أن ينتهزوها قائلاً لهم: «فقد أعطيتم أمرا انتهازكم اليوم إياه فرصة، ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة، وأنكم اليوم على النصف، وان كانوا اعتدّوا بالزاوية، فأنتم تعتدّون بيوم تستر، فاقبلوا ماعرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون فلا والله لا زلتم عليهم حرّاء، ولا زلتم عندهم أعزاء، ان أنتم قبلتم أبدا ما بقيتم»، فوثب الناس من كل جانب فقالوا: ان الله قد أهلكهم، فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة، ونحن ذو العدد الكثير، والسعر الرفيغ، والمادة القريبة، لا والله لا نقبل.

(١٠٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤٩، ابن الأثير ج ٤، ص ٤٧١.

(١٠٤) ابن الأثير، ج ٤، ص ٤٧٢.

(١٠٥) المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٨٠.

(١٠٦) المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٨١.

(١٠٧) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٤٨، ابن الأثير، ج ٤ ص ٤٨١.

(١٠٨) الطبري، ج ٦ ص ٣٦٥.

(١٠٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٨٤.

(١١٠) المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٨٤، ويذكر اليعقوبي أنها سميت واسطا لأنها إلى البصرة خمسين فرسخا ←

واسط، نقل إليها من وجوه أهل البصرة وأمرهم أن يصلوا على يسار المقصورة، ونقل إليها من وجوه أهل الكوفة وأمرهم أن يصلوا عن يمين المقصورة، وأمر من كان معه من أهل الشام أن يصلوا بحياله ممايلي المقصورة(١١١).

إن هزيمة ابن الأشعث في دير الجَماجِم سنة ٨٣ هـ في مَسْكِن في نفس العام كانت نقطة النهاية بالنسبة إليه، إذ أنه تراجع إلى السوس، ولم يزل عمارة بن تميم اللخمي في جيشه الكثيف من أهل الشام والجزيرة يهزمه حتى بلغ إلى سابور فارس، حيث اقتتلوا وانهزم ابن الأشعث نحو بلاد كَرْمان، وكتب عمارة بن تميم إلى الحجاج بانهزامه فأمره بالعودة(١١٢).

وعندما التجأ ابن الأشعث إلى رُتْبيل ثانية بعد انصرافه من هَرَاة، كتب الحجاج إلى رتبيل بأنه سيوجه إليه بعمارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفاً من أهل الشام لم يخلعوا طاعة ولم يبايعوا إمام ضلالة يستعظمون الحرب استعظاماً، ويقدمون عليها إقداماً، وطلب من رتبيل أن يعمد إلى تسليم ابن الأشعث إليهم(١١٣)، ولكن رتبيل لم يسلمهم ابن الأشعث سنة ٨٥ هـ إلا بعد أن وافق الحجاج على شروط رتبيل ألا تغزى بلاده عشر سنين وأن يؤدي بعد العشر سنين في كل سنة مائة ألف(١١٤). وخاطب الحجاج أهل الكوفة بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث، وندّد بهم ووصفهم بأنهم أهل الشقاق والاختلاف والنفاق، وامتدح أهل الشام بأنهم العدة والعدد والجُنَّة في

وإلى الكوفة خمسين فرسخا وإلى الأهواز خمسين فرسخا، وإلى بغداد خمسين فرسخا (اليعقوبي، البلدان ص ٣٢١، ياقوت الحموي، ج ٥ ص ٣٤٨).

(١١١) أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، ص ٤٣.

(١١٢) ابن الأعثم، فتوح، ج٧، ص ١٥٠.

(١١٣) الطبري، ج ٦ ص ٣٩٠، ابن الأعثم، ج٧ ص ١٥٠، عندما توجه ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ اثر هزيمته إلى سجستان، أنزله رتبيل عنده وأكرمه وعظمه، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير أتباعه الذين بلغ عددهم ٦٠ ألفاً بأن يتوجه إلى خراسان بالرغم من وجود يزيد بن المهلّب بها لأنها أرض طويلة عريضة، وأن من سيتبعهم سيكون أكثر ممن سيقاتلهم، فلما بلغوا هراة فارقه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمره القرشي في ألفين، فقرر العودة إلى رتبيل لأنه تبيّن له أنه لا يستطيع الاعتماد عليهم، وأنهم سيتفرقون عنه كما فعلوا في مواطن أخرى.

(١١٤) الطبري، ج ٦ ص ٣٩١.

الحرب[115]، ويذكر أبو هلال العسكري أن الحجاج هو أول من أطعم على ألف مائدة، على كل مائدة عشرة رجال وعليها جنب شواء وثريد وسمكة، وبرنية[116] فيها عسل، وكان الحجاج وفق هذه الرواية لا يطعم إلا شامياً[117].

بالإضافة إلى ثورة ابن الأشعث ساهم الجند الشامي في القضاء على ثورة يزيد ابن المهلّب التي تعتبر من أهم الأحداث الداخلية زمن يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ)، وكان لصلة المصاهرة التي تربط هذا الخليفة بأسرة الحجاج أثرها في إساءة العلاقة بينه وبين المهلّب، لأن ابن المهلّب حين ولي العراق لسليمان ابن عبد الملك (٩٦ ــ ٩٩ هـ) عذّب آل الحجاج، فعاهد يزيد بن عبد الملك الله لئن مكنه من يزيد بن المهلّب ليقطعنّ منه طابقاً[118]، ويذكر أبو مخنف أنه حين بلغ ابن المهلّب وهو في محبسه زمن عمر بن عبد العزيز أن الخليفة مريض، وأن الخلافة ستؤول بعده إلى يزيد بن عبد الملك، دبرّ أمر هربه من السجن. أما الواقدي، فيزعم أن يزيد بن المهلّب إنما هرب من سجنه بعد موت عمر[119]، وتوجه يزيد إلى البصرة موطن أسرته من المهالبة ومستقر قبيلته أزد عمان، وتمكن من السيطرة عليها وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها وهو عدي بن أرطاة الفزاري فحبسه، وخلع يزيد بن عبد الملك، ودعا أهل البصرة إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد (صلعم) وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[120]، وبالرغم من أن الحسن البصري لم يكن راضياً عن أهل الشام وخلفاء بني أمية، إلا أنه أيضاً لم يكن راضياً عن يزيد وثورته، إذ قال: «عجباً من يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين اتبعوه تقرّباً إلى بني مروان حتى إذا منعوه شيئاً من دنياهم وأخذوه بحق الله تعالى عليه، غضب، فعقد خرقاً على قصب، ثم نعق بأعلاج وطغام فاتبعوه، وقال: إني قد خالفت هؤلاء

---

(١١٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١٣٢، ١٣٣.
(١١٦) البرنية اناء من خزف.
(١١٧) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ٢ ص ٦٣، ٦٤.
(١١٨) الطبري، ج ٦ ص ٥٦٤.
(١١٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٦٤، ٥٦٥.
(١٢٠) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٦٧.

فخالفوهم، فهو يزعم أنه يدعوهم إلى كتاب الله تعالى وسيرة الخلفاء الراشدين، ألا وان سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويرد إلى حبس عمر[١٢١]». وكان يشارك الحسن البصري في الرأي، النَضْر بن أَنس بن مالك، الذي قال: «ياعباد الله ماتنقمون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيه (صلعم) فوالله مارأينا ذلك وما رأيتموه منذ ولدتم، إلا هذه الأيام من إمارة عمر بن عبد العزيز[١٢٢]».

ونفهم مما ذكره الحسن البصري بأن الذين اتبعوا يزيد هم من الأعلاج والطغام، بمعنى أن رؤوس أهل البصرة، لم يشتركوا في ثورته، بل هرب رؤوس أهل البصرة من قيس وتميم ومالك بن المنذر فلحقوا بعبد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة ولحق بعضهم بالشام[١٢٣]. وبعث يزيد بن عبد الملك رجالاً من أهل الشام إلى الكوفة ليشكر أهلها ويمنيهم ويعدهم الزيادة في أعطياتهم[١٢٤]، ثم وجه يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس جريدة خيل حتى وافوا الحيرة[١٢٥]، ثم أقبل بعد ذلك مسلمة بن عبد الملك في جنود أهل الشام والجزيرة وعدتهم في سبعين ألفاً وقيل ثمانون ألفاً[١٢٦]، وكان يزيد على زعم صاحب تاريخ العيون والحدائق قد قال حين خلع يزيد بن عبد الملك، اني لأرجو أن أهدم دمشق حجراً على حجر، فردّ الفرزدق عليه بهذه الأبيات:

تخبرك الكهـــــــان أنك ناقص
دمشق التــــي كانت الجنّ حرّت
لها من الجبـال الثلـج صخـراً كأنـه
قناعيس حتى أشرقت واسمحــرّت

(١٢١) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٧، العيون والحدائق، ص ٥٩.
(١٢٢) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٧.
(١٢٣) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٣.
(١٢٤) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٥، العيون والحدائق، ص ٦٧، ٦٨.
(١٢٥) الطبري، ج ٦ ص ٥٨٥، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٩.
(١٢٦) ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٣، ٧٤، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٣٧٨.

أتتك خيول الشام تخطر بالقنا
لها خرق كالطير لما استقلّت
يقود نواصيها إليك مبارك
إذا ماتصدّى للكتيبة ولّت
من آل أبي العاصي حوالي لوائه
ثمانون ألفاً كلها قد أطلّت(١٢٧)

ولما سمع أصحاب المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك، فبلغ أمرهم المهلّب الذي تعجب لخوف أهل العسكر من مجيء أهل الشام ومسلمة، وقال: «وما هم أهل الشام؟ هل هم إلا تسعة أسياف سبعة منها إلي وسيفان علي(١٢٨)»، بمعنى أن النسبة الكبرى من الجيش كانت تتألف من القبائل اليمانية، ولكن يزيد بن المهلّب كما يبدو قد أخطأ التقدير، فهذه الأسياف لم تقف إلى جانبه، وإنما بقيت إلى جانب مسلمة، واستمرت المواجهة بين يزيد ومسلمة ثمانية أيام حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ١٠٢ هـ بعث مسلمة إلى الوضاح أن يخرج بالوضاحية والسفن حتى يحرق الجسر، فلما دنا الوضاح من الجسر، لهب فيه النار فلما رأى الناس ذلك، وقيل لهم بأن الجسر قد أحرق انهزموا، فلما سمع يزيد بانهزام الناس قال، ومم انهزموا؟ هل كان قتال يهزم من مثله؟ وخرج يزيد ومعه أصحابه ومواليه وناس من قومه وطلب منهم أن يضربوا وجوه من ينهزم، ثم لم يلبث أن تركهم عندما رأى كثرة المنخذلين(١٢٩).

وهزم يزيد وقتل أخوه حبيب بن المهلّب ثم قتل يزيد واحتزت رأسه ورؤوس من قتل معه من أهل بيته، وبعث بها إلى الشام إلى يزيد بن عبد الملك، فأمر أن يطاف بها في أجناد الشام(١٣٠).

---

(١٢٧) العيون والحدائق، ص ٦٧، ٦٨.
(١٢٨) المصدر السابق، ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٥.
(١٢٩) الطبري، ج ٦ ص ٥٩٤، ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٥.
(١٣٠) العيون والحدائق، ص ٧٤.

ونلاحظ في فتنة يزيد بن المهلّب أنه لم يستطع استقطاب أهل الكوفة والبصرة وأشرافهما إليه، كما استطاع أن يفعل ذلك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. وربما يعود ذلك إلى السياسة السليمة التي اتبعها ولاة عمر بن عبد العزيز في تألف أهل البصرة والكوفة وأشرافهما، لا سيما وأن يزيد بن عبد الملك لم يعمد إلى عزلهما، وقد قتل عدي بن أرطاة الفزاري والي البصرة من قبل معاوية بن يزيد بن المهلّب مع ثلاثين أسيراً كانوا في سجنه، كما كان لموقف الحسن البصري من فتنة يزيد أثر كبير في تثبيط الناس بحيث أن الذين التفوا حوله، حسب رواية الطبري كانوا من سقاط الأبلّة وعلوج فرات البصرة[١٣١].

ثورة زيد بن علي ودور أهل الشام في القضاء عليها

إذا لم يعمد أهل العراق إلى تأييد يزيد بن المهلّب أو دفعه إلى الثورة، فقد كانوا السبب في دفع زيد بن علي إليها سنة ١٢١ هـ وكان هذا ما يخشاه الخليفة هشام ابن عبد الملك عندما توجه زيد بن علي إلى الكوفة ليواجه يوسف بن عمر والي هشام على العراق الذي ادعى أن خالد القسري قد أودع ستمائة ألف درهم عند زيد بن علي، وأن زيداً ينكر هذه الوديعة، فلما أقسم زيد أغلظ الإيمان أن لا علم له بها، طلب هشام من واليه يوسف أن يعجل بإشخاصه إلى الحجاز وأن لا يسمح له بالإقامة فيها لأن أهل الكوفة معروفون بحبهم لأهل هذا البيت «فان أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه وحلاوة منطقه مع ما يدلي به من القرابة برسول الله (صلعم) وجدهم ميلاً إليه غير متئدة قلوبهم ولا ساكنة أحلامهم ولا مصونة عندهم أديانهم. وبعض التحامل عليه فيه أذى له واخراجه وتركه مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن، أحب إليّ من أمر فيه سفك دمائهم وانتشار كلمتهم (تفرّقها) وقطع نسلها، والجماعة حبل الله المتين، ودين الله القويم وعروته الوثقى[١٣٢]».

---

(١٣١) الطبري، ج ٦ ص ٥٩٤.

(١٣٢) الطبري، ج ٧ ص ١٧٠.

وألح يوسف بن عمر على زيد بن علي بالخروج من الكوفة حتى أنه شخص عنها حتى أتى القادسية، فلحقته الشيعة واستمروا في اقناعه حتى ردوه إلى الكوفة إذ أكدوا له أن مائة ألف رجل من أهل الكوفة مستعدون لمساندته والقتال معه في حين أن أهل الشام في الكوفة قلة، «ولو أن قبيلة من قبائلهم نحو مَذْحِج وهمدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لكفتهم[133]».

وقد حاول مسلمة بن كهيل اقناع زيد بعدم الاعتماد على أهل الكوفة الذين خذلوا جده «بايعه ثمانون ألفاً وقاتل معه ثلثمائة[134]»، كما أن عبد الله بن حسن كتب إلى زيد يبين له أن أهل الكوفة ينطبق عليهم ما قاله علي بن أبي طالب فيهم، «ان أهملتم خضتم، وان حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وان أجبتم إلى مشاقة نكصتم[135]».

لم يستنجد يوسف بن عمر بالخليفة هشام في القضاء على ثورة زيد بن علي بل اعتمد على أهل الشام المقيمين في الحيرة[136] التي اتخذها مركزاً له ومقراً بدلاً من واسط[137] وفي الكوفة مع عبيد الله الكندي الذي كان مع عمرو بن عبد الرحمن على شرطة الكوفة[138]، وإذا أخذنا برواية سعيد بن حيثم نرى أن أهل الشام في العراق كانوا يبلغون حوالي اثني عشر ألفاً[139].

وعندما بعث الحكم بن الصلت والي الكوفة إلى يوسف بن عمر فأخبره خبر زيد، أرسل يوسف جعفر بن العباس الكندي في خمسين فارساً[140]، والعباس بن سعيد المُزَني صاحب شرطته في أهل الشام، فسار حتى انتهى إلى زيد بن علي في دار

(١٣٣) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦٧، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، دار المعرفة بيروت، ص ١٣٥.
(١٣٤) الطبري، ج ٧ ص ١٦٨.
(١٣٥) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦٩.
(١٣٦) الطبري، ج ٧ ص ٢٧٢.
(١٣٧) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٨٠، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين ص ١٣٤.
(١٣٨) الطبري، ج ٧ ص ١٨٠.
(١٣٩) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ١٤٠.
(١٤٠) الطبري، ج ٧ ص ١٨٤.

الرزق[١٤١]، ووزع أهل الشام بين جبانة الصيادين، والكناسة وجبانة كندة[١٤٢]، وبمجرد أن رأى أصحاب زيد بن علي الذين بايعوه أن يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد حتى نكث قسم منهم بيعته[١٤٣]، وعندما قرر زيد بن علي الخروج في اليوم المتفق عليه لم يوافه سوى مائتان وثمانية عشر رجلاً، ولما تساءل أين الناس، قيل له انهم في المسجد الأعظم محصورون[١٤٤].

استطاع يوسف بن عمر أن يقضي على ثورة زيد بن علي دون مشقة كبيرة، وانتهت الثورة بمقتل زيد سنة ١٢٢ هـ الذي أصيب بسهم في جبهته اليسرى. ونظراً للدور الذي لعبه أهل الكوفة في تحريض زيد على الثورة، فان يوسف بن عمر بعد قضائه عليها أقبل إلى الكوفة وخطب بهم، وندّد بأهل الكوفة المدرة الخبثة، وأنه سوف ينزل بهم الصغار والهوان، ويقطع عنهم أرزاقهم وعطاءهم[١٤٥]، أما البلاذري فيذكر أن يوسف بن عمر كتب إلى هشام في أهل الكوفة، فكتب إليه هشام: «ان أهل الكوفة أهل سمع وطاعة فمر لهم بأعطياتهم[١٤٦]». ولكن يبدو أن يوسف حرم أهل الكوفة بينما كان يعطي مقاتلة الشام وقادتهم المقيمين في الحيرة عطاءهم من أموال العراق[١٤٧]، لأنه عندما جاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والياً على العراق من قبل يزيد بن الوليد، وأعطى الناس أرزاقهم وأعطياتهم، نازعه قواد أهل الشام، وقالوا: «تقسم على هؤلاء فيئناوهم عدونا». فقال عبد الله لأهل العراق: «اني قد أردت أن أرد فيئكم عليكم وعلمت أنكم أحق به فنازعني هؤلاء فانكروه علي[١٤٨]»، ولكن قواد الشام لم يلبثوا أن اعتذروا من أهل الكوفة.

---

(١٤١) المصدر السابق، ج٧ ص ١٨٥.
(١٤٢) المصدر السابق، ج٧ ص ١٨٥، مقاتل الطالبيين، ص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.
(١٤٣) الطبري، ج٧ ص ١٨٠، ١٨١.
(١٤٤) كان يوسف بن عمر قد بعث إلى الحكم بن الصلت أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم ويحصرهم فيه، فكان ذلك قبل يوم من خروج زيد (الطبري، ج٧ ص ١٨١).
(١٤٥) العيون والحدائق، ص ١٠٠.
(١٤٦) البلاذري، أنساب ج٣، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م ص ٢٥٩.
(١٤٧) الطبري، ج٧ ص ٢٧٢.
(١٤٨) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٨٤.

وهكذا نرى أن مقاتلة الشام بشجاعتهم وصبرهم وطاعتهم لقادتهم قد حققوا الكثير في مجال توطيد الأمن والنظام في العراق، وهذا ما ساعد الولاة على تحقيق تلك الفتوحات العظيمة في الجناح الشرقي، وتحقيق المشاريع العمرانية والاقتصادية التي تحدثت عنها مصادرنا.

دور أهل الشام في دعم الحكم الأموي في المغرب

بين عودة موسى بن نصير عام ٩٦ هـ/٧١٥م وانفجار ثورة الخوارج في المغرب سنة ١٢٣ هـ/٧٤١م انقضى سبع وعشرون سنة كان سلطان الخلافة الأموية فيها وطيداً بشكل عام، واتسمت هذه الفترة بانتشار الإسلام انتشاراً سريعاً، ولعل من المفارقات أن انتشار الإسلام في هذه البلاد التي كانت عسيرة الفتح شديدة المقاومة كان أسرع منه بكثير في البلاد التي تم فتحها بسرعة، وكان من المفروض أن يؤدي ذلك إلى تقوية الرابطة بين الخلافة والمغرب، ولكن ما حدث هو العكس تماماً، إذ أن انتشار الإسلام بين السكان، بدأ يتخذ شكلاً يقلب طبيعته من رابطة بالخلافة في دمشق إلى منفر عنها، وذلك بتبلوره على شكل مذهب الخوارج ــ الإباضية والصُّفرية ــ الذين أنهكوا في الشرق تحت ضربات الأمويين في العراق، فابتعدوا عن ذلك المكان القريب من المركز إلى تلك البقعة القاصية البعيدة وهي المغرب، واستطاعت هذه الفئة أن تجسم المظالم وتضخمها في أعين الناس وترسم لهم طريق تقويض الحكم القائم.

وفي سنة ١٢٢ هـ انطلقت ثورة الخوارج الصفرية من طنجة وشملت بعد ذلك المنطقة الغربية من ديار الإسلام، إذ استغل الخوارج خروج جيش والي افريقية لغزو صقلية فرفعوا راية العصيان في طنجة وتزعمهم ميسرة المطغري الذي تنعته الروايات العربية بالحقير، واستطاعوا تحقيق أول نصر لهم في مدينة طنجة بقتل عاملها ابن المرادي المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر، ومن ثم اتجهوا نحو الجنوب للسيطرة على المغرب الأقصى واستطاعوا احتلاله وقتل اسماعيل بن عبيد الله عامل والده على منطقة السوس، وبما أن الثورة خارجية والخوارج لا يعترفون بأحقية الأمويين

بالخلافة، لذا اعتبرت انتفاضتهم، انتفاضة على الحكم الأموي، وهكذا خلع البربر طاعة الخليفة وبايعوا زعيمهم ميسرة كخليفة[١٤٩].

لما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل عامله وولده كتب إلى حبيب بن أبي عبده[١٥٠]، يأمره بالرجوع من صقلية، وأرسل خالد بن حبيب الفهري[١٥١] على رأس جيش للقاء ميسرة، وانتصر خالد في المعركة التي تمت بالقرب من طنجة، وانصرف ميسرة عائداً إلى طنجة حيث قتله أتباعه لأمور أنكروها عليه من سوء سيرته وتغيره عما كانوا بايعوه عليه مما أدى للهزيمة على حد زعمهم، وولوا أمرهم خالد بن حبيب الزناتي، وسار الخليفة الخارجي الجديد للقاء ابن حبيب فوجده في قتال مع جماعات من البربر فداهمه أثناء احتدام المعركة، فتكاثرت البربر على البربر وهزموهم، وكره خالد بن حبيب أن يهرب فألقى بنفسه وأصحابه إلى الموت، فقتل مع رجاله من القواد الأشراف، ولذا سميت الوقعة بموقعة الأشراف[١٥٢]، فلما بلغت هذه الأحداث مسامع هشام بن عبد الملك، قال: «والله لأغضبنّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنّ لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي[١٥٣]»، وندب هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القسري لقتال البربر وولاه افريقية وبعث معه ثلاثين ألف فارس، عشرة آلاف من صلب بني أمية وعشرين ألفاً من العرب[١٥٤]، بينما يذكر ابن عذارى في رواية أخرى أنه بعث كلثوم بن عياض إلى افريقية وعقد له على اثنى عشر ألفاً من أهل الشام وكتب إلى والي كل بلد أن يخرج معه[١٥٥]، وأوصى الخليفة أن تكون القيادة لكلثوم بن عياض

---

(١٤٩) د. أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، طبعة ١٩٧٢، ص ٤٦.

(١٥٠) حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري، ولد ونشأ بمصر ودخل الأندلس مع موسى بن نصير وبقي فيها مع وجوه القبائل إلى أن خرج منها مع من خرج برأس عبد العزيز بن موسى بن نصير، ثم رجع بعد ذلك إلى افريقية (تهذيب، ج ٤، ص ٣١).

(١٥١) خالد بن حبيب هو ابن حبيب بن مسلمة الفهري الذي كان من كبار القادة الفاتحين شهد اليرموك ودخل دمشق مع أبي عبيدة، وكان معاوية يغزيه الروم وكان يقال له حبيب الروم.

(١٥٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٥١، ٥٤، ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢١٨.

(١٥٣) ابن عذارى ج ١ ص ٥٥.

(١٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢.

(١٥٥) المصدر السابق ج ١ ص ٥٦.

القسري أمير دمشق وفي حال موته تنتقل القيادة إلى ابن عمه بَلْج بن بِشر ومن بعده إلى ثَعْلَبة بن سَلاَّمة العاملي[١٥٦].

كان من سوء الحظ أن وقعت المنافسة بين القواد، حبيب بن أبي عبده القائد الافريقي وابنه عبد الرحمن من جهة وكلثوم بن عياض وابن عمه بَلْج بن بشر من جهة أخرى، وكادت المنافسة تؤدي إلى الحرب بين الطرفين لولا المساعي التي بذلت للصلح، فدارت بينهم وبين البربر معارك انتهت بهزيمة جيش الخليفة بقسميه الافريقي والشامي، وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبده، وصار أمر العرب بافريقية إلى بَلْج، ولجأ فلّهم إلى سبتة حتى ضاق عليهم الأمر ضيقاً شديداً، فكاتب بَلْج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس وسأله ادخاله وادخال من معه من الجند وذكروا له ما صاروا إليه من الجهد، فأبى عبد الملك ادخالهم في بادىء الأمر، فلما ثار البربر بالأندلس أيضاً وقاتلوا العرب وطردوهم من جليقية وشعر عبد الملك بالخطر، اضطر إلى إدخال بلج وأصحابه، فكاتبهم وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها فرضوا بذلك، وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم، ثم أدخل بلجا وأصحابه وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام[١٥٧]. واستطاع عبد الملك بن قطن بمساعدة بلج وجنده أن يهزموا البربر هزيمة عظمى بوادي سليط[١٥٨].

وفشلت ثورة البربر كذلك في افريقية، فقد ولى الخليفة حَنْظَلة بن صفوان الكلبي والياً على افريقية، فلم يكد ينزل القيروان حتى توجه ضده جيشان للخوارج، فتمكن من هزيمة كل جيش على حدة قرب القيروان، في معركتي الأصنام والقَرْن، سنة ١٢٤ هـ. هذا وإن الصورة التي يقدمها المؤرخون القدماء للهزيمة وخاصة لأعداد الجيوش وقتلاها تدعو للظن بوجود مبالغة فيها، فابن عذارى يعلق على هذه الهزيمة بقوله: وقيل ما علم في الأرض مقتلة أعظم منها، وأراد حنظلة أن يحصي من قتل وأمر

---

(١٥٦) المصدر السابق ج ١ ص ٥٦، ج ٢ ص ٤٧.

(١٥٧) ابن عذارى، ج ٢ ص ٤٣.

(١٥٨) المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٣.

بعدهم فما قدر على ذلك، وأمر بقصب فطرحت قصبة على كل قتيل، ثم جمعت القصب وعدّت فكان القتلى مائة وثمانين ألفاً، وكانوا صفرية يستحلون النساء ويسفكون[١٥٩] ». وكان الليث بن سعد[١٦٠] يقول: ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة الأصنام والقرن[١٦١].

رغم كل ماقيل عن أهمية نصر جيش الخلافة بقيادة حنظلة بن صفوان، فإن ما أسفر عنه لم يتجاوز تخليص المغرب الأدنى أو افريقية من الخوارج، أما بقية المغرب فقد بقي بأيدي الخوارج، وكان الأمر يحتاج للاستمرار في بذل الجهود حتى يتم إعادة بسط سلطان الخلافة، لكن مثل هذا الأمر لم يتحقق لأن المركز انشغل خلال عقدين من السنين تقريباً عن هذا الجزء المتطرف من دولة الخلافة، ولم يستطع أحد فيه أن يفعل فعل هشام بن عبد الملك في الأصرار على إرسال الجيوش لإخضاع المتمردين، فقد توفى هشام في العام الذي تلا انتصار القرن والأصنام، ودخلت الدولة الأموية منذ ذلك الوقت مرحلة الاحتضار التي استمرت قرابة سبع سنوات حتى تحطمت نهائياً تحت ضربات العباسيين الزاحفين من الشرق.

موقف أهل الشام من أحداث الفتنة الثالثة

كان مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ سبباً في ابتداء الفتنة الثالثة التي انتهت بمقتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ، وسقوط الأسرة الأموية، إذ أن القائمين بها كانوا من أهل الشام أولاً وأمويين ثانياً، وكلا العنصرين كما رأينا أساس في تثبيت السلطان الأموي، ولذا نجد محمد بن علي يختار خراسان مركزاً للدعوة العباسية بالرغم

---

(١٥٩) المصدر السابق، ج ١ ص ٦٤.

(١٦٠) الليث بن سعد (٩٤ ـــ ١٧٥ هـ/٧١٣ ـــ ٧٩١ م) كان أمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً، قال ابن تغرى، بردي، كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته، أصله من خراسان، ومولده بقلقشنده ووفاته بالقاهرة، (الأعلام ج ٦ ص ١١٥).

(١٦١) ابن عذارى، ج ١ ص ٦٤.

من أنه كان قد حل بين أهل الشام، ولكنه كان يعلم أن أهل الشام سفيانية مروانية(١٦٢)، ويعلق دانيل دينيت في رسالته عن مروان بن محمد بقوله: «إن نقطة الجدل في أطروحتنا هي أن سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بل نتيجة ثورة في الشام(١٦٣)». إذ أن مقتل الوليد الثاني الذي كانت له بيعة في الأعناق وعلى أيدي رجال بني أمية أنفسهم كان نقطة البدء في تحدي فكرة الشرعية ومسماراً صخماً في نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبته(١٦٤)، وقد شعر كل من مروان بن محمد بأرمينية والعباس بن الوليد بسوء العاقبة، وحاولا ردع يزيد بن الوليد، وقال العباس لأخيه: «يا أخي أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يغري بنا(١٦٥)».

وقد اجتمع على قتل الوليد كما يذكر الطبري جماعة من قضاعة واليمانية من أهل دمشق خاصة(١٦٦)، كما يشير إلى أن الذين اضطغنوا على الوليد بن يزيد آل الوليد بن عبد الملك وآل هشام وآل القعقاع واليمانية بما صنع بخالد بن عبد الله القسري(١٦٧)، إذ أنه دفع به إلى يوسف بن عمر والي العراق مقابل خمسين ألف درهم فقتله يوسف في العذاب(١٦٨). ويرى بعض الباحثين أن اليمانية بشكل عام اعتبروا مقتل خالد إهانة لهم

---

(١٦٢) البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الثاني، تحقيق د. عبد العزيز الدوري بيروت ١٩٧٨م، ١٣٩٨هـ، ص ٨١، أخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(١٦٣) د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ٢٧٦.

(١٦٤) د. نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٣٤٦.

(١٦٥) الطبري، ج٧ ص ٢٣٨، ٢٣٩، وقد كتب مروان إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم... وقد جاء في هذا الكتاب: «ان الله جعل لكل بيت أركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف، وأنت بحمد الله ركن من أركان أهل بيتك... وقد بلغني أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمراً، ان تمت لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم، استفتحوا بابا لن يغلقه الله عليهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم، وأنا اشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجا، ولو جمعتني واياهم لرممت فساد أمرهم بيدي، ولساني ولخفت الله في ترك ذلك لعلمي مافي عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا، وأنه لن ينتقل سلطان قوم قط إلا في تشتيت كلمتهم، وان كلمتهم تشوشت طمع فيهم عدوهم...». (الطبري، ج٧ ص ٢٣٨، ٢٣٩).

(١٦٦) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٣.

(١٦٧) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٧.

(١٦٨) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٣٤، العيون والحدائق، ص ١٢٨.

واعتبروا الخليفة ويوسف بن عمر وآل الحجاج مسؤولين عنه، ولكننا إذا دققنا في الروايات الواردة في مصادرنا لوجدنا أن الذين أيّدوا يزيد بن الوليد كانوا من سكان جند دمشق من أهل المزة ومن السكاسك وأهل داريا ودوما وحرستا وأهل دير مرّان والأرزة وسطرا وأهل الحديثة ودير زكي (من قرى غوطة دمشق(١٦٩))، وأن أهل حمص وفلسطين والأردن وجلهم يمانية قضاعية قد خالفوا يزيد بن الوليد(١٧٠)، بل أن أهل حمص أغلقوا أبواب المدينة عندما بلغهم مقتل الوليد وأقاموا النوائح عليه(١٧١)، ورفض أهل حمص ما اقترح عليهم من قبل الوفد الذي أرسله يزيد بن الوليد للتفاوض معهم على أنه لا يدعوهم إلى نفسه وإنما يدعوهم إلى الرضى من الأمة وأن يكون أمرهم شورى بينهم، وقال: نجتمع نحن وأنتم ونظراؤنا من أهل الشام فننظر لأنفسنا ونختار للمسلمين، ولكن الحمصيين رفضوا وقالوا: قتلتم خليفتنا ليس بيننا وبينكم إلاّ السيف(١٧٢)، وكاتبوا الأجناد، ودعوهم إلى الطلب بدم الوليد فأجابوهم واتفقوا أن لا يطيعوا يزيد(١٧٣).
ويبدو أن أهل دمشق لم يحبذوا كلهم فكرة الانتقاض على الوليد، إذ نجد يزيد بن الوليد يطلب من عبد العزيز بن الحجاج أن يقف بباب الجابية ويطلب من بني عبد الملك أن يتفرقوا في الناس ويحضوهم بأن من كان له عطاء فليأت لقبض عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة(١٧٤)، وأن يزيدا أمر فنودى، من ينتدب للفاسق الوليد وله ألف درهم فاجتمع أقل من ألف رجل، فنودى من ينتدب للفاسق وله ألف وخمسمائة درهم فانتدب يومئذ ألف وخمسمائة، ويقال انه ندبهم إلى ألفين فأتاه ألفان(١٧٥)، إذا صحت هذه الروايات فهي تظهر موالاة أهل الشام ولا سيما اليمانية منهم للوليد بن يزيد ورفضهم البيعة ليزيد في بادىء الأمر، كما أن نصر بن سيار والي خراسان ومروان بن

---

(١٦٩) الطبري، ج ٧ ص ٢٤٢، العيون والحدائق، ص ١٣٧، النويري، ج ٢١ ص ٤٧١، ٤٧٩.
(١٧٠) لطبري، ج٧ ص ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨.
(١٧١) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٦٢، ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٩٢.
(١٧٢) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا ص ٦٦.
(١٧٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٩٢.
(١٨٤) العيون والحدائق، ص ١٣٨.
(١٧٥) المصدر السابق، ص ١٣٨، الطبري، ج٧ ص ٢٤٢، ٢٤٣.

محمد عامل أرمينية والجزيرة رفضاً الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يقبلا بتسليم ما بأيديهما من صلاحيات لممثلي الخليفة الجديد، ولم يتح للأمور أن تتعقد أكثر من ذلك لأن يزيد الثالث ما لبث أن توفى سنة ١٢٦ هـ بعد حكم لم يدم سوى ستة أشهر وكان قبل وفاته قد أخذ البيعة لأخيه ابراهيم[١٧٦]، ولكن يبدو أن أمر الخلافة لم يتم لابراهيم فقد كان «يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالأمرة، وجمعة يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالأمرة[١٧٧]»، ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن أهل الشام بايعوا ابراهيم بن الوليد ما خلا أهل حمص فانهم أبوا أن يبايعوه[١٧٨]، وفي هذا الجو المضطرب يظهر مروان بن محمد والي أرمينية وأذربيجان منذ سنة ١١٤ هـ، وعن اسماعيل بن ابراهيم، أن مروان بن محمد عندما بلغه وفاة يزيد بن الوليد دعا قيسا وربيعة ففرض لستة وعشرين ألفاً من قيس وسبعة آلاف من ربيعة فأعطاهم أعطياتهم وولى على قيس اسحق بن مسلم العقيلي وعلى ربيعة المشاور بن عقبة ثم خرج يريد الشام واستخلف على الجزيرة أخاه عبد العزيز بن محمد بن مروان فلقيه وجوه قيس في أربعة أو خمسة آلاف من قيس، فساروا معه[١٧٩] حتى وصل إلى قنسرين حيث مال إليه سكان هذه المدينة الذين كانت غالبيتهم من القيسية وبايعوه، وكان على رأسهم يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، ثم سار بجيشه إلى حمص حيث انضم إليه أيضاً بعض رجالاتها، ومنها توجه إلى عين الجَرّيّن دمشق وبعلبك، حيث التقى بجيش أرسله ابراهيم بن الوليد بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وكانت عدة جيشه مئة وعشرون ألف فارس على حد زعم الطبري ومعه حرسه الذكوانية[١٨٠]، بينما يقدر الرواة جيش مروان بثمانين ألف جندي، وكان النصر حليف مروان الذي تابع السير بعد ذلك إلى دمشق، حيث بايعه الناس في دمشق يوم الاثنين في ٢٩ صفر سنة ١٢٧ هـ، وبعد أن أخذ البيعة لنفسه اقتص من الذين قتلوا الوليد[١٨١]، إلاّ أن مروان حاول في الواقع اتباع سياسة المسالمة

(١٧٦) الطبري، ج٧ ص ٢٩٥.
(١٧٧) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٩٩.
(١٧٨) خليفة بن خياط، تاريخ، ج٢ ص ٥٥٨.
(١٧٩) خليفة بن خياط، ج٢، ص ٥٦٤، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦١.
(١٨٠) الطبري، ج٧ ص ٣٠٠، ٣٠١.
(١٨١) المصدر السابق، ج٧ ص ٣١١، خليفة، ج٢ ص ٥٦٦.

ونسيان الماضي، وحاول استرضاء العناصر العربية المختلفة، ولا سيما رجالات الأجناد الشامية في فلسطين والأردن ودمشق وحمص وأكثرهم من القبائل اليمانية، وأظهر حسن نية تجاههم بأن ترك لهم أمر اختيار ولاتهم دون تدخل منه[١٨٢].

بعد أن تم الأمر لمروان بالشام انصرف إلى منزله بحرّان بالجزيرة وجعل مستقره فيها، إذ أنه كان قد نشأ فيها وعرف الناس هناك وعرفوه، وحيث كان للقيسية الغلبة والنفوذ وقد أخطأ مروان بعمله هذا، إذ أن دمشق كانت العاصمة الرسمية للدولة الأموية بعد موت معاوية، وإذا كان عدد من الخلفاء قد أقاموا في مواقع مختلفة لأسباب صحية أو عسكرية إو إدارية فانهم جميعاً لم يفكروا بنقل العاصمة من دمشق، أما مروان فقد تركها وأقام في حرّان، التي انتقلت إليها دوائر الدولة بما في ذلك بيت المال[١٨٣]، وكانت عملية نقل العاصمة إلى حرّان إساءة ضخمة إلى أهل الشام عامة، فقد خسر أهل الشام بانتقال العاصمة من دمشق المركز الممتاز الذي كان لهم والخيرات العميمة التي كانت تتدفق عليهم بسبب قربهم من الخليفة واتصالهم به، واعتماده عليهم وتقديمه لهم على غيرهم[١٨٤]، فإذا أضفنا إلى نقل العاصمة اعتماده على القيسية في الجزيرة وقنسرين، وعدم اتفاق كلمة أمراء بني أمية، أدركنا أسباب قيام الفرقة بين الناس وانقسامهم إلى شيع وأحزاب وبالتالي ظهور روح التمرد وإشاعة الفوضى.

بدأت الثورة في فلسطين منذ مطلع سنة ١٢٧ هـ وثار أهل الغوطة وتدمر وامتدت الثورة حتى وصلت إلى حمص المدينة التي أظهر أهلها من قبل ميلا إلى الوليد الثاني ومخالفة لقتلته، وتأييداً لمروان في مسيرته الانتقامية للخليفة المقتول، ولكنهم الآن انقلبوا على مروان وطلبوا المدد من بني كلب في تدمر، فجاءهم منها نحو من ألف فارس[١٨٥]، ومع ذلك استطاع مروان أن يقضي على هذه الثورات جميعاً، ثم قطع على

---

(١٨٢) الطبري، ج٧ ص ٣١٢.

(١٨٣) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٨.

(١٨٤) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٣٥٨.

(١٨٥) الطبري، ج٧ ص ٣١٢، ٣١٣، خليفة، ج ٢، ص ٥٦٦، ٥٦٧.

أهل الشام بعثاً ، وولى على كل جند منهم قائداً منهم وأمرهم باللحاق بيزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان مروان قبل مسيره إلى الشام وجهه في عشرين ألفاً من أهل قنسرين والجزيرة وأمره أن ينزل دورين إلى أن يقدم وذلك لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري(١٨٦) . ولكن عدداً كبيراً من الجند الشامي الذي كان قد وجهه لحرب الخوارج ، خرج من طاعته وانضم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وطلب هؤلاء من سليمان أن يطالب بالخلافة لنفسه لأنه أرضى عند أهل الشام من مروان ، « فاستذلّه الشيطان وأجابهم ، وخرج إليهم باخوته وولده ومواليه(١٨٧) » ، وهكذا نجد أن الجزيرة والشام اللتين كانتا تؤلفان وحدة إدارية بحيث أن القوم إذا ذكروا أهل الشام ذكروا أهل الجزيرة(١٨٨) ، انقسم مقاتلتها ، فقد انضم أهل الشام إلى سليمان واعتمد مروان على مقاتلة الجزيرة وقنسرين والصقالبة(١٨٩) .

ان هذا الانقسام في صفوف أهل الشام وفي صفوف العائلة الحاكمة وانضمام سليمان بن هشام إلى الضحاك الخارجي بعد هزيمته مع أشراف من أهل الشام ، يعطي صورة واضحة عن تأزم الوضع في الشام ، ومع ذلك استطاع مروان خلال ثلاث سنوات أن يقهر أعداءه جميعاً ويحقق مالم يستطعه أحد من قبل في ظروف مثل ظروفه ، ولكن ما أن عاد إلى حرّان طلباً للراحة ولتجميع قواه ، حتى ظهر ما لم يكن بالحسبان ، فقد رفعت آنذاك الرايات السوداء ، وتقدم أبو مسلم الخراساني باسم الدين وباسم آل البيت ظاهراً ليدك آخر آمال مروان وآخر آمال بني أمية في عرش بدأت أسسه تتزعزع منذ أمد ليس بالقصير(١٩٠) ، ولكنني أعتقد أن أهل الشام لو وقفوا كلهم متحدين متكاتفين إلى جانب مروان لاستطاع الانتصار عليهم بالرغم من المناداة بأبي العباس خليفة في الكوفة ، ذلك أن الوضع كان لا يزال حرجاً بالنسبة إليهم . فقد كان

(١٨٦) الطبري ، ج ٧ ص ٣١٤ .

(١٨٧) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٢٤ .

(١٨٨) البلاذري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٥١ .

(١٨٩) الطبري ، ج ٧ ص ٣٢٧ ، خليفة ج ٢ ص ٥٦٩ .

(١٩٠) نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٣٧٢ .

مروان كما يقول الطبري في حرّان في أهل الشام والجزيرة، وشيخ العرب يزيد بن عمر ابن هبيرة بالعراق في واسط في حلبة العرب(١٩١)، ولكن خذلان أهل الشام ولا سيما القبائل اليمانية والقضاعية لمروان في معركة الزاب كان عاملاً هاماً من العوامل التي أدّت إلى هزيمته(١٩٢)، وعندما اجتاز مروان ببلاد قنسرين وخناصره أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته، ووثب به أهل حمص، وسار إلى دمشق فوثب به الحارث بن عبد-الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع به لما رأوا من أدبار الأمر منه(١٩٣)، وعندما كتب أبو العباس إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان، لم يجد مقاومة تذكر إذ بايعه أهل منبج وقنسرين وحمص وبعلبك، أما في دمشق التي كان واليها الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، فقد اضطر عبد الله بن علي وصالح بن علي الذي قدم مدداً عليه أن يحاصراها(١٩٤)، ويرد في الطبري، أن الناس تعصبوا بالمدينة فقتل بعضهم بعضاً، وقتلوا الوليد وفتحوا الأبواب في العاشر من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة(١٩٥). وأقام عبد الله بن علي بدمشق خمسة عشر يوماً ثم ارتحل إلى الأردن، فأتوه وقد سوّدوا، ثم وجه صالح بن علي في طلب مروان الذي نجح في القضاء عليه ببوصير من أرض مصر(١٩٦).

نلاحظ أن أهل الشام لم يحاولوا الوقوف إلى جانب مروان أثناء تراجعه، بل انهم وثبوا به وأضعفوه، كما أنهم لم يقاوموا عبد الله بن علي في سيره في أرض الشام، بينما أظهر أهل الجزيرة بعض المقاومة، فقد رفض المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن والي قرقيسيا أن يدخل في طاعة أبي جعفر المنصور الذي عينه أبو العباس والياً على الجزيرة، وأرمينية،

---

(١٩١) الطبري، ج٧ ص ٣٥١، ٣٥٢.

(١٩٢) المصدر السابق، ج٧ ص ٤٣٣، ٤٣٤، يذكر الطبري رواية عن شيخ من أهل خراسان، أن مروان قال لقضاعة، انزلوا فقاتلوا، فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا، فأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا: قل لبني عامر فليحملوا، فأرسل إلى السكون أن احملوا، فقالوا: قل لغطفان فليحملوا، فقال لصاحب شرطته، انزل، فقال: لا والله لا أجعل نفسي غرضا.

(١٩٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٣ ص ٢٤٩.

(١٩٤) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٣٤، ١٣٥.

(١٩٥) الطبري، ج٧ ص ٤٤٠.

(١٩٦) المصدر السابق، ج٧ ص ٤٤٠.

وأذربيجان سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فخلف أبو جعفر عليها مالك بن الهيثم فقتل المنذر وصلبه في سنة ١٣٣ هـ ومضى المنصور إلى الرقة فدعاهم فلم يجيبوه، فخلف عليهم موسى بن كعب ففتحها وغلب عليها، وسار المنصور في مدن الجزيرة يصالح من دخل في طاعته، ويخلف على من التوى عليه حتى فتحها فكان من صالح أهل الرها ونصيبين ودارا، وهذا يعني أن معظم مدن الجزيرة رفضت الدخول في طاعة العباسيين وقاومت في بادىء الأمر وأذعنت عندما وجدت أن لا فائدة من المقاومة(١٩٧).

أما ابن هبيرة في واسط فقد قاوم العباسيين مدة أحد عشر شهراً، وفي رواية البلاذري، أن أهل الشام هم الذين وقفوا ضد الحسن بن قحطبة عندما أرسله أبو العباس إلى ابن هبيرة، وهناك تأكيد على أهل الشام ومقاومتهم، وأن ابن هبيرة لم يقبل الدخول في مفاوضات الصلح إلا بعد أن جاءه خبر مقتل مروان ببوصير من أرض مصر، أما الرواية التي يوردها الطبري، فتشير إلى أن الحصار عندما طال على ابن هبيرة وأصحابه، تجنّى عليه أصحابه فقالت اليمانية، لا نعين مروان وآثاره فينا آثاره، وقالت النزارية لا نقاتل حتى تقاتل معنا اليمانية، وكان إنما يقاتل معه الصعاليك والفتيان(١٩٩).

ان هذه الروايات المتعددة وان اختلفت فهي تشير إلى أمر بالغ الأهمية وهو دور الشعب في دعم حكم أو خذلانه، فقد لعب أهل الشام الدور الأكبر في دعم حكم بني أمية وفي خذلانه، فهم الذين وقفوا إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، وهم الذين خذلوا مروان بن محمد، ويعود ذلك إلى فهم معاوية ومعظم خلفاء بني أمية لنفسية أهل الشام، بينما كان مروان بعيداً عنهم وأقرب إلى أهل الجزيرة. ولذلك فانني أتفق مع ميشيل فوكو وهو أحد كبار أصحاب الفكر المعاصرين في فرنسا والذي يرى أن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيد الناس بسلاسل أقوى من الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم.

---

(١٩٧) الطبري، ج ٧ ص ٤٤١، البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٥١.

(١٩٨) البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٤٧.

(١٩٩) الطبري، ج ٧ ص ٤٥٤.

الفصل الخامس

دور أهل الشام في الفتوح

كان اهتمام العرب بتأمين فتوحاتهم هو الذي أدّى بهم إلى بسط رقعتها توخياً لحماية أفضل، فبعد أن تم فتح الشام كان لابد من فتح الجزيرة نظراً لارتباطها بالشام عن طريق نهر الفرات، وضرورة تأمين الشام من الشرق، ولأن القنوع بالشام كان معناه فقدها بعد قليل، وقد تمّ فتح الجزيرة في خلافة عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم الذي كان عمر بن الخطاب قد عينه والياً على حمص وقنسرين والجزيرة[١].

وكما اتصلت فتوح الجزيرة بفتوح الشام اتصلت فتوح أرمينية بفتوح الجزيرة، لكي يؤمن المسلمون ثغور الجزيرة في موقعها الحساس، وعندما جمع عثمان لمعاوية ولاية الشام والجزيرة[٢]، غدت مسائل الحدود تعالج بنشاط أكبر، فأرسل معاوية بناء على أمر من عثمان، حبيب بن مسلمة الفهري في ستة آلاف ويقال في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة[٣]، فاستولى على قليقلا عاصمة أرمينية البيزنطية (تيودوبوليس[٤])، وجلا كثير من أهلها إلى بلاد الروم، فأقام بها حبيب فيمن معه أشهراً، فلما وجه بطريق بند أرمنياكس جيشاً كبيراً انضم إليه أهل اللان والخزر، كتب إلى عثمان يستمده، فكتب إلى معاوية يسأله أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق، فتوح، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

(٤) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٢.

يرغب في الجهاد، فأرسل إليه معاوية ألفي رجل أسكنهم قليقلا وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها[٥]، كما أرسل عثمان إلى سعيد بن العاص واليه على الكوفة يأمره بامداد حبيب بن مسلمة، فوجه سلمان بن ربيعة الباهلي[٦]، في ستة آلاف من أهل الكوفة، ولكن سلمان وصل وقد فرغ المسلمون من عدوهم، فطلب أهل الكوفة إليهم أن يشركوهم في الغنيمة فلم يفعلوا[٧]، وكتب إلى عثمان بذلك فكتب، «ان الغنيمة باردة لأهل الشام[٨]».

بعد أن استولى حبيب على قليقلا، جرت بينه وبين الروم البيزنطيين على أرض أرمينية معارك عديدة، انتهت بسيطرة العرب على أرمينية البيزنطية، ثم تابع زحفه على القسم الفارسي حتى بلغ مدينة دبيل[٩]، (دفين Dwin[١٠]). وأتم حبيب فتح أرمينية بوصوله إلى مدينة تفليس حيث عقد صلحاً مع أهلها مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية، وقد هم عثمان أن يولي حبيب بن مسلمة جميع أرمينية، ثم رأى أن يجعله غازياً لثغور الشام والجزيرة فعاد حبيب ونزل حمص[١١].

وحين قامت الفتنة بين علي ومعاوية اضطر معاوية لسحب قواته المرابطة في أرمينية ليستخدمها في صراعه ضد خصمه، وأدّى انسحاب الجيش الإسلامي من أرمينية إلى حدوث فراغ استغله البيزنطيون لاسترجاع سيادتهم على هذا الموقع الاستراتيجي الهام، ونجح البيزنطيون في تحقيق هدفهم وسقطت أرمينية مرة أخرى في يد الامبراطورية البيزنطية لتعاود سياستها الجائرة في حكم الأرمن بسبب ما كان بين

---

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٠.

(٦) سلمان بن ربيعة الباهلي، صحابي من القادة، شهد فتوح الشام وسكن العراق، واستقضاه عمر على الكوفة، قال ابن قتيبة: هو أول قاض قضى لعمر بن الخطاب بالعراق، وفي المعارف لابن قتيبة أنه قتل ببلنجر من أرض الترك أو من أرمينية، (المعارف ص ١٩١، تهذيب، ج ٤ ص ١٣٦).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٢٠١.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٠١، وقد نقل البلاذري هذه الرواية عن مشايخ أهل قليقلا، كما كتب بها العطاف ابن سفيان أبو الأصبغ قاضيها.

(٩) المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(١٠) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٢. E.I.Art. Arminiya

(١١) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٧.

الطرفين من عداء مذهبي ، على أنه ما كادت الخلافة تؤول إلى معاوية حتى عاودته فكرة استعادة هذا الإقليم الهام وإعادته إلى التبعية العربية ، وظلت كذلك طوال فترة الحكم الأموي[١٢] . وقد ولي أرمينية من قبل معاوية عبد الله بن حاتم بن النعمان الباهلي ، فلما توفي ، وليها أخوه عبد العزيز بن حاتم فبنى مدينة دبيل وحصنّها ، وكبّر مسجدها وبنى مدينة النشوى ورمّ برذعة ، ويقال أنه جدّد بناءها[١٣] ، ويقال أن الذي جدد بناء برذعة محمد بن مروان في أيام عبد الملك ابن مروان ، وقد انتقضت أرمينية وخالف أحرارها وأتباعهم أثناء فتنة ابن الزبير ، فلما ولي محمد بن مروان أرمينية من قبل أخيه عبد الملك حاربهم وسيطر على البلاد[١٤] .

وولّى الخليفة يزيد بن عبد الملك الجرّاح بن عبد الله الحكمي من مَذْحِج ، الدمشقي الأصل والمولد ، إمارة أرمينية وأذربيجان ، فنزل برذعة ، فلما رأى اختلاف مكاييلها وموازينها ، أقامها على العدل والوفاء ، واتخذ مكيالا يدعى الجراحي ، بقي أهلها يستعملونه حتى عهد البلاذري[١٥] . وغزا الجراح الخزر ، وافتتح حصن بَلَنْجَر وغيرها من الحصون ، فلما مات يزيد أقرّه هشام بن عبد الملك ثم عزله سنة ١٠٨ هـ ، وأعاده سنة ١١١ هـ ، وتابع الجرّاح بن عبد الله حروبه مع الخزر ، فلما هزمهم اجتمع الخزر والترك من ناحية اللّان فواجههم الجرّاح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين ، فاستشهد الجرّاح ومن معه بمرج أَرْدَبيل[١٦] . فطمع الخزر بالعرب وأوغلوا في البلاد ، فولّى هشام مسلمة بن عبد الملك أرمينية ووجه على مقدمته سعيد بن عمرو بن أسود الحرشي مع العديد من أشراف الشام[١٧] .

ويذكر الطبري أن هشاماً دعا سعيداً الحرشي وسأله رأيه فاقترح عليه إرساله

---

(١٢) ابراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ١٢٧ .
(١٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٧ .
(١٤) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
(١٥) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .
(١٦) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٥٩ .
(١٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٨ .

على أربعين دابة من دواب البريد، ثم يبعث إليه كل يوم أربعين رجلاً ثم يكتب إلى أمراء الأجناد بموافاته، ففعل ذلك هشام وسار الحرشي، فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد، واستطاع الحرشي أن يصل إلى خلاط وهي ممتنعة عليه فحصرها وفتحها، ثم سار عنها وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيء إلى أن وصل بَرْذَعة، فنزلها كما استطاع أن يجبر الخزر على فك حصار مدينة ورثان، وهزم الخزر هزيمة عند نهر البَيْلَقان، وجمع الحرشي الغنائم وعاد إلى باجروان، فقسمها وأرسل الخمس إلى هشام بن عبد الملك وعرّفه ما فتح الله على المسلمين فكتب إليه هشام يشكره، ثم لم يلبث أن أمره بالمصير إليه، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك[١٨]، الذي استطاع بعد جهد بالغ أن يفتح مدينة الباب والأبواب وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزر[١٩]، فأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء وبنى هريا للطعام وللشعير وخزانة للسلاح ورمّ المدينة، وكان مروان بن محمد مع مسلمة وواقع معه الخزر، فأبلى وقاتل قتالاً شديداً، لذلك ولاه هشام ذلك الثغر، وكان له بلاء في قتال الخزر حتى أن عظيمهم عندما رأى كثرة ما وطىء به مروان بلاده من الرجال وما هم عليه في عدتهم وقوتهم قبل الإسلام وأظهره عندما خيّره مروان بين الحرب والإسلام، فأقرّه في مملكته وسار بخلق من الخزر إلى اللكز وأرض السرير، ويبدو أن مدينة الباب والأبواب أصبحت المركز الذي تنطلق منه جيوش المسلمين، ونلاحظ أن المعاهدات التي عقدها مروان مع ملوك تلك المناطق كانت تنص كلها على تقديم أعداد من الغلمان والجواري وعلى كميات ضخمة من الأرزاق تصب كلها في أهراء الباب[٢٠].

دور أهل الشام في فتح جزر البحر المتوسط

بذل معاوية بن أبي سفيان في فتح المنطقة الساحلية من إقليم الشام جهوداً

---

(١٨) الطبري، ج ٧، ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥، ص ١٥٩.
(١٩) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٩.
(٢٠) المصدر السابق، ٢١٠، ٢١٢.

ذات بلاء حسن وأثر جميل، كما شهد له بذلك قادة العرب في الشام، وقد خرج من تلك العمليات الحربية بنتيجة هامة، هي أن بقاء العرب واحتفاظهم بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن باهتمام العرب بالأسطول ورهن بالاستيلاء على جزر البحر الأبيض المتوسط التابعة للروم والتي كانت قواعد بحريّة خرج منها الامداد إلى مدن الشام أثناء حصار العرب لها.

بدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية منذ خلافة عمر بن الخطاب، وتجلّت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا المعقل التابع للروم على سلامة المدن الشامية، إذ جاء في خطابه: «يا أمير المؤمنين ان بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص[٢١]»، ثم ختم خطابه بطلب السماح له بغزو تلك الجزيرة، وكان هذا الموضوع الذي أثاره معاوية موضوعاً جديداً لا بد من عرضه على كبار رجالات العرب، ووقف عمر إلى جانب أولئك الذين كان من رأيهم تجنب المخاطرات البحرية، إذ كان رائد الخليفة في اتخاذ هذا الموقف هو الحرص على سلامة المسلمين حيث قال لمعاوية: «وتالله لمسلم أحب الي مما حوت الروم، فاياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت مالقي العلاء مني ولم أتقدّم إليه في مثل ذلك[٢٢]». وفي رواية أخرى أنه كتب إلى معاوية: «لا والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً[٢٣]». ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة حرصاً على سلامة المسلمين، وإنما كان أشد الولاة إحساساً بالخطر الذي يلوح في الأفق مهدداً ولاية الشام وكذلك مصر بسبب وجود أسطول الروم قريباً من شواطئهما وافتقارهما إلى وسائل الدفاع، وآثر معاوية أن ينفذ سياسته البحرية تدريجياً إزاء موقف المعارضة والحياد اللذين ظهرا بصدد رغبته في الهجوم على جزيرة قبرص، فكتب معاوية

---

(٢١) الطبري، ج ٤، ص ٢٥٩، رواية السرى عن شعيب عن جنادة بن أمية الأزدي، ص ٢٥٨، رواية السرى عن رجاء بن حيوة.

(٢٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٩.

(٢٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٥٩.

مرة أخرى إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وماهي عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية ، فكان جواب الخليفة أن أمره بمرمّة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقد لها[٢٤] .

اكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفّان ، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية بتشجيع الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية ، وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الاقامة في المدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها ، ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ، وأن يبني المساجد ويكبر ما ابتني منها ، فكان هذا سببا إلى انتقال الناس إلى السواحل ، ثم لم يلبث أن ظفر من الخليفة عثمان بن عفّان بتصريح يبيح له غزو قبرص شريطة أن لا يأخذ معه في غزوته هذه إلا من اختار الغزو طائعاً[٢٥] ، فكتب معاوية إلى أهل السواحل فأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا ، ليكون ركوب المسلمين من عكا إلى قبرص ، فأصلحت المراكب وجمعت ، ووضع معاوية الأرزاق للناس الذين أرادوا الاشتراك في هذه الحملة وأمرهم بالمسير إلى عكا[٢٦] ، وحرص معاوية على أن يصحبه عدد من كبار الشخصيات الإسلامية ، ليكسب أولى حملات الأسطول العربي مظهر الجهاد[٢٧] . كما اتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها ، فاصطحب معه زوجته فاختة بنت قُرَظَة ، كما أخذ عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت مِلحان الأنصارية[٢٨] ، فلما وصل المسلمون قبرص بعث إليهم حاكمها يطلب الصلح وقد أذعن أهلها ، فصالحهم على سبعة آلاف

---

(٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٥) الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٦٠ .

(٢٦) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢٧) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٩ ، غزا مع معاوية أبو أيوب بن زيد بن كليب الأنصاري ، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، ووائلة بن الأسقع الكناني ، وعبد الله بن بشر المازني ، وشداد بن أوس بن ثابت والمقداد بن الأسود وغيرهم .

(٢٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٨ .

ومائتي دينار، وفي رواية أخرى سبعة آلاف دينار[٢٩]، يؤدونها في كل عام ويؤدون إلى الروم مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على ألا يغزوهم ولا يقاتلون من ورائهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، وعلى أن يبطرق امام المسلمين عليهم منهم[٣٠]، ويضيف الواقدي أنه في العهد الذي بين معاوية وأهل قبرص ألا يتزوج أهل قبرص من الروم إلا بإذن العرب[٣١]، كما يشير الواقدي إلى أن فتح قبرص لم يشترك فيه أهل الشام فقط سنة ٢٨ هـ وإنما غزاها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح حتى لقوا معاوية، وكان معاوية هو القائد الأعلى[٣٢].

وعندما أخلّ أهل قبرص سنة ٣٢ هـ/٦٥٣م بشروط الصلح وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطيء العربية بالشام، عمد معاوية إلى غزوهم سنة ٣٣ هـ في خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة ثم أقرّهم على صلحهم وبعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد، ونقل إليهم جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة[٣٤]، أي أن معاوية جعل من قبرص قاعدة للأسطول العربي في البحر الأبيض المتوسط، ولا تشير الروايات إلى الأسباب التي دفعت يزيد بن معاوية إلى اقفال ذلك البعث، بل ان رواية محمد بن مصطفى الحمصي تبين أن يزيد بن معاوية قد رشا مالاً عظيماً ذا قدر حتى أقفل جند قبرص، وأن أهل قبرص هدموا مدينتهم ومساجدهم[٣٥]، إلا أن سيطرة المسلمين على قبرص استمرّت وظلّ أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار[٣٦]، وعندما عقد

(٢٩) المصدر السابق، ص ١٥٩، الطبري، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣٠) الطبري، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٢.
(٣٣) البلاذري، فتوح، ص ١٥٨.
(٣٤) المصدر السابق، ص ١٥٨.
(٣٥) المصدر السابق، ص ١٥٨.
(٣٦) المصدر السابق، ص ١٥٩.

جستنيان الثاني معاهدة مع عبد الملك بن مروان ٦٩ ، ٧٠ هـ/٦٨٨ ، ٦٨٩م أثناء ثورة الجَراجِمة وانشغال عبد الملك بثورة عبد الله بن الزبير ، نصت هذه المعاهدة على أن يدفع عبد الملك ألف دينار وحصاناً وعبداً عن كل أسبوع في السنة وعلى اقتسام مايجبى من أرمينية وقبرص ، كما تعهد جستنيان بنقل المَرَدَة من لبنان فنقل اثني عشر ألفاً منهم ، وأدرك جستنيان ولكن بعد فوات الأوان أنه أخطأ بعمله هذا فعمد إلى نقل سكان قبرص رغبة منه في أن يحرم الخليفة من أولئك الذين يدفعون له الجزية ، وكان معظم ضحايا هذه الهجرة الاجبارية من النصارى الإغريق ، كما أخذ العرب المقيمين فيها كأسرى ، وغرق قسم كبير منهم بسبب عاصفة قوية اعترضتهم قبل وصولهم إلى منطقة الهيليسبونت ، وعندما أصبح حاكم بند الكبيرهايوت Cybyrrhaeotes امبراطوراً باسم تيبيريوس الثالث Tiberius Apsimarus ، (٦٩٨ ـــ ٧٠٥م/٧٩ ـــ ٨٦ هـ) عمد إلى إرسال ثلاثة من أشراف قبرص يرافقهم موظف امبراطوري كبير طالبين إعادة القبارصة الموجودين في رومانيا Romania وسيزيكوس ، وفي البنديـن الكبيرهايـوت وتراقيا Thracia لإعادة تأهيل قبرص[٣٧]. وفي خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقاً إلى الشام لأمر اتهمهم به ، فأنكر الناس ذلك عليه فردّهم يزيد بن الوليد إلى بلدهم[٣٨] .

لم تكن قبرص الجزيرة الوحيدة التي غزاها معاوية ، إذ عقد العزم كذلك على التخلص من مخاوفه من جزيرة أرواد Aradus القريبة من الساحل الشامي بين مدينتي جبلة وطرابلس ، فأعد الأسطول لمهاجمتها بقيادة جنادة بن أمية وضم إليه أربعة آلاف رجل في عشرين مركباً ، ويذكر ابن الأعثم أن غزو جزيرة أرواد كان في السنة التي قتل فيها عثمان أي سنة ٣٦ هـ[٣٩] . بينما لا يذكر البلاذري سوى فتحها سنة ٥٤ هـ وعلى يد جنادة ابن أمية كذلك وان معاوية أسكنها المسلمين ، ولكنه يقول أن أرواد جزيرة

---

(٣٧) Sir George Hill. The History of Cyprus. Vol. I The Cambridge University Press. 1940. PP. 288 - 289.

(٣٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٩ .

(٣٩) ابن الأعثم ، فتوح ، ج٢ ، ص ١٤٥ .

بالقرب من القسطنطينية[٤٠]، مما يجعلنا نتساءل ان كان هناك خطأ في تسمية تلك الجزيرة التي تم فتحها سنة ٥٤ هـ.

وفي سنة ٥٣ هـ فتح جُنادة بن أمية الأزدي رودس فأنزلها كذلك قوماً من المسلمين، وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها، وكان مُجاهد بن جَبْر مقيما بها يُقرِىء الناس القرآن[٤١]، وغزا جنادة أيضاً جزيرة كريت، ويروى ابن الأعثم أن معاوية غزا رودس في خلافة عثمان[٤٢]، وأن نقطة الانطلاق كانت من صيدا وليس من عكا كما كان في فتح قبرص، ويضيف أن معاوية بنى فيها مسجداً وشحنها بالمسلمين[٤٣] وقوّاهم بالأموال والسلاح وأمرهم بالزراعة.

لم يكتف معاوية بغزو هذه الجزر القريبة من الساحل الشامي، إذ فكر بغزو جزيرة صقلية[٤٤]، وهو بعمله هذا إنما يدل على بعد نظره في الشؤون السياسية والعسكرية، إذ يبدو لأول وهلة أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم مصر والشام، ولكن مجريات الأحداث دلّت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم[٤٥] التي انسحبت من قواعدها بالشام ومركزا تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحري بين أساطيلهم في مصر والشام، وكانت صقلية بحكم موقعها الجغرافي تتحكم في المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط، فهي تقسم البحر المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين، وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا، ومضيق صقلية الواقع بين طرفي جزيرة صقلية الجنوبي وشمالي افريقية[٤٦]، وعندما عزم معاوية على غزوها كتب إلى عثمان بذلك فأذن له واشترك أهل

---

(٤٠) البلاذري، فتوح، ص ٢٣٧، الطبري، ج ٥، ص ٢٩٢، ابن الأثير، ج ٣، ص ٤٩٣.
(٤١) البلاذري، فتوح، ص ٢٣٧.
(٤٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢، ص ١٢٣.
(٤٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٧.
(٤٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٤.
(٤٥) حمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٢.
(٤٦) Semple, E. The Geography of The Mediterranean Region P. 72

الشام في هذه الغزوة البحرية التي ضمت ثلاثمائة مركب[٤٧]، وأغار المسلمون على أطراف صقلية، ثم أخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمياً متداركاً[٤٨]، كما كانوا يغيرون على قراهم وحصونهم، ثم يرجعون إلى مراكبهم، ولذلك اقترح بعضهم على ملك صقلية أن يستنجد بملك الروم، فلما بلغ ملك الروم عجزهم عن صد العرب جهّز ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح، فقرر العرب عندما بلغهم ذلك الانسحاب فعادوا أدراجهم إلى ساحل الشام، وأرسل معاوية الخمس إلى المدينة وقسّم ما بقي بعد الخمس في المسلمين[٤٩]، ولم يتابع معاوية أو خلفاء بني أمية جهودهم في سبيل الاستيلاء على صقلية، وأصبحت الغزوات على صقلية توجه من قبل ولاة افريقية لاسيما بعد أن تم فتح المغرب سنة ٩٠ هـ.

ان سيطرة المسلمين على قبرص وأرواد ورودس وغاراتهم على كريت واحتلالهم فيما بعد جزيرة كوس[٥٠] هي التي هيأت وساعدت على غزو القسطنطينية براً وبحراً في خلافة معاوية إذ اتخذ العرب من جزيرة سيزيكوس Cyzicus قاعدة لإدارة حملاتهم ضد العاصمة[٥١]. فقد كانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية وتقف سفن الأسطول الإسلامي الأخرى مطوقة هذه المدينة من جهة البحر، وصمدت المدينة لهذا الحصار الذي دام أربع سنوات (٥٥ ــ ٥٩ هـ/٦٧٤ ــ ٦٧٨ م) وانسحب العرب من وراء أسوار هذه المدينة متخلين مؤقتاً عن مشروعهم في فتحها ليعاودوا المحاولة في عهد الوليد ابن عبد الملك وفي حملة القسطنطينية الأخيرة في خلافة سليمان بن عبد الملك.

دور أهل الشام في فتوح افريقية

لعبت الجيوش الشامية دوراً كبيراً في فتوح افريقية، ففي سنة ٥٠ هـ أعان

(٤٧) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢، ص ١٣٨، ١٣٩.
(٤٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٣.
(٤٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٥.
(٥٠) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٧، الامبراطورية البيزنطية، ص ١٠٥.
(٥١) المصدر السابق، ص ٨٧.

معاوية ابن ابي سفيان معاوية بن حديج بجيوش الشام وكان عبد الملك في ذلك الجيش، وخرجت جيوش الشام ومصر إلى افريقية واحتفروا الآبار التي تسمى اليوم آبار حديج بباب تونس(٥٢)، كما اشتركت الجيوش الشامية مع المصرية عندما خرج أبو المهاجر دينار من مصر سنة ٥٥ هـ إلى افريقية فوصل إلى قرطاجنّة.

وإذا تركنا جانباً انجازات عقبة بن نافع الذي بنى القيروان واجتاز المغرب الأوسط حتى طنجة في المغرب الأقصى، فان استشهاده في سنة ٦٥ هـ في مدينة تهوده حيث فاجأه كسيلة زعيم أُوربة (وكان عقبة قد أساء معاملته) مع حلفائه الروم، كان نكسة لم تقتصر على مقتله ومقتل من معه بل تعدّى إلى ماكسبه المسلمون من افريقية، إذ اتجه كسيلة وحلفاؤه نحو القيروان، واضطر زهير بن قيس البَلَوى إلى الانسحاب مع الكثيرين، ولم يبق في القيروان «إلاّ أصحاب العيال وكل مثقل من التجار وأهل الذمة(٥٣)»، فطلب هؤلاء الأمان من كسيلة فنالوه، ودخل مدينتهم ليبقى فيها أميراً قرابة أربع سنوات، واستفاد كسيلة من فترة الاضطراب التي تلت وفاة يزيد، وانتقال الخلافة من الأسرة السفيانية إلى المروانية، ولكن ما أن استقر الأمر نسبياً لعبد الملك بن مروان حتى أمر زهير ابن قيس البلوى أن يسير ضد كسيلة الذي قتل في معركة جرت سنة ٦٩ هـ(٥٤)، واستغل البيزنطيون غياب زهير ليغيروا على مقره في برقة ويهددوه من الخلف، فعاد بسرعة ولكن الروم تصدوا له في منطقة تقترب فيها الجبال من البحر ولا يسمح بمرور الجيش كله، مما أدّى لاستشهاده مع عدد كبير من جنوده(٥٥)، ولم يستطع عبد الملك الخليفة الأموي أن يرد على هذه الضربة بسرعة لانشغاله بأمر منافسه على الخلافة عبد الله بن الزبير، فما أن أتمّ القضاء على عبد الله بن الزبير حتى عمد إلى إرسال حسّان بن النعمان الغسّاني.

ويعود فضل توطيد الفتح في الواقع في افريقية ثم اتمامه إلى واليين شاميين، هما

---

(٥٢) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، الطبعة الأولى، ١٩٥١م، ص ١٩.
(٥٣) أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٥.
(٥٤) ابن عذارى، ج ١، ص ٢٠.
(٥٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١.

حسّان بن النعمان الغسّاني وموسى بن نصير، وقد دخلها حسّان في ٤٠ ألفاً[٥٦]، أقام في مصر أولاً ثم أمره عبد الملك بالانطلاق إلى افريقية، فقدمها كما يقول ابن عذارى في عسكر عظيم، فلم يدخل المسلمون قط افريقية بمثل ما دخلها حسّان بن النعمان[٥٧]، وركّز حسّان هجومه أول الأمر على الروم وقاعدتهم البحرية والا دارية قرطاجنة واحتلها ولكنه فشل أمام الخصوم الآخرين من بربر الأوراس بزعامة الكاهنة التي ألحقت بحسّان وجيشه في بادىء الأمر هزيمة كبرى اضطر معها إلى التراجع إلى ما وراء حدود ولاية افريقية، حيث أقام متربصاً في برقة مدة خمس سنوات، ويبدو في كل عمل حسان بن النعمان ما يوحي وكأنّ الفاتحين يسيرون وفق خط يستفيدون فيه من تجاربهم الماضية، فتلك الاندفاعات التي كان ينتصر فيها المغاربة كانت أشبه بموجات أو عاصفة عاتية، لا تلبث أن تهدأ بعد أمد قصير لأنها مبنية على تحالفات في وجه خطر مهدد، فما أن يلوح زواله حتى ينفرط عقدها وتعود الأطراف المكونة لها إلى التصادم، وهذا يتيح للفاتحين العودة مستفيدين من ضعف خصومهم، وقد حصل هذا مع الكاهنة إذ لجأت إلى تخريب القرى والعمران حتى تزيل مطامع العرب في افريقية حسب رأيها، وهذا ما أوقع بينها وبين المستقرين من أفارقة وروم، وهذا ماساعد على انتصار حسان سنة ٧٩ هـ على الكاهنة التي جابهته في موقعتين قتلت في الثانية أثر هزيمة جيشها ومطاردتها[٥٨].

عاد حسّان بعد نصره إلى القيروان ليقوم بتوطيد الفتح وتوطيد سلطان المسلمين نهائياً في افريقية، فأدخل التحسينات على قاعدتهم، وأرسى أسس التنظيم للإدارة المالية والجيش الذي أدخل فيه البربر[٥٩]، وقام حسّان بفتح قرطاجنة للمرة الثانية وهدّمها، ولكي يضمن عدم عودتهم إلى موقعها بنى مدينة جديدة بجوارها لتكون قاعدة للعرب الفاتحين، وهي مدينة تونس[٦٠]، وهكذا كان لحسان الفضل في القضاء على النفوذ

---

(٥٦) ابن عذارى، ج ١، ص ٢٢.
(٥٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣.
(٥٨) أحمد بدر، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٧.
(٥٩) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ٢٠١، ابن عذارى، ج ١، ص ٢٩.
(٦٠) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٢.

البيزنطي في ولاية افريقية وفي القضاء على الكاهنة التي كان الروم يخشونها والبربر مطيعين لها(٦١)، كما أن إنشاء ميناء تونس الذي ينعم ببحيرة واسعة محمية من الأمواج وبعيدة عن قوات البيزنطيين البحرية أدّى إلى اضمحلال شأن قرطاجنة وانصراف الناس والسكان عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون باستردادها(٦٢).

واستطاع موسى بن نصير اتمام فتح شمالي افريقية بين سنتي ٨٧ ــ ٩٠ هـ وهو بذلك قد اعتمد ولا شك على القوات الشامية التي كانت قد دخلت افريقية مع حسّان بالإضافة إلى القوات العربية الموجودة في المنطقة والتي انضم إليها البربر الذين دخلوا في الإسلام، وكانت المراحل الأساسية لخط سيره هي عبوره المغرب الأوسط من الداخل ثم تجاوزه له والوصول إلى شمال المغرب الأقصى حيث احتل طنجة، وانحداره أخيراً نحو الجنوب حتى سجلماسه ودرعة، وبذلك أتم موسى فتح الشمال الافريقي كله باستثناء سبتة المفتوحة على البحر من جهاتها الثلاث، بينما يفصل جانبها البري الوحيد عن بر المغرب جبال ومرتفعات(٦٣).

يتوضح لنا مما تقدّم أنه كان للشاميين دور كبير في فتوح أرمينية وفي مناطق اللان والخزر، وفتوح بعض الجزر في القسم الشرقي من البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقية، كما أنهم ساهموا ببعض الفتوحات في المشرق، ذلك أن الفتوحات في تلك الجبهة يعود الفضل فيها إلى مقاتلة العراق، ولم يشترك أهل الشام في فتوحات هذه المنطقة اللهم إلاّ في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي حيث ضم إليه الحجاج ستة آلاف من جند أهل الشام وخلقاً من غيرهم(٦٤). كما اشترك أهل الشام مع يزيد ابن المهلّب في فتح منطقة جرجان ودِهِستان، بالإضافة إلى أهل الكوفة والبصرة والجزيرة ووجوه أهل خراسان والري(٦٥). ويقال أن يزيد بن المهلّب كان في عشرين

---

(٦١) المالكي، رياض النفوس، ص ٣١، ٣٢، ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٧٣، ابن عذارى، ج ١، ص ٢٣.

(٦٢) ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٥٩.

(٦٣) ابن عذارى، ج ١، ص ٣٣، ٣٧.

(٦٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٢٤.

(٦٥) الطبري، ج ٦، ص ٥٣٢.

ومائة ألف معه من أهل الشام ٦٠ ألفاً[٦٦]، وربما بقي قسم من المقاتلة في هذه المنطقة، إذ نجد إشارات لوجود جند من أهل الشام في بلخ[٦٧] وفي خراسان[٦٨]، وكان عددهم يقارب ألفين وخمسمائة في بلخ، كما أنه عندما نزل يحيى بن زيد بن علي بأرض الجَوْزَجان بعد أن انتصر على عمرو بن زرارة عامل نصر بن سيار على أبرشهر، سرّح إليه نصر بن سيار والي خراسان سلم بن أحوز في ثمانية آلاف فارس من أهل الشام وغيرهم[٦٩].

---

(٦٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٣٩، البلاذري، فتوح، ص ٣٣١.

(٦٧) الطبري، ج ٧، ص ١١٠.

(٦٨) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٦٥.

(٦٩) الأصبهاني، مقاتل الطالبيين، ص ١٥٧.

الباب الثاني

الفصل الأول

النظام الإداري

التقسيمات الإدارية

ليست لدينا معلومات واضحة عن التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في الشام في الفترة السابقة للفتح الإسلامي، ذلك أن الشام تعرّضت لاجتياح الفرس، فوصل كسرى أبرويز إلى القدس، كبرى مدن فلسطين، سنة ٦١٥م ثم تابع زحفه إلى مصر واستولى على الاسكندرية عاصمة مصر سنة ٦١٧م[١]، وبدا وكأن الفرس سيسترجعون أمجاد الامبراطورية الأخمينية، ولكن الفشل والهزيمة مالبثا طويلا حتى أخذا بالزحف على الفرس الذين كتب لهم في هذه الحقبة من التاريخ أن يذوقوا مرارة ماذاقه البيزنطيون من قبل، ففي خلال السنين التي كانت فيها قبائل السلاف والأفاريين تزحف على البلقان، والفرس يسيطرون على المقاطعات الشرقية من الامبراطورية، كان هرقل يقوم باصلاحاته الجذرية البعيدة المدى، التي أدخلت دماً جديداً وحيوية جديدة إلى جسد الامبراطورية، فقد عمد إلى تقسيم المقاطعات إلى وحدات إدارية جديدة تختلف في الأسس عن تقسيم ديوكليسيان، الذي لم يعد يصلح لحاجات الامبراطورية وظروفها الجديدة[٢]. وقسمت أراضي آسيا الصغرى التي لم تحتلها قوى أجنبية إلى مناطق عسكرية كبيرة وضعت تحت إدارة قواد عسكريين لهم صلاحيات الحكام الإداريين الذين كانوا يديرون المقاطعات في السابق، ويطلق عليهم اسم ستراتيجوس

١) بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة فريد حديد، ص ٦٦.

٢) نبيه عاقل، الامبراطورية البيزنطية، دمشق ١٩٦٩، ص ٨٧.

Strategus . وهكذا كان طابع الحكم الجديد طابعاً عسكرياً عنصره الأساسي إقامة وحدات عسكرية مستقرة في آسيا الصغرى التي كانت الأخطار تتهددها(٣)، وكان الجنود في هذه المناطق يمنحون اقطاعات من الأرض تصبح ملكهم ولهم حق توريثها إلى أبنائهم إذا انخرط أبناؤهم في سلك الجندية(٤).

إذا كان هرقل قد طبق هذا التنظيم في آسيا الصغرى، فانه ليس لدنيا إشارات إلى أنه عمد إلى تطبيق هذا التنظيم في الشام ومصر، اثر استعادتهما بموجب المعاهدة التي عقدها هرقل مع الكسرى قياذ سنة ٦٢٨ م/٧ هـ، إذ لم تأت سنة ٦٣٤ م/١٣ هـ حتى كان العرب يشقون طريقهم في قلب ممتلكات الامبراطورية البيزنطية، هذه الممتلكات التي استرجعت حديثاً، وقد رأينا أن فتح دمشق ومعركة اليرموك التي انهزم فيها الجيش البيزنطي هزيمة منكرة أوقعت بلاد الشام بيد العرب، إذ لم تلبث المدن أن استسلمت للعرب بما في ذلك أنطاكية العاصمة، دونما قتال شديد، وكانت المقاومة في فلسطين أكثر عنفاً، ولكن القدس لم تلبث أن استسلمت وفتحت أبوابها للخليفة عمر ابن الخطاب.

عمد الخليفة عمر إلى تقسيم الشام إلى أجناد أربعة، وهي جند حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين، وهذه الأجناد الإسلامية، أقاليم استقرّت فيها فرق من الجيش إسلامية لحمايتها وقبض أعطياتهم منها(٥).

هذه الأجناد كانت شبيهة بنظام البنود البيزنطي الذي بدأ هرقل بتطبيقه كما رأينا، ولم تخف على المسعودي أوجه الشبه بين البنود البيزنطية والأجناد الإسلامية حيث يقول: أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسماً، أعمال مفردة تسمى بنود كما يقال أجناد الشام، كجند فلسطين، وجند الأردن، وجند حمص، غير أن بنود الروم أوسع من

(٣) المرجع السابق ص ٨٧، ستيف رونسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١، ص ٩٧.

(٤) نبيه عاقل، المرجع السابق، ص ٨٨.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

هذه الأجناد[٦]. كما أن معظم الجغرافيين المسلمين كاليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ) وابن رسته (ت ٢٩٠ هـ) والاصطخري (ت ٣٢١ هـ) وقدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ) وحتى ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) يستخدمون كلمة الأجناد، بينما نجد ابن خرداذبه (ت ٢٧٢ هـ) لا يستخدم كلمة الجند ويذكر فقط كور الشام، كورة دمشق، كورة حمص، ... الخ، ويشير ياقوت الحموي إلى أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام[٧].

ولقد أوجبت الضرورات العسكرية على ما أعتقد تقسيم الشام إلى هذه الأجناد، فالساحل الشامي طويل، والشام كانت لا تزال مهددة براً وبحراً من قبل البيزنطيين، فكان لا بد من ايجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له، «فقد كانت عَرقَة وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة ويتصرف بها نواب من يلي جند دمشق أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس إلى أن ملك العبيديون[٨]»، أما اللاذقية وجبلة وبانياس وانطرطوس فكانت تابعة لجند حمص[٩]، وتبعت صور وعكا جند الأردن[١٠]، وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة جند فلسطين[١١].

ونلاحظ أن المقاطعات التي انقسمت إليها الشام في العهد البيزنطي كان منها مقاطعات ساحلية وأخرى داخلية وأنها أكثر مطابقة للتقسيمات الجغرافية للمنطقة، ونظراً لاعتماد بيزنطة على أسطولها فان أهم المراكز في العهد البيزنطي كانت المدن الساحلية، كأنطاكية وصور وقيسارية، أما أجناد الشام، فكان كل جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية، بحيث تستطيع كل منطقة أن تعتمد على الأخرى حربياً

---

(٦) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ١٠٥.

(٧) ياقوت الحموي، ج ١ ص ٣٨.

(٨) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٩٤،٩٦، ٩٨، ١٠١، ١٠٦، اليعقوبي، البلدان ص ٣٢٧، ابن خرداذبه ص ٧٧.

(٩) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٤، ابن الفقيه، البلدان، ص ١١٠، ابن خرداذبه، ص ٧٥.

(١٠) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧، ابن شداد، ص ١٢٣.

(١١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٤، اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٩، ابن الفقيه، البلدان، ص ١٠٣.

واقتصادياً، وبما أنه لم يكن للعرب في البدء أسطول قادر على حماية السواحل، فان مراكز الأجناد كلها كانت مدناً داخلية، حمص، دمشق، طبرية، اللد، وبقيت اللد قصبة جند فلسطين حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ولّى أخاه سليمان جند فلسطين، فابتنى مدينة الرملة(١٢) ومصّرها واختط مسجدها، فصارت القصبة ونقل إليها الناس من لُدّ وأمرهم بهدم منازلهم فيها والبنيان بالرملة(١٣)، وبقيت الرملة قصبة لجند فلسطين حتى زمن ابن حوقل(١٤).

كان من نتائج اهتمام الأمويين بمحاربة الدولة البيزنطية براً وبحراً، أن اتجهوا إلى جعل قنسرين جنداً مستقلاً منفصلاً عن جند حمص، وكانت قنسرين وحلب مضافتين إلى حمص، فأصبحت حلب مضافة إلى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية(١٥)، ثم تدرجت حلب في العمارة وقنسرين في الخراب حتى صارت مضافة إلى حلب في أيام بني العباس(١٦)، واختلف المؤرخون فيما إذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد(١٧)، ويذكر البلاذري أن قنسرين وكورها كانت مضمومة إلى حمص، حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً(١٨)، فلما استخلف أمير المؤمنين هارون الرشيد أفرد قنسرين بكورها فصير ذلك جنداً واحداً، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وأنطاكية وسماها العواصم(١٩)، بينما يذكر ابن الأثير أن معاوية هو الذي جند قنسرين ممن أتاه من أهل العراقين أيام علي، وإنما كانت قنسرين رستاقا من رساتيق حمص(٢٠).

---

(١٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤ ص ٩٩.

(١٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٩٣.

(١٤) ابن حوقل، صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الأول، ليدن ١٩٣١م ص ١٧١.

(١٥) ابن رستة، ص ١٠٧، الطبري، ج ٤ ص ١٦١، ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ٤١.

(١٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٤١.

(١٧) المصدر السابق، ص ٤١.

(١٨) البلاذري، فتوح، ص ١٣٨.

(١٩) البلاذري، ص ١٣٨، ابن الفقيه، البلدان، ص ١١٠.

(٢٠) ابن الأثير، الكامل، ج٣ ص ٣١، والرستاق اسم فارسي، ويعنون كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة والكوفة وبغداد.

وكانت الجزيرة تابعة إدارياً في بادىء الأمر لوالي حمص[21]، فلما أصبحت قنسرين جنداً أصبحت الجزيرة تابعة لجند قنسرين، وقد دفعت المتطلبات العسكرية عبد الملك بن مروان إلى فصل الجزيرة عن قنسرين، ويقال أنه فعل ذلك بناء على طلب محمد بن مروان فجنّدها عبد الملك، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها[22]، ثم ضم عبد الملك لمحمد أذربيجان وأرمينية وأحياناً الموصل[23].

وإذا اعتمدنا الروايات التي ذكرها المؤرخون، وقارناها بما ذكر عند الجغرافيين الأوائل، لوجدنا أن جند دمشق كان أكبر الأجناد لاسيما بعد جعل قنسرين جنداً منفصلاً عن حمص، أما أصغر الأجناد فكان جند الأردن، ولذلك فان معظم القصور الأموية في البادية والمتواجدة في شرقي الأردن حالياً إنما بنيت في نطاق جند دمشق[24]. وكان كل جند من الأجناد يضم عدداً من الكور[25]، والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة[26]، ولذلك نجد الجغرافيين عندما يتكلمون عن الكور التي يتألف منها جند دمشق يذكرون كورة دمشق وقصبتها دمشق، وكورة البقاع ومدينتها بعلبك، وكورة حوران ومدينتها بصرى... الخ.

وإذا كانت الضرورات العسكرية قد أوجبت جعل قنسرين جنداً منفصلاً، وأوجبت فصل الجزيرة عن قنسرين، فان هذه الضرورات هي التي أجبرت بيزنطة أيضاً أن تعدل تقسيمها الإداري لمواجهة احتياجاتها الدفاعية ولا سيما المشروعات الإسلامية

---

(٢١) البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.

(٢٢) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٢٣) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٩٣.

(٢٤) من أجل معلومات أوفى عن أجناد الشام وكورها يمكن العودة إلى كتاب الإدارة في العصر الأموي، ص ٣٩ ــ ٤٢. الجزيرة، ٤٤ ــ ٤٨.

(٢٥) يرى جاستون فيت Gaston Wiet أن لفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني كورة التي لم تكن شيئاً آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطي باسم بجارشي Pagarchie وكان على رأس الكورة صاحب الكورة، وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بجاركوس Pjayapxos أما ياقوت الحموي، فيذكر نقلاً عن حمزة الأصفهاني أن الكورة اسم فارسي بحت يقع على قسم من الاستان وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان، فالكورة والاستان واحدة (Wiet, L'Egypte Musulmane, Precise de L'Histoire d'Egypt t.II. P.27.).

(٢٦) ياقوت الحموي، ج ١، ص ٣٦، ٣٧.

الكبرى لفتح القسطنطينية(٢٧)، إذ أوجد البيزنطيون البند الأناضولي Anatolikon إلى جانب البند الأرمني، Armeniakon الذي تكون سنة ٦٢٩م لمواجهة خطر الغزو الفارسي، وقد قلل من شأنه فتح العرب لملطية، ويشغل بند أرمينية والأناضول كل القسم الأوسط من آسيا الصغرى، من حدود كيليكيا شرقاً إلى بحر ايجة غرباً، وكان سداً منيعاً للامبراطورية أمام هجمات العرب(٢٨). وأوجد البيزنطيون في القرن السابع كذلك بند الأويسكيون Opsikion(٢٩)، واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطوري لمواجهتها لشواطيء القسطنطينية، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة عن العاصمة(٣٠)، وكان هذا الاقليم الحربي يمتد من بحر مرمرة إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى، وأقامت في جهاته الساحلية فرق بحرية Peralic Themes لصد سفن المهاجمين عن العاصمة على حين استقر في جهاته الداخلية فرق من الخيالة Cavaliarli لعرقلة الزحف البري(٣١)، وفي القرن الثامن الميلادي في عهد الأسرة الايسورية وبعد آخر حملة كبرى على العاصمة البيزنطية عمد ليون الثالث إلى اقتطاع الجانب الغربي من البند الأناضولي الواسع المدى ليشكل بند تراقيا(٣٢)، كما أوجد بند الدوديكانيز Dodecanese، وإذا كانت العوامل العسكرية هي التي فرضت على ليون خلق بنود أقل امتداداً وأوسع حماية، فان هذه العوامل العسكرية كانت تدعمها اعتبارات سياسية. فقد أدرك ليون الثالث بناء على تجربته الخاصة الخطر الذي قد ينشأ من جعل بنود واسعة المدى تحت سيطرة الحكام العسكريين Strategus والاغراءات التي قد تدفعهم إلى العرش الامبراطوري(٣٣)، وتابع قسطنطين الخامس سياسة والده

---

(٢٧) E.B. The Byzantine Empire Vol. IV 'p. 524.

(٢٨) فتحي عثمان، الحدود الاسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، ج ١ ص ٩٦.

(٢٩) Ostrogorsky, History of The Byzantine State, Tr, 6y Joan Hussey, Oxford, 1956. P.II9.

رونسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٩٨.

(٣٠) ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٧.

(٣١) المصدر السابق، ص ١٧.

(٣٢) Ostrogorsky, OP. Cit. P.II9.

فحد من مساحة بند الأوبسيكيون وشكل بند البوكلري Bucellarian وبند الابتيماسيون Optimacian . وهكذا تم في عهد الأسرة الايسورية التنظيم الإداري الذي وضعت خطوطه الأولى في القرن السابع ، وعمد كل من ليون وابنه قسطنطين من بعده إلى انتقاء القادة القديرين المخلصين لشخصهم ولسياستهم وتعيينهم كحكام لهذه البنود ، كما أن القانون العسكري الذي يعود إلى عهد ليون إنما وضع ليؤمن لهؤلاء الحكام فرقاً عسكرية جيدة التدريب لا همّ لها سوى القتال ، ونهى بشدة انشغال الجند بالزراعة والتجارة[٣٤] ، وهذا ما كان عمر قد أمر به أمراء الأجناد بأن يتقدموا به إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ، وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون[٣٥] .

الموظفون الإداريون

١ ــ الخليفة : ليس الخليفة إلا رجلاً اختارته الأمة ليكون ممثلاً لها ويتولى الإشراف على أمورها وتدبير شؤونها ، والخليفة في نظر الإسلام ليس له أي صفات من صفات الألوهية ولو من بعيد ، وليس مقدساً ولا معصوماً في نظر المسلمين ، وليس له الحق وحده في بيان الدين وتفسير نصوصه ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الأمة بدينه وعدالته فولته أمورها يديرها بأمر الله وبمقتضى شريعته ، ولأنه كذلك لا يسمى خليفة الله بل خليفة رسول الله (صلعم) لأنه إنما يستخلف من يموت والله جل جلاله حي لا يموت ، ولهذا لما قيل لأبي بكر رضي الله عنه « يا خليفة الله[٣٦] » ، قال : « لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله[٣٧] » .

---

(٣٣) Bury. T.B. A History of The Later Roman Empire, London, 1889, PP. 343, 349.

(٣٤) The Cambridge Med. History Vol. IV PP. 3, 4.

(٣٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٦٢ .

(٣٦) نرى تعبير « خليفة الله » قد استعمل في مواضع مختلفة ، منها قول عثمان حينما دعي إلى الاستعفاء « أما أن أبرأ من خلافة الله فالقتل أحبّ إلي من ذلك » (شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ١٦٥ . ومنها ما ورد في الطبري من أن مروان بن محمد كتب إلى الوليد بن يزيد حين تولي الخلافة « أخبر أمير المؤمنين ــ أكرمه الله ــ أني عندما انتهى إلي من قيامه بولاية خلافة الله ، نهضت إلى منبري ... (الطبري ج ٣ ، ص ٢١٧ (وإذا كان الأخطل قد قال : (خليفة الله يستسقى به المطر ، فان أبا تمام قال للمعتصم :

خليفة الله جازى الله سعيك ... عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال الا على جسر من التعب

(٣٧) د. محمد يوسف موسى ، نظام الحكم في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ م ، ص ٨٢ .

ولعلّ أبا بكر خليفة المسلمين الأول هو أول من حدّد البنية الأساسية للنظام السياسي الجديد ومعناه عندما خاطب المسلمين بقوله: «لابد لكم من رجل يلي أمركم، **ويصلي بكم ويقاتل عدوكم[٣٨]» ، فأوضح أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية أمور الدين** والدنيا، كما أن أبا بكر بخطابه حدد سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييدها أيضاً بدستور الإسلام، وهو القرآن والسنة، وأظهر أهمية الجهاد لاعلاء كلمة الله وضرورة إقامة العدل والسير على الطريق القويم وذلك في قوله: «أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحدكم الجهاد في سبيل الله، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم البلاء، أطيعوني ماأطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم[٣٩]».

بالرغم من أن أبا بكر حدد سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييدها أيضاً بدستور الإسلام وهو القرآن والسنة، إلا أن الخليفة لم يكن مسؤولاً قانونياً تجاه أي شخص أو مؤسسة دنيوية، ولذلك كانت سلطاته واسعة، وصحيح أن الخلفاء، ولا سيما عمر كانوا يستشيرون في غالب الأحيان بعض الناس فيما يعرض لهم، إلا أنهم لم يكونوا ملزمين بقبول آراء المستشارين فبمقدورهم أن يرفضوها، أو يقبلوها حرفياً أو معدّلة، وبمقدورهم عند اختلاف آراء المستشارين اختيار ما يشاؤون من الآراء، وعليهم دون المستشارين، تحمل مسؤولية هذه القرارات، ولا ننسى أن اختيار هؤلاء المستشارين يعتمد على رغبة الخليفة وإرادته لا على قانون معترف به، فالخليفة يستطيع أن يستشير من يشاء، متى شاء، وكيف شاء.

وللخليفة باعتباره رئيساً للدولة والمهيمن على أزمة النظام الإداري حق اختيار من

---

(٣٨) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ١، ص ٢٥.

(٣٩) ابن هشام، ج ٤، ص ٣١١.

يشاء لتصريف شؤون الإدارة والحكم، وهو المسؤول عن أعمال من يختارهم لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه، وقد عمد عمر بن الخطاب رغبة منه باحلال الحق والعدل في كل منطقة دخل المدّ الإسلامي إليها إلى التدخل في شؤون كل ولاية لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً أن المسؤولية أولاً وأخيراً هي مسؤولية الخليفة[٤٠]، وقد ظهر ذلك بوضوح في الولاة الذين كان ينتقيهم وفي مراقبته الشديدة لهم ومحاسبته إياهم وفي ربط أكبر عدد من الولاة مباشرة به[٤١]، ولم يكن عمر يعين الولاة فقط وإنما كان يعين عمّال الخراج وكتّاب الدواوين والقضاة في الأمصار، وهؤلاء جميعاً كانوا مسؤولين عن أعمالهم مباشرة تجاه الخليفة الذي كان يراقبهم مراقبة شديدة، فكان لا يخفى عليه شيء في عمله[٤٢]، وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد[٤٣]. كما أنه كان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة، «وليحجزهم بذلك عن الرعية، وليكون لشكاة الرعية وقتاً وغاية ينهونها فيه إليه[٤٤]». ولذلك كان الولاة والعمال في عهد عمر يحسبون حساباً للخليفة في كل اجراء يتخذونه، وفي كل خطوة يخطونها، وكان معاوية بالرغم من ثقة عمر به وبحسن سياسته وحكمته ودهائه «أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه[٤٥]».

لم يستطع الخليفة عثمان أن يسير على نهج عمر بن الخطاب كما أنه وقع في سنوات خلافته الأخيرة تحت تأثير أفراد عائلته الذين تولوا إدارة الولايات الكبرى في الدولة، فقد جمع الجزيرة والشام لمعاوية ومصر وبرقة وطرابلس لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، والبصرة وخراسان وسجستان لعبد الله بن عامر، والكوفة للوليد بن عقبة ثم

(٤٠) الطبري، ج ٤ ص ٢١٠، ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ١٣٩٤ هـ، ص ١٣٢.

(٤١) الطبري، ج ٤، ص ١٤٤، ٢٤١، البلاذري، فتوح ص ٣٢٢، ٣٢٧، خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٥٦، ١٥٨، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٨، ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٣، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٢٩.

(٤٢) الطبري، ج ٤، ص ٦٧.

(٤٣) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، الطبعة الأولى، ١٩٧٠ م بيروت، ص ١٦٨.

(٤٤) الطبري، ج ٤، ص ١٦٥، ١٦٦.

(٤٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٣٨.

لسعيد بن العاص[٤٦]، وخوّلهم سلطات واسعة، وهذا مما مهد للإدارة اللامركزية في العصر الأموي، ولكنه كان سبباً من الأسباب التي أدّت إلى الفتنة ومقتل الخليفة عثمان، ولما كانت الفتن قد استغرقت أيام الخليفة علي أكثر من التنظيم والإدارة، فقد الاستقرار في البلاد «بالرغم من أن هديه كان هدى أصحابه الثلاثة من قبله، وما خالف علي عمر ولا غيّر شيئاً مما صنع[٤٧]».

بمقتل الخليفة علي وتنازل الحسن، انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ، الذي تعارف المؤرخون على تسميته بعام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد طول نزاع، وتصبح الشام هي الولاية المركزية، ويتخذ معاوية دمشق عاصمة للدولة الإسلامية، بسبب موقعها المتوسط، وتقاليدها الحضارية[٤٨]، وبقيت دمشق العاصمة الرسمية للدولة الإسلامية حتى خلافة مروان بن محمد الذي نقل بيوت الأموال والخزائن إلى الجزيرة[٤٩]. وقد دفن كل من معاوية ويزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك بدمشق[٥٠]، أما سليمان فقد دفن بدابق من أرض قنسرين[٥١]،

---

(٤٦) البلاذري، فتوح ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩، ابن سعد، الطبقات ج ٧، قسم ٢، ص ١٢٨، خليفة ابن خياط، ج ١، ص ١٩٤.

(٤٧) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م، ج ٢، ص ١٢٥.

(٤٨) يبدو أن دمشق في عهد المقدسي كانت لا تزال تحمل آثار بني أمية، ووصفه لدمشق يلقي بعض الضوء على وضعها آنذاك، إذ يقول: دمشق هي مصر الشام، ودار الملك أيام بني أمية وثم قصورهم وآثارهم، بنيانهم خشب وطين، أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف، وهو بلد قد خرقته الأنهار وأحدقت به الأشجار، وكثرت به الثمار مع رخص أسعار وثلج وأضداد، لاترى أحسن من حماماتها، ولا أعجب من فوّاراتها ولا أحزم من أهلها (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٥٦، ١٥٧).

(٤٩) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٨.

(٥٠) الفقيه أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء، الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ص ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣، المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ١، ٥٣، ٨٩، ٩١. القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة ـ الكويت، ١٩٦٤م، ج ١ ص ١١١، ١١٧.

(٥١) النويري، نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٣٥.

بينما دفن عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أرض حمص(٥٢)، ودفن هشام بن عبد الملك بالرصافة(٥٣).

ومن المؤكد أن معاوية أقام في دمشق طيلة امارته وخلافته، ولم يكن يغادرها إلاّ لأسباب قاهرة، وكذلك فعل عبد الملك، أما بقية الخلفاء، فيظهر أنهم كانوا يقيمون في أماكن مختلفة، وان بقيت دمشق هي المركز الذي تتم فيه بيعة الخلفاء وما يتبع ذلك من مراسيم(٥٤).

إن نجاح معاوية وتنازل الحسن عن الخلافة كان إقراراً بمبدأ الأمر الواقع المستند إلى القوة في اختيار الخليفة، هذا المبدأ الذي عبر عنه معاوية عندما قدم المدينة عام الجماعة، وتلقاه رجال قريش مهنئين، فأجابهم، «أما بعد فإني والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكنني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة(٥٥)». وصارت العلاقة تقوم على مؤاكلة حسنة ومشاعر جميلة قوامها قول الخليفة لرجال قريش: «وان لم تجدوني أقوم بحقكم كله، فاقبلوا مني بعضه(٥٦)». فلما كان عهد عبد الملك الذي واجه مشاكل كثيرة حتى استقامت له الأمور وقضى على ثورة عبد الله بن الزبير، فإنه رأى أن المؤاكلة الحسنة لا مكان لها في سياسته وأنه لا تداوى أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف(٥٧).

---

(٥٢) ابن أبي السرور، بلغة الظرفاء، ص ٢٥، الطبري، ج ٦، ص ٥٦٥.

(٥٣) المصدر السابق، ص ٢٦، الطبري، ج ٧ ص ٢٠٠.

(٥٤) هناك إشارات واضحة إلى أن بيعة يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، قد تمت في دمشق، وكذلك سليمان لأنه هو الذي صلّى على أخيه، فلا شك أنه بويع في دمشق، وبالرغم من أن البريد جاء بشارتي الخلافة، العصا والخاتم، إلى هشام وهو بالزيتونة فانه لم يلبث أن توجه إلى الرصافة ثم ركب من الرصافة حتى أتى دمشق، فبويع بها في اليوم الأول من رمضان سنة ١٠٥ هـ. (الطبري، ج ٧، ص ٢٥، العيون والحدائق، ص ٨٢، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، النجف ١٩٦٩ م ص ٢٤٧).

(٥٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٨١، ٨٢.

(٥٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٢.

(٥٧) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٠١، ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة، ج ٦ ص ٦٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٣٩، وفي خطاب لعبد الملك، أما انه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون ويؤكلون واني والله لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف.

ونظراً لوصول معاوية إلى منصب الخلافة بالقوة، فإنه لم يبايع لمعاوية أحد إلا أخذ عليه الأيمان، فكان أول شخص استحلف على بيعته[٥٨]، كما أن يزيد بن معاوية في كتابه إلى عامله على المدينة، طلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ويحلفون بصدقة أموالهم غير عشرها، وجزية رقيقهم وطلاق نسائهم، وبالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم[٥٩]، ولما آل الأمر إلى عبد الملك وأقام الحجاج بن يوسف على إمارة العراق وعمد إلى أخذ البيعة لعبد الملك في العراق، رتب أيمانا مغلظة تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعتاق، والايمان المحرجات، واشتهر بين الفقهاء بايمان البيعة، واطّرد أمرها في الدولة العباسية، وجرى مصطلحهم على هذا الأسلوب[٦٠].

وكان معاوية كذلك أول من لجأ إلى العهد بعد أبي بكر ولكن بمفهوم جديد، إذ أن أبا بكر عندما عهد بالخلافة إلى عمر فعل ذلك لأنه وجده يتمتع بجميع الصفات والميزات التي تؤهله ليكون خليفة للمسلمين، وليس لصداقة أو قرابة، بينما عهد معاوية بالخلافة لابنه لأنه أراد أن يحفظ الخلافة في آل سفيان، كما أنه اتبع في نظام البيعة سبيلاً جديداً، إذ أنه أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته، وأصبح العهد بعد معاوية الطريقة المتبعة على الأغلب في تولي الخلافة[٦١]، فإما عهد إلى الولد أو إلى أحد أفراد الأسرة لئلا يخرج الحكم من أيديها، بل أن الحيطة في بقاء الخلافة بيد الأسرة الواحدة حملت مروان بن الحكم على أن يبايع حال حياته لولديه عبد الملك وعبد العزيز[٦٢]، ومضى عبد الملك

---

(٥٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٥٩) ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، ج ٢، ص ١٧٥.

(٦٠) عبد الرحمن بن زيدان، كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦٢، الباب الثاني من المقالة الخامسة، ص٢٨، ٢٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩، القلقشندي، مآثر الأناقة، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٦١) سار خلفاء بني أمية جميعاً على اختيار أولياء العهد في حياتهم، فكلهم كان مختاراً من سلفه، ماعدا رأس هذه الدولة معاوية، ومروان بن الحكم، ويزيد بن الوليد، ومروان بن محمد، هؤلاء أخذوا الخلافة بالقوة.

(٦٢) الطبري، ج ٦، ص ٦١.

على هذه السنة فعهد إلى ابنه الوليد وإلى أخيه سليمان من بعده، وتابع سليمان بن عبد الملك هذه الطريقة، فعهد إلى عمر بن عبد العزيز وإلى يزيد بن عبد الملك من بعده. واتبع الخلفاء طريقة معاوية في أخذ البيعة لولاة عهودهم، في حياتهم، وكان الخليفة عندما يقرر من سيكون ولي عهده يرسل بالكتب إلى عماله لكي تُقرأ هذه الكتب على الناس، ثم يبايع الناس ويأخذون عليهم العهد والميثاق(٦٣). فإذا مات الخليفة حدثت البيعة ثانية تأكيداً للعهد، فكانت البيعة تأتي من الآفاق ويكتب إليه العمال وتجيء الوفود(٦٤).

وهكذا نرى أن الخلافة في عهد بني أمية قد أصبحت وراثية، ورافق ذلك شارات وعلامات بدلاً من البساطة التي كانت شعار الخلفاء الراشدين، فقد اتخذ معاوية المقصورة في المسجد(٦٥)، ولكنه اتخذها حين طعنه الخارجي(٦٦)، وأقام الحرس والشرط والبوابين وأرخى الستور(٦٧)، ومشي بين يديه بالحراب وجلس على السرير والناس تحته(٦٨)، ولكن ابن خلدون يضيف إلى ذلك، «أنه استأذن الناس وقال لهم: اني قد بدنت، فأذنوا له، فاتخذه واتبعه الملوك الإسلاميون فيه(٦٩)».

---

(٦٣) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢١٨، ٢٢٣.

(٦٤) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢١٦.

(٦٥) اليعقوبي، تاريخ ج ٢، ص ٢٣٢، ابن قتيبة، المعارف، الطبعة الثامنة، ص ٢٤١، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩.

(٦٦) ابن خلدون، المقدمة، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧١م. ج ١ ص ٢٢٤.

(٦٧) يقول الجاحظ بأن خلفاء بني أمية تأثروا بقوانين الملك والمملكة عند العجم فيما يتعلق بترتيب الخاصة، والعامة، وسياسة الرعية، والزام كل طبقة حظها، وأن كل ملوك الأعاجم كانت تحتجب عن الندماء بستارة، وكذلك فعل معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، إذ كان بينهم وبين الندماء ستارة، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة، إذ طرب للمغني والتذ، أما يزيد بن عبد الملك، فقد أفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهو، فأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه، والرد عليه، ولم يكن الوليد بن يزيد بأفضل منه، أما عمر بن عبد العزيز فلم يكن يسمع الغناء منذ أفضت الخلافة إليه، إلى أن فارق الدنيا، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل. (الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ٣١، ٣٥، ٣٩).

(٦٨) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٦٩) ابن خلدون، المقدمة، ج ١ ص ٢١٧.

وبالرغم من أن القلقشندي يذكر في كتابه صبح الأعشى أن معاوية كان أول من نهى عن الكلام بحضرته، وكان الناس قبل ذلك يردون على الخليفة ويعترضونه فيما يقول[٧٠]، فانه يذكر في كتابه مآثر الأناقة، أن عبد الملك بن مروان كان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخليفة وأن الوليد بن عبد الملك هو أول من أقام ناموس الملك ومنع من دعاء الخليفة باسمه ومراجعته في الكلام[٧١]. وأعتقد أن ما يذكره القلقشندي في مآثر الأناقة أدق، لأن الروايات المتعلقة بمعاوية كثيراً ما تشير إلى أن الناس كانوا يراجعونه فيما يقول ويعترضون عليه فيما يفعل.

ومع أن معاوية وخلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز يتهمون باهتمامهم بالمصالح السياسية، وتقديمها على الاعتبارات الدينية، وقول ابن طباطبا: «أن معاوية كان مصروف الهمة إلى تدبير أمور الدنيا، يهون عليه كل شيء إذا انتظم أمر الملك[٧٢]»، فان خلفاء بني أمية كانوا يولون إمامة الصلاة اهتمامهم، فخلفاء بني أمية كالخلفاء الراشدين كانوا يؤمون المسلمين في المساجد العظيمة في الصلوات الخمس والجمعة، والعيدين والخسوفين والاستسقاء، ولا يقلدونها لغيرهم من الناس استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها، حتى أن عبد الملك أمر حاجبه ألا يحجب عنه ثلاثة، المؤذن للصلاة، فانه داعي الله، وصاحب البريد فان في تأخيره فساد القاصية، وصاحب الطعام لئلا يفسد[٧٣].

وكخليفة للمسلمين أصبح لمعاوية الحق في اختيار من يشاء لإمارة الأمصار، فهو الذي يعينهم أو يعزلهم متى شاء، وهو المسؤول عن أعمالهم فهم إذاً خاضعون له ويعملون باسمه، وما داموا في الحكم فكل تمرد أو عصيان عليهم يعتبر وكأنه موجه ضد الخليفة، وقد كان الخليفة مسؤولاً عن تنفيذ القانون في كافة أنحاء الدولة الإسلامية، ولكن نظراً لسعتها ولصعوبة المواصلات أصبح تنفيذ القانون والاشراف على الشؤون

---

(٧٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ٤١٤.
(٧١) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج ٣، ص ٣٤٤، ٣٤٦.
(٧٢) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٧٩.
(٧٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٧٣٦، ٧٧٥.

الإدارية في الأمصار بيد الأمير الذي يتمتع خلال اشغاله منصبه بشبه استقلال ذاتي[٧٤]، إلا أنه مسؤول تجاه الخليفة ويعمل باسمه[٧٥]، إلاّ أنه لم يكن له الصلاحية في أن يسير إلى الخليفة ويترك أمر ولايته إلاّ بإذنه[٧٦].

بالإضافة إلى المشاكل المتعلقة بأمور إدارة الدولة، كان الخلفاء يخصصون أوقاتاً للنظر في حوائج الرعية، فكان معاوية يخرج إلى المسجد ويطلب من غلامه أن يضع له كرسياً يسند ظهره إلى المقصورة، فيقوم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فينظر في أمرهم[٧٧]، ثم يخصص وقتاً لأشراف الناس الذين يرفعون حوائج من لا يستطيع الوصول إلى الخليفة[٧٨].

وفاق عمر بن عبد العزيز معاوية في الاهتمام بالمظالم، فكان يقعد لحوائج الرعية يومه، فإذا أمسى وعليه بقية من حوائجه وصله بليلته[٧٩]؛ أما عبد الملك فقد أفرد للظلامات يوماً معيناً[٨٠] كل أسبوع، بينما عمد هشام بن عبد الملك إلى تخصيص ستين يوماً وليلة للناس لا يهتم فيها بشيء سوى رد المظالم والأخذ على يد الظالم من جميع الناس وأطراف البلاد، فكان يصل إلى مخاطبته بذلك الموضع راعي السوام، والأمة السوداء فما دونهما، وكان يوكل رجالاً ذوي أدب وعقل بإدناء الضعفاء والنساء واليتامى منه ويأمرهم باقصاء أهل القوة والكفاية عنه حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره[٨١].
وبالرغم من أنه كان لكل خليفة نهجه في النظر في المظالم وفي معاملته للناس، فان المسعودي يرى أن خلفاء بني أمية بالرغم من أنهم حاولوا أن يسيروا على هدى معاوية

---

(٧٤) عرف الفقهاء المسلمون في وقت متأخر هذا اللون من الإدارة اللامركزية للولايات بأنها إمارة استكفاء (الإدارة في العصر الأموي، ص ١٠٦).
(٧٥) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٤.
(٧٦) الطبري، ج ٧، ص ١٤٩.
(٧٧) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩، ٣٠.
(٧٨) المسعودي، ج ٣، ص ٣٠.
(٧٩) أبو يوسف، الخراج، ص ١٩.
(٨٠) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٧٨.
(٨١) ابن قتبة، الامامة والسياسة، ج ٢، ص ١٠٧.

إلا أنهم «لم يدركوا خلقه ولا اتقانه للسياسة ولا التأني للأمور ولا مداراة الناس على منازلهم ورفقهم بهم على طبقاتهم[٨٢]» .

٢ ـــ الوزراء والمستشارون

لا ريب أن كلمة وزير عرفت قبل الإسلام ، ذلك أنه من المسلّم به عند علماء اللغة العربية أن القرآن الكريم يمثل من الناحية اللغوية نهاية العصر الجاهلي[٨٣] . وقد وردت الكلمة فيه مرتين[٨٤] ، أما في السنة النبوية وفي أقوال كبار الصحابة ، فقد ورد لفظ الوزير ، والوزارة والوزراء في مواضع متعددة وفي مناسبات مختلفة[٨٥] . ويتبين من دراستنا للنصوص أن الوزارة قد تغير مفهومها عن التحديد الذي ورد في القرآن الكريم . فالوزير في القرآن شريك في العمل وفي المسؤولية وفي كل شيء أما في أقوال الرسول فلم تعن إلاّ أن الوزير مستشار أو مشير ، والفرق بينهما أن المستشار لايبدي رأيه إلاّ إذا سئل أما المشير فله أن يقول وان لم يطلب منه القول[٨٦] .

---

(٨٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٨٣) ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والإسلام ، دار النفائس ، بيروت ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤م ، ج ١ ، ص ٤١١ .

(٨٤) في سورة طه ، الآية ٢٩ ومابعدها في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : «واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، أشدد به أزري وأشركه في أمري» ، وفي سورة الفرقان الآية ٣٥ ، في قوله تعالى : «ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً» .

(٨٥) عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله (صلعم) قال : لي وزيران من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ووزيران من أهل الأرض ، أبو بكر وعمر ، وعن أنس بن مالك أن رسول الله (صلعم) قال : وزيراي من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ، ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر ، (ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٤٧) وفي خبر رواه الطبري أن زيد بن ثابت أجاب خطيب بني تميم بحضور الرسول (صلعم) فكان مما قال : «نحن أنصار الله ووزراء رسوله» (الطبري ج ٣ ، ص ١١٦) وكان اجتماع السقيفة يوم وفاة الرسول (صلعم) فكان مما قاله أبو بكر فيه مخاطباً الأنصار : «نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور (الطبري ج ٣ ص ٢٢٠) وفي كلام لعلي بعد مقتل عثمان عندما عرض الصحابة الموجودون في المدينة الامامة على علي ، قال : «التمسوا غيري ، فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً» (الطبري ج ٤ ص ٤١٧) ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة .

(٨٦) ظافر القاسمي ، المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

وبالرغم من أن أبا بكر قد أكّد على أنه « لا فضل لامير على مامور كالخوصة إذا شقت نصفين متساويين » ، فانه أبى إلا أن يكون القرشيون أمراء ، وأن يكون الأنصار وزراء وهذا يدعونا لأن نعتبر الوزارة مرتبة أدنى من الإمارة في مفهوم الخلفاء ، بعد وفاة الرسول .

فإذا أتينا إلى العصر الأموي فاننا نميل إلى القول بأن الوزارة وجدت(٨٧) ، وان لم تعط هذا الاسم دائماً ، لأننا إذا نظرنا إلى ما كتبه الطبري في أحداث سنة ٥٨ هـ عن قُبَيْصة ابن ذُؤيب لوجدنا أنه كان يجمع كل صفات الوزير في العصر العباسي وان لم يسمّ وزيراً ، جاء في النص : «أن عبد الملك بن مروان تقدّم إلى حجابه أن لا يحجب عنه قُبَيْصة بن ذُؤيب أي ساعة جاء من ليل أو نهار ، إذا كان خالياً أو عنده رجل واحد ، وإن كان عند النساء أدخل المجلس وأعلم بمكانه ، وكان الخاتم وكانت السكة إليه ، تأتيه الأخبار قبل عبد الملك ، ويقرأ الكتب قبله ويأتي بالكتاب إلى عبد الملك منشوراً(٨٨) » ، ومن الطبيعي أن يكون هناك وزراء إلى جانب أكثر الخلفاء يشاركونهم في تحمل أعباء الحكم ، إذ لا يعقل أن تقوم دولة مترامية الأطراف ، وأن لا يكون فيها وزير أو وزراء ، وأن يكون الخليفة وحده المهيمن على كل صغيرة وكبيرة ، وإنما كانت الوزارة كما قال ابن طباطبا « لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك ، فلم تكن متقنة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى

(٨٧) يرد عند المسعودي أن معاوية كان يجتمع أول ما يجتمع بخاصته ووزرائه لكي يتباحثوا في شؤون الدولة ، ثم يعود فيجتمع بهم ثانية بعد صلاة الظهر فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم ، ثم يجتمع بهم ثالثة بعد صلاة العشاء فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم ، (المسعودي ، مروج الذهب ص ٢٩ — ٣١) ويرد عند ابن الحكم ، أن الخلفاء كانوا يتخذون رجاء بن حيوة وزيراً ومستشاراً وقيماً على أعمالهم وأولادهم (سيرة عمر ابن عبد العزيز ص ١١٨) . وفي الطبري ج ٤ ص ٢٥٥ حول سخط أهل افريقية وحضور وفد منهم إلى دمشق في خلافة هشام بن عبد الملك للاحتجاج على تصرفات أميرهم أنه لم يكتب لهم مقابلة الخليفة .. فكتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء ، وفي أحداث سنة ١٢٦ هـ نقرأ أن حسّان النبطي أخبر يوسف بن عمر أن الوليد عازم على تولية عبد الملك بن الحجاج وأنه لابد ليوسف إذا أراد أن يحتفظ بمنصبه من اصلاح أمر وزراء الخليفة (ج ٦ ، ص ٤١٢) .

(٨٨) الطبري ، ج ٦ ص ٤١٢ .

الوزير، فلما ملك بنو العباس، تقررت قوانين الوزارة، وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً(٨٩)، ويستخدم كل من اليعقوبي والجهشياري تعبيراً يعبر عن وضع هؤلاء الكتاب الذين كانوا بمنزلة الوزراء، فيذكر اليعقوبي أن قبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع الجذامي كانا يكتبان لعبد الملك وكانا غَالِبَيْن عليه(٩٠)، وكان يكتب لهشام بن عبد الملك سعيد بن الوليد بن عمرو بن جبلة الأبرش وكان غالباً عليه(٩١)، كما كان عبد الحميد غالباً على مروان(٩٢).

وكان هؤلاء الكتاب المستشارون على درجة عالية من التفقه في الدين، يتقنون اللغة ويجيدون الخط، ويروون الأشعار، ويعرفون غريب معانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وكان عبد الملك يمتدح روح بن زنباع بقوله: إنه شامي الطاعة عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة(٩٣). أما قبيصة بن ذؤيب فيدعوه الذهبي، الامام الكبير الفقيه الخزاعي المدني ثم الدمشقي الوزير(٩٤).

٣ ــ الولاة

كان من عادة الخلفاء الراشدين إذا أرسلوا قائداً لفتح بلد، ولوه عليه قبل خروجه لفتحه، فقد روى الواقدي أن أبا بكر ولّى عمرو بن العاص فلسطين، وشرحبيل الأردن، ويزيد دمشق، وأنه إذا حدث قتال فأميرهم هو الذي يكونون في عمله(٩٥). كما روى أنه أمر عمروا مشافهة أن يصلي بالناس إذا اجتمعوا، وإذا تفرّقوا صلّى كل أمير بأصحابه، فلما جاء خالد مددا، نلاحظ توحيداً للقيادات استمر

(٨٩) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٢٠، ١٢١.

(٩٠) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٨.

(٩١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٨، الجهشياري، الوزراء والكتاب ص ٥٩، ويحدثنا الطبري أن هشاماً رفض أن يوافق على شروط الصلح بين السغد والمسلمين التي عقدها نصر بن سيار والي خراسان، فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط (الطبري ج ٧، ص ١٩٢).

(٩٢) الجهشياري، ص ٣٣.

(٩٣) الجهشياري، ص ٣٥.

(٩٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٢٨٢.

(٩٥) البلاذري، فتوح، ص ١١٦، ١١٧.

في خلافة عمر بن الخطاب الذي جمع أمر الشام كله وامرة الأمراء في الحرب والسلم لأبي عبيدة بن الجرّاح لمكانته وعظم ثقته به(٩٦)، وعمد أبو عبيدة أثناء عملية الفتوح إلى تعيين وال على كل مدينة صالحه أهلها(٩٧)، وضم جماعة من المسلمين إليه، وكانت مهمة هذا الوالي بالدرجة الأولى أن يمنع أهل المدينة وأن يجبي الجزية والخراج(٩٨)، وبقي لرؤساء أهل كل مدينة مكانتهم في إدارة شؤون رعاياهم من أهل الذمة(٩٩)، وفي رواية سريانية لمؤلف مجهول أن الخليفة أمر قواده أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة يبقون إذا شاؤوا يواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح(١٠٠)، وقد اتبع أبو عبيدة هذه السياسة لكي يتألف الناس، وليسمع به غيرهم من أهل المدن التي لم يطلب أهلها الصلح فيسارعوا إلى طلبه(١٠١).

يتبين لنا من النصوص التي بين أيدينا أن أبا عبيدة كان يتمتع بصلاحيات واسعة عسكرية ومدنية، فهو الذي يوجه القادة، ويعين العمال على الكور(١٠٢)، ويوافق على عقود الصلح التي يبرمها قواده(١٠٣)، كما يلي أمر القضاء(١٠٤)، وقد استمرت امرته على الشام حتى وفاته في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ(١٠٥).

بالرغم من كل هذه الصلاحيات التي منحها عمر بن الخطاب لأبي عبيدة فان هذا لم يكن يمنعه من التدخل في أمور كثيرة، إذ يذكر الطبري أن عمر أتى الشام

---

(٩٦) المصدر السابق، ص ١٢٣، خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٥٧، ابن سعد، الطبقات، ج ٧، قسم ٢، ص ١١١، ١١٢.

(٩٧) أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٦.

(٩٨) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

(٩٩) أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٦، ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٩٥.

(١٠٠) Chronicum Annonymus ad. annum Christi 1234. pertinens XIV P.188.

(١٠١) أبو يوسف، الخراج ص ٨١.

(١٠٢) البلاذري، فتوح، ص ١٣٧، ١٥٢.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(١٠٤) أبو يوسف الخراج، ص ١٤٠.

(١٠٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١١١، ١١٢.

سنة ١٧ هـ «فقسّم الأرزاق وسمّى الشواتي والصوائف، وسدّ فروج الشام، وأخذ يدور بها ويسمي ذلك في كل كورة واستعمل على الساحل عبد الله بن قيس[١٠٦]»، وعندما أمّن عمر أهل إيلياء واكتتبوا منه على إيلياء وحيّزها، وصارت فلسطين نصفين، نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة، فرّق عمر فلسطين على رجلين، فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة، وعلقمة بن مجزر على نصفها الآخر وأنزله إيلياء[١٠٧].

ولم يجمع عمر بن الخطاب الشام لعامل واحد بعد وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ هـ إذ عين عياض بن غنم على حمص وقنسرين والجزيرة ولم تكن الجزيرة قد فتحت بعد، وإنما كان من عادة الخلفاء كما رأينا أنهم إذا أرسلوا قائداً لفتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه[١٠٨]. وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وعمرو بن العاص فلسطين والأردن[١٠٩]. وكان ولاة الشام عند وفاة عمر، معاوية على دمشق والأردن، وعلقمة بن مجزر على فلسطين، وعمير بن سعد على حمص وقنسرين والجزيرة[١١٠].

وكانت صلاحية الوالي تتوقف على ما يرد في صك التعيين من ولاية على الصلاة أو الحرب أو الخراج، أو ثلاثتهم معاً، ولم يتبع الخليفة عمر نهجاً معيناً، إذ يبدو أن ذلك كان يتوقف على شخصية الوالي وعلى المصر[١١١]. واستمر تدخل عمر في تعيين العمال ضمن المنطقة التي يحكمها الوالي ولكن بطريق غير مباشر، أي بايعاز من الخليفة، فقد ولّى عمر مثلاً علقمة بن علاثة بن عوف حوران ولكنه جعل ولايته من قبل معاوية، لأن معاوية كان هو الوالي على جند دمشق وحوران تابعة له[١١٢]. كما أن

---

(١٠٦) الطبري، ج ٤ ص ٦٤، ٦٥.
(١٠٧) المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٠٨.
(١٠٨) البلاذري، فتوح، ص ١٧٧.
(١٠٩) خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٥٧.
(١١٠) البلاذري، فتوح، ص ١٧٨، الطبري، ج ٤، ص ٢٨٩.
(١١١) الطبري، ج ٤ ص ١٤٤، الدينوري، ص ١٢٩، ابن سعد، ج ٦، ص ٣.
(١١٢) البلاذري، فتوح، ص ١٣٥.

تعيين القضاة كان يتم من قبله، فقد ولّى أبا الدرداء قضاء دمشق وصلاتها وولّى عبادة قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما[١١٣].

بعد وفاة عمر جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وثغورهما[١١٤]، وأصبح معاوية يتمتع بصلاحيات واسعة جداً فأصبح والياً على الصلاة والحرب والخراج، وكانت إمامة الوالي في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالي وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة، وبما أن الإدارة المالية جمعت له كذلك فانه أصبح مطلق التصرف في ولايته، وكان تعيين الولاة على الأجناد عائداً إليه[١١٥]، وهؤلاء الولاة بدورهم كانوا مسؤولين أمامه.

إن هذه الصلاحيات هي التي مكّنت معاوية خلال هذه الفترة من تثبيت سلطانه، ومن ثم فانه عندما بدأت الفتنة ووفد معاوية على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر ولاة بني أمية وغيرهم للتشاور في أمر الفتنة التي انتشرت في أرجاء الدولة، اقترح معاوية على عثمان أن ينطلق معه إلى الشام[١١٦]، وكانت نصيحة معاوية لعثمان بالانتقال إلى الشام وبإظهاره أهمية اعتماد البيت الأموي على هذا الإقليم، تمثل مفهوماً جديداً في التطور السياسي الذي شهدته الدولة الإسلامية إذ ذاك، فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها، وهاجر القسم الأعظم من القبائل منها، ان لم نقل قبائل هامة برمتها، وأقامت في المعسكرات التي تحولت إلى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة، وتناقصت أهمية الحجاز ولم تعد المصر الأوحد الذي تقرر منه سياسة الدولة، ومن ثم فان عليا نفسه خرج إلى العراق واتخذ من الكوفة مركزاً له عندما أيقن أن الخلاف بينه وبين معاوية لن ينتهي إلا بالحرب، واستطاع معاوية بالاعتماد على أهل الشام كما رأينا أن يقف في وجه علي وأن يصبح خليفة للمسلمين.

---

(١١٣) المصدر السابق، ص ١٤٦.
(١١٤) المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩، ابن سعد، الطبقات، ج ٧، قسم ٢، ص ١٢٨.
(١١٥) الطبري، ج ٤ ص ٤٢١.
(١١٦) الطبري، ج ٤، ص ٣٤٥.

بانتقال الخلافة إلى معاوية أصبحت الشام هي الولاية الوحيدة التي وقعت تحت الإدارة المباشرة للخليفة، وكان يساعد الخليفة في إدارة هذه الولاية عدد من الولاة، فكان لكل جند بما في ذلك جند دمشق وال أو نائب عن الخليفة، ولم يجمع خلفاء بني أمية جندين لوال واحد كما حدث في خلافة عمر بن الخطاب، كما أن صلاحياتهم كما يبدو لم تكن واسعة وإنما كانوا على حد تعبير ابن العديم بمنزلة الشرط لا يستقلون بالأمور والحروب(١١٧)، أي أن مهمة الوالي الرئيسية كانت حفظ الأمن والنظام في المنطقة بالإضافة إلى تعيينه العمال على المدائن والقرى ومراقبتهم بحيث يجزي محسنهم ويستبدل المسيء منهم(١١٨). وقد يكون الوالي أحياناً مسؤولاً عن الإدارة المالية في منطقته فيكون أكثر حرية واستقلالاً في التدابير التي يتخذها، ذلك أن عامل الخراج كان بإمكانه أن يحدّ كثيراً من سلطة الوالي مما يؤدي إلى النزاع بينهما(١١٩)، وكان من مهمة الوالي كذلك الاهتمام بأمر السجون وأهلها، ويتعرض ابن سعد لأوضاع السجون وتنظيمات عمر بن عبد العزيز الذي أمر ولاته أن ينظروا بأمر السجون وأن يستوثقوا من أهل الدعارات، وأن يكتب لهم برزق الصيف والشتاء. كما أمر أن لا يجمع بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ولا حبس واحد، وأن يجعل للنساء حبس على حدة، وأن يوكل أمر السجن إلى شخص يثق به ولا يرتشي(١٢٠).

ليست لدينا نصوص واضحة تشير إلى مهمات عمّال النواحي والقرى، ومع ذلك فان النص الذي يورده الجهشياري يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن مهمته الأولى والأساسية كانت كما في العهد الراشدي جباية الأموال، لأن الأمور المتعلقة بأهل الذمة، كانت تدار من قبل رؤسائهم، إذ عندما استشار عبد الملك بن مروان ربيعة الجرشي في أمر الوليد، عندما عزم على تقليده العهد قال له: «إني قد عملت على توليته شيئاً من النواحي أولاً، فإذا مرّت له مدة قلّدته، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك لو بعثت الوليد

---

(١١٧) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ١، ص ٤١.

(١١٨) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٩.

(١١٩) المصدر السابق ص ١٢٩، الطبري ج ٧ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(١٢٠) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٢٢.

يقسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه فكيف تبعثه جابياً ، ان احتاط ذمّ وان رفق عجّز ، ولكن ولّه المعاون والصوائف يكن له ذلك شرفاً وذكراً(١٢١) .

كان ولاة الأجناد مسوؤلين مباشرة تجاه الخلفاء ، كما كان عمالهم على المدن والقرى مسؤولين تجاههم ، ومن ثم نرى الخليفة إذا أراد أن يصدر أمراً إلى عامل في ناحية ، كلف الوالي أن يكتب إلى عامله ، فنرى مروان بن محمد مثلاً يكتب إلى معاوية ابن الوليد بن عبد الملك عامله على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامله على البلقاء(١٢٢) . وكان ولاة الأجناد يعينون تعييناً من قبل الخلفاء ، وأحياناً ولكن نادراً كان الوالي يقيم في المركز ويعين خليفة له ، جاء في أنساب الأشراف عن المدائني عن مسلمة وغيره ، أن مروان ولّى عبد الملك فلسطين وجعل روح بن زنباع خليفة لعبد الملك عليها(١٢٣) . ولم ينتخب أهل الشام ولاة أجنادهم إلاّ مرة واحدة عندما بويع مروان بن محمد بالخلافة إذ طلب من أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم(١٢٤) .

نلاحظ أحياناً ولا سيما في أوقات الفتن والاضطراب أن السلطة الفعلية لم تكن للوالي وإنما لأشراف المنطقة ، فقد كان مروان بن عبد الله بن عبد الملك عاملاً للوليد بن يزيد على حمص ، وكان من سادة بني مروان نبلاً وكرماً وعقلاً وجمالاً ، ولكن أمر حمص كان لمعاوية بن يزيد بن حصين وليس لمروان بن عبد الله من أمرهم شيء(١٢٥) . أما في فلسطين فقد كان سعيد بن عبد الملك والياً من قبل الوليد بن يزيد ، وكان رأس أهل فلسطين يومئذ سعيد بن روح بن زنباع ، فلما قتل الوليد كتب سعيد بن روح إلى الوالي أن يرتحل عنهم ، وطلب من يزيد بن سليمان سيد ولد أبيه أن يتولى أمر فلسطين ، إذ أن أهل فلسطين كانوا يحبونهم لجوارهم(١٢٦) . وفي رواية للطبري أن ابن هبيرة سأل

(١٢١) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٣٧ .
(١٢٢) البلاذري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٢١ ، الدينوري ، ص ٣٥٩ .
(١٢٣) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٤٩ .
(١٢٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣١٢ .
(١٢٥) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٦٣ .
(١٢٦) المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٦٦ .

يوماً من سيّد قيس؟ قالوا الأمير، قال: دعوا هذا، سيد قيس الكوثر بن زفر لو بوّق بليل لوافاه عشرون ألفاً لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه(١٢٧).

٤ ـ الكتاب

كان الكتاب في العهد الأموي على أصناف، منهم كاتب للرسائل، وآخر للخراج، وثالث للجند ورابع للقضاء والمظالم(١٢٨)، ولقد ازدادت أعدادهم وازدادت اختصاصاتهم مع ازدياد عدد الدواوين، إلاّ أن أرفعهم مكانة كان صاحب ديوان الرسائل وكان يدعى أحياناً في خلافة بني أمية بمتولي ديوان الرسائل، أو صاحب ديوان المكاتبات، لأنه كان مؤتمنا على أمور الدولة وأسرارها(١٢٩)، وينظر في أمر البريد ومتعلقاته(١٣٠)، ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة، وكان هذا الواجب هو واجب الخليفة نفسه، ولما كان هذا متعذراً لكثرتها واتساع الدولة وكثرة المكاتبين فوض الخليفة هذا الأمر إلى صاحب ديوان الرسائل، واضطر هذا بدوره عندما ازدادت أعباؤه لانشغاله بقراءة الكتب بحضور الخليفة والاجابة عليها مع انشغاله بمراقبة ما يكتب في الديوان والمقابلة به اضطر أن يعتمد على كاتب يقوم مقامه، يتصفح ما يكتب في الديوان من الولايات والمناشير والمكاتبات(١٣١). واستمر الأمر في الأندلس على ما كان عليه في الشام، فقد كان لكاتب الرسائل المقام الأول، أو كما يقول المقرّي، له حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسائله(١٣٢).

وبما أن أصحاب ديوان الرسائل كانوا يدّبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة، فكانوا بحكم وظيفتهم يتم اختيارهم من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان، وكان

---

(١٢٧) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٦.
(١٢٨) الجهشياري، ص ٥٤، أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٣٧٣.
(١٢٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ١٠٣.
(١٣٠) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤.
(١٣١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٣.
(١٣٢) المقّري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج ١، ص ٢١٧.

كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني، وتكونت على هذا النحو طبقة كبيرة من كتاب محترفين، إذ لم تختص بهم دمشق فقط، لأنه كان لكل وال وقائد كاتب[١٣٣] وأحياناً كان الوالي في الولاية الكبيرة يتخذ طائفة من الكتاب[١٣٤]، وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات أن يلفتوا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء حتى يعينوهم في دواوينهم، واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها، سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه[١٣٥]، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ليسلكه بين كتابه، على نحو ما صنع بمحمد بن يزيد الأنصاري، إذ كتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد، وكتب إليه «إذا أردت رجلاً مأموناً فاضلاً عاقلاً وديعاً مسلماً كتوماً تتخذه لنفسك وتضع عنده سرّك وما لا تحب أن يظهر، فاتخذ محمد بن يزيد»، فكتب إليه عبد الملك أن يحمله إليه، واتخذه كاتباً وكان ذلك سنة ٨٥ هـ[١٣٦]. وعندما توفي عبد العزيز بن مروان، أخذ عبد الملك رأى محمد بن يزيد فيمن سيتولى الخلافة من بعده، فأشار عليه بالوليد سيد الناس، وأرضاهم وأفضلهم، ولسليمان فتى العرب من بعده، فطلب عبد الملك منه أن يكتب عهداً للوليد ولسليمان من بعده. وغضب الوليد عليه فلم يوله شيئاً لأنه أشار أن تكون الخلافة من بعده لسليمان[١٣٧]، فلما كانت خلافة سليمان أرسله سنة ٩٧ هـ والياً على افريقية فكانت ولايته سنتين وأشهراً، لأن عمر بن عبد العزيز عزله، وعندما قتل أهل افريقية يزيد بن أبي مسلم والي الخليفة يزيد بن عبد الملك لأنه أساء السيرة فيهم، ولّوا على أنفسهم محمد بن يزيد وكتبوا إلى الخليفة مبينين أنهم لم يخلعوا أيديهم من الطاعة، ولكن يزيد بن مسلم سامهم مالا يرضاه الله والمسلمون فقتلوه وأعادوا محمد ابن يزيد، فأقرّه يزيد ثم لم يلبث أن أرسل بشر بن صفوان الكلبي[١٣٨].

---

(١٣٣) الطبري، ج ٦، ص ١٨٠ — ١٨٢.
(١٣٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٤.
(١٣٥) الطبري، ج ٦، ص ٣٨٧.
(١٣٦) المصدر السابق، ج ٦، ص ٤١٥.
(١٣٧) المصدر السابق، ج ٦ ص ٤١٥.
(١٣٨) المصدر السابق، ج ٦ ص ٦١٧.

وإذا دققنا في الروايات المتعلقة بكتاب الرسائل في العصر الأموي، لوجدنا أن صاحب ديوان الرسائل كان من العرب في خلافة معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك[١٣٩]، ثم لم تلبث هذه المكانة أن انتقلت إلى الموالي[١٤٠]، وكان أشهرهم على الاطلاق عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري[١٤١]، والذي تتلمذ على سالم مولى سعيد بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك[١٤٢]، إذ أن عبد الحميد التحق بديوان هشام بن عبد الملك وأعجب به سالم فأصهر إليه، ومازال حتى خرّجه كاتباً لا يبارى، وعرفه مروان بن محمد، وكان عاملاً لهشام على أرمينية، فاتخذه كاتباً له، ولعلنا لانخطيء في الحكم إذا قلنا أن ماأثبته الطبري من رسائل لمروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد، وعندما تولى مروان الخلافة أصبح عبد الحميد الكاتب والمستشار والغالب عليه، وعندما هزم مروان في موقعة الزاب، ولّى وجهه معه إلى مصر حيث قتلا معا في بوصير[١٤٣]، ولعل مما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد أبناءه وأحفاده وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم[١٤٤].

وعبد الحميد ولا ريب أبلغ كتاب هذا العصر وأبرعهم، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر[١٤٥]، ولا تلفتنا كما يقول الدكتور شوقي ضيف براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب، وإنما يلفتنا أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت

---

(١٣٩) الجهشياري، ص ٢٤، ٣١، ٣٤، ٤٣.
(١٤٠) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٤١٨ — ٤٣١، ج ٢، ص ٤٦٨.
(١٤١) الجهشياري، ص ٧٢، الطبري ج ٧ ص ١٨٢، وعبد الحميد فارسي الأصل ويقول أكثر من ترجموا له انه من أهل الأنبار بالعراق.
(١٤٢) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٤٥، تهذيب، تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٥٧.
(١٤٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١ ص ٣٠٧.
(١٤٤) الجهشاري، ص ٨٢.
(١٤٥) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٢٣١.

عن الساسانيين والتي يقال أنه كان أحد نقلتها إلى العربية(١٤٦)، فقد كان ملوك الفرس يقدّمون الكتاب ويعرفون فضل صناعة الكتابة، ويعتبرونهم الألسنة الناطقة عن الملوك، وخزّان أموالهم، وأمناءهم على رعيتهم وبلادهم بحيث أنهم كانوا إذا أنفذوا جيشاً أنفذوا معه وجها من وجوه كتابهم، وأمروا صاحب الجيش ألا يحل ولا يرتحل إلا برأيه، يبتغون بذلك فضل رأي الكاتب وحزمه(١٤٧). وتشير رسالة عبد الحميد إلى الكتّاب إلى الكيان والمكانة الهامة التي أصبحت لهم، إذ أن رسالته لم تكن موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه، وإنما هي موجهة إلى طائفة الكتاب، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتاب في تدبير الحكم، وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية، تتصل بالخلفاء والولاة والرعية(١٤٨)، ونحن لا نقرنها إلى ما استهل به الجهشياري في كتابه «الوزراء والكتاب» من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزراءهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر بهذه الوصايا في رسالته التي تعد دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب(١٤٩).

ازدادت مكانة الكتاب منذ خلافة هشام بن عبد الملك، الذي كان يوكل إلى سالم بالكتابة عنه إلى ولاته في الشؤون التي تعرض له(١٥٠)، أي أن الخليفة لم يعد يملي كتبه على كتابه، كما كان الشأن في القديم، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ثم يعرضها عليه ومن ثم لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم بل أصبح ضمير غائب، وكان سالم عظيم القدر عند هشام(١٥١)، ونظراً لمكانته فانه كان يتجاوز مركزه أحياناً، فقد سار في موكب فمنعه هشام(١٥٢)، كما كان يسير مع هشام في الموكب، فإذا جاء

(١٤٦) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣، ص ٤٧٤.
(١٤٧) الجهشياري، ص ٤.
(١٤٨) المصدر السابق، ص ٧٣ ــ ٧٥.
(١٤٩) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص ٤٧٤، ٤٧٥.
(١٥٠) الجهشياري، ص ٦٢.
(١٥١) البلاذري، أنساب، مخطوطة بمكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب ــ جامعة بغداد، ذات الرقم ١٦٤٠، ج ٧ ص ٥٥٩.
(١٥٢) الطبري، ج ٧ ص ٢٠٢.

الرجل الغريب يوقفه سالم ويسأله حاجته كأنه هو أمرّ هشاماً[١٥٣]، كما أنه كان يقرأ الكتب لهشام، فلا يدخل منها عليه إلاّ ما يسره، وإذا أخفى سالم أمراً وعلم به هشام كان ذلك بالطبع مدعاة لغضبه[١٥٤]، ولكنه لم يعمد إلى عزله بل استبقاه، وعندما توفي هشام بن عبد الملك كان سالم هو الذي أرسل إلى الوليد بن يزيد يعلمه فيه بموت هشام وتوليته الخلافة[١٥٥]، ولذلك أصبح سالم في خلافة الوليد الثاني ليس صاحب ديوان الرسائل فقط، وإنما كان يكتب له على خاص أمره[١٥٦]، وعندما مرض هشام وصار إلى الحد الذي لا ترجى معه الحياة، أرسل عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان وكاتب الوليد بن يزيد الذي خلفه في الرصافة بعد شخوصه منها[١٥٧]، إلى الخزان ان يحتفظوا بما في أيديهم حتى لا يصل أحد إلى شيء، ولما توفي هشام، خرج عياض من السجن فختم أبواب الخزائن، فلم يجدوا لهشام قمقما يسخّن فيه الماء حتى استعاروه، ولا وجدوا كفنا من الخزائن فكّفنه غالب مولى هشام[١٥٨].

٥ ــ صاحب الشرطة

من الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم صاحب الشرطة، ويعتبر اليعقوبي معاوية أول من أقام الشرط[١٥٩]، غير أن الكندي يذكر وجود صاحب الشرطة في ولاية عمرو الأولى على مصر صلاتها وخراجها، منذ أن افتتحها حتى صرف عنها، أي في خلافة عمر بن الخطاب، وكان على شرطة مصر، خارجة بن حذافة[١٦٠]، بينما يذكر خليفة ابن خياط أن عثمان كان أول من اتخذ الشرط، وكان على شرطه عبد الله بن قنفذ من بني

---

(١٥٣) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٠٢.

(١٥٤) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٩، ٨٠.

(١٥٥) الطبري، ج٧ ص ٢١١.

(١٥٦) الجهشياري، ص ٦٨.

(١٥٧) أمر الوليد بن يزيد كاتبه عياض أن يكتب إليه بالأخبار، فعتب عليه هشام فضربه وحبسه وألبسه المسوح.

(١٥٨) الطبري، ج ٧ ص ٢١١، العيون والحدائق، ص ١٠٦.

(١٥٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٢١.

(١٦٠) الكندي، الولاة والقضاة، ص ١٠.

تيم قريش[١٦١]، ويذهب المقريزي إلى أبعد من ذلك عندما يذكر أن الخليفة الاول ابا بكر عمد لأول مرة في الإسلام إلى تعيين عامل يقوم بالطواف في الليل، وهكذا كان عبد الله بن مسعود أول من عسّ بالليل، عندما أمره أبو بكر الصديق بعس المدينة[١٦٢]، وبعد أبي بكر كان الخليفة عمر بن الخطاب يقوم بنفسه بالعسس ومعه مولاه أسلم وأحياناً الصحابي عبد الرحمن بن عوف، ويبدو وكأن المقريزي يريد أن يظهر أن من أهم مهام صاحب الشرطة المحافظة على الأمن ليلاً، ولذلك نجده يطلق اسم العسس على الشرط بشكل عام ويسمي صاحب الشرطة بصاحب الليل وهو لقب نجده كذلك في الأندلس كما يقول المقرّي، فكان صاحب الشرطة يعرف في ألسن العامة بصاحب الليل[١٦٣].

من دراستنا للنصوص التي تشير إلى اختصاصات أو مهام صاحب الشرطة، نلاحظ بعض الفروق بين هذه المهام في الولايات وبين المركز، إذ نجد أن صاحب الشرطة كان يعتبر الرجل الإداري الثاني بعد الوالي، فهو يؤم الناس في الصلاة إذا مرض الوالي[١٦٤]، وينوب عن الوالي في حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة[١٦٥]، أو يولّى أحياناً إذا ما عزل الوالي أو مات أو تنحى عن أمور الولاية[١٦٦]، بينما نرى أن صاحب الشرطة يرافق الخليفة دائماً في حله وترحاله في حالة السلم والحرب ويمسك بزمام الأمور في حالة وفاة الخليفة، فعندما حضر الموت معاوية سنة ٦٠ هـ، وكان يزيد غائباً، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته[١٦٧] ومسلمة بن عقبة المرّي فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد وصيته[١٦٨]، وعندما مات معاوية كان الضحاك بن قيس

(١٦١) خليفة بن خياط، ج ١، ص ١٩٥، الكلبي، جمهرة النسب، ص ٢٩ ــ آ.

(١٦٢) المقريزي، الخطط، ج ٣، ص ٦٦.

(١٦٣) المقري، نفح الطيب، ج ١ ص ٢١٨.

(١٦٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٠٥، الكندي، الولاة والقضاة، ص ٣١، ٣٢.

(١٦٥) الكندي ص ٣٩.

(١٦٦) المصدر السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(١٦٧) تشير بعض الروايات إلى أن الضحاك عند وفاة معاوية كان على شرطه (الدينوري ص ٢٢٦، الطبري، رواية عوانه، ج ٥ ص ٣٢٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٨) أما الذهبي فيذكر أن معاوية ولّى الضحاك على دمشق بعد أن عزله عن الكوفة فبقي الضحاك على دمشق حتى هلك.

(١٦٨) الطبري، ج ٥، ص ٣٢٣.

هو الذي صعد المنبر وأكفان معاوية بين يديه تلوح ، ليبلغ الناس خبر موت معاوية الذي كان عود العرب ، وجدّ العرب ، وأنه من كان يريد (أن يشهد دفنه فليحضر عند الأولى) ، وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية[١٦٩] . وكان كعب بن حامد على شرط سليمان مرافقاً له في دابق ، فلما ثقل سليمان كتب كتاباً وختمه ولم يدر أحد ما كتب فيه وطلب من كعب أن يجمع إليه أخوته وعمومته وجميع أهل بيته وعظماء أجناد الشام ، وأن يحملهم على البيعة لمن سمّى في ذلك الكتاب وأن يضرب عنق من يأبى منهم أن يبايع[١٧٠] ، والرواية التي يوردها الطبري شبيهة بتلك الواردة عند الدينوري ، فقد أمر سليمان صاحب شرطته كعب بن حامد أن يأمر أهل بيته للاجتماع ففعل ، ثم طلب سليمان من رجاء بن حيوة أن يذهب بكتابه إليهم وأن يأمرهم بمبايعة من سمّى في كتابه ، فلما توفي سليمان ، وخشي حيوة الفتنة أرسل إلى كعب بن حامد العبسي ، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق وطلب منهم أن يبايعوا ثانية لمن سمي في ذلك الكتاب المختوم ، فلما بايعوا رجلاً رجلاً ، قرأ حيوة الكتاب عليهم ، فنادى هشام بن عبد الملك ، لا نبايعه أبداً ، فقال حيوة : «أضرب والله عنقك قم فبايع» فقام يجر رجليه ، ولم يكن حيوة ليجرأ على مثل هذا الموقف لولا وجود صاحب الشرطة إلى جانبه والذي يسيطر على عدد كبير من الشرط ، بحيث يستطيع أن يمنع حدوث فتنة أو اضطراب[١٧١] .

وكان صاحب الشرطة يرافق الخليفة في الحرب والسلم ، فقد رافق الحجاج عبد الملك ، وكان على شرطه آنذاك إلى العراق لقتال مصعب[١٧٢] ، وكان مع مروان بن محمد في معركة الزاب صاحب شرطه كذلك ، وعندما تقاعست قضاعة والسكون والسكاسك ، طلب من صاحب شرطه أن ينزل[١٧٣] . وعندما كان هشام بن عبد

---

(١٦٩) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٢٨ .
(١٧٠) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٦ .
(١٧١) الطبري ، ج ٦ ص ٥٥٢ .
(١٧٢) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٢ .
(١٧٣) الطبري ، ج ٧ ص ٤٣٤ .

الملك في الرصافة، كان كعب بن حامد صاحب شرطه معه، وكان والي دمشق إذ ذاك كلثوم بن عياض القشيري، وكان الولاة في الشام كما قال ابن العديم بمنزلة الشرط[174]، ولذلك نجد أن كلثوم بن عياض هو الذي كتب إلى هشام يذكر له أمر الحريق الذي ظهر في دور دمشق، ويتهم بهذا العمل موالي خالد بن عبد الله القسري وبأنهم يريدون الوثوب على بيت المال، فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم والنساء، ففعل ثم كتب الوليد بن عبد الرحمن عامل خراج دمشق إلى هشام يخبره بأخذ أبي العمرس ومن كان معه سمّاهم رجلاً رجلاً ونسبهم إلى قبائلهم وأمصارهم، ولم يذكر فيهم أحداً من موالي خالد، فكتب هشام إلى كلثوم يشتمه ويعنفه، ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس منهم[175]، وعندما علم مروان بن محمد، أن ابراهيم بن محمد يكاتب أهل خراسان ويكاتبونه كتب مروان إلى عامله على دمشق أن يكتب إلى عامله على البلقاء في المسير إلى كداد أو الحميمة وأخذ ابراهيم بن محمد بن علي وشده وثاقاً وحمله إليه في خيل كثيفة[176]، أي أن والي دمشق وعامله على البلقاء قاما بالمهمة التي كان يقوم بها صاحب الشرطة في العراق، إذ عندما كان الأمر يتعلق بدعوة شخص أو احضاره أمام الأمير، كان رجال الشرطة يتولّون ذلك، فقد أرسل المغيرة بن شعبه قبيصة بن الدمّون وكان على شرطته إلى منزل حيّان بن ظبيان السلّمي، عندما أخبره قبيصة أن الخوارج يجتمعون في منزل حيّان، فسار قبيصة في الشرطة وفي كثير من الناس وألقى القبض على حيّان ومن كان معه[177]، وعندما تخلّف حجر بن عدي عن تلبية دعوة زياد بن أبيه إليه أمر زياد الشرط باحضاره بالقوة وكان هيثم بن شداد أمير شرطته[178].

ونظراً لأن صاحب الشرطة كان مرافقاً للخليفة دائماً، فانه كان يوكل إليه أمر

---

(١٧٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١ ص ٤١.

(١٧٥) الطبري، ج ٧ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(١٧٦) البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ١٢١، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٤٣.

(١٧٧) الطبري، ج ٥ ص ١٨٢.

(١٧٨) الطبري، ج ٥ ص ٢٥٨.

تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخليفة، فهذا عمر بن عبد العزيز يأمر صاحب الشرط أن يطبق العقوبة على كهول من قنسرين شهدوا زورا على الفرات بن مسلم صاحب خراج قنسرين[١٧٩]، وعندما توعد روح بن الوليد رجلاً حمصياً كان عمر بن عبد العزيز قد قضى بارجاع حوانيته إليه وكان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها لروح، طلب عمر بن عبد العزيز من صاحب شرطته أن يتوجه إلى روح، فان سلّم إليه حوانيته فله ذلك، وإن لم يفعل فليأته برأسه[١٨٠].

وكان يوكل إلى صاحب الشرطة أحياناً مهام أخرى، كأمر الخاتم والخزائن وبيوت الأموال[١٨١]، كما يذكر ابن عساكر أن خالد بن اللجلاج، أبو ابراهيم العامري، ولي الشرطة بدمشق، وكان على بناء مسجد دمشق[١٨٢]، أي ربما كان مراقباً لحسن سير بناء المسجد نظراً للعدد الكبير من الفعلة الذين ساهموا في بنائه، وكان يساعد صاحب الشرطة في أداء عمله شرطة وحرس[١٨٣]، وعسس[١٨٤]، وأعوان للشرط[١٨٥].

هذه الروايات المتفرقة تعطينا فكرة عن الدور الذي لعبه أصحاب الشرط في الأزمات بالإضافة إلى دورهم في توطيد الأمن والنظام وتنفيذ العقوبات واشتراكهم في الحروب إلى جانب الخلفاء، ولذلك قيل ان الشرط أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت، وقيل هي طائفة من خيار أعوان الولاة[١٨٦].

ويتبين مما ذكره الرواة عن الأشخاص الذين كلفوا بهذا المنصب في الشام، أنهم كانوا من الشخصيات المرموقة، فزمل بن عمرو بن نمير الذي استعمله معاوية على

---

(١٧٩) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٠.

(١٨٠) المصدر السابق، ص ٥١.

(١٨١) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٥٥.

(١٨٢) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥ ص ٨٨.

(١٨٣) وكيع، أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، الطبعة الأولى، ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧م، ج ١، ص ١١٩.

(١٨٤) تهذيب، ج ٤ ص ٧٧.

(١٨٥) البلخي، كتاب البدء والتاريخ، باريز، ١٩١٩م، ج ٦، ص ٥١.

(١٨٦) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١ ص ٤١.

شرطته[١٨٧] كانت له وفادة على رسول الله (صلعم) وعقد له رسول الله لواء على قومه[١٨٨]. أما الضحاك بن قيس فعداده في صغار الصحابة، حدّث عنه معاوية ووصفه بالعدالة، وسعيد بن جبير والشعبي وغيرهم وكان ممن شهد فتح دمشق[١٨٩]، وكان خالد بن معدان بن أبي كرب الذي تولى شرطة يزيد بن معاوية تابعياً ثقة روى عن أبي عبيدة، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي الدراء، وكانت إذا عظمت حلقته، قام كراهية الشهرة، وكان إذا أمر الناس بالغزو يجعل اول فسطاط يضرب، وقال حبيب بن صالح ما خفنا احدا من الناس مخافة خالد[١٩٠]. وكان خالد بن اللجلاج أبو ابراهيم العامري صاحب الشرط في خلافة الوليد ذا سن وصلاح، جرىء اللسان على الملوك والغلظة عليهم[١٩١]، ثم ان كعب بن حامد العبسي بقي صاحباً للشرطة في خلافة سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام، وأقرّه هشام ثلاث عشرة سنة ثم ولاه أرمينيا، وان شخصاً يحتل هذا المنصب فترة طويلة كهذه ثم يعهد إليه بولاية أرمينيا، لا بد أن يتحلى بصفات تؤهله لذلك[١٩٢].

وما دمنا في صدد الحديث عن الشرطة، فلا بد من أن نتبعه بالحديث عن الحرس، ويتفق اليعقوبي وخليفة بن خياط بأن معاوية أول من اتخذ صاحب حرس[١٩٣]، وإذا كان معاوية أول من اتخذ صاحب حرس، فقد كان زياد بن أبيه كذلك أول من أنشأ لنفسه حرساً خاصاً عدد أفراده خمسمائة رجل[١٩٤]. وكانت مهمة الحرس، حراسة الخليفة بشكل خاص[١٩٥]، أو الأمير في مصره[١٩٦]، كما كان

(١٨٧) تهذيب، ج ٥، ص ٣٨٦.
(١٨٨) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨٦.
(١٨٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٢٤١.
(١٩٠) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٣٦، ٥٣٧، تهذيب، ج ٥، ص ٨٩.
(١٩١) تهذيب، ج ٥ ص ٨٨.
(١٩٢) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٤٣١، ج ٢ ص ٤٨٧، ٥٤٤.
(١٩٣) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧٦، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٢١.
(١٩٤) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ١ ص ١٦٢، الطبري، ج٥ ص ٢٢٤.
(١٩٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٩، ٣٠، تهذيب، ج ٢ ص ٣٧.
(١٩٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٣٨.

يعهد إليه بحراسة المسجد[١٩٧]، ولكننا نجد الكندي يذكر أنه كان للمسجد في القسطاط شرطة يذبون عنه[١٩٨]. وهنا قد نتساءل إذا كان هناك من تداخل في استخدام هذين التعبيرين إذ نجد وكيعا في صدد الحديث عن مروان بن الحكم وتوليته مصعب بن عبد الرحمن شرطته في المدينة، أن مصعب يقول لمروان: اني لا أضبط المدينة بحرس المدينة، فابغني رجالاً من غيرها، فأعانه بمائتي رجل من أهل ايله فضبطها ضبطاً شديداً[١٩٩]، ومن تتبعنا لما يرد في مصادر أخرى، نرى أن الحرس لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق للكلمة، ويتضح ذلك من أن المؤهلات أو الصفات المطلوبة من صاحب الحرس كانت غير تلك المطلوبة من صاحب الشرط. إذ كان يفضل أن يكون صاحب الحرس مسنا عفيفا مأمونا[٢٠٠]، أما صاحب الشرطة فكان يفضل أن يكون شديد الصولة قليل الغفلة، سمين الأمانة، أعجف الخيانة[٢٠١]. وكان للحرس في الشام نوب، وعلى كل نوبة عامل[٢٠٢]، ويبدو أن الحرس في الشام كان معظمه يتألف من الموالي[٢٠٣]، ولذلك نلاحظ أن صاحب الحرس في الشام كان دائماً من الموالي منذ عهد معاوية وحتى نهاية الدولة الأموية، فكان على حرس معاوية، أبو المختار مولى لحمير[٢٠٤]، وعلى حرس عبد الملك، عدي بن عياش مولى لحمير كذلك، ثم أبي الزعيزعة مولى عبد الملك، ثم خالد بن الريان مولى بني محارب[٢٠٥] الذي ولي الحرس لعبد الملك والوليد وسليمان[٢٠٦]، وفي خلافة عمر بن عبد العزيز كان عمر بن

---

(١٩٧) الطبري، ج ٧ ص ٢٤٠، العيون والحدائق، ص ١٣٦.

(١٩٨) الكندي، ص ٦٢.

(١٩٩) وكيع، أخبار القضاة، ص ١١٩.

(٢٠٠) اليعقوبي، تاريخ، جح ٢ ص ٢٣٤.

(٢٠١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١ ص ١٦، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥ ص ١٩، الكلبي، جمهرة النسب، ص ٨٤ ب.

(٢٠٢) الطبري، ج ٧ ص ٥٧٥.

(٢٠٣) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٧٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٢٤.

(٢٠٤) خليفة، ج ١ ص ٢٧٦.

(٢٠٥) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٩٥.

(٢٠٦) المصدر السابق، ج ١ ص ٤١٩، ٤٣٢، تهذيب، ج ٢ ص ٣٧.

المهاجر مولى الأنصار على الحرس[٢٠٧] ، وعين هشام نصير مولاه على الحرس ، ثم ولّى الربيع بن شابور مولى بني الحريش مع الخاتم[٢٠٨] .

ولم يكن للخليفة وحده حرس ، وإنما كان لوالي دمشق ولولاة الأجناد أحراسهم كذلك[٢٠٩] ، ويذكر ابن قتيبة أن عمرو بن سعيد صالح عبد الملك بعد أن حاصر أهل دمشق أشهراً على أنه الخليفة من بعده ، ففتح دمشق ثم أرسل عبد الملك إلى عمرو ، وكان بيت المال في يده ، أن يخرج للحرس أرزاقهم ، فقال عمرو : ان كان لك حرس فان لنا حرساً ، فقال عبد الملك أخرج لحرسك أرزاقهم[٢١٠] ، بمعنى أن حرس الخليفة وحرس أمراء الأجناد كانوا يأخذون أرزاقهم من بيت مال المسلمين ، أما إذا كان لبعض الشخصيات حراسهم فانهم يدفعون أرزاقهم من أموالهم .

٦ ــ صاحب البريد

من الوظائف الرئيسية الهامة وظيفة صاحب البريد ، ولم تكن هذه الوظيفة قائمة في عهد الخلفاء الراشدين بالرغم من أن نظام البريد كان معروفاً في الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية[٢١١] ، فلما استقرت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان قرر وضع البريد ليكون أداة ربط بينه وبين عماله في الولايات المختلفة ، فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم ، وعرّفهم ما يريد ، فوضعوا له البريد[٢١٢] . ولم يكن البريد في عهد بني أمية نظاماً يستعمله الشعب كما هو في الوقت الحاضر ، وإنما كان نظاماً رسمياً حكومياً ، وقد استعمل الخلفاء نظام البريد في أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ، ولتلقي الأخبار ، ولكن ليس معنى هذا أن البريد كان

---

(٢٠٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢٠٨) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٤٥ .

(٢٠٩) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٦٩ .

(٢١٠) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢١ .

(٢١١) E. I. New Edition, Art., Barid.

(٢١٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣١٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ .

ينقل المراسلات فقط بين العمال والولاة من جهة والخلفاء من جهة أخرى وإنما كان باستطاعة أي فرد من أفراد الشعب أن يرسل إلى الخليفة ما يريده عن طريق بريده، وكان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريداً، أمر مناديه فنادى: «من له حاجة فليكتب إلى أمير المؤمنين(٢١٣)». وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتاباً إلا حمله(٢١٤). وكان للبريد شخص خاص يتولى أمره، بتنفيذ مايصدر، وتلقي مايرد يعبر عنه بصاحب البريد(٢١٥)، وكان عبد الملك يأمر حاجبه أن يدخل عليه صاحب البريد متى جاء في ليل أو نهار «فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة(٢١٦)». ولم يكن من مهام صاحب البريد عرض الرسائل والتقارير المتراكمة لديه فقط، وإنما كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة، والأشخاص المناسبين في المحطات على الطريق وتعيين السعاة(٢١٧)، والاهتمام بدفع المرتبات والأرزاق لهم، وبتدبير أمر الدواب وبراذعها، ومن يتولى عنايتها(٢١٨)، ويقول قدامة بن جعفر في صدد كلامه عن ديوان البريد: «والذي يحتاج إليه صاحب هذا الديوان أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل مايحتاج معه إلى الكافي -المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ(٢١٩)»، ولقد لاحظنا عند الكلام عن الكتاب أن صاحب ديوان الرسائل كان إليه أمر البريد أي هو المسؤول عن قراءة هذه الكتب والاجابة عليها وليست هذه من مهام صاحب البريد.

٧ ـــ القاضي

أدخل العرب إلى الشام كما أدخلوا إلى كل الولايات التي دخلت ضمن نطاق

---

(٢١٣) الطبري، ج ٥، ص ٣٣٥.

(٢١٤) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٥٦.

(٢١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٧١.

(٢١٦) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٦٧.

(٢١٧) Levy, The Social Structure of Islam, Second edition. p 301.

(٢١٨) الكندي، ص ٣٨٤.

(٢١٩) قدامه بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة، ليدن، بريل ١٣٠٦ هـ، ص ١٨٤، ١٨٥.

الدولة الإسلامية، نظاماً قضائياً جديداً يقوم على أساس الشريعة الإسلامية، ويخصّ العرب المسلمين أو الذين أسلموا من أهل البلاد؛ أما أهل الذمة فكان لهم قضاؤهم إلاّ إذا احتكموا إلى القاضي المسلم، فله أن يحكم بينهم بالعدل، قال تعالى: «فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين[٢٢٠]». ويذكر الكندي أن القاضي خير ابن نعيم الحضرمي (١٢٠ ــ ١٢٨ هـ) كان يقضي بين المسلمين في المسجد، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضي بين النصارى، وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم[٢٢١]. ويرى الماوردي أنه لا يجوز تقليد ذمي القضاء على أهل الذمة، ولكنه يورد قول أبي حنيفة أنه يجوز تقليده بين أهل دينه، هذا وان كان عرف الولاة بتقليده جارياً فهو تقليد زعامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاء، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، لا للزومه لهم، ولا يقبل الأمام قوله فيما حكم به بينهم، وإذا امتنعوا من تحاكمهم إليه، لم يجبروا عليه وكان حكم الإسلام عليهم أنفذ[٢٢٢].

كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة[٢٢٣]، إذ أن الرسول الكريم تجمعت في شخصه السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وأصبح قاضي المسلمين الأعلى، بعد أن نزل قول الله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم[٢٢٤]». كما أصبح حكمه ملزماً للناس كافة سواء أكان بوحي من الله أو باجتهاد اجتهده، فأصبح بعد ذلك سنة ملزمة أيضاً[٢٢٥].

وثبت أن رسول الله (صلعم) استعمل قضاة على الأقاليم التي اعتنقت الإسلام

---

(٢٢٠) سورة المائدة، آية (٤٥).

(٢٢١) الكندي، ص ٣٥١.

(٢٢٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٦٦.

(٢٢٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٧٣٦، ٧٣٧.

(٢٢٤) سورة النساء، آية (٦٤).

(٢٢٥) سورة النساء، آية (٦٤)، «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلّموا تسليما».

وكانت بعيدة عن المدينة، وتكاد كتب السيرة والحديث تجمع على أن القضاة الذين عهد إليهم الرسول بالقضاء ثلاثة، هم علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري(٢٢٦)؛ والذي يسترعي الانتباه هو أن هؤلاء الثلاثة ذهبوا إلى اليمن، ولم تذكر معظم المصادر أسماء قضاة آخرين، إلا أن الماوردي في كتابه «أدب القاضي» يذكر أن الرسول استخلف عتاب بن أسيد على مكة بعد الفتح والياً وقاضياً(٢٢٧)، وأنه قلّد دحية الكلبي قضاء ناحية اليمن(٢٢٨). وحتى لا تحرم قبائل وأقوام ومناطق من قاض يفصل بين الناس وفقاً لأحكام الشريعة بعد اعتناقهم الإسلام فقد كان الرسول (صلعم) إذا أسلم قوم، أقام عليهم من يعلمهم الشرائع ويقضي بين المتنازعين(٢٢٩).

ان ثبوت تولي ثلاثة من الصحابة القضاء في أيام الرسول، يدل على أن التنظيم القضائي في الدولة النبوية بدأ مع الشعور بالحاجة إليه خلافاً لما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن أبا بكر كان أول من استعمل القضاة في الإسلام(٢٣٠)، بل ان هناك من ذهب إلى أن معاوية هو أول الخلفاء الذين اتخذوا القضاة(٢٣١)، وهو قول منسوب إلى مالك بن أنس: والظاهر أنه يراد من ذلك أن معاوية كان أول من اتخذ قاضياً في قاعدة الخلافة، لأن تتمة عبارة مالك بن أنس، «أن الخلفاء قبل ذلك كانوا يباشرون كل شيء من أمور الناس بأنفسهم»، وسبقها قول وكيع «ولا يعلم أن عثمان استعمل قاضياً بالمدينة»، مع أن هذا الرأي ينقضه ماثبت أن عمر كان قاضياً لأبي بكر(٢٣٢)، وما رواه الطبري من أن زيد بن ثابت كان على قضاء عثمان(٢٣٣).

---

(٢٢٦) وكيع، أخبار القضاة، ج ١ ص ٨٤ــ١٠٢، أحمد بن حنبل، المسند، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩ م الجزء الثاني، الفقرات ٦٦٦، ٦٩١، ٧٤٥، ٨٨٢، ١١٤٥، ١٢١٠، ج ٣، الفقرة ٢٠٧١، الذهبي، سيرة أعلام النبلاء، ج ١ ص ٤٤٨.

(٢٢٧) الماوردي، أدب القاضي، بغداد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ١٣١.

(٢٢٨) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٢٢٩) الماوردي، أدب القاضي، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧١، ج ١ ص ١٣٣.

(٢٣٠) خليفة ج ١ ص ١٠٨، الطبري، ج ٣ ص ٤٢٦.

(٢٣١) وكيع، ج ١ ص ١٠٥.

(٢٣٢) خليفة، ج ١ ص ١٠٨، الطبري ج ٣ ص ٤٢٦، الماوردي، أدب القاضي، ص ١٣٣ ــ ١٣٥.

(٢٣٣) الطبري، ج ٤ ص ٤٢٢، الماوردي، أدب القاضي، ص ١٣٥.

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً، منذ أيام الخليفة عمر ابن الخطاب، نجده يعين القضاة في الأمصار والأجناد إلى جانب الولاة، فقد عمد عمر إلى تعيين القضاة في البصرة والكوفة(٢٣٤)، كما أنه جعل قضاء دمشق وصلاتها لأبي الدرداء وقضاء حمص وقنسرين وصلاتهما لعبادة بن الصامت(٢٣٥)، وفي رواية أخرى أن عمر ولّى قضاء حمص لحابس بن سعد بن المنذر(٢٣٦)، وعبادة قضاء فلسطين(٢٣٧)، وكريب ابن سيف الأنصاري على قضاء الأردن(٢٣٨)، ولا تهمنا الأسماء هنا قدر اهتمامنا بأن عمر قد عمد إلى تعيين قضاة في أجناد الشام الأربعة، وسار عثمان على نهج عمر في تعيين القضاة في الأمصار في مصر، والكوفة، والبصرة، أما في الشام فنجد أن معاوية يستشير أبا الدرداء فيمن يرشح لهذا المنصب فيشير عليه بفضالة بن عبيد(٢٣٩).

عندما أصبح معاوية خليفة، نراه يترك أمر تعيين القضاة في الأمصار لامرائها أحياناً، ويعمد أحياناً أخرى إلى تعيين القضاة فيها(٢٤٠)، وتابع خلفاء بني أمية نهجه(٢٤١)، وان كنا نجد ابتداء من خلافة سليمان عودة إلى جعل تعيين القضاة أمراً عائداً إلى الخليفة(٢٤٢)، وهذا مما يزيد في سلطة القاضي ويجعله أكثر استقلالاً إذ لا يستطيع أمير المصر التأثير عليه في أحكامه، ولا يستطيع عزله، إذا كان تعيينه صادراً عن الخليفة إلاّ بأمر منه(٢٤٣).

من الطبيعي أن يعمد الخلفاء إلى تعيين قضاة في العاصمة، ولكن من المؤسف

---

(٢٣٤) خليفة، ج ١ ص ١٥٦.
(٢٣٥) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦.
(٢٣٦) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٧٣.
(٢٣٧) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٢٤، تهذيب، ج ٧ ص ٢٠٩.
(٢٣٨) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٢٤.
(٢٣٩) ابن طولون، الثغر البسام فيمن ولي قضاء الشام، ص ٢.
(٢٤٠) الكندي ص ٣٠٣، ٣١١.
(٢٤١) خليفة، ج ١ ص ٣٨٩، ٤٢٠، الكندي، ص ٣١٥، البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٢٠٥، وكيع، ج ١، ص ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٣٤.
(٢٤٢) خليفة، ج ١ ص ٣٨٩، الكندي، ٣٠٩، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٠.
(٢٤٣) الكندي، ص ٣٤٠، ٣٤١.

أن المصادر لا تشير إلى القضاة في مراكز الأجناد المختلفة، وان كانت هناك اشارات تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن الأمويين تابعوا النهج الذي طبقه عمر بن الخطاب، عندما عين قضاة في دمشق وحمص وفلسطين والأردن، إذ لا يعقل أن يعمد المتخاصمون إلى اللجوء إلى العاصمة لحل قضاياهم ومشكلاتهم، وقد جاء في تاريخ ابن عساكر أن عبادة بن نسي الكندي الأردني كان قاضي طبرية ولاّه عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الأردن(٢٤٤)، بينما يذكر الذهبي أنه ولي قضاء الأردن لعبد الملك، ثم ولي نائباً لعمر بن عبد العزيز(٢٤٥)، وما يذكره الذهبي يتفق مع ما ورد في تاريخ خليفة بن خياط، أن والي الأردن في خلافة عمر بن عبد العزيز كان عبادة بن نسي(٢٤٦)، ثم إذا رأينا ابن طولون يذكر أن عبد الرحمن بن الحسحاس العذري من بني عامر بن عذره ولي قضاء دمشق(٢٤٧)، زمن عمر بن عبد العزيز ونرى خليفة يذكره والياً على دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز(٢٤٨)، جاز لنا أن نتساءل إذا كان عمر بن عبد العزيز قد أسند الولاية والقضاء لعبادة بن نسي وعبد الرحمن بن الحسحاس، لاسيما أننا نجد ذكرا لبلال ابن أبي الدرداء كقاض على دمشق في خلافة عبد الملك، وأنه كان كذلك أميراً على دمشق أي أنه جمع بين الولاية والقضاء(٢٤٩)، ونفهم من كتاب وجهه عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن القضاء كان يوكل إليهم بالإضافة إلى مهامهم الأخرى(٢٥٠).

احترم معاوية وخلفاء بني أمية منصب القضاء وأهله وحفوه بكثير من الاجلال والاكبار، فقد كان معاوية يهاب أبا الدرداء ويتأدب معه(٢٥١). كما ولّى قاضيه فضالة ابن عبيد الغزو، فكان أمير الجيش، وكان الولاة يتقيدون بأوامره(٢٥٢)، وعندما خرج

---

(٢٤٤) تهذيب، ج٧ ص ٢١٧.
(٢٤٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٢٤.
(٢٤٦) خليفة، ج ٢ ص ٤٦٥.
(٢٤٧) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٧.
(٢٤٨) خليفة، ج ٢ ص ٤٦٥.
(٢٤٩) ابن طولون، ص ٤.
(٢٥٠) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٨، ٦٩.
(٢٥١) ابن طولون، ص ٢.
(٢٥٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص ١١٥.

معاوية إلى صفين استخلف فضالة بن عبيد(٢٥٣)، وعن سعيد بن عبد العزيز أن القاضي كان خليفة الأمير إذا غاب(٢٥٤). وكانت منزلة أبي إدريس الخولاني عظيمة عند عبد الملك(٢٥٥)، فكان إذا نظر في المظالم ردّ إلى قاضيه أبي إدريس ما يقف منها على مشكل أو يحتاج إلى حكم منفذ، فكان أبو ادريس هو المباشر، وعبد الملك هو الآمر، أي أن أبا ادريس يعطي حكمه وعبد الملك يأمر بتنفيذ الحكم(٢٥٦)، كما جعل عبد الملك لأبي ادريس القصص والوعظ(٢٥٧)، وبقي قاضياً لعبد الملك حتى وفاته سنة ٨٠ هـ(٢٥٨)، فولي القضاء عبد الله بن عامر بن تميم الذي بقي في منصبه حتى خلافة الوليد، فكان على بناء مسجد دمشق(٢٥٩)، وكان رئيس أهل المسجد زمن الوليد ابن عبد الملك وبعده، لا يرى فيه بدعة إلاّ غيّرها(٢٦٠). ونلاحظ في خلافة يزيد بن عبد الملك وجود قاضيين في دمشق سليمان بن حبيب والزهري، هذا على حياله وهذا على حياله(٢٦١). ومما يثير الانتباه وجود ما يسمى قاضي الخلفاء، فقد ورد في تاريخ داريا أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء، كان قاضياً لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وليزيد وقضى لهشام أيضاً(٢٦٢)، بالرغم من أننا نقرأ عن قضاة آخرين في دمشق في عهد هؤلاء الخلفاء، وكذلك يرد في تاريخ دمشق لابن عساكر عن كلثوم بن زياد المحاربي، أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء وأنه أقام بالشام ثلاثين سنة يقضي باليمين مع الشاهد(٢٦٣). وهذا ما يدفعنا للتساؤل فيما إذا كان هذا

---

(٢٥٣) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٢٣.

(٢٥٤) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٣، الذهبي، ج ٣ ص ١١٤، ١١٥.

(٢٥٥) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، ص ٥٦.

(٢٥٦) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٧٨.

(٢٥٧) الخولاني، تاريخ داريا، ص ٥٦، ١١٢.

(٢٥٨) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٤.

(٢٥٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٢٦٠) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٩٢.

(٢٦١) الخولاني، تاريخ داريا ص ٦٨، الذهبي، ج ٥ ص ٣٣١.

(٢٦٢) الخولاني، ص ٦٨.

(٢٦٣) تهذيب، ج ٦ ص ٢٤٩، ابن حنبل، المسند ج ٤، فقرة ٢٩٦٩ ــ ٢٩٧٠. كان القضاء باليمين مع الشاهد متبعا في حل قضايا الشراء والبيع وأشباهه، وهذا يدل على أن معظم القضايا الموكلة إلى القضاة كانت بالدرجة الأولى متعلقة بالمعاملات والأموال.

اللقب يعني رتبة رسمية أم كان هذا الخلع من الناس كدليل على علو كعبه في العلم والقضاء.

يتبين لنا من دراستنا لسير قضاة دمشق أنهم كلهم بلا استثناء كانوا من الفقهاء المحدثين ومن القرّاء والعبادة والزهاد. وكان الأوائل من الصحابة والبقية من التابعين، وكان القضاة يعلمون الناس قراءة القرآن بالإضافة إلى عملهم كقضاة، فكان أبو الدرداء مقرىء أهل دمشق وعالمهم(٢٦٤)، ورأى يزيد بن عبيده أبا إدريس زمن عبد الملك يتوسط حلق المسجد بدمشق، يقرؤون القرآن يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرّت حلقة بآية سجدة، بعثوا إليه يقرأ بها، وانصتوا له، ويسجد بهم جميعاً، وربما سجد بهم اثنتي عشرة سجدة، حتى إذا فرغوا قراءتهم قام يقص(٢٦٥). واتخذ أهل الشام عبد الله بن عامر قاضي دمشق بعد أبي إدريس إماماً في قراءته(٢٦٦)، وكان محمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي قاضي دمشق في خلافة مروان بن محمد ممن يحضر الناس دراسته في جامع دمشق(٢٦٧).

وبينما نرى أن القضاة في الشام كان يعهد إليهم بامرة دمشق أو بالغزو، وان جهدهم الأكبر كان موزعا بين القضاء وتفقيه الناس وتدريسهم، نجد أن عدداً من القضاة في الولايات كان يجمع لهم القضاء والشرطة(٢٦٨)، فكان أول قاض في مصر جمع له القضاء والشرطة عابس بن سعيد المرادي من قبل الأمير مسلمة بن مخلد(٢٦٩)، وجمع عبد العزيز بن مروان ليونس بن عطية القضاء والشرطة سنة ٨٤ هـ(٢٧٠). كذلك كان أول قاض قضى على المدينة في خلافة معاوية لمروان بن الحكم، عبد الله بن نوفل، وقد ضم منصب الشرطة مع القضاء، كما ضم مروان لمصعب بن عوف هذين المنصبين معا

(٢٦٤) ابن طولون، الثغر البسّام، ص ٢.
(٢٦٥) الذهبي، ج ٤، ص ٢٧٢.
(٢٦٦) ابن طولون، ص ٥.
(٢٦٧) المصدر السابق، ص ١١.
(٢٦٨) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٣٦، ٢٣٨.
(٢٦٩) المصدر السابق، ص ٢١٤، الكندي، ص ٣١١، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٨.
(٢٧٠) الكندي، ص ٣٢١.

سنة ٥٣ هـ[٢٧١]. وجمع خالد بن عبد الله القسري، الصلاة والقضاء والشرطة والأحداث، لبلال بن أبي بردة[٢٧٢]، أي أننا نجد حالات متعددة في الولايات عن جمع منصبي القضاء والشرطة لشخص واحد، بينما لا نجد مثالاً واحداً على ذلك في الشام، مما يشير إلى أن المهام التي كان يكلف بها القاضي في المركز كانت تختلف قليلاً عن تلك التي تعهد إلى القضاة في الولايات، وقد رأينا كذلك أن مهام صاحب الشرطة في دمشق اختلفت عن تلك الموكلة إليه في الأمصار الأخرى.

كان القاضي في الإسلام يتولى جميع الاختصاصات التي تعرض عليه، ويطلب منه فصل الخصومة فيها سواء أكان الخلاف كما نقول بلغة اليوم مدنياً أم جزائياً أم إدارياً أم متعلقاً بالأحوال الشخصية أم خلافا بين الجند أو غير ذلك، مما يمكن أن يعرض على القضاة[٢٧٣]، أي ليس في الإسلام ذلك التمييز بين ما هو مدني وما هو ديني، كما هو الأمر في الدولة البيزنطية حيث وجدت محاكم دينية وأخرى مدينة، وحيث لعب الأساقفة دوراً كبيراً في القضاء[٢٧٤].

نلاحظ أن القضاء في المسائل الجزائية كان من اختصاص الخلفاء والولاة في صدر الإسلام، وان كانت لا توجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصات القضائية لكل من الولاة والقضاة، فنجد مثلا أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أمر بالنظر في الجراح إذ كتب إلى قاضيه سليم بن عتر في مصر يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، فكان الرجل إذا أصيب فجرح أتى القاضي وأحضر بينة على الذي جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجرح قصته على عاقله الجارح، ويرفعها إلى صاحب الديوان، فإذا حضر العطاء، اقتص من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجم ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على

---

(٢٧١) وكيع، ج ١ ص ١١٤، ١١٨.

(٢٧٢) خليفة، ج ٢، ص ٥٣٥، الطبري، ج ٨، ص ٢٠٣.

(٢٧٣) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والإسلام، السلطة القضائية، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، بيروت، ص ٢٥٥.

(٢٧٤) Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization p.291.

ذلك[٢٧٥]، كذلك نقرأ في كتب التراث أن فلاناً تولى قضاء الأحداث، فقد جاء في أخبار وكيع أن عثمان عندما استخلف، أقرّ أبا موسى الأشعري على قضاء البصرة وأحداثها[٢٧٦]، وجاء في الطبري حين التحدث عن عمال عمر بن الخطاب أن عامل الكوفة عمار بن ياسر كان إليه الأحداث[٢٧٧]، وجمع خالد بن عبد الله القصري لبلال ابن أبي بردة القضاء والشرطة والأحداث[٢٧٨]، ويستنتج الأستاذ ظافر القاسمي بالاستناد إلى نص يورده وكيع متعلق بشريك قاضي المهدي مع المثال الذي يقدمه لسان العرب في حديث بني قريظة أن المراد من كلمة الأحداث، الجرائم الكبرى[٢٧٩]، فإذا كان النظر في المسائل الجزائية قد أوكل أمرها إلى القضاة في الأمصار أحياناً، فهل كان قاضي دمشق ينظر في هذه الأمور أم أنها تركت للخلفاء؟ أغلب الظن أن النظر في القضايا الجزائية بقي من اختصاص الخلفاء في الشام، فعندما قتل خالد بن المهاجر ومولاه نافع ابن أثال النصراني، أمر معاوية بضرب نافع مائة سوط وألزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم[٢٨٠]، وعندما طلب أسماء بن خارجة الفزاري إلى عبد الملك بعد أن فرغ من قتال مصعب أن يقيدهم من حميد بن حريث ابن بحدل الكلبي الذي كان قد أوقع ببني فزارة، أبى معتلا أنهم كانوا في فتنة، والفتنة كالجاهلية لاقود فيها وفرض لفزارة الديات من أعطيات قضاعة وحمير بالشام[٢٨١].

ليس بين أيدينا سجلات تساعدنا على معرفة نوع القضايا التي كان يتولى النظر فيها قضاة الشام، وان كان المرء يميل إلى الاعتقاد أن القاضي في الشام كالقاضي في الولايات الأخرى قد أضيفت إليه مهام أخرى بالإضافة إلى الفصل بين الخصوم، كاستيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، بالنظر في أمر المحجور عليهم من المجانين

(٢٧٥) الكندي، ص ٣٠٩.
(٢٧٦) وكيع، ج ١، ص ٢٨٣.
(٢٧٧) الطبري، ج ٤ ص ١٤٥.
(٢٧٨) الطبري، ج ٨ ص ٢٠٣، خليفة، ج ٢، ص ٥٣٥.
(٢٧٩) ظافر القاسمي، السلطة القضائية، ص ٢٥٧.
(٢٨٠) ابن أصيبعة، عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ص ١٧٣، ١٧٤.
(٢٨١) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣١٠.

واليتامى[٢٨٢]، والمفلسين وفي وصايا المسلمين وأوقافهم[٢٨٣]، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية[٢٨٤]، وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح، ليحصل له الوثوق بهم[٢٨٥]، وكان قاضي دمشق بلال بن أبي الدرداء الأنصاري لا يضرب شاهداً بزور بالسوط ولكن يوقفه بين عمد الدرج ويقول: «هذا شاهد زور فاعرفوه[٢٨٦]».

كان القاضي يجلس في المسجد[٢٨٧]، أو في داره[٢٨٨]، أو في السوق، وربما ركب وتجول في البلد فوقف حيث يطلب[٢٨٩]، وقد كره الشافعية القضاء في المسجد، وكان لرأيهم في آخر الأمر بعض الأثر في غيرهم من أصحاب المذاهب، فأخذ القضاة يتحولون إلى رحاب المساجد ثم إلى المدارس أو إلى دور خاصة بالقضاء[٢٩٠]. ونلاحظ في الواقع أن القضاة في أواخر العصر الأموي كانوا لا يقضون في المسجد، فقد ورد عند ابن طولون أن سالم بن عبد الله أبو عبيد المحاربي من قضاة دمشق كان يجلس عند باب البريد، وأن محمد بن عبد الله بن لبيد الذي ولي القضاء بعده في خلافة مروان بن محمد الجعدي كان يقعد عند باب الساعات[٢٩١].

كان للقاضي كاتب يعاونه ويقوم بنفس الوقت بمهمة المساعد والمشير، فقد كان مسلم بن مشكم كاتب أبي الدرداء من التابعين، روى عن أبي الدرداء ومعاوية وروى عنه عبد الله بن العلاء[٢٩٢]. وكان كلثوم بن زياد المحاربي كاتباً لسليمان بن حبيب

---

(٢٨٢) الكندي، ص ٣٢٥، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٤٠.

(٢٨٣) الكندي، ص ٤٣٦، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٧٤٠.

(٢٨٤) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٦، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٢٩٢، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٤٠.

(٢٨٥) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٤٠.

(٢٨٦) ابن طولون، ص ٣.

(٢٨٧) عبد الحي الكتاني، التراتيب الادارية والعمالات والصناعات ... فاس ١٣٤٩ هـ، ص ٢٧٣.

(٢٨٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ١١٨.

(٢٨٩) المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٥.

(٢٩٠) منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، الطبعة الأولى، ص ٣٢٥.

(٢٩١) ابن طولون، ص ١٠، ١١.

(٢٩٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١٥٨.

المحاربي[٢٩٣]، وكان عمر بن يزيد النصري كاتب نمير بن أوس قاضي دمشق في عهد هشام بن عبد الملك[٢٩٤]. وقد تتوضح لنا أهمية الكاتب بالنسبة للقاضي من أن الحجاج عين سعيد بن جبير كاتباً ووزيراً للقاضي أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وأمره أن لا يقطع أمراً دونه[٢٩٥]، ولا شك أنه كان هناك كتاب مهمتهم تدوين القضايا وتسجيلها، إذ على القاضي أن يحسن الاستماع والتفكير والمقارنة والتحليل، واستحضار النصوص وغير ذلك من الأعمال العقلية ومن الانتباه، وعلى الكاتب أن يهتم بتدوين أقوال الطرفين والشهود والقاضي، ولابد للكاتب من أن يتمتع بصفات منها العدالة، كما يجب أن يكون عاقلاً وفقيها ليعلم صحة ما يكتب من فساده، وأن يكون نزيها بعيداً عن الطمع ليؤمن أن يرتشي فيحابي[٢٩٦]، وقد أورد فضالة بن المفضل أن كتاب يحيى ابن ميمون الذي ولي القضاء سنة خمس ومائة في مصر كانوا لا يكتبون قضية إلاّ برشوة، وأن يحيى كلم في ذلك فلم ينكره، ثم كلم مرة بعد مرة، فلم يعزل منهم أحداً من كتابته، ثم لم يلبث الخليفة هشام أن عزله[٢٩٧].

كان القضاء يعتبر من الأعمال الشاقة والخطرة لما فيها من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضي فيحكم على صاحب الحق فيظلمه، وهو مسؤول عنه وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى خطورة المسؤولية الملقاة على عاتق القاضي[٢٩٨]. وعندما استعمل أبو الدرداء على القضاء في دمشق، وأصبح الناس يهنئونه، قال: اتهنئوني بالقضاء وقد جعلت على رأس مهواة... ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدول، رغبة عنه وكراهية له[٢٩٩]. وعندما عزل عبد الملك أبا أدريس من القصص وأقرّه على القضاء قال: عزلوني عن رغبتي وتركوني في رهبتي[٣٠٠].

---

(٢٩٣) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، ص ٤٢.
(٢٩٤) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٣٧٣.
(٢٩٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١ ص ٦٢، البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٩.
(٢٩٦) الماوردي، أدب القاضي، ج ٢، ص ٥٨.
(٢٩٧) الكندي، ص ٣٤٠.
(٢٩٨) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٢٦، ٢٢٧.
(٢٩٩) ابن سعد، ج ٧، قسم ٢ ص ١١٧.
(٣٠٠) عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، ص ٥٦.

وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجراً، لأن القضاء علم، والعلم لا يباع وإنما يتبرع به لوجه الله، ويقال أن الوليد ألحّ على قاضي دمشق، زرعة بن ثوب، حتى أعطاه مزرعة مع خدمها وآلتها وحلف أنها من صلب ماله. فقال: اقبلها منك وأشهدك أن ثلثا منها في سبيل الله والثلث الثاني ليتامى قومي ومساكينهم، والثلث الثالث لرجل صالح يقوم عليها ويؤدي فيها، ثم أنا أحب أن تأخذ مني ما أجريت علي من الرزق فانه في كوة البيت فخذه فرده في بيت المال، فقال له الوليد: ولم ذلك؟ قال: لا أحب أن آخذ على ما علمني الله أجراً(٣٠١). وعن خالد بن يعفر أن عبد الله ابن يزيد بن خذامر لم يقبض على القضاء درهما ولا ديناراً(٣٠٢). ذلك ما كان يفعله بعض القضاة، أما القاعدة فهو أن يكون للقاضي رزق يجري عليه من بيت المال ليفرغ من هم المعيشة إلى هم القضاء(٣٠٣). وقد فرض عمر لشريح مائة درهم في الشهر(٣٠٤). ويقال ان عليا رزق شريحا خمسمائة درهم(٣٠٥)، وعندما حاول زياد بن أبيه أن يزيده في رزقه أبى، فاقترح أن يوليه عملاً يجري عليه رزقه فقبل، فولاه بيت المال وأجرى عليه ألفاً(٣٠٦)، كما رزق ابن حجيرة الأكبر في مصر من القضاء مائتي دينار في السنة(٣٠٧)، وفي رفع الأصر وثيقة أموية جاء فيها وجدت في ديوان مروان بن محمد ورقة فيها، بسم الله الرحمن الرحيم: «من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال، فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين ومائة عشرين ديناراً، واكتبوا بذلك براءة. كتبت يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول(٣٠٨)»، أي أن رزق ذلك القاضي كان عشرة دنانير في الشهر، بينما نجد أن عمر بن عبد العزيز عندما عيّن أميراً على المدينة أمر رجلاً يقضي بين الناس،

---

(٣٠١) ابن طولون، ص ٧٠٦.
(٣٠٢) الكندي، ص ٣٣٩.
(٣٠٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٢٢٢.
(٣٠٤) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١١٦.
(٣٠٥) ابن سعد، ج ٦ ص ٩٥.
(٣٠٦) البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٢٠٥.
(٣٠٧) الكندي، ص ٣١٧، ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٥٣.
(٣٠٨) ظافر القاسمي، السلطة القضائية، ص ٢١٢.

فأجرى له في الشهر دينارين[٣٠٩]، مما يدل على أن أرزاق القضاة كانت تختلف وفقا للأمصار وأهميتها وللمهام التي توكل إلى القاضي.

إلى جانب هؤلاء الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم في إدارة شوؤن الدولة كان هناك بالطبع الخزان والجباة وعمال الصدقة والعرفاء وولاة المقاسم وغيرهم. وقد أخذ عدد الموظفين يزداد نتيجة للحاجة الملحة الحاصلة عن تطور المجتمع ومن تعقد الإدارة، وكلما ازدادت الدولة تعقيداً كلما ازداد عدد الموظفين، وتحددت صلاحياتهم، وهذا يتضح عندما نرى ذلك التدرج في ازدياد عدد الدواوين في الدولة، ابتداء من العهد الراشدي حتى نهاية العصر الأموي.

دواوين الدولة في الشام

أتيح للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين أكثر مما أتيح للراشدين، فاتسعت في عصرهم مرافق الدولة، واحتاجت إلى دواوين جديدة تنظم إدارتها وتساعد الخليفة في الواجبات المعقدة التي فرضها السلم، وهذه الدواوين عبارة عن دوائر رسمية أو وزارات حسب المفهوم الحديث[٣١٠]. وبينما يذكر المؤرخون العرب الديوان بشكل عام في خلافة عمر وعثمان وعلي، كذكرهم لديوان المدينة أو الكوفة أو البصرة، نلاحظ ابتداء من خلافة معاوية بن أبي سفيان تأسيس دواوين، لكل ديوان اختصاصاته[٣١١]، ولم تلبث أن تفرّعت عنها دواوين أخرى بازدياد الحاجة إلى الاختصاص والتنظيم الإداري، وهنا يجب أن نشير إلى أن الدواوين بمعنى السجلات كانت كلها حتى عهد خالد بن برمك صحفا مدرجة فجعلها دفاتر[٣١٢].

ومنذ أن أسس عمر بن الخطاب ديوانه في المدينة، وجد في الكوفة والبصرة والشام ومصر ديوانان، أحدهما بالعربية لاحصاء الناس وأعطياتهم، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية بالعراق، وبالرومية في الشام وبالقبطية في مصر[٣١٣].

(٣٠٩) وكيع، ج ١، ص ١٣٤.
(٣١٠) Levy. Op. Cit, P. 298.
(٣١١) الجهشياري، ص ٤٧.
(٣١٢) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ٢ ص ٩١.
(٣١٣) الجهشياري، ص ٣٨، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢، المقريزي، الخطط، ج ١، ص ١٨١.

ديوان الخراج

كان هذا الديوان من أهم دواوين الدولة، لأنه مصدر جميع الأموال للأقاليم والدولة، وقد استطاع معاوية بمعاونة زياد بن أبيه في المشرق، وسرجون بن منصور في الشام، وانثناس في مصر أن ينشيء وزارة حقيقية للمالية كما نفهمها بالوقت الحاضر(٣١٤). ومعاوية هو أول من أمر بتسجيل أو حفظ سجلات بمقادير الجزية والخراج لكل منطقة أو اقليم، وميز تمييزاً واضحاً بين دخل أرض الخراج ودخل الصوافي، وأنشأ مبدأ وضع الصوافي عموما تحت سلطة البيت الحاكم(٣١٥).

اتبع خلفاء بني أمية القاعدة التي سار عليها الفرس، بتسجيل كل ما يرد في ديوان الخراج(٣١٦)، فكان يسجل في ديوان الخراج كل ما يرد من أموال الفيء، كما كان يسجل في دواوين الخراج مساحات الأراضي الخراجية، وكذلك من في كل بلد من أهل الذمة، وما استقر عليهم في عقد الجزية، فان كانت مختلفة باليسار والاعسار سموّا في الديوان مع ذكر عددهم ليختبر حال يسارهم واعسارهم، وان لم تختلف في اليسار والاعسار جاز الاقتصار على ذكر عددهم، ووجب مراعاتهم في كل عام لتثبيت من بلغ واسقاط من دخل في الإسلام أو من مات(٣١٧). كما أن كل أرض خراجية إذا تحوّلت إلى عشرية، يثبت ذلك في الديوان حتى يسقط الخراج عن تلك الأراضي وعن أهل قراهم(٣١٨).

عندما تولى معاوية الخلافة كان العرف السائد أن ينفق على أمور الولاية معظم ما اجتبي منها، وكانت بعض الولايات تتمتع باستقلال ذاتي كامل من الناحية المالية، ولم يكن أمام معاوية من دخل يعتمد عليه سوى دخل الشام، ولذلك أمر أن تسهم

---

(٣١٤) Irving Washington, Lives of The Successors of Mohammet London, 1859 Vol. II P.487.

(٣١٥) D.Dennette, Poll Tax in Early Islam, Cambridge, 1950, P.64.

(٣١٦) الجهشياري، ص ٣.

(٣١٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٨.

(٣١٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٩٦.

كل ولاية بارسال الفائض إلى بيت المال بدمشق(٣١٩) ، وكان ديوان الخراج في العراق من أهم الدواوين في الدولة لما كان يدرّه سواد العراق من أموال خراجية اعتمدت عليها الخلافة الأموية في توطيد سلطانها ، فقد قال معاوية : «مالـلشام رجال العراق وأموالها(٣٢٠) » وأبى عبد الملك الا الخروج لقتال مصعب بن الزبير بنفسه قائلاً : «الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاده(٣٢١) » .

كان في دمشق ديوان مركزي للخراج ، كما وجدت دواوين اقليمية ، مقرّها حواضر الولايات ، وكان الديوان المركزي في دمشق يضم على الأرجح دواوين خراج قنسرين وحمص وفلسطين والأردن كذلك ، يذكر الجهشياري أنه كان يكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن أثال النصراني وأن مهاجر بن عبد الرحمن بن خالد قتل ابن أثال عندما خرج من ديوانه في دمشق(٣٢٢) . وكان يتولى شؤون الخراج في الشام كما هو الأمر في العراق ومصر وخراسان موظفون من أبناء المنطقة يتقنون لغتها بالإضافة إلى المامهم بالعربية ، ويشرف على أولئك الموظفين رئيس يعرف بكاتب الخراج أو صاحب الخراج ، ويتمتع بمنزلة عالية لدى الخليفة والأمراء ، وقد اشتهر في الشام سرجون بن منصور الرومي الذي كان مسؤولا عن دواوين الخراج كلها بالشام(٣٢٣) . ثم أصبح ابنه منصور المتولي لأمر الخراج(٣٢٤) ، حتى نقل سليمان بن سعد كاتب الرسائل الديوان إلى العربية ، وذلك عندما رأى عبد الملك بن مروان من منصور توانيا ، وولاه عبد الملك جميع دواوين الشام ولم يزل سليمان بن سعد على ذلك حتى خلافة .عمر بن عبد العزيز(٣٢٥) ،

---

(٣١٩) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٤ ص ١٨١ ، الطبري ، ج ٥ ص ٤٠٣ ، ٥٠٩ ، ج ٦ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٥ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٠٢ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ساويرس ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

(٣٢٠) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣٢١) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٥ .

(٣٢٢) الجهشياري ، ص ٢٨ ، ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣٢٣) خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٢ .

(٣٢٤) الجهشياري ، ص ٣١ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٢

(٣٢٥) الصولي ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤١ هـ ، ص ١٩٣ .

وبتعريب دواوين الخراج أصبح بامكان الخليفة أن يشرف اشرافاً مباشراً على هذا الديوان الهام[٣٢٦]. وتميز هشام بن عبد الملك بتشدده أكثر من غيره بأمر الأموال ووجوه صرفه ودقة دواوينه، إذ يذكر عبد الله بن علي، «جمعت بين دواوين بني مروان، فلم أرَ ديوانا أصحّ ولا أصلح من ديوان هشام في أمر الخاصة والعامة والسلطان[٣٢٧]»، وكان هشام يراقب بنفسه هذه الدواوين ومجالات صرف الأعطيات، فيذكر غسان بن عبد الحميد: «لم يكن أحد من بني مروان أشدّ نظراً في أمر أصحابه ودواوينه ولا أشدّ مبالغة في الفحص عنهم من هشام[٣٢٨]».

ديوان الصدقات

وهوالديوان الذي كان يتم فيه تسجيل ما يدفعه المسلمون من زكاة ظاهرة، كالزكاة عن الزرع والثمار والمواشي[٣٢٩]، وما يؤخذ من مال تجارتهم وهو ربع العشر من المسلمين[٣٣٠]، واسم هذا الديوان مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى: «انما الصدقات للفقراء والمساكين[٣٣١] ...». ويقول القلقشندي: «إذا صح ما ذكره القضاعي في تاريخه» عيون المعارف «بأن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي أموال الصدقات، أمكننا القول بأن هذا الديوان قد وضع في زمنه[٣٣٢]».

وبما أن أرض الشام كان منها ما هو خراجي، ومنها ما هو عشري، كان لا بد من تفصيل ما كان منه عشراً في ذيوان العشر، وما كان منه خراجا في ديوان الخراج[٣٣٣]، إذ أن الأراضي التي رفضها أهلها فأقطعت للعرب والتي أسلم عليها أهلها وأرض الموات

---

(٣٢٦) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٢١.
(٣٢٧) الطبري، ج ٧ ص ٢٠٣.
(٣٢٨) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٠٣.
(٣٢٩) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١١٣.
(٣٣٠) أبو عبيد، الأموال، ص ١٦.
(٣٣١) سورة التوبة، آية ٦١.
(٣٣٢) القلقشندي، ج ١، ص ٩١.
(٣٣٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٧.

التي أحياها المسلمون اعتبرت أراضي عشرية[٣٣٤]، وكان يسجل في الديوان نوع الرزق وحال سقيه بسيح أو في الدالية لاختلاف حكمه ليستوفى بموجبه[٣٣٥]، ولا بد لجمع مال الصدقة من عمال، إذ لا يجوز أن يتولاها عمال الخراج، ولعمال الصدقة رزقهم من مال الصدقة على أن لا يستغرق أكثر الصدقة[٣٣٦]، وقد عين الرسول منذ البدء عمالاً على الصدقات على كل قبيلة أو قبيلتين عامل[٣٣٧]، وكانت الزكاة تؤخذ في خلافة الراشدين من المسلمين المسجلين في العطاء[٣٣٨]، وكذلك فعل معاوية الذي سنّ أخذ الزكاة من الأعطية[٣٣٩]. أما بالنسبة للبقية فكان عامل الصدقة يحمل كتاب أمير المؤمنين وعهده إلى القبيلة التي سيجبي صدقاتها، ويضرب الفسطاط، ويدخل أفراد القبيلة لدفع صدقاتهم[٣٤٠]. بينما يرد عند ابن عساكر أنه كان لكل قوم عريف منهم يجمع الصدقات من أموالهم[٣٤١]، وأغلب الظن أن الرواية الأولى تنطبق على القبائل في البادية بينما تنطبق الثانية على المقيمين في المدن والحاضرة.

ديوان الجند

هو نفس الديوان الذي أسسه عمر بن الخطاب لتحديد العطاء لجميع العرب والجند الإسلامي[٣٤٢]، وكان يعرف باسم الديوان، لأنه لم يكن يوجد غيره، ولم يحتاجوا إلى تمييزه بلفظ آخر يضاف إليه، وقد وجدت دواوين للجند منذ البدء في مراكز الاقاليم كذلك، وكان المقاتلة في الشام يسجلون حسب مكان اقامتهم، فكان لكل جند مقاتلته الذين يأخذون أعطياتهم من مراكز أجنادهم، ويتم تسجيل المقاتلة

(٣٣٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١ ص ٤٥.
(٣٣٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٧.
(٣٣٦) أبو يوسف، الخراج، ٩٥.
(٣٣٧) البلاذري، أنساب، ج ١ ص ٥٣٠.
(٣٣٨) أبو عبيد، الأموال، ص ٣٥٩.
(٣٣٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٧.
(٣٤٠) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣١٠، الأغاني، ج ١٢، ص ٢٠١.
(٣٤١) تهذيب، ج ٦، ص ١١٧.
(٣٤٢) مولوي حسيني، الادارة الإسلامية، ص ١٦٨، منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص ٢٩٢.

وفقا لأنسابهم ، وان كانوا عجما لا يجتمعون على نسب ألحقوا أحياناً بديوان قبيلة من القبائل يختارونها ، فعندما دون عمر الدواوين في الشام ، سأل بلال عمر أن يجعل ديوانه مع أبي رويحة الخثعمي ، وقال : فاني غير مفارقه أبدا ، فقد آخى رسول الله (صلعم) بيني وبينه ، فضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، فلم يبق بالشام حبشي إلاّ صار ديوانه مع خثعم(٣٤٣) . كما أن الخليفة عمر كان يحاول قدر الامكان عند التسجيل أن لا يفرق بين الولد وأبيه ، فقد أبلى السمط بن الأسود الكندي بالشام ، وكان ابنه شرحبيل بن السمط بالكوفة ، فحوّل عمر شرحبيل إلى الشام فنزل حمص مع أبيه(٣٤٤) ، وبما أن التسجيل في الديوان يعني للشخص الاقامة في البلد الذي به ديوانه ، فان الأمويين كانوا لا يفرضون لبكر بن وائل و لتميم بديوان الشام مخافة استقرارها في الشام(٣٤٥) ، ولذا نجد عبد الملك يرفض نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني من ديوان الجند في الكوفة إلى ديوان الجند في الشام خوفا من أن يكثر المنتسبون إلى بكر وتميم فيها(٣٤٦) . وعندما يتوفى الشخص المسجل في ديوان العطاء ، كانت وفاته تسجل ازاء اسمه وذلك لرفع العطاء عنه أو تحويله إلى ورثته ، فقد روى يزيد بن عبد ربه ، قال : قرأت في ديوان العطاء ، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة ، ومات عبد الأعلى بن عدي سنة أربع ومائة(٣٤٧) . وهكذا نرى أن الدواوين كانت لها أهميتها في التكوين الاجتماعي ، إذ أنها تحوي السجلات الرسمية التي حفظ العرب بها أنسابهم بالإضافة إلى أهميتها في مدنا بمعلومات عن التنظيم المالي للمقاتلة .

لابد أن نشير أثناء الكلام عن ديوان الجند في الشام إلى ديوان الذراري بالرغم

---

(٣٤٣) البلاذري ، أنساب ، ج ١ ص ١٩٢ .

(٣٤٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٣ .

(٣٤٥) جمال محمد داود محمد جودة ، العرب والأرض في العراق في صدر الإسلام ، رسالة ماجستير منسوخة ، باشراف الدكتور عبد العزيز الدوري ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٤ ، البلاذري ، أنساب ، القسم الثاني من نسخة استانبول ، السليمانية ، رقم ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ص ٨٩ .

(٣٤٦) احسان صدقي العمد ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، حياته وآراؤه السياسية ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٤١٣ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٧ ، ص ٨٩ .

(٣٤٧) أبو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٤٣ . وقد توفي يزيد بن عبد ربه سنة ٢٢٤ هـ ، وهذا دليل على أن السجلات القديمة كانت لا تزال موجودة في أوائل القرن الثالث الهجري .

من أن هذا الاسم لايرد صراحة إلا فيما يتعلق بالعراق في عهد زياد بن أبيه وعبيد الله ابن زياد، ففي خطبة عبيد الله حين جاءه نبأ موت يزيد بن معاوية يقول: «لقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم إلاّ أربعون ألفاً ولا في ديوان عيالاتكم إلاّ سبعون ألفاً، ولقد أحصي إلى اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتل وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون ألفاً[٣٤٨]». أي يمكن القول ان ديوان العطاء الذي أوجده عمر بن الخطاب انقسم إلى ديوان للجند وديوان للذراري، فكان ديوان الجند يضم أسماء المقاتلة ومقدار أعطياتهم ومكان مكاتبهم، ويسجل في ديوان الذراري الأفراد الذين يحق لهم العطاء من عائلة المقاتل، لأننا نستطيع أن نستنتج من النص الذي أورده البلاذري أن السفيانيين لم يفرضوا العطاء لجميع ذراري المقاتلة، فقد ذكر عبيد الله أن عدد المقاتلة في البصرة كانوا ثمانين ألفاً وذراريهم مائة وعشرين ألفاً وأن مقاتلة الكوفة كانوا ستين ألفاً وذراريهم ثمانين ألفاً[٣٤٩]، ومن المتوقع أن يكون لهؤلاء المقاتلة ذراري أكثر من هذه الأعداد، مما يؤكد أن التسجيل اقتصر على عيل أو اثنين، أي أن الأمر اختلف في عهد السفيانيين عما كان متبعا في العهد الراشدي عندما فرض عمر للنساء والذرية في العطاء[٣٥٠].

وبعد أن كان عمر قد فرض مائة درهم للأولاد سواء الذكر أو الانثى بعد الفطام[٣٥١]، لم يلبث أن قرر فرض العطاء للمولود حال ولادته عندما تبين له أن الكثيرين يفطمون أولادهم قبل الموعد المحدد كي يستحقوا العطاء مبكرا[٣٥٢]، ويذكر البلاذري أن معاوية طبق نظم عمر بن الخطاب في العطاء، إلاّ أنه فرض للفطيم دون المولود، فلما تولى عبد الملك قطع ذلك كله إلاّ عمّن شاء[٣٥٣]، فيذكر أبو مخنف أنه لما جاء أبو الجهم بن كنانة برأس قطري بن الفجاءة الخارجي إلى عبد الملك، «ألحق

(٣٤٨) البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٩٠، ج ٤، قسم ٢ ص ١١٦، فتوح ص ٣٤٤، ٣٤٥.
(٣٤٩) المصدر السابق، ج ٤، قسم ١، ص ١٩٠، ج ٤، قسم ٢ ص ١١٦.
(٣٥٠) الطبري، ج ٣، ص ٦١٤، ٦١٥، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٧١.
(٣٥١) البلاذري، فتوح، ص ٤٤٥، الطبري، ج ٣، ص ٦١٥، ج ٤ ص ٢٠٩ — ٢١٠.
(٣٥٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٣، قسم ١ ص ٢١٥، البلاذري، فتوح، ص ٤٤٥.
(٣٥٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٤٥.

في ألفين وأعطي فطيماً[٣٥٤] » . ولكن يبدو أن وضع أهل الشام كان أفضل من وضع أهل العراق فيما يتعلق بعطاء الذراري، إذ أننا نجد عبد الملك يعرض على أهل العراق مقابل تراجعهم عن موقفهم مع ابن الأشعث بالإضافة إلى عزل الحجاج، أن يجري عليهم أعطياتهم وأعطيات ذراريهم كما تجري على أهل الشام[٣٥٥]، وفي هذا دلالة على أن عطاء الذرية بقي مستمراً في الشام في خلافة عبد الملك، وان بقي المبدأ الذي سار عليه معاوية في فرض العطاء للفطيم دون المولود هو المطبق، لأننا نرى عمر بن عبد العزيز يعود فيفرض لكل منفوس ديناراً[٣٥٦] . ويورد الطبري رواية عن المجاشعي يذكر أن عمر بن عبد العزيز طلب منه أن يقرع بين ذراري الرجال الذين في العطايا، فمن أصابته القرعة جعله في المائة، ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين[٣٥٧]، أي أنه جعل العطاء لكل الذرية ولكن بنسب مختلفة، ومن يلتحق بعد ذلك بديوان الجند يعطى عطاء المقاتلة، ويبدو أن ولاة بني أمية كانوا أحياناً يفرضون لابن أربع عشرة سنة في القتال، فمنع عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى العمال أن يفرضوا لابن أربع عشرة سنة في القتال وأن يفرضوا لابن خمس عشرة سنة[٣٥٨] .

استمر عطاء الذرية أيام هشام بن عبد الملك، إلاّ أنه اتبع سياسة السفيانيين في عدم الحاق كل الذرية في العطاء، فقد بيّن نصر بن سيار ليحيى بن حصين موقف الخليفة منه « وزيد في عطائك، وفرض لأهل بيتك وبلغت الدرجة الرفيعة[٣٥٩] » . ووفد علباء بن منظور الليثي على هشام بن عبد الملك فأنشده شعرا، فأمر له بخمسمائة درهم وألحق له عيلا في العطاء[٣٦٠]، وعندما دخل مروان بن محمد دمشق أمر للمقاتلة

---

(٣٥٤) الطبري، ج ٦، ص ٣١٠ .
(٣٥٥) المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٤٧، مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٤ .
(٣٥٦) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢٥٥ .
(٣٥٧) الطبري، ج ٦ ص ٥٧٠ .
(٣٥٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢٥٨ .
(٣٥٩) الطبري، ج ٧، ص ١٧٥ .
(٣٦٠) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٠٦ .

بالعطاء وعدّهم وعدّ عيالهم[٣٦١]، وكان لا بد من القيام باحصاء بين الحين والآخر، لأن الناس في كثير من الأحيان كانوا يكتمون موتاهم، وهذا ما دفع عمر بن عبد العزيز إلى أن يرسل كتابا يُقرأ على الناس: «انه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم، فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل منفوس نفرض له[٣٦٢]». وكان لا بد من ارسال موظفين خاصين بين الفترة والأخرى من المركز إلى الأمصار للتحقيق من عدم تلاعب العرفاء الذين كان يوكل إليهم ابلاغ الديوان عن كل تغيير يحدث ضمن القبيلة[٣٦٣].

ديوان الرسائل

كان لهذا الديوان كما كان للدواوين السابقة فروع في الولايات، ولكن العلاقة بين هذا الديوان وفروعه كشفت عن تفوق الديوان المركزي وعظمة نشاطه واتساعه، يقول القلقشندي عن هذا الديوان الذي سمّاه ديوان الانشاء: «لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية تقاصرا عن التشبيه بديوان الخلافة، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة، ولذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوافر الدواعي على نقله ولا تنصرف الهمم إلى تدوينه[٣٦٤]».

ولعل ديوان الرسائل هو أول ديوان وضع في الإسلام، ذلك أن النبي (صلعم) استعمل كتّابا يكتبون عنه إلى أمرائه وأصحاب سراياه، وإلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والامانات إلى غير ذلك، فهؤلاء وان لم يطلق عليهم اسم الديوان، فقد كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان

(٣٦١) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٥.

(٣٦٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٥٥.

(٣٦٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٥٤، مصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، ص ١٥٤، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٧٤.

(٣٦٤) القلقشندي، ج ١ ص ٣٨.

الرسائل[٣٦٥]. فلما جاء العصر الاموي برز اسم ديوان الرسائل كديـوان له اختصاصاته، يتولى المكاتبات في الدولة، ولا سيما اصدار النشرات والرسائل التي تشتمل على التعليمات الصادرة للولاة وللرعايا عامة[٣٦٦]. وكان الخلفاء في العهد الراشدي والأموي يختارون لمنصب «صاحب ديوان الرسائل» من يثقون بأمانتهم واخلاصهم من خاصتهم أو من عظماء القبائل، فلما فسد اللسان وصارت الكتابة صناعة أصبحت هذه المهمة تسند إلى من يحسن الكتابة[٣٦٧]. وكانت المراسلات السياسية والإدارية في عهد الخلفاء الراشدين قصيرة جداً ومقصورة على ما يراد منها، واستمر الأمر كذلك في الدولة الأموية إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك «فجوّد القراطيس وجلل الخطوط وفخّم المكاتبات[٣٦٨]». وكان يأمر أن تكون كتبه والكتب إليه خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض، وجرى الأمر على سنة الوليد بن عبد الملك، باستثناء فترة خلافة عمر بن العزيز ويزيد بن الوليد، إلى أن صار الأمر إلى مروان ابن محمد، وكتب له عبد الحميد بن يحيى فأطال الكتب وأطنب بها[٣٦٩].

ديوان الخاتم

من الدواوين التي ظهرت في العصر الأموي، ديوان الخاتم، وكان معاوية أول من اتخذ ديوان خاتم[٣٧٠]، لضبط المعاملات المالية وصيانة الوثائق الهامة[٣٧١]، وأنشأ الخليفة معاوية هذا الديوان بعد أن اكتشف تزويراً في أمر مالي بعث به إلى والي العراق، فصار ديوان الخاتم يتولى تسجيل الأوامر الصادرة عن الخلافة، ثم ختم الأصل والرسالة، ولم يكن المراد من الختم أن يوضع في أدنى الرسالة، وإنما كانت الرسالة

(٣٦٥) المصدر السابق، ج ١ ص ٩١.
(٣٦٦) مولوى حسني، الادارة العربية، ص ١٦٨.
(٣٦٧) ابن خلدون، المقدمة، ج ١ ص ٧٨٨.
(٣٧٨) القلشندى، ج ٦ ص ٣٩١.
(٣٦٩) المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٩١.
(٣٧٠) الطبري، ج ٥ ص ٣٣٠، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٦.
(٣٧١) مولوى حسيني، الادارة العربية، ص ١٦٩.

تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر الذي يطبع عليه وهو طري خاتم الخلافة، ويترك حتى يجف، فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك، إذ لا سبيل إلى فتحها إلا بتمزيق الخاتم[٣٧٢]. وكان لكل خليفة نقش خاص لخاتمه، فكان نقش خاتم معاوية «لا قوة إلاّ بالله»، ونقش خاتم عبد الملك بن مروان «آمنت بالله مخلصاً»، أما خاتم الوليد فكان نقشه «ياوليد أنت ميت» ونقش خاتم عمر بن عبد العزيز «لكل عمل ثواب»، ونقش خاتم هشام بن عبد الملك «الحكم للحكيم[٣٧٣]».

لم يقتصر حفظ النسخ الإدارية وختم الأوامر قبل اصدارها على الحكومة المركزية وحدها، وإنما اتبع الولاة نفس الطريقة، وان كانت الروايات التي بين أيدينا متعلقة بالعراق فقط، فقد اعتاد زياد أن يحفظ نسخا عن جميع أوامره، وعن المدائني أن زياد ابن أبي سفيان كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله[٣٧٤]. وكان خلفاء بني أمية لا يولّون ديوان الخاتم إلا أوثق الناس عندهم[٣٧٥].

وكان ديوان الخاتم يعتبر من الدواوين الهامة في الدولة، واستمر هذا الديوان إلى أواسط الدولة العباسية[٣٧٦]، ومما يشير إلى أهميته، أن كل أمر من الخليفة بمنح مال أو اقطاع يدور في الدواوين حتى ينتهي إلى ديوان الخاتم، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار، فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الخاتم، فلم يبق إلا قبضها، فتوفي سليمان قبل أن يقبضها، فرفض عمر بن عبد العزيز أن يدفعها له، وقال: «عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحد[٣٧٧]».

---

(٣٧٢) منير العجلاني، ص ٣٠٢.

(٣٧٣) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ٢٦٢ — ٢٧٢.

(٣٧٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٥٠، أنساب الأشراف، ج ٤ قسم ٢، ص ١٧٦، وقد كان للأكاسرة أربعة خواتيم، فكان على خاتم الحرب والشرط «الاناة» وعلى خاتم الخراج والعمارة «التأييد»، وعلى خاتم البريد «الوحاء» (العجلة والاسراع)، وعلى خاتم المظالم «العدل» الجهشياري، ص ٢.

(٣٧٥) الصولي، أدب الكاتب، ص ١٤١.

(٣٧٦) ابن طباطبا، ص ٧٩.

(٣٧٧) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٤٩.

ديوان البريد

إلى جانب ديوان الخاتم ظهر ديوان البريد في العصر الأموي، أنشأه معاوية بن أبي سفيان عندما استقرّت له الخلافة لكي تسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، ونظراً لاعتماده على دهاقين من الفرس وأهل أعمال الروم في تنظيم البريد(٣٧٨)، اختلف في كلمة البريد، فيرى بعض المستشرقين أن كلمة بريد مأخوذة من اللاتينية فيريدوس VEREDUS وهو حصان البريد(٣٧٩)، بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة فارسية معرّبة وأصلها الفارسي، «بريده دم(٣٨٠)» ومعناها مقصوص الذنب، لأن الفرس كانوا «يستخدمون في نقل البريد دوابا مقصوصة الذنب تمييزا لها عن غيرها من الدواب، وقيل ان البريد كلمة عربية مشتقة من بَرَد، بمعنى أرسل، وكان البريد يطلق كذلك على الرسول(٣٨١). ولما كانت مهمة البريد الأولى وصول الأخبار بسرعة كانت أهم معالمه انشاء محطات للبريد(٣٨٢) تصل المركز بكل الولايات المرتبطة به، إذ أن الدولة الإسلامية في عهد خلفاء بني أمية انقسمت إلى ولايات ارتبط بعضها بالمركز مباشرة، وارتبط القسم الآخر بأمراء تلك الولايات، فمعاوية مثلا جمع لزياد المصرين أي الكوفة والبصرة(٣٨٣) وما كان يتبعهما من ولايات المشرق، وسار على هذا النظام أكثر خلفاء بني أمية حتى كان عدد الأمراء الذين تولوا العراقين اثني عشر أميراً(٣٨٤)، وكانت سلطة الحجاج تمتد من فم الرقة إلى خجند بخراسان وإلى السند والهند(٣٨٥). فأمير العراقين كان مسؤولا عن سرعة وصول الأخبار إليه من كل ولايات المشرق(٣٨٦)، بينما كان ديوان

---

(٣٧٨) القلقشندي، ج ١٤ ص ٣٦٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٩.

(٣٧٩) LEVY. P. 299, E. I. ART. BARID.

(٣٨٠) القلقشندي، ج ١٤ ص ٣٦٧، لسان العرب، طبعة ١٣٨٨ هـ، مادة البريد.

(٣٨١) المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٦٧، لسان العرب، مادة البريد.

(٣٨٢) محطات البريد كانت تعرف باسم السكة، والسكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط، وكان يرتب في كل سكة بغال أو خيول، لسان العرب، مادة البريد.

(٣٨٣) الطبري، ج ٥ ص ٢٣٤، ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٤٨، أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج ١ ص ١٨٥.

(٣٨٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٤٨.

(٣٨٥) البلخي، كتاب البدء والتاريخ، باريز ١٩١٩م، ج ٢ ص ٢٧.

(٣٨٦) خليفة، ج ١ ص ٣١٩، ٤١٥، ٤٤٣، ج ٢، ص ٥٣٨.

البريد المركزي مسؤولا عن محطات البريد التي تصل الشام بالبصرة والكوفة والجزيرة وأرمينيا ومصر والحجاز، وكانت محطات البريد تبعد الواحدة عن الأخرى فرسخين في إيران وأربعة فراسخ في الولايات الغربية، وذلك لاستخدامهم العدّائين في ايران والخيول والجمال في الولايات الغربية(٣٨٧).

وكانت توجد في هذه المحطات الدواب التي تستخدم في البريد، من البغال، والخيل والابل، حسب طبيعة الطرق التي تمر بها، ذلك فضلاً عن وجود أماكن للراحة، وتوفير أسباب الحصول على الماء والطعام والعلف لدواب البريد، كما كان من الضروري عمارة الطرق، ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي قد اجتازها، وقد وصلت إلينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان اكتشفت بالقرب من بيت المقدس، وتشير إلى أوامره بصنع الأميال وبعمارة أربع طرق تخرج من إيلياء ومن دمشق(٣٨٨). ويبدو أن الوليد ساهم في بناء الأميال وعلى نطاق واسع مما دفع القلقشندي إلى القول بأن الوليد هو أول من بنى الأميال(٣٨٩).

استخدم عمال الدولة البريد للرحلات السريعة(٣٩٠)، وفي أيام الطوارىء كان البريد يستخدم في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة، كما حدث أثناء ثورة ابن الأشعث، عندما جهز عبد الملك الجند على البريد فكانوا يصلون من مائة، ومن خمسين وأقل من ذلك أو أكثر(٣٩١). كما أرسل هشام بن عبد الملك المدد لسعيد الحرشي إلى أرمينيا ومنطقة اللّان على أربعين دابة من دواب البريد فكان يبعث إليه كل يوم أربعين رجلاً(٣٩٢). أما الوليد بن عبد الملك فكان يحمل عليه الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق(٣٩٣).

---

(٣٨٧) E.I. Art., Barid.

(٣٨٨) Van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jerusalem, t.I. p. 20. Repertoir Chronologique d'epigraphic Arab, t.I. PP. 13, 16.

(٣٨٩) القلقشندي، مآثر الأناقة، ج ١ ص ١٣٦، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء، ص ٤٣.

(٣٩٠) القلقشندي، صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧، E.I. Art., Barid.

(٣٩١) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٣٦.

(٣٩٢) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٨، الطبري، ج ٧ ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥ ص ١٥٩.

(٣٩٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤ ص ٣٦٧، E.I. Art., Barid.

خطا نظام البريد خطوات واسعة في خدمة النظام الإداري الأموي، ودعم سلطانه بما يتفق وطبيعة اللامركزية التي سار عليها هذا النظام، إلاّ أن البريد حقق أهميته الكبرى في ظل الحكم العباسي حيث أصبح عبارة عن دائرة استخبارات(٣٩٤)، وأنشئت المحطات على مراحل مناسبة على كل الطرق المؤدية للعاصمة، كما أنشأ المهدي طريقاً جديداً مزوداً بالمحطات من اليمن إلى مكة ومن ثم إلى بغداد، وكان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته، في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث(٣٩٥). وبدأ اختلال نظام البريد في عهد سيطرة البويهيين الذين رأوا في منع وصول الأخبار إلى الخلفاء وسيلة لاحكام سيطرتهم عليهم(٣٩٦)، وألغى السلطان السلجوقي الب أرسلان (١٠٦٣ — ١٠٧٢م/٤٥٦ — ٤٦٥هـ) نظام البريد في الولايات الشرقية بالرغم من معارضة وزيره المشهور نظام الملك، الذي كان يرى في هذه المؤسسة وسيلة قيمة فعالة لحفظ النظام والأمن في الدولة(٣٩٧).

ديوان المستغلات

بالإضافة إلى هذه الدواوين التي ذكرتها ظهرت دواوين أخرى بالشام فقط، كديوان المستغلات الذي يرد اسمه لأول مرة في خلافة الوليد بن عبد الملك(٣٩٨)، وكان على المستغلات نفيع بن ذؤيب مولى الوليد، واسمه كان مكتوباً في لوح في سوق السرّاجين(٣٩٩) بدمشق، وديوان المستغلات هو الديوان الذي تسجل فيه أجور أراضي الدولة وأملاك الحكومة(٤٠٠)، كذلك نقرأ في تاريخ دمشق لابن عساكر عن تأسيس ديوان للزّمنى، إذ يذكر أن اسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي كان على ديوان الزمنى

---

(٣٩٤) Levy, P. 300.
(٣٩٥) الطبري، ج ٧، ص ٩٦.
(٣٩٦) E.I. Art., Barid.
(٣٩٧) E.I. Art., Barid.
(٣٩٨) الطبري، ج ٦ ص ١٨١.
(٣٩٩) الجهشياري، ص ٤٧.
(٤٠٠) Levy, p. 299.

بدمشق، وهو من أهلها، وأن الوليد قال له لمّا ولاه: «لأدعن الزّمن أحبّ إلى أهله من الصحيح[٤٠١]». وأغلب الظن أن هذا الديوان قد ظهر في الشام فقط، إذ أن اهتمام الوليد كان مركزاً على الشام. فقد ذكر القلقشندي بأن الوليد هو أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى، وأول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون[٤٠٢]، كذلك يشار في عهد سليمان بن عبد الملك إلى ديوان النفقات[٤٠٣]. وإذا افترضنا تأثر الأمويين بالفرس الذين كان لهم ديوانان، ديوان الخراج وديوان النفقات، وأن ديوان النفقات يسجل كل ماينفق في جيش أو في غيره[٤٠٤]، فانه يمكننا القول ان هذا الديوان كان يقوم بتسجيل كل ماينفق على مرافق الدولة من أموال صادرة عن بيت المال في دمشق، بدلاً من أن تكون هذه المسؤولية ملقاة على عاتق ديوان واحد هو ديوان الخراج، ويبدو أن هذا الديوان كان مركزيا، وقد بقي كذلك في العصر العباسي، عندما كانت أكبر مهماته القيام بنفقات دار الخلافة وحاجاتها ونفقات الدواوين المركزية[٤٠٥]، بينما كانت دواوين الخراج في الولايات تقوم مقام ديـوان النفقـات فيها بالإضافة إلى تسجيلها لما يجبى من خراج وضرائب أخرى، فكانت تستوفي من تلك الأموال النفقات الراتبة وأعطيات الجند وترسل الباقي إلى العاصمة[٤٠٦].

إذا كانت هذه الدواوين كلها ترد أسماؤها في المركز فان هنالك بعض الدواوين التي نسمع عنها في مصر مثلاً كديوان الأحباس أو الأوقاف الذي أوجده توبة بن نمر، والذي يقول الكندي عنه أنه أصبح ديواناً عظيماً سنة ١١٨ هـ[٤٠٧]. كما ظهر في

(٤٠١) تهذيب، ج ٢ ص ٤٥٢.

(٤٠٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ٤٣٢.

(٤٠٣) خليفة، ج ١، ص ٤٣٢، الجهشياري ص ٧٢، وكان يكتب لمروان على النفقات زياد بن أبي الورد الأشجعي واسمه مكتوب على ميناء صور وعكا.

(٤٠٤) الجهشياري، ص ٣.

(٤٠٥) الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٥، ٢٧.

(٤٠٦) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٥، ص ١٩٣، ١٩٤، التنوخي، الفرج بعد الشدة، الطبعة الأولى، القاهرة، ج ١، ص ٥١، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، القاهرة ١٣٤٢ هـ، ص ٤٠.

(٤٠٧) الكندي، ص ٣٤٦.

العراق في العصر الأموي ما يسمى بدار الاستخراج(٤٠٨)، وهي الـدار التـي كانت تصادر فيها أموال الموظفين الذي يختلسون أموال الجبايات ولا يؤدونها للدولة، وكذلك الدهاقين الذين يقصرون في الجبايات المقررة عليهم، كما صودرت فيها أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه بمساعدتهم الثائرين(٤٠٩)، واستمر هذا الجهاز حتى زمن الدولة العباسية حيث تحول إلى ديوان كبير عرف باسم ديوان المصادرين(٤١٠)، ولما كان أهل الشام أهل طاعة وولاء فلم يظهر مثل هذا الديوان في الشام، فاننا لا نقرأ عن مصادرات للأموال فيها في هذه الفترة من تاريخنا.

---

(٤٠٨) الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر، بيروت، ج ٢ ص ٤٢.

(٤٠٩) البلاذري، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٩، ٨١، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٥٩، ابن قتيبة، المعارف، ص ١٩٣، المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ج ٢ ص ٢٥٥.

(٤١٠) حسام السامرائي، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية، ١٩٧١، ص ٢٨٦.

الفصل الثاني

النظام المالي في الشام

قبل البحث في النظام المالي الذي طبق في بلاد الشام، لا بد من ملاحظة بعض النقاط التي تتعلق بالنظام المالي بشكل عام في صدر الإسلام، فبعض الضرائب والتدابير العملية مثل الجزية، فردية أو مشتركة، والعشر والزكاة ومعاملة الأراضي العربية فرضت في عهد الرسول (صلعم) وكان لها أثرها على نظام الضرائب[1]. كما أن نظامي الضرائب اللذين وجدهما العرب في الأراضي المفتوحة استعملا مصطلحات لم يخل بعضها من تداخل، مثل خراج في المشرق وجزية في مصر، وقد أثّر هذا في استعمال المصطلحات في صدر الإسلام، إذ أن ما يبدو من تداخل في استعمال كلمتي خراج وجزية لم يكن نتيجة عدم التمييز بين الضريبتين، وإنما هو من بقايا الارث المحلي[2]. ولم تكن هناك سابقة واضحة للخراج بمعنى ضريبة الأرض في فترة الرسالة، إذ أن الرسول قرر أن الأراضي العربية في الجزيرة لاتدفع إلا العشر بينما قرر الخليفة عمر فرض ضريبة الخراج على الأرض المفتوحة عنوة كالسواد وأرض الشام[3]، وترك الأرض بيد أصحابها فتكون فيئاً للمسلمين[4]. ومن الغريب أن عدداً كبيراً من المستشرقين، أمثال فلهوزن

(١) د. عبد العزيز الدورى، نظام الضرائب في صدر الإسلام، ملاحظات وتقييم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٢، م ٤٩، دمشق ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م ص ١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٢٨، ٢٩. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٣٧٦.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص ٣٠.

Wellhausen وبيكر Becker وكايتاني Caetani وأدولف جروهمان Adolf Grohman ومارتن هارتمان Martin Hartman وغيرهم، متفقون على أن المصادر الإسلامية تميل إلى أن تنسب إلى عمر بن الخطاب كثيراً من التنظيمات التي تمّت في وقت متأخر ليكسبوا هذه التنظيمات قوة، وأن العرب لم يكونوا يميزون بين ضريبة للرأس وأخرى للأرض، وأن الجزية والخراج كلمتان مترادفتان تستخدمان بمعنى اتاوة، وأن التمييز قد حدث في وقت متأخر، وان لم يكونوا متفقين في تحديد ذلك الوقت، ففلهوزن يعتبر سنة ١٢١ هـ السنة التي ظهر فيها هذا التمييز في خراسان، بينما يرى بيكر أن ذلك حدث سنة ١٠٦ هـ أو ١٠٧ هـ في مصر ويجعل جروهمان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة(٥)، ويتساءل دانيل دينيت، Daniel Dennette، لماذا نتهم الفقهاء بأنهم ينسبون إلى الخلفاء الأوائل تنظيمات ظهرت في عهودهم وهم يذكرون أموراً تمّ تطبيقها في عهد الخلفاء الراشدين ولكنها لم تكن مطبقة في فترة متأخرة؟ فكايتاني مثلا يرفض الرواية التي تقول بأن جزية تقدر بدينارين قد فرضت على كل مصري عند الفتح، في حين أن جزية الدينارين لم تكن مطبقة في الفترة التي كان يعيش فيها ابن عبد الحكم، فما هي غاية ابن عبد الحكم من أن ينسب ذلك إلى عمر بن الخطاب؟ ويذكر البلاذري أن عمر قد وضع الخراج في السواد وأنه جعل ذلك ضريبة ثابتة على كل جريب من الأرض(٦)، في حين أن نظام المقاسمة هو الذي كان مطبقاً منذ عهد المهدي العباسي(٧١)، فلماذا لم ينسب البلاذري هذا النظام الذي كان مطبقاً في عهده إلى عمر(٨)؟. ثم إن المصادر الإسلامية في الواقع تذكر بوضوح كامل أن العرب اتبعوا أسلوباً معيناً في مصر، وآخر في الشام، وثالثاً في العراق، ورابعاً في خراسان، فجزية الدينارين لا تذكر سوى في مصر، في حين تذكر الروايات أن عمر أمر بمسح السواد فوضع الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض(٩)، فلم يكن هناك من نظام ثابت

(٥) Daniel Dennette. Conversion and The Poll Tax in Early Islam, PP. 4-6.

(٦) البلاذري، فتوح ص ٢٦٨.

(٧) المصدر السابق ص ٢٧١.

(٨) D. Dennette. Op. Cit. P. II.

(٩) البلاذري، فتوح، ص ٢١٦، ٢٧٠.

للجزية والخراج ، ولانجد فقيها مسلما واحدا يؤكد أو يدّعي وحدة التطبيق في كل أطراف الدولة الإسلامية ، بل ان الروايات تشير إلى العكس من ذلك. وتحاول أن تظهر الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة ، ولا تحاول مطلقا تقديم صورة لنظام موحد في كل أجزاء الدولة الإسلامية ، فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة لأنها تأثرت بالأوضاع المحلية ، فالوضع في خراسان لم يكن مشابها للوضع في السواد أو الشام أو مصر ، ومن ثم فان التنظيمات التي أجراها نصر بن سيار في خراسان(١٠) لا يمكن فهمها إلاّ في نطاق ولايته ولا تلقي ضوءاً على الأوضاع المالية في ولاية أخرى ، ثم ان العرب ميّزوا منذ البدء بين ضريبة الرأس وضريبة الأرض بالرغم من التبادل بالألفاظ كقول أبي يوسف مثلا خراج على الرؤوس(١١) ، وكقول البلاذري أرض الجزية(١٢) ، لأن القرينة قد حددت المعنى المقصود وأكدت وجود ضريبتين متميزتين منذ البدء ، ثم ان مجال الاعفاء من ضريبة أو أخرى يساعد بدوره على تأكيد التمييز بين الضريبتين ، فهناك روايات متعددة متعلقة بأرض العنوة ، تشير إلى طرح الجزية عن من أسلم(١٣) ، بينما تبقى الأرض خراجية لأنها فيء للمسلمين(١٤) .

لا يمكننا فهم النظام الضريبي في الشام إلا بالعودة إلى النظام المالي البيزنطي الذي كان مطبقاً فيها ، ودراسة بعض أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي قد يبدو لأول وهلة عندما تدرس الروايات المختلفة بعهود الصلح التي عقدت مع بعض المدن الشامية .

ان معلوماتنا عن النظام المالي البيزنطي قليلة جداً ، تعتمد كما يقول دانيل دينيت على استنتاجات مبنية بشكل خاص على دراسة مجموعة القوانين السورية اليونانية ، إلا

---

(١٠) من أجل التنظيمات التي قام بها نصر بن سيار في خراسان يمكن العودة إلى «الإدارة في العصر الأموي» ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(١١) أبو يوسف ، الخراج ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .

(١٢) البلاذري ، فتوح ص ٣٢٦ .

(١٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٥٤ ، يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٧ .

(١٤) ابن عبد الحكم ، ص ٧ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٨ ، أبو عبيد الأموال ، ص ٧٢ .

أن الملامح الأساسية للمؤسسات البيزنطية في الشام تعود إلى عهد قسطنطين Constantine وديوكليسيان Diocletian واصلاحاتهما ، فقد أمر ديوكليسيان باجراء احصاء للأرض والناس أدّى إلى تقسيم المنطقة إلى وحدات لا تتساوى بالمساحة وإنما في قيمة المحصول ، وكانت هذه الوحدة يطلق عليها اسم iugum وكانت كل وحدة تدفع نفس الضريبة الثابتة ، وأخذ الاحصاء بعين الاعتبار عدد الوحدات التابعة لكل مدينة ذات حكومة محلية Municipality وما يتبعها من أرض وقرى وضياع ، وفي كل سنة عند اعلان الضريبة الأساسية عن الوحدة ، كان على موظفي المدينة ذات الحكم المحلي Curials أن يقوموا بجمع مقدار من المال يساوي مقدار الضريبة الأساسي عن الوحدة مضروبا في عدد وحدات كل مدينة[١٥] . ومن الواضح أن الأساس في هذا البناء المالي كان المدينة ذات الحكومة المحلية ، الأمر الذي يفسر لنا كثرة المعاهدات التي عقدها العرب في الشام إن هذه الضرائب التي كانت تفرض على الوحدة لم تكن ثابتة بقدر ما كانت تختلف تبعا للظروف ، وكانت قيمة الضريبة تعتمد على قرارات السلطات العسكرية أو المدنية ، وكان هذا يسبب الاجحاف لدافعي الضرائب وللخزينة في نفس الوقت[١٦] .

إلى جانب الأراضي العامة في المدينة والقرى ، كانت هناك ضياع امبراطورية وأخرى خاصة لها امتيازات معينة ، وأراض صغيرة يملكها مزارعون أحرار[١٧] ، أما العمل الزراعي الأساسي فكان يقوم به بشكل واسع عبيد الأرض Coloni ، ثم إن الدولة كانت قد اعتادت أن تمنح أراضي بعقود طويلة الأمد ، ولذلك ظهر في القرن الخامس عادة منح أرض الموات لمن يريد احياءها مقابل دفع أجر ثابت ، وكان هذا الاجراء يطلق عليه اسم Emphyteusis[١٨] .

كان النظام البيزنطي سبباً في عسف كبير كان ينعكس أثره خاصة على موظفي

(١٥) D. Dennette, OP. Cit. P. 51.

(١٦) Andre M. Andreades, Public Finances, Byzantium, II P. 48.

(١٧) Dennette, Op. Cit. P. 52.

(١٨) Bury, History of Later Roman Empire, Vol. 1 PP. 57-59.

Ostrogorsky, George, History of The Byzantine State, Tr. Joan Hussey, Oxford, 1956, P. 39.

الحكومة المحلية[١٩]، الذين ألقيت على عاتقهم مسؤولية جمع مقدار معين من المال كل عام، فإذا حدث لسبب من الأسباب أن خرجت عن سلطتهم أرض من مجموع الأراضي التي كانوا مسؤولين عن جمع ضرائبها، فان العبء على بقية الجماعة كان يزيد بذلك المقدار[٢٠]، كما أن بعض أصحاب الضياع كان يملك حق دفع الضرائب مباشرة للحكومة الامبراطورية وليس عن طريق موظفي المدينة وكان هذا الحق يسمي أوتوبراجيا autopragia وكانت هذه الضياع تسمى Agri Excepti وكانت ملكا للأشراف والكنيسة، هذه الأراضي لم تكن معفاة من الضرائب ولكنها كانت خارج سلطة موظفي الحكومة المحلية، وكان لها وضع متميز، دفع عدداً كبيراً من الملاكين الصغار أن يلحقوا أراضيهم بهؤلاء الأشراف ليحصلوا على حمايتهم، وهكذا ازدادت أراضي هؤلاء الحماة من الأشراف وخف العبء الضريبي عن أتباعهم، وازدادت أعباء الموظفين المحليين حتى أضحوا عاجزين عن مواجهة مسؤولياتهم. وبالرغم من التشريعات كان الامبراطور عاجزا عن القضاء على هذه الحركة، لاسيما وأن هذه التشريعات تسمي هؤلاء بتسميات مختلفة[٢٠آ]، بمعنى أن هؤلاء لم يكونوا يمثلون الفلاحين المرتبطين بالأرض فقط، وإنما كل الطبقات. وليس في مقدور الباحث أن يقدر مدى اتساع الأراضي العامة والكنسية والخاصة والامبراطورية، ولكن كايتاني يميل إلى الاعتقاد أن أراضي المدينة ذات الحكومة المحلية كانت واسعة المدى ثم تليها الأراضي التابعة للكنيسة ثم الممتلكات الامبراطورية والخاصة، وقد بنى استنتاجه هذا على مافعله الأمويون عندما منحوا الاقطاعات لاتباعهم. فقد تبين له أن معظم هذه الاقطاعات كانت في العراق، بينما كانت الاقطاعات قليلة في الشام، وكانت هذه الاقطاعات تعطى من أرض الصوافي وهي الأراضي التي كانت ملكا للامبراطور والأشراف[٢١]،

---

(١٩) Bury, OP. Cit. Vol. I PP. 46-48.

(٢٠) Francis de Zulucta, de Patrociniis Vicorum, Oxford Studies in Social and Legal History, Paul Vinogradoff. ed. 1909. PP. 10-II.

(٢٠) آ Coloni, Vicanı, agricolae, possessores, homologicoloni, metrocomiae, (George Mclean Harper Village Administration of The Roman Province of Syria, Princeton, 1908. pp.58, 62.

(٢١) Caetani, Annali, Vol. V. pp. 438-439.

ولكن دانيل دينيت يبين أن الروايات المتعلقة بالشام قليلة إذا ما قيست بالروايات المتعلقة بالعراق، وهذا يفسر جهلنا بالاقطاعات في بلاد الشام، كما أن الأمويين، لمصلحتهم السياسية، كانوا يفضلون منح اقطاعات لاتباعهم المخلصين في العراق، ولذلك لا يمكن اطلاقا، كما يقول، أن نقدّر ولو تقديراً مبدئياً نسبة هذه الأراضي، ونسبة الطبقات المختلفة بعضها إلى بعض[٢٢].

بالإضافة إلى ضريبة الأرض، وجدت ضريبة الرأس، إلا أن الاختلاف بين المؤرخين كبير حول هذا الموضوع، كما أن الجدال حول هذه النقطة يلقي ضوءاً على الجدال الذي قام حول قضية جزية الرأس الإسلامية.

يتفق الجميع على وجود ضريبة رأس في أوائل عهد الامبراطورية، وأن هذه الضريبة كانت تجبى حسب رأي أولبيان Ulpian من كل الذكور من ١٤ — ٦٥ ومن الاناث كذلك[٢٣]، أما بيجانول Piganiol وثيبولت Thibault فيشيران إلى أن ضريبة الرأس Tributum Capitis قد ألغيت في عهد قسطنطين، في حين يحاول فرديناند لوت Ferdinand Lot أن يبرهن على وجود ضريبة للرأس في فترة الفتح الإسلامي، وقد بنى استنتاجه على ماورد في مدونة جستنيان، وعلى دراسة للقوانين التي صدرت في سنوات مختلفة سنة ٣٦٨م، ٣٧٠م، ٣٧٤م، ٣٧٥م، وأماكن مختلفة كانت تعفي دهماء المدن والنساء غير المتزوجات والأولاد والمسنين وذوي العاهات من جزية الرأس، ويضيف لوت شواهد إضافية تبرهن على أن الطبقة الارستقراطية في المدن والتجار والعمال الذين يدفعون ضريبة aurumnegotiatorum وضريبة Chrysargyron لم يكونوا يدفعون ضريبة الرأس، واستنتج لوت أن ضريبة الرأس أصبحت بعد القرن الرابع الميلادي تجبى فقط من الفلاحين وأصبحت سمة لهذه الطبقة من المجتمع[٢٤]، ودلالة على الذلة كما يتبين من التعبير Plebaiae Capitationis injuria[٢٥].

(٢٢) D. Dennette Op. Cit. P.53.

(٢٣) Ibid., p.53 Harper, Op. Cit., p.60.

(٢٤) Dennette, pp. 54-55. Ostrogorsky, Op Cit., 37, 38-39.

Hodgson, Marshal. G.S. The Venture of Islam, Conscience and History in a World of Civilization, The University of chicago Press. p.242.

(٢٥) Dennette, Op. Cit, p.55.

إذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار، أمكننا الآن أن نتتبع أحداث الفتح الإسلامي للشام مبتدئين بحمص حيث نلاحظ مجموعة من الروايات التي قد تبدو متناقضة لأول وهلة عندما نغفل الفترة الأولى قبل استقرار التنظيم ونغفل التطور الحاصل، فقد أورد البلاذري رواية أبي مخنف التي تذكر أن أهل حمص صالحوا المسلمين على مائة ألف وسبعين ديناراً[٢٦]، ثم يورد الواقدي بأنه بينما كان المسلمون على أبواب مدينة دمشق إذ أقبلت خيل للعدو كثيفة، فخرجت إليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لهيا والثنية، فولّوا منهزمين نحو حمص، على طريق قارة، واتبعوهم حتى وافوا حمص، فلقوهم قد عدلوا عنها، ورآهم الحمصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقل عنهم، وما كان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم، فأعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأمان، فأمنهم المسلمون، وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي[٢٧]، فلما فرغ أبو عبيده من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ثم قدم حمص على طريق بعلبك، فصالحه أهل حمص على أن أمنّهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم[٢٨]، ثم ينقل رواية عن أبي حفص الدمشقي بأنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم إليهم وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم... فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأدوا الخراج[٢٩].

ويورد الطبري في أحداث سنة ١٥ هـ حول فتح حمص وعن أشياخ من غسّان وبلقين أن أهل حمص صالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أبدا أيسروا أو أعسروا، وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص، وكذلك كان صلح دمشق والأردن بعضهم على شيء إن أيسروا وان أعسروا وبعضهم على قدر طاقته، وولوا معاملة ماجلا ملوكهم عنه[٣٠].

(٢٦) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦.
(٢٧) البلاذري، ص ١٣٦، ١٣٧.
(٢٨) المصدر السابق، ص ١٣٧.
(٢٩) المصدر السابق، ص ١٤٣.
(٣٠) الطبري، ج ٣، ص ٦٠٠، ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ص ٢٧.

ان هذه الروايات المتعددة إذا اقترنت بمراحل الفتح زال عنها هذا التضارب، إذ أن رواية الواقدي تعطي تفسيراً لرواية أبي مخنف، بأن أول حملة وجهت إلى حمص كانت قبل فتح دمشق لرد تلك القوة التي وجهت للعرب المحاصرين لدمشق وكان قائدها السمط بن الأسود الكندي الذي أمّن أهل حمص مقابل دفعهم لمائة ألف وسبعين ديناراً، فقد كان العرب بحاجة إلى الأموال من جهة، وكان أهل حمص بحاجة إلى أن يشعروا بالأمان، وكان هذا الوضع شبيها بصلح الحيرة، ولكن هذا الصلح جدد بعد أن انتهى أبو عبيدة من فتح دمشق، ويورد أبو حفص أن أبا عبيدة صالحهم على نحو صلح بعلبك ففرض على من أقام من أهل بعلبك الجزية والخراج[٣١]، فلما تقدّم هرقل اضطر العرب إلى سحب قواتهم من حمص وأعادوا الخراج لأنهم لم يكن بامكانهم نصرة أهل حمص والدفاع عنهم، وبعد معركة اليرموك دخل العرب حمص مرة أخرى، واتبع العرب وفق رواية الطبري أسلوبين في الشام، فبعضهم صالح على أساس دفع ضريبة ثابتة تقدر بدينار وطعام عن كل جريب سواء أيسروا أو أعسروا في حين صالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه، وان نقص، نقص[٣٢].

استناداً إلى هذه الرواية بنى بيكر Becker استنتاجه بأن العرب قد احتفظوا بالنظام البيزنطي حيث كانت أراضي الدولة والأراضي ذات الامتيازات الخاصة Autopract تدفع ضريبة تتناسب مع المحصول، في حين كانت الأراضي العامة التابعة للمدينة ذات الحكومة المحلية تدفع ضريبة ثابتة[٣٣]. ويمكن اعتبار فرضية بيكر مقبولة لا سيما أننا نلاحظ فرض جزية ثابتة مؤلفة من دينار وجريب في صلح أنطاكية ومنبج ودلوك ورعبان[٣٤]، وفي صلح دمشق[٣٥] وحلب[٣٦]، وصلح طبرية وبيسان[٣٧]،

---

(٣١) البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

(٣٢) الطبري، ج٣، ص ٦٠٠.

(٣٣) Dennette, Op. Cit., P.58.

(٣٤) البلاذري، فتوح، ص ١٥٢ ـ ١٥٥، ودلوك بليدة من نواحي حلب ورعبان مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات.

(٣٥) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٣٧) الطبري، ج٣، ص ٤٤٤.

وصلح بصرى(٣٨)، ومن الطبيعي أن يعتمد العرب على المسؤولين عن الادارة المحلية للمدن في المعاهدات وعقود الصلح التي عقدوها معهم وأن يتخذوهم وكلاء عنهم في اجتباء الضرائب(٣٩)، فهل تبنّى العرب كذلك النظام البيزنطي القائم على أساس الوحدة المتساوية في قيمة المحصول أي Iugum.

انه افتراض مغر أن نرى في ضريبة الدينار العربية على كل رجل وضريبة الدينار عن كل وحدة التي قررها الامبراطور في المنشور السنوى delegatio شيئاً واحداً، وقد يؤيد هذا القول، أن هذه الوحدة نظرياً تساوي مساحة الأرض التي يستطيع رجل واحد القيام بزراعتها(٤٠)، ولكن ليس ثمة من دليل واحد لسوء الحظ يؤيد هذه النظرية، كما أننا لا نستطيع تجاهل الاجماع في الروايات على أن الضريبة كانت على الفرد، هذا إلى أن الادارات المحلية ذاتها في المدن كان لديها من الحوافز القوية ما يدعوها إلى التخلص من الطريقة المعقدة المتبعة في النظام البيزنطي، في حين أن جمع مبلغ سنوي يساوي عدد الذكور البالغين من السكن أمر يسهل إدراكه وتنفيذه، وقد تبنّى العرب هذا المبدأ في الجزيرة ومصر، وبالرغم من ابقاء العرب على ضريبة الأرض والرأس وضريبة الغلال في مصر، إلا أن الطريقة التي اتبعت في جباية وجمع الضرائب تحسنت نتيجة Embole لتبسيطها، فاذا لم يحافظ العرب على النظام البيزنطي كما هو في مصر، فمن الصعب أن نفترض ابقاءهم لهذا النظام في الشام(٤١)، وبينما نجد شواهد كثيرة عن تبني العرب للنظام الساساني في الشرق، فان الاشارات المتعلقة بهذا الخصوص بالشام غير متوافرة، بل ان الرواية السريانية المجهولة المؤلف تنص على العكس، إذ تذكر أن الخليفة قد أمر قواده عند اجراء الصلح أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة «يبقون إذا شاؤوا

---

(٣٨) البلاذري، ص ١٢٠.

(٣٩) الطبري، ج ٣، ص ٦٠٠. Dennette, Op. Cit., P. 59.

(٤٠) كانت الدولة تحرص على أن يكون لكل وحدة فلاح، وقد أصبح هذا العمل صعبا نتيجة لانخفاض نسبة السكان العاملين في الأرض من جهة وقلة عدد الفلاحين الذين كانوا كثيرا ما يهربون نتيجة للفقر وللأوضاع غير المستقرة في المنطقة، ولذلك كانت الدولة تعمد بكل وسيلة ممكنة أن تربط الفلاح بمساحة الأرض التي عهدت إليه. (Ostrogorsky, Op. Cit., p.38.)

(٤١) Dennette, p.60.

يواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح ، ولكن عليهم أن يؤدوا الضريبة حسبما فرضت عليهم[٤٢] » . ولذلك يرجح أن يكون فرض الضرائب على أساس الوحدة iugum قد انتهى بالفتح العربي ، وأن موظفي الادارة المحليين جمعوا بدلاً من ذلك مبلغاً من المال على أساس عدد السكان من الذكور ومساحة الأراضي .

ان أول تغيير في النظام البيزنطي حدث عندما قرر عمر فرض ضريبة الرأس على الجميع[٤٣] ، إلا العبد المسيحي فلم يكن عليه جزية سواء أكان سيده مسلماً أم من أهل الذمة[٤٤] ، وبذلك ألغى الامتيازات التي تتمتع بها بعض الطبقات والتي كانت معفاة منها ، ويشير ميخائيل السرياني إلى أن عمر أمر باجراء احصاء من أجل ضريبة الرأس التي فرضت على النصارى في سنة ٩٥١ من الحكم البيزنطي أي ٦٣٩ ، ٦٤٠م / ٢٠ هـ، ويذكر ثيوفانس أنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل عمد عمر إلى اجراء احصاء للرجال والأراضي والحيوانات وأشجار النخيل[٤٥] .

والروايات التي تتحدث عن جبلة بن الأيهم ، بالرغم من اختلافها في بعض النقاط ، فانها تتفق بأن عمر عرض الإسلام على جبلة مع أداء الصدقة أو البقاء على دينه ودفع الجزية ، فأنف منها[٤٦] ، لانه عربي والجزية لا يدفعها إلا العلوج ، وهذه الرواية تؤكد ماذكر سابقاً أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي ، وكانت دلالة على المهانة والمذلة ، ومن الواضح أن الملك الغسّاني لم يكن يدفع هذه الضريبة للبيزنطيين ، وأنفته من هذا الصغار هي التي دفعته إلى ترك الشام ودخول بلاد الروم[٤٧] .

---

(٤٢) «Vivent Secundum Leges Corum et Secundum quos habebànt ante tempus nostrum; sed tributum secundum definitionem inter Vos statum solvant» Dennette p.60.

(٤٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ .

(٤٤) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٥٥ .

(٤٥) Dennette, Op. Cit. p.61.

(٤٦) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٢ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

نلاحظ أن كل المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام والجزيرة تنص على وجود جزية وخراج(٤٨)، وان كان التركيز في المرحلة الأولى كما سيتبين لنا هو على الجزية، فقد كانت الجزية في الشام في بادىء الأمر جريبا ودينارا على كل جمجمة(٤٩)، وذكر بعض الرواة أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم أن ألزم كل رجل من الجزية ديناراً وجريب حنطة وخلا وزيتا لقوت المسلمين(٥٠)، ونجد ذكرا لهذه الجزية التي قيمتها دينارا وجريب طعام في رواية سيف المتعلقة بصلح بيسان وطبرية وأن هذا الصلح كان على صلح دمشق(٥١)، ويشير البلاذري إلى أن صلح بصرى كان أيضاً ينص على أداء الجزية عن كل حالم دينارا وجريب حنطة(٥٢)، وكذلك صلح حلب(٥٣)، وفرض عياض ابن غنم على سكان الجزيرة جزية واحدة في المدن والقرى، فألزم كل رجل منهم دينارا في كل سنة وأخرج النساء والصبيان ووظف عليهم مع الدينار أقفزة من قمح وزيت وخل وعسل(٥٤).

هذه الجزية الموحدة المؤلفة من دينار وأرزاق لم يلبث أن أصابها التعديل، إذ أن رواية أبي عبيد تشير إلى أن عمر عمد بعد ذلك إلى جعلها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعين درهما على أهل الورق وجعلهم طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط(٥٥). وتتفق رواية عمرو الناقد عن أسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حماد بن أبي حنيفة عن أسلم مولى عمر، بأن عمر بن الخطاب كتب إلى امراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى، على أهل الورق، على كل رجل أربعين درهما وعلى أهل الذهب أربعة دنانير، إلا أن الرواية الأولى تضيف: «وأن عليهم من

---

(٤٨) المصدر السابق، ص ١٢٢ ــ ١٢٤ ــ ١٣٧ ــ ١٧٦.

(٤٩) المصدر السابق، ص ١٣٠ ــ ١٣١

(٥٠) البلاذري، ص ١٣١.

(٥١) الطبري، ج ٣، ص ٤٤٤.

(٥٢) البلاذري، فتوح، ص ١٢٠.

(٥٣) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٥٤) المصدر السابق، ص ١٧٧، ١٧٩.

(٥٥) المصدر السابق، ص ١٣٠ ــ ١٣١.

أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت، مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل إنسان بالشام والجزيرة وجعل عليهم ودكا وعسلا، أما في الرواية الثانية فيذكر أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام(٥٦).

ويبدو أن الأرزاق فرضت على أهل الريف فقط دون أهل المدن، وذلك لأن الأرضين لهم وبامكانهم دفعها، فيذكر أبو يوسف: «أنهم إنما فعلوا ذلك لأن أهل الرساتيق هم أصحاب الأرضين والزرع وأهل المدائن ليسوا كذلك(٥٧)».

كانت الجزية في عهد الخلفاء الراشدين تجبى عينا ونقدا، فكان أهل الذمة إذا جاؤوا بعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك يؤخذ منهم بالقيمة، ولم يكن يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر(٥٨)، لأن عمر بن الخطاب كان قد نهى عن أخذ ذلك منهم في جزيتهم، وطلب من أهل الذمة أن يولوها أربابها لبيعها، وأن يأخذ عامل الخراج أثمانها إذا كان هذا أرفق بأهل الجزية(٥٩).

ويبدو أن معاوية منذ بدء خلافته قد عمد إلى جعل جباية الجزية نقداً، هذا ما نفهمه من الرواية التي يوردها البلاذري عندما يذكر صلح عياض مع أهل الرها وأنه الزم كل رجل منهم دينارا في كل سنة ووظف عليهم مع الدينار اقفزة من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل، فلما ولي معاوية جعل ذلك جزية عليهم(٦٠)، بمعنى أن قيمة هذه الأرزاق أصبحت تدفع نقدا. ولدينا نص آخر يورده البلاذري يوضح ذلك الاتجاه إلى جباية الجزية والخراج نقدا في عهد الأمويين من أن أبا عبيدة بن الجرّاح صالح السامرة بالأردن وفلسطين وكانوا عيونا وأدلاء للمسلمين على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم، فلما كان عهد يزيد بن معاوية، وضع الخراج على أراضي السامرة بالأردن وجعل على

---

(٥٦) المصدر السابق ص ١٣١، أبو عبيد، الأموال، ص ٣٩ — ٤٠.
(٥٧) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٨.
(٥٨) الصولي، أدب الكاتب، ص ٢١٥.
(٥٩) أبو يوسف، الخراج، ص ٦٩.
(٦٠) البلاذري، فتوح، ص ١٧٨.

رأس كل امرىء منهم دينارين ووضع الخراج على أرضهم بفلسطين وجعل على رأس كل منهم خمسة دنانير(٦١).

وفي خلافة عبد الملك جرى التعديل الذي يحدثنا عنه أبو يوسف، إذ أن عبد الملك استقل ما كان يؤخذ من أهل الجزيرة، فأرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً، أي أن جزية موحدة ونقدية قدرها أربعة دنانير فرضت على كل فرد، ويشير النص إلى أن هذا التعديل قد طبق في الجزيرة وليس ثمة اشارة إلى أنه طبق في الشام(٦٢).

أخذت الجزية في الشام والجزيرة كما في عهد الرسول من أهل الذمة، فقد أمر الرسول أن يقاتل أهل الكتاب من العرب وغير العرب حتى يعطوا الجزية، وقد قبل الرسول الجزية من العرب، فقد قبلها من أهل اليمن وهم عرب إذ كانوا أهل كتاب، وقبلها أبو بكر من أهل الحيرة حين افتتحها خالد بن الوليد صلحا وهم أخلاط من أفناء العرب من تميم وطيء وغسان وتنوخ(٦٣). إلاّ أن قادة العرب واجهتهم في الشام والجزيرة قضية العرب الذين رفضوا دفع الجزية أنفة فقد رفض جبلة بن الأيهم كما رأينا دفعها وغادر بلاد الشام إلى بلاد الروم، مما دفع عباده بن الصامت إلى معاتبة عمر قائلاً له، «لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته(٦٤)» ولذلك اضطر عمر أن يضعف الصدقة على نصارى تغلب إذ عندما أراد أن يأخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين، فقال له زرعة بن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبي: «أنشدك الله فيهم، فانهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية، فلا تعن عدوك عليك»، فأضعف عليهم الصدقة وشرط

(٦١) المصدر السابق ص ١٦٢ ــ ١٦٣.

(٦٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٩.

(٦٣) البلاذري، فتوح، ص ١٧٨، أبو عبيد، الأموال، ص٢٨، ابن قتيبة المعارف ص ٢٣٩.

(٦٤) البلادري، فتوح، ص ١٤٢.

عليه أن لا ينصروا أولادهم[٦٥]، أي أن تؤخذ الصدقة مضاعفة على صدقة المسلمين من كل شيء على المسلمين فيه الزكاة، من الإبل والبقر والغنم والزرع والثمار، ولا يؤخذ من أقل مما تجب في الزكاة على المسلم في خمس من الإبل شاتان، وفي أربعين من الغنم شاتان، وفي ثلاثين من البقر تبيعان... الخ[٦٦]، وبما أن ما فرض على بني تغلب هو صدقة مضاعفة فالمرأة والرجل من بني تغلب في الصلح سواء لأنه ليس على رؤوسهم وإنما هو على أرضهم، وكذلك من كان عليه دين ومن لم يكن عليه دين فهو سواء يؤخذ منهم جميعا[٦٧]. واختلف الفقهاء في صبيان من بني تغلب، فقال البعض أنه لا يؤخذ من أرضيهم شيء، ولا من مواشيهم لأنه لا يؤخذ من صغار المسلمين العشر، بينما قال البعض الآخر يؤخذ منهم لأن اليتيم الصغير يزكي ماله[٦٨]. وبالرغم من أن ما فرض على نصارى تغلب هو ضعف الصدقة التي تؤخذ من أرض المسلمين، إلا أن سبيل ما يؤخذ من أموال بني تغلب سبيل مال الخراج، لأنه بدل الجزية وفي هذا اجماع[٦٩].

وكان للجَراجِمة وضعهم الخاص كذلك، لأن حبيب بن مسلمة الفهري عندما غزا الجُرجُومَة، لم يقاتله أهلها، ولكنم بدروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللُكام وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين إذا حضروا معهم حربا في مغازيهم، ودخل كل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح، فسموا بالرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم[٧٠]. أي أن حبيب ابن مسلمة وضع الجزية عن الجَراجِمة مقابل استعانة المسلمين بهم، وقد اتبع قادة

---

(٦٥) المصدر السابق، ص ١٨٧، أبو عبيد، الأموال، ص ٢٨، ابن قتيبة، المعارف ص ٢٤١.

(٦٦) يحيى بن آدم، الخراج، ص ٦٧، فقرة ٢١٠، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، أحكام بني تغلب، ص ٧٥ــ ٨٦.

(٦٧) يحيى بن آدم، الخراج، ص ٦٦، فقرة ٢٠٩.

(٦٨) المصدر السابق، ص ٦٧، فقرة ٢١٠.

(٦٩) البلاذري، فتوح، ص ١٨٧.

(٧٠) المصدر السابق، ص ١٦٤.

العرب ذلك في عهودهم المختلفة، نجد ذلك في معاهدة جرجان، ومعاهدة عبد الله بن عامر مع عظيم هَرَاةَ وبوشَنْج وباذَغيْس[71] وفي معاهدة عُتبة بن فَرْقَد مع أهل اذربيجان. ومعاهدة سُراقة بن عمر مع شَهَربراز وأهل أرمينية[72]، إذ نجد تكرارا لهذه العبارة، «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً عن جزائه». ومن الغريب أن الأمويين بالرغم من موقف الجَراجِمة المتقلب «إذ أنهم كانوا يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى» فانهم لم يفرضوا عليهم الجزية، وعندما طلب الوليد بن عبد الملك من قائده مسلمة بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ أن يخرب مدينتهم الجُرجُومَة سمح لهم أن ينزلوا حيث أحبوا من الشام وأن يجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير، وعلى عيلاتهم القوت من القمح والزيت، وأن لا يؤخذ من أولادهم الجزية، على أن يغزوا مع المسلمين، فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من مال[73].

الملكية العقارية وضريبة الأرض أو الخراج

يتضح من الروايات المتعلقة بمعاهدات الصلح في الشام ذلك التمييز الواضح بين الجزية والخراج، فنجد عمرو بن العاص يعطي الأمان في خلافة أبي بكر لغزة ثم سبسطية ثم نابلس على «أن يؤدوا الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم[74]»، وأن أهل إيلياء طلبوا الصلح على مثل ماصولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج[75]، وسأل أهل فحل الأمان على اداء الجزية على رؤوسهم والخراج عن أرضهم[76]، وصالح أبو عبيدة أهل حماة على الجزية على رؤوسهم والخراج عن

---

(٧١) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق، ص ١٦٧، ص ٣٦١.
(٧٢) المرجع السابق، ص ٣٦٣، ٣٧٤.
(٧٣) البلاذري، فتوح، ص ١٦٥ — ١٦٦.
(٧٤) المصدر السابق، ص ١٤٤.
(٧٥) المصدر السابق، ص ١٤٤.
(٧٦) المصدر السابق، ص ١٢٢.

أرضهم[٧٧]، وكذلك فعل أهل معرة حمص وافاميه[٧٨]، كما نلاحظ التركيز دوما على أن المدن صولحت بالرغم من مقاومتها في بادىء الأمر وأن الأرض أخذت عنوة، ففي رواية الهيثم بن عدى أن شرحبيل بن حسنه فتح مدن الأردن وحصونها على صلح طبرية فتحا يسيرا بغير قتال وأنه غلب على سواد الأردن وجميع أرضها[٧٩]، وأن المسلمين افتتحوا جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها[٨٠]. وأن جميع أرض البثنية أرض خراج[٨١]، وأن يزيد غلب على أرض البلقاء[٨٢]، وعندما صالح عياض بن غنم بطريق أهل مدينة الرها وأمّنهم، وضح له بأن الأرض للعرب «الأرض لنا قد وطئناها واحرزناها[٨٣]» وفتح عياض الرقة، وحرّان، والرها، ونصيبين، وميافارقين، وقرى الفرات ومدائنها صلحا وأرضها عنوة[٨٤].

ويبدو أن المسألة في مدلول صلح وعنوة لدى الفقهاء هي تعبير عن الطريقة التي كانت تؤخذ فيها الضرائب ابتداء، فان كانت جزية رأس فقط فهي صلح، وان كانت خراجا فهي عنوة، وهذا ماحصل أثناء الفتح وقبل بداية التنظيم الضريبي سنة ٢٠، ٢١ هـ فقد عقدت عهود صلح مع المدن أخذت منهم فيها الجزية، بينما لم يحدث ذلك في الريف حيث وضعت عليهم الجزية إلى جانب الأرزاق عن الأرض ابتداء، ثم مسحت الأراضي بعد استقرار الأوضاع، ووضع الخراج عليها، وعلى هذا فقد قال الفقهاء، ان مدن الشام والجزيرة والحيرة وبانقيا وألّيس صلحا وباقي الأرض أي الريف عنوة[٨٥].

---

(٧٧)

(٧٨)

(٧٩) المصدر السابق، ص ١٢٣، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٤٧.

(٨٠) المصدر السابق، ص ١٢٢..

(٨١) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٨٢) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٨٣) البلاذري، ص ١٧٧.

(٨٤) المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٨٥) أبو يوسف، الخراج، ص ٨٢، أبو عبيد، الأموال، ص ٤٠٠.

والأرض التي تفتح عنوة تكون في حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقا للآية الكريمة «واعلموا ان غنمتم من شيء، فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[٨٦]»، أما الباقي فيقسم بين الجند من أهل الديوان وغيرهم[٨٧]. وحسب رواية هشام بن عمار، أن عمر لما قدم الجابية أراد قسمة الأرض بين المسلمين لأنها فتحت عنوة، فقال معاذ بن جبل «والله لئن قسمتها ليكونن ما نكره، ويصير الشيء الكثير في أيدي القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون الإسلام مسدا فلا يجدون شيئاً، فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم، فصار إلى قول معاذ[٨٨]». ونجد روايتين حول موضوع أرض الشام الأولى تشير إلى أن بلالا وأصحابه سألوا عمر بن الخطاب قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام، وأن يقسم الأرض بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر، وأن عمر أبى ذلك وتلا هذه الآيات «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم[٨٩]» وأن أبا عبيدة كتب بعد فتح الشام إلى عمر ينبئه أن المسلمين سألوه أن يقسم بينهم المدن وأهلها والأرض وما فيها من شجر وزرع وأنه أبى ذلك عليهم حتى يبعث إليه عمر برأيه[٩٠]، وكان من رأي عمر أنه «إذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما تسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق[٩١]؟». واستشار عمر المهاجرين الأولين فاختلفوا ثم أرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، وشرح لهم الموقف وفائدة ترك الأرض لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فيئا للمسلمين «المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم[٩٢]».

---

(٨٦) سورة الانفال، آية ٤١، أبو يوسف ص ٢٨.

(٨٧) أبو يوسف، ص ٢١، يحيى بن آدم، ص ٣، ابن تيمية، ص ٣٠.

(٨٨) البلاذري، ص ١٥٦.

(٨٩) أبو يوسف، ص ٢٩، البلاذري، فتوح ص ١٦٥، ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ١١٢.

(٩٠) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق، ص ٣٧٦.

(٩١) أبو يوسف، ص ٣٠.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٣٠.

رأينا أن كل الروايات المتعلقة بالفتح تشير إلى الأرزاق إلى جانب الجزية ولا توجد اشارات واضحة إلى ما فرض في الخراج، وربما كانت هذه الأرزاق تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة، كما أن الروايات المتعلقة بما فرض من خراج بعد ذلك غير متوفرة، ولكن استنادا إلى الرواية التي يوردها أبو يوسف والتي تتعلق بالتعديل الذي حدث في عهد عبد الملك(٩٣)، نستنتج أن الاجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق، من مسح للأراضي واختلاف فيما فرض على الأرض باختلاف نوع الحاصل، وطريقة الري، والبعد والقرب من الأسواق، وأن هذه الأمور لم تتم مرة واحدة وإنما تدريجياً، وتشير رواية تيوفانس(٩٤)، بأنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) عمد عمر إلى اجراء احصاء للرجال والأراضي والحيوانات والأشجار والنخيل، والسنة الثلاثين من حكم هرقل هي سنة ٦٤٠ م/ ٢٠ هـ وهي السنة التي تم فيها السيطرة على الشام والجزيرة، وانحسر فيها الخطر الفارسي عن العراق تقريباً فأصبح بالامكان تنظيم النواحي الادارية والمالية، لا سيما وأن ما يذكره تيوفانس يتفق مع ما يذكره الطبري، وخليفة بن خياط من أن الخليفة عمر بن الخطاب بعث ابن حنيف سنة ٢١ هـ لمساحة السواد مع عمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، فربما بدىء بمسح بلاد الشام والجزيرة أولاً، وبعد أن زال الخطر الفارسي المباشر أثر معركة نهاوند سنة ٢١ هـ عمد إلى مسح العراق(٩٥)، ولذلك فان نظرة سريعة إلى ما اتبع في العراق قد تلقي ضوءاً على ما طبق في الشام.

نلاحظ أن ابتداء الخراج في العراق كان درهما وقفيزا من القمح والشعير على كل جريب عامر أو غامر دون النظر إلى ما يزرع فيه من المحاصيل الأخرى(٩٦). ومن المتوقع أن ضريبة القفيز والدرهم لا تجد قبولاً عند بعض الفلاحين، ذلك أن بعض الأراضي

---

(٩٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٩.

(٩٤) Dennette. Op. Cit., p. 61. Theophanes, p.552.

(٩٥) خليفة، ج ١ ص ١٤٦، الطبري، ج ٤، ص ١٤٤.

(٩٦) أبو يوسف، ص ٤٠، ٥١، أبو عبيد الأموال، ص ٥٨، البلاذري، فتوح، ص ٢٦٩، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٧٥، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ١٨، ابن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، ص ٦٦.

تزرع فيها الأشجار المثمرة وبعض المحاصيل التي لها ميزة على غيرها، فالذي يزرع القمح في أرضه يدفع كالذي يزرع الأشجار المثمرة ذات الوارد الأكبر. فكان لا بد من فرض خراج حسب نوع المحصول، ويوضح ذلك قول محمد بن عبد الله الثقفي (ت سنة ١١٦ هـ) كتب المغيرة بن شعبة وهو على السواد، ان قبلنا أصنافا من الغلة لها مزيد على الحنطة والشعير، فذكر الماش والكروم والرطبة والسماسم، قال فوضع عليها ثمانية، ثمانية والغى النخل(٩٧).

ويورد البلاذري مجموعة من الروايات كلها تنسب إلى عهد عمر بن الخطاب، تشير إلى فرض الخراج على كل جريب حسب نوع المحاصيل(٩٨)، كما أن الروايات المتعلقة بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد تشير إلى اختلاف في مقادير الخراج على الجريب الواحد من المحصول نفسه، وقد يعود ذلك إلى اختلاف خصوبة الأرض من مكان لآخر، وبعد المناطق عن الأسواق وقربها منها، ويوضح ذلك رواية يحيى بن آدم عن الحسن بن صالح، قال: «قلت للحسن ما هذه الطسوق المختلفة؟ فقال: كل قد وضع حالا بعد حال على قدر قرب الأرضين والفرض من الأسواق وبعدها(٩٩)». ولذلك فان عبد الملك عندما أراد أن يعاد تقدير الخراج أعاده على الغلات الرئيسية الثلاث في منطقة الشام والجزيرة وهي الحنطة والكروم والزيتون، فجعل على كل مائة جريب مما قرب دينارا وعلى كل مائتي جريب مما بعد دينارا وعلى الزيتون، على كل مائة شجرة مما قرب دينارا وعلى كل مائتي شجرة مما بعد دينارا، وكانت غاية البعد عنده مسيرة اليوم أو اليومين وأكثر من ذلك، وما دون اليوم فهو من القرب(١٠٠). ومن الواضح أن هذه الفريضة ليست هي الخراج لأنها متواضعة بل هي إضافة نقدية محددة، ويؤيد ذلك عبارة أبي يوسف، وحمّلت الشام مثل ذلك وحمّلت الموصل مثل ذلك(١٠١).

---

(٩٧) البلاذري، فتوح، ص ٢٦٩.
(٩٨) المصدر السابق، ص ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠.
(٩٩) المصدر السابق، ص ٢٧١. يذكر الماوردي أن عمر بن الخطاب راعى في كل أرض ماتحتمله في الشام، الأحكام السلطانية ص ١٤٨.
(١٠٠) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٩.
(١٠١) المصدر السابق، ص ٤٩.

أما فيما يتعلق بالوقت المحدد لاجتباء الخراج من أهل الريف فليس لدينا سوى روايتين تعودان إلى عهد الفتح، ترد الأولى عند الطبري في الحديث عن صلح إيلياء «أن لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم[١٠٢]»، والثانية يوردها أبو عبيد في كتابه الأموال عن أبي مسهر بن سعيد بن عبد العزيز، عندما سأل عمر بن الخطاب عامله سعيد بن عامر بن حذيم (والي حمص سنة ٢٠ هـ) عن سبب تباطئه في ارسال الخراج، فبيّن له أنه إنما يؤخرهم إلى غلاّتهم، فقال عمر: لاعزلتك ماحييت، قال أبو مسهر، ليس لأهل الشام حديث في الخراج غير هذا، ويعلق أبو عبيدة، «وإنما وجه التأخير إلى الغلة، الرفق بهم، ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتاً من الزمان يجتبى غير هذا[١٠٣]»، ولم يتبع عمرو بن العاص هذا النظام مثلاً في مصر، إذ أننا نجده في كتاب الصلح الذي كتبه لأهل مصر يبين أن عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم[١٠٤]، وهو في هذا متأثر كما يبدو بالنظام الساساني حيث كان الخراج يجبى في ثلاثة أنجم[١٠٥].

وكما كان أهل الذمة يعفون من الجزية أحيانا مقابل مساعدتهم للمسلمين كذلك نلاحظ أن أبا عبيدة أطعم أهل السامرة أرضهم عندما صالحهم بالأردن وفلسطين، على أن يكونوا عيوناً وادلاء لهم، وفرض عليهم الجزية فقط، واستمر هذا الوضع حتى خلافة يزيد بن معاوية الذي وضع الخراج على أرضهم[١٠٦]، أما أرض بني تغلب فقد وضع عليها العشر مضاعفا[١٠٧] ولذلك قال بعض الفقهاء ان اشتراها مسلم فعليها العشر مضاعفا بينما قال حسن بن صالح «من أسلم من بني تغلب فأرضه أرض عشر لأن الذي على أرضه ليس خراجا وليس عليهم الجزية[١٠٨]».

---

(١٠٢) الطبري، ج ٣، ص ٦٠٩.
(١٠٣) أبو عبيد، الأموال، ص ٤٢، ٤٣.
(١٠٤) الطبري، ج ١، ص ١٠٩.
(١٠٥) الدينوري، ص ٧١.
(١٠٦) البلاذري، فتوح، ص ١٦٢.
(١٠٧) يحيى بن آدم، ص ١٢.
(١٠٨) المصدر السابق، ص ١٢.

أما أرض الخراج في الشام فمن أسلم رفعت الجزية عن رأسه، وصار ما كان بيده من الأرض بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها، ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه[١٠٩]، وصار من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم، ولا يرون أنه وان أسلم أولى بما كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل بيته وقرابته، لا يجعلونها صافية للمسلمين، فسمّوا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين، ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرضين كرها ... وكرهوا للمسلمين شراءها طوعا لما كان من ايقاف عمر وأصحابه الأرضين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين[١١٠].

ونفهم من نص يورده ابن عساكر أن القرية كانت مسؤولة عن دفع مبلغ الخراج متضامنة فإذا أسلم الذمي اسقطت الجزية عن رأسه وبقيت الأرض لأهل القرية يقومون بزراعتها ويدفع الخراج عنها[١١١].

وقد استقر خراج الشام في عهد معاوية كما يذكر اليعقوبي[١١٢] على:

٤٥٠	ألف دينار	خراج فلسطين
١٨٠	ألف دينار	خراج الأردن
٤٥٠	ألف دينار	خراج دمشق
٣٥٠	ألف دينار	خراج حمص
٤٥٠	ألف دينار	خراج قنسرين والعواصم
٥٥٠	ألف درهم	خراج الجزيرة وديار مضر وربيعة.

وكانت الجزيرة تابعة لوالي قنسرين كما رأينا حتى افردها عبد الملك، وتشير رواية ابن العديم أن معاوية عندما مصر قنسرين وأفردها عن حمص وظف عليها الخراج

---

(١٠٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٩٣.
(١١٠) المصدر السابق، ص ٥٩٣.
(١١١) المصدر السابق، ص ٥٩٦.
(١١٢) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣.

أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار[113]. فإذا قارنا بين ما استقر عليه الخراج في خلافة معاوية مع ما استقر عليه في خلافة عبد الملك نلاحظ انخفاضاً قد يعود إلى دخول بعض أهل الذمة في الإسلام من ناحية وتحول بعض الأراضي الخراجية إلى أراض عشرية، كما سيتبين لنا في صدد الحديث عن الاقطاعات في العهد الأموي، وقد استقر خراج الشام في عهد عبد الملك كما نص عليه البلاذري[114]:

٣٥٠ ألف دينار خراج فلسطين
١٨٠ ألف دينار خراج الأردن
٤٠٠ ألف دينار خراج دمشق
٨٠٠ ألف دينار خراج حمص مع قنسرين.

أما قبرص فان معاوية صالحهم بعد غزوته الثانية على سبعة آلاف دينار ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردّها، فاستمر الأمر على ذلك حتى خلافة أبي جعفر المنصور الذي ردّهم إلى صلح معاوية[115].

بالإضافة إلى أراضي الخراج، وجدت في الشام والجزيرة أراض كان يدفع عنها أصحابها العشر، وهي ما أسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات[116]، الذي ليس لأحد ورفضه النصارى فمات وغلب عليه الدغل فأقطعه العرب[117]. كما أن كل أرض أسلم عليها أهلها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر، وكل

(١١٣) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص ٤١.
(١١٤) د. محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، الطبعة الثالثة ١٩٦٩، ص ٢٧٥.
(١١٥) البلاذري، فتوح، ص ١٥٩.
(١١٦) إذا لم يكن في الأرض أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئا لأهل القرية، ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم، وليست بملك أحد، ولا في يد أحد فهي موات (أبو يوسف، ص ٧٥ ــ ٧٦).
(١١٧) البلاذري، فتوح، ص ١٥٤.

أرض قسمت بين الذين غنموها فهي أرض عشر[١١٨] . وعن مكحول أن كل عشري بالشام ، هو ممن جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه ، وكان مواتاً لا حق فيه لأحد فأحيوه باذن الولاة[١١٩] .

الصوافي

تذكر الروايات عموما أن الأراضي التي كانت تابعة لقيصر وآله ولرجال الدين أو الأشراف ضمها عمر إلى بيت مال المسلمين وعرفت بالصوافي ، لأنه استصفاها أي جعلها خالصة للمسلمين وسميت أيضاً بالقطائع لأنها اقتطعت فيما بعد لمن يتعهدونها ، وكان عمر بن الخطاب يقطع هذه لمن أقطع[١٢٠] . ويعتبر أبو يوسف الصوافي بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ، ويضع ذلك موضعه ولايحابي به[١٢١] ، وأن أرض القطائع قد يؤخذ منها العشر أو يؤخذ منها الخراج إذا كانت تشرب من أنهار الخراج[١٢٢] ، وهذا يعود إلى رأي الإمام ويؤخذ العشر من أصحابها إذا اضطر إلى حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض لأن في ذلك مشقة عظيمة على صاحب الاقطاع[١٢٣] . ويبدو أن أبا يوسف اعتمد في قوله على ما كان متبعا في العصر الأموي ، إذ أن روايات سيف التي يوردها الطبري كلها تشير إلى أن عمر بن الخطاب قد أوقف الصوافي على الفاتحين فقط ، فرواية سيف الأولى تشير إلى «أن سعد بن أبي وقاص ومقاتلته استصفوا ما كان لكسرى ومن لجّ معهم فيئا لمن أفاء الله عليه ، ولا يجاز بيع شيء من ذلك فيما بين الجبل إلى الجبل من أرض العرب إلا من أهله الذين أفاء الله عليهم ، ولم يجيزوا بيع ذلك فيما بين الناس .. يعني فيمن لم يفئه الله تعالى عليه ، فأقرّه

---

(١١٨) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٢ .

(١١٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٢٨ .

(١٢٠) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٨ــ٦٩ ، يحيى بن آدم ، ص ٢٥ ، البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٠ (عسقلان) .

(١٢١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٩ .

(١٢٢) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

المسلمون لم يقتسموه ، لأن قسمته لم تتأت لهم ، فمن ذلك الآجام ، ومغيض المياه وما كان لبيوت النار ولسكك البريد ، وما كان لكسرى وأتباعه ، وما كان لمن قتل والارحاء ، فكان بعض من يرق يسأل الولاة قسم ذلك ، فيمنعهم من ذلك الجمهور ، أبوا ذلك ، فانتهوا إلى رأيهم ولم يجيبوا(١٢٤) » . أما رواية سيف الثانية عن طلحة عن ماهان ، قال : كتبوا إلى عمر في الصوافي فكتب إليهم ، « أن اعمدوا إلى الصوافي التي استصفا كموها الله ، فوزعوها على من أفاءها الله عليه ، أربعة أخماس للجند وخمس في مواضعه الي ، وأن أحبوا أن ينزلوها فهو الذي لهم » فلما جعل ذلك إليهم رأوا أن لا يفترقوا في بلاد العجم ، وأقرّوها حبيسا لهم يولونها من تراضوا عليه ثم يقتسمونها كل عام ، ولا يولونها إلا من أجمعوا عليه بالرضا ، وكانوا لا يجمعون إلا على الأمراء ، كانوا بذلك في المدائن والكوفة حين تحولوا إلى الكوفة(١٢٥) ، ورواية سيف الثالثة تذكر أن عمر كتب إلى المقاتلة أن يحتازوا فيئهم فإنهم إن لم يفعلوا فتقادم العهد يَلْحَج ، وأنه قد قضى الذي عليه(١٢٦) ، فإذا أتينا إلى رواية سيف الرابعة فانه يشير إلى أن الفيء الذي يتداعاه أهل الأمصار فهو ما كان للملوك نحو كسرى وقيصر ومن تابعهم من أهل البلاد فأجلى عنه فأتاهم شيء عرفوه(١٢٧) .

نستنتج من روايات سيف هذه أن الصوافي تركت للفاتحين ، وأن عمر سمح لهم بتوزيعها على من أفاءه الله عليه أربعة أخماس للجند وخمس للدولة ، وأن ما ذكر في العراق ينطبق على الشام ، وأن الصوافي كانت متفرقة في مناطق عدة في العراق ، لذلك اتفق رأي المقاتلة على عدم اقتسامها ، وترك ادارتها للامراء لفائدتهم ، وعدم بيع هذه الأراضي . وبالرغم من أنه ليست بين أيدينا روايات أخرى تؤكد ما ذكره سيف أو تنفيه ، الا أن التطورات التي حدثت في الكوفة قد تدل على أن تقرير سيف صحيح

---

(١٢٤) الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١ .

(١٢٥) الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢ .

(١٢٧) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٨٠ .

من حيث الأساس، إذ أن أول انفجار في الكوفة كان ضد أميرها سعيد بن العاص (٣٠ ــ ٣٤ هـ) بسبب اشارة في مجلسه فهمها الأشراف بأنها تنطوي على نية الحكومة في الاستحواذ على الصوافي(١٢٨). وقد منح عثمان بعض الاقطاعات من الصوافي، بل انه في الواقع سمح للبعض أن يبادلوا حصتهم فيها بأراض في الجزيرة العربية(١٢٩)، ويبدو أن ضم الصوافي إلى بيت المال حصل أخيراً زمن معاوية بن أبي سفيان(١٣٠)، إذ يذكر اليعقوبي، بأن معاوية استصفى ماكان للملوك من الضياع بالشام والجزيرة والعراق وصيرها خالصة لنفسه وأقطعها أهل بيته وأتباعه وخاصته(١٣١)، وبذلك لم تعد أرض الصوافي في العراق تابعة للفاتحين وإنما أصبحت تحت تصرف الخلافة في دمشق، وصار واردها كل سنة يحمل إلى دمشق(١٣٢)، وبلغت غلة الصوافي زمن معاوية ٥٠ مليون درهم سنويا وفقا لرواية اليعقوبي الذي يذكر أن معاوية قام باستصفاء أراض جديدة وذلك بالرجوع إلى ديوان الفرس(١٣٣)، وهذا يعني أن عمر بن الخطاب لم يرجع إلى هذا الديوان في استخلاص الصوافي، فكانت الفرصة متاحة للمزارعين والدهاقين بحيازة أراض فيها سواء الذين هرب أصحابها أو التي كانت للفرس(١٣٤)، فقام معاوية باستخلاص هذه الأراضي بالرجوع إلى سجلات الفرس.

لا نعرف رد فعل القبائل على هذا الاجراء، ولكن ما حدث بعد حوالي أربعين عاماً يدل على تمسك الكوفيين بنظرتهم، ذلك أنهم أحرقوا سجل الأراضي (الديوان) أثناء ثورة ابن الأشعث وادّعى كل قوم ملكية مايليهم(١٣٥). وقد أمر عمر بن عبد العزيز في خلافته عامله على الكوفة أن يعطي أرض الصوافي لأناس يعمرونها على

---

(١٢٨) الطبري، ج ٤ ص ٣١٨، ٣٢٣، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٤٠.

(١٢٩) المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٨٠.

(١٣٠) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(١٣١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٣.

(١٣٢) الصولي، أدب الكاتب، ص ٢١٩.

(١٣٣) اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٨.

(١٣٤) Lokkegaard, Islamic Taxation in the Classic Period, Copenhagen, 1950, p.111.

(١٣٥) البلاذري، فتوح، ص ٢٧٢، الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٩٣، أبو يوسف، ص ٦٨.

المزارعة[١٣٦]، ويظهر أن هذا الاجراء وماجرى بعد دَير الجَماجِم من حيازة الناس لكثير من هذه الأراضي يفسر لنا ما قام به يزيد بن عبد الملك من النظر في الملكيات والاقطاعات في العراق، ففي رواية العباس بن هشام عن أبيه عن بعض آل الأهتم قال: كتب يزيد بن عبد الملك إلى عمر بن هبيرة: انه ليس لأمير المؤمنين خرصة، فسر على القطائع، فخذ فضولها لأمير المؤمنين، فجعل عمر يأتي القطيعة فيسأل عنها، ثم يمسحها، حتى وقف على أرض، فقال، لمن هذه؟ فقال صاحبها: لي فقال: ومن أين هي لك؟ قال:

ورثناهـا عن آبـاء صدق ونورثهـا إذا متنـا بنينـا

قال: ثم ان الناس ضجوا فأمسك[١٣٧].

أما فيما يتعلق بالشام، فاننا نلاحظ أن القادة العرب منذ البدء كانوا يسكنون المقاتلة في كل مرفوض جلا أهله أو مساحة متروكة[١٣٨]، وعندما توجه أبو عبيدة نحو بالس[١٣٩] وقاصرين وكانتا لأخوين من أشراف الروم أقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلا حافظين لمابينها من مدن الروم بالشام ــ جلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة ــ فعمد أبو عبيدة إلى ترتيب المقاتلة فيها كما أسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام، فأسلموا بعد قدوم المسلمين، وتضيف الرواية إلى أن بالس والقرى المنسوبة إليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل عشرية[١٤٠]، كما أنهم أقطعوا المقاتلة الاقطاعات في منطقة الساحل لتشجيعهم على البقاء فيه، وقد حدث ذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان عندما هاجم الروم الساحل وغلبوا على بعض مناطقه،

(١٣٦) يحيى بن آدم، ص ٥٩، ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، تحقيق عبد الله الصديق، القاهرة، ١٩٣٤م، ص ١٤.

(١٣٧) البلاذري، فتوح، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(١٣٨) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(١٣٩) بالس بلدة بالشام بين الرقة وحلب، وكانت بويلس وقاصرين وعابدين وصفين قرى منسوبة إليها، (معجم البلدان ج١ ص ٣٢٨).

(١٤٠) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

فأخرجهم معاوية وشحن المناطق المعرّضة للخطر بالمقاتلة وأعطاهم القطائع[١٤١]، وقد فعل معاوية ذلك أيضاً بأنطرطوس التي مصرّها فأقطع بها القطائع وبمرقية وبلنياس[١٤٢]، وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند عمر وعثمان ولكن عثمان هو الذي أمر معاوية أن يلزمها قوما وأن يقطعهم القطائع[١٤٣]، أي أننا نلاحظ كثرة القطائع التي وزعت على المسلمين في فترة خلافة عمر وخاصة في خلافة عثمان بن عفان[١٤٤]، ومن المؤكد أن هذه الأراضي التي اقطعت لم تكن من أرض الخراج، وإنما هي من الأراضي التي جلا عنها أهلها من الروم (والاشارات في هذا الصدد كثيرة في الساحل خاصة) أو بلفظ آخر من الصوافي، ولذلك فانه يمكننا أن نعتبر الرواية التي يوردها ابن عساكر عن الصوافي في الشام متعلقة بأراضي الصوافي التي كانت للدولة بحكم الخمس الذي يؤول إليها لا سيما وأننا سنرى وفقا لهذه الرواية أن أراضي الصوافي في الشام كانت محدودة.

يذكر ابن عساكر أن القطائع في الشام كانت في البدء من أرض الصوافي، وأن الصوافي هي الأراضي التي كانت لبطارقة الروم واشرافهم عندما كانوا مسيطرين على الشام، فلما هزم الروم وهرب البطارقة والأشراف أو قتلوا، أصبحت هذه المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها[١٤٥] والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته، كما أن

(١٤١) المصدر السابق، ص ١٢٣، ١٣٤، ١٣٥.

(١٤٢) المصدر السابق، ص ١٣٩.

(١٤٣) المصدر السابق، ص ١٥٣.

(١٤٤) البلاذري، ص ١٥٠، ١٢٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩.

(١٤٥) نلاحظ أن ابن عساكر يستعمل في نصه لفظ التقبل، والتقبل هو أن يجعل شخص قبيلا والقبيل هو الكفيل، والعريف الضامن، أي أن يقوم شخص بتحصيل المال وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه، وهو ما عرف فيما بعد باسم نظام الالتزام، فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفرق بين ما يدفعه وما يحصله (الفيروز بادى، القاموس المحيط، الطبعة الثانية ١٩٥٣. مادة (قبل) الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ١٣٤٨هـ ص ٦٩٩) وكلمة التقبل لا ترد إلاّ بشكل نادر عند التكلم عن العصر الأموي وربما استخدم ابن عساكر لفظة كان شائعا في عصره، فقد وردت اشارة له في عهد هشام عندما تقبل فروخ بن المثنى من ضياع هشام بن عبد الملك بموضع يقال له رستاق الرمان أو نهر الرمان، ثم زاد عليه حسان النبطي ألف ألف درهم فسلمت إليه»، ويبدو أن هذا النظام سيأخذ في

الأموال التي تصل بيت مال المسلمين من الصوافي كانت تخرج نفقه مع ما يخرج من الخراج، حتى كتب معاوية في امرته على الشام إلى عثمان، أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يكفيه لاستقبال من يفد عليه من وفود الأجناد، ورسل أمرائهم، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، ووصف له هذه المزارع الصافية وسمّاها له، يسأله أن يقطعه إياها ليستطيع القيام بواجباته تجاه تلك الوفود، وأكد معاوية لعثمان أنها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب إليه عثمان بذلك كتابا، ويضيف ابن عساكر بأن هذه الأراضي بقيت بيد معاوية حتى قتل عثمان، فلما أصبح معاوية خليفة أقرّها على حالها ثم جعلها من بعده حبيسة على فقراء أهل بيته والمسلمين، وأقطع معاوية أناسا من قريش وأشراف العرب قطائع من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان أقطعه اياها، فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان منح القطائع من تلك المزارع التي بقيت والتي لم يكن معاوية قد أقطع منها أحداً شيئاً، ولكن يبدو أن أرض الصوافي هذه كانت محدودة، ذلك أن رواية ابن عساكر تشير إلى أن عبد الملك سئل القطائع فوجد أنه لم يبق شيء من أرض الصوافي يمكن منحه كقطائع، فنظر إلى أرض من أراضي الخراج وقد باد أهلها، ولم يتركوا عقبا فاقطعهم منها، ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج، ولم يحمله أحدا من أهل القرى، وجعلها عشرا، أي أن عبد الملك منح القطائع من أرض الخراج التي باد أهلها، ولكنه رفض أن يمنح القطائع من أرض القرى التي بأيدي أهل الذمة، وطبق ذلك كل من الوليد وسليمان، ولكنهما أذنا للناس في شراء الأرض منهم مقابل ادخال أثمانها بيت المال، واعانة أهل الخراج على دفع خراج سنتهم إذا لم تكن لديهم القدرة على دفعه وثبّت ذلك في الدواوين، واسقط الخراج عن تلك الأراضي وعن أهل قراهم وأصبحت هذه الأراضي تدفع العشر، ولذلك فانه عندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة، لم يتعرض لهذه الاقطاعات والاشريات فلم يردها إلى ما كانت عليه صافية، ولم يجعلها خراجا، وأمضاها لأهلها تؤدي العشر لاختلاط الأمور فيها لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون، ثم كتب

← الانتشار في العصر العباسي لأن أبا يوسف ينصح الخليفة هارون الرشيد أن لا يقبل شيئاً من السواد وغيره، لأن المتقبل لا يبالي بهلاك أهل الخراج بصلاح أمره في قبالته (الطبري جـ٧ ص ١٤٢، أبو يوسف الخراج، ص ١٢٥، ١٢٦).

بذلك كتاباً قرىء على الناس سنة مائة، وأعلمهم أنه لا خراج عليها وأنها أرض عشر، وكتب أنه من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فان بيعه مردود وسمى سنة مائة المدة، فسماها المسلمون بعده المدة[١٤٦]، ولذلك فانه عندما كتب إسحق بن مسلم وكان عاملاً لعمر ابن عبد العزيز على خراج الأردن بأنه وجد أرضا من أرض أهل الذمة بأيدي ناس من المسلمين، طلب منه عمر بن عبد العزيز أن يوقف ذلك البيع[١٤٧]، وطبق يزيد بن عبد الملك هذا القانون، كما طبقه هشام من بعده، بل ان هشام حسب رواية أبي زرعة كان يعاقب البائع والمشتري وعامل المنطقة، فعندما بلغه أن خالد بن عبد الله القسري اشترى أرضا من أرض الغوطة بغير اذنه، أمر سالما أن يكتب إلى كلثوم بن عياض والي دمشق أن يغرم الوليد بن عبد الرحمن عامله على الغوطة أربع مائة دينار ترسل إلى هشام لأنه اشتريت أرض بغير اذنه، وكتب إلى كلثوم أن يضرب وكيلي القسري مائة مائة يطاف بهما ويأمر من ينادي عليهما، هذا جزاء من اشترى أرضا بغير إذن أمير المؤمنين، ويوضح ابن عساكر أن هشاما إنما فعل ذلك لأنه وجد فيما وضع عمر بن عبد العزيز حين استخلف أنه سأل إذا كان الولاة قبله قد نهوا عن شراء الأرض من أهل الذمة، فلما قيل له بأنهم لم ينهوا، قال: «فاني قد سلمت لمن اشترى، ولكن من اليوم أنهى عن بيعها، انها أرض المسلمين دفعت إلى أهل الذمة على أن يأكلوا منها ويؤدوا خراجها، وليس لهم بيعها، وان من يشتري بعد ذلك يعاقب البائع والمشتري، وترد الأرض إلى النبطي، ويؤخذ الثمن من المسلم فيجعل في بيت المال»، أي يدخل المال الذي أخذه النبطي بيت مال المسلمين[١٤٨]. ونتيجة لتطبيق هذا القانون في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابني عبد الملك توقف الناس عن شراء هذه الأراضي، ولكن يبدو أن الوضع اختلف بعد اضطراب الوضع في المنطقة، فعاد العرب المسلمون إلى شرائها، ودفع العشر عنها، فلما أصبح أبو جعفر عبد الله بن محمد خليفة رفعت إليه تلك الأشرية وأنها تؤدي العشر ولا خراج عليها، وأن ذلك أضرّ

---

(١٤٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٩٦.

(١٤٧) المصدر السابق، ص ٥٨٧.

(١٤٨) المصدر السابق، ص ٥٨٧.

بالخراج وكسره، فأراد ردّها إلى أهلها، فقيل له إنها قد وقعت في المواريث والمهور واختلط أمرها، فبعث المعدّلين إلى كور الشام سنة أربعين أو إحدى وأربعين ومائة، وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الاشرية خراجا وأن يمضوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على مابقي منها بأيدي الانباط وعلى الأشرية المحدثة بعد سنة مائة، بمعنى أن أبا جعفر المنصور، طبق نظام عمر بن عبد العزيز، ولكن الأراضي الخراجية وفقا لهذه الرواية قد أصبحت تدفع الخراج سواء بقيت في يد أصحابها أو اشتراها المسلمون[١٤٩].

الضرائب الاضافية

بالإضافة إلى الجزية والخراج، فرض على التجار العشور وهي أشبه بما نسميه اليوم بالضرائب الجمركية، وكان عمر بن الخطاب أول من عشر من أهل الحرب عندما كتب قوم من أهل الحرب إلى عمر طالبين منه أن يسمح لهم بدخول أرض المسلمين كتجار مقابل أن يدفعوا العشر، فشاور عمر أصحاب رسول الله (صلعم) في ذلك فأشاروا إليه أن يفعل[١٥٠]. أما فيما يتعلق بالتجار المسلمين والمعاهدين فإن يحيى بن آدم يورد روايتين، الأولى تذكر أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أن يأخذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم، وما زاد على المائتين فمن كل أربعين درهما درهم، ومن تجار أهل الخراج نصف العشر ومن أهل الحرب العشر، وهذه الرواية تتفق مع ما يذكره أبو يوسف[١٥١]، أما الرواية الثانية فهي عن عبد الله بن مغفل عن زياد بن جرير قال: ما كنا نعشّر مسلماً ولا معاهداً وإنما كنا نعشر أهل الحرب كما يعشرونا إذا اتيناهم. ويعلق أبو عبيد على حديث زياد بن جرير أنه إنما أراد أنه كان يؤخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر لأن مذهب عمر فيما وضع من ذلك أنه كان يأخذ من المسلمين الزكاة ومن أهل الحرب العشر تاماً لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله إذا قدموا بلادهم، فكان سبيله في هذين

---

(١٤٩) ابن عساكر، ص ٥٩٦، ٥٩٧.

(١٥٠) أبو يوسف، الخراج، ص ١٦١، المقريزى، الخطط، ج ٢ ص ٥٠٨ ــ ٥٠٩.

(١٥١) أبو يوسف الخراج، ص ١٦١، يحيى بن آدم ص ١٢٦.

الصنفين واضحاً ، ويتابع أبو عبيد فيقول ، إن الذي أشكل عليه هو ما يؤخذ من أهل الذمة «فهم ليسوا بمسلمين فتؤخذ منهم الصدقة وليسوا من أهل الحرب فيؤخذ منهم مثل ما أخذوا منا ، فلم أدر ماهو حتى تدبرت حديثاً فوجدته أنه إنما صالحهم على ذلك صلحاً سوى جزية الرؤوس وخراج الأرض والحديث منقول عن الأنصارى، «يحيى بن سعيد» عن سعيد بن أبي عروبة (ثقة صدق ولكنه كان قدرياً) عن قتادة عن أبي مجلنر قال : «بعث عمر عماراً وابن مسعود ، وعثمان بن حنيف إلى الكوفة ... فمسح عثمان الأرض فوضع عليها كذا وكذا ، وقال ، وجعل في أموال أهل الذمة التي يختلفون بها من كل عشرين درهماً درهماً ، وجعل على رؤوسهم وعطل من ذلك النساء والصبيان[١٥٢] ولم تكن العشور تؤخذ من أهل الذمة إذا ما اتجروا في بلادهم التي صولحوا عليها إذ يقول مالك رحمه الله :

«والسنة أنه ما أقام الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها إلا الجزية ، إلا أن يتجروا في بلاد المسلمين ويختلفوا فيها فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة ، وإذا اتجر الذمي في بلاده من اعلاها إلى اسفلها ولم يخرج منها إلى غيرها ، فليس عليه شيء .. مثل أن يتجر الذمي الشامي في جميع الشام أو الذمي المصري في جميع مصر أو الذمي العراقي في جميع العراق[١٥٣]» ، ويبدو أن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر طبق في عهد الخلفاء الراشدين وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ، أما في العصر الأموي والعصور الأخرى فكان العشر يؤخذ منهم وان اختلفوا في العام الواحد مرارا إلى بلاد المسلمين . ويعلق المقريزي بأن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر لم يطبق إلا في عهد عمر بن عبد العزيز فيقول : وليس العمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز وإنما العمل على أن يؤخذ منهم العشر وان خرجوا في السنة مرارا من كل ما اتجروا به قل أو كثر[١٥٤] ، وكان سبيل ما يؤخذ من المسلمين من العشور سبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج[١٥٥]

---

(١٥٢) يحيى بن آدم ، ص ١٢٦ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٧٠٩ — ٧١٠ الفقرات ١٦٤٣ ، ١٦٥١ ، ١٦٥٢ ، ١٦٥٣ .

(١٥٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٥٠٨ .

(١٥٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠٨ .

(١٥٥) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٠ .

ونلاحظ في بعض شروط الصلح التي عقدت مع أهل الذمة في الشام والجزيرة أنه فرضت عليهم ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين الذي يمرون من هذه الضرائب فقط اشترط قادة العرب واجب الضيافة التي كانت أقصى مدة لها ثلاثة أيام(١٥٦)، وعن أسلم مولى عمر أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام شكى إليه أهل الذمة قائلين: يا أمير المؤمنين إنهم يكلفونا ما لا نطيق يكلفونا الدجاج والشاة، فقال: لا تطعموهم إلا مما تأكلون، مما يحل لهم من طعامكم(١٥٧). وعن عبد الملك بن عمير أن عمر بن الخطاب اشترط على أنباط الشام للمسلمين أن يصيبوا من ثمارهم ونبتهم ولا يحملوا(١٥٨). وفي تاريخ الرقة للحافظ القشيري عن العلاء بن أبي عائشة عامل عمر بن عبد العزيز على الرها، أنه جاء في شروط صلح عياض بن غنم لأهل الجزيرة.. وأن تقروا ضيفهم يوما وليلة، وعلى أن تحملوا راجلهم من رستاق إلى رستاق، وعلى أن نشاطركم منازلكم ينزلها المسلمون(١٥٩)، كما اتفق مع السكان في البداية أن يقوموا باصلاح الطرق والجسور والقناطر(١٦٠).

وليس بين أيدينا روايات تشير إلى أنواع أخرى من الضرائب فرضت في الشام في العصر الأموي، بينما نستنتج من نصوص وردت في كتاب الخراج لأبي يوسف وكتاب الأموال لأبي عبيد وفي تاريخ اليعقوبي أن الأمويين لم يكتفوا بالجزية والخراج والعشور من التجارة بل فرضوا أنواعا من الضرائب الاضافية التي جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز فألغاها، وهذه الضرائب في الواقع تتعلق بالولايات الشرقية، منها فرض ضرائب موحدة على الأراضي المزروعة وغير المزروعة، وتحصيل ضرائب إضافية بعضها كان احياء لرسوم تقليدية ساسانية كهدايا النيروز والمهرجان(١٦١)، وأول ذكر لهذه

---

(١٥٦) البلاذري، فتوح، ص ١٣١، ١٥٦، ١٧٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٦٣، ٥٦٥، ٥٦٦.

(١٥٧) ابن عساكر، المصدر السابق، ص ٥٧٣.

(١٥٨) ابن عساكر، ص ٥٧٤.

(١٥٩) الحافظ القشيري، تاريخ الرقة، ص ٦، ٧.

(١٦٠) البلاذري، فتوح، ص ١٧٨.

(١٦١) يقول الجاحظ في التاج، ومن حق الملك هدايا المهرجان والنيروز، والعلة في ذلك أنهما فصلا السنة. ←

الهدايا في أثناء الفتوح كان في عهد عثمان ، وذلك أنه في سنة ٣٢ هـ صالح الأحنف بن قيس أهل بلخ على أربعمائة ألف ، وأناب ابن عمه وهو أسيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صولحوا عليه ، وقد قبض أسيد ذلك ، ووافق وهو يجبيهم المهرجان ، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب[١٦٢] ، فسألهم أسيد إذا كان ذلك مما صولحوا عليه ، فبينوا له أن هذا شيء يقدمونه في هذا اليوم لمن وليهم ، يستعطفونه به ، فقبضه وعزله ، حتى قدم عليه الأحنف فأخبره ، فسألهم عنه ، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمه ، فحمله إلى ابن عامر وهو الأمير فأخبره ، فقال : اقبضه يا أبا بحر فهو لك ، قال : لا حاجة لي فيه ، فأخذه ابن عامر قال الحسن وهو يقص الحادث ، فضمه القرشي وكان مضما[١٦٣] وفي سنة ٤٣ هـ عزل عبد الله بن عامر قيس بن الهيثم عن خراسان لأنه استبطأ قيسا بالخراج ولأنه أمسك عنه الهدية[١٦٤] ، ويبدو أن الهدية أصبحت واجبا فيما بعد ذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بابطالها[١٦٥] ، وعمد الولاة كذلك إلى تحصيل ثمن الورق المستخدم في الطلبات الرسمية والأجور التي تدفع للعمال المشتغلين في دور ضرب النقود ، واشترط العمال تحصيل الضرائب لعملات ذات وزن معين بدلاً من العملات المتوفرة لدى الأهالي والاستيلاء على فروق النقد . وفي ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله « ... وأمرتك أن لا تحمل خرابا على عامر ، ولا عامرا على خراب ، ولا تأخذ من الخراب إلا ما يطيق ولا من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، وامرتك ألا تأخذ في الخراج ، إلا وزن سبعة ليس لها أس ولا أجور الضرابين ولا اذابة الفضة ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح[١٦٦] » .

وكتاب عمر بن عبد العزيز يتعلق بالضرائب الإضافية التي فرضت في الولايات

فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز اذن بدخول فصل الحر ، ص ١٤٦ .

(١٦٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(١٦٣) الطبري ، ج ٤ ص ٣١٤ .

(١٦٤) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٩ .

(١٦٥) الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢٢٠ .

(١٦٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٣٠ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، اليعقوبي تاريخ ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

الشرقية ، فهل هناك ذكر لضرائب إضافية في مصر ، لا يتكلم المؤرخون العرب الذين يبحثون في تاريخ مصر عن ضرائب إضافية إنما يشيرون إلى محاولات الأمويين في زيادة نسبة الجزية والخراج(١٦٧) ، إلا أن ساويرس في كتابه سير البطاركة يشير مثلاً أن قرة بن شريك قد فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف(١٦٨) ، فإذا كان ما ذكره ساويرس صحيحا فإن هذا يدل على وجود ضرائب أخرى قد فرضت وإن لم يشر إليها .

وإذا ما درسنا أوراق البردي المتعلقة بالضرائب بين عامي ٨٠ و ١٠٠ فإنها تعطينا قوائم عما كان يدفعه الأشخاص ، وانذارات بدفع الضرائب والطلبات المالية التي تقتضيها المصلحة العامة من الأفراد ، كما أن بعض هذه الأوراق تعطي صورة عن الأثمان والأجور التي هي خير دليل على تقدير القيمة الفعلية للنقود(١٦٩) . كما تشير أوراق البردي إلى أنه في سنة ٨٠ هـ مثلاً دفعت بوصير سبعين دينارا وواحدا وعشرين قيراطا ثم دفعت سنة ٩٢ هـ مبلغ مائة وأربعة دنانير وثلثي دينار ، وفي سنة ٩١ هـ طلب أولو الأمر سبعين قميصا ، كل واحد بربع دينار جزية لأمير المؤمنين(١٧١) وكان الوالي يحتاج إلى مواد مختلفة « لاعالتنا وللعمال الذين معنا من العرب والنصارى على السواء ولغيرهم(١٧٢) » . كما أن الأساطيل كانت بحاجة إلى كثير من البحارة الذين يلتزم لهم دافعو الضرائب بأجورهم ، وكذلك الحال ازاء العمال الذين كان لابد من اتخاذهم للعمل في بيت المقدس وفي دمشق(١٧٣) ، أي نلاحظ ازديادا في نسبة الخراج بين سنة ٨٠ هـ ـــ ٩٢ هـ من ناحية ، وفرض طلبات معينة كانت تتطلبها مصلحة الدولة .

---

(١٦٧) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٨٦ ، المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٥ .

(١٦٨) ساويرس ، سير الآباء البطاركة ، ج ٥ ص ٦٤ .

(١٦٩) Greek Papyri the Buseum, Vol. IV 1893.
No. 1433 pp. 282-307. No. 1434. pp. 307-322.
No. 1420. pp. 231-241. No. 1424. pp. 254-256.

(١٧٠) Op. Cit. No. 1412, pp. 81-103.

(١٧١) Op. Cit. No. 1362, p. 1

(١٧٢) Op. Cit. No. 1375,

(١٧٣) Op. Cit. No. 1413.

بيوت الأموال في الشام

ابتداء من خلافة عبد الملك بن مروان نجد ذكراً لبيوت الأموال في دمشق بدلاً من كلمة بيت المال[١٧٤]، مما يشير إلى أن عبد الملك ومن جاء بعده من الخلفاء قد جعلوا لكل نوع من المال يردهم بيت مال خاص، فبيت مال للفيء وآخر للصدقات، وفي الطبقات لابن سعد عن اسحاق بن يحيى أنه قدم على عمر بن عبد العزيز في خلافته، فوجده قد جعل للفيء بيت مال على حدة، وللصدقة بيت مال على حدة، وللخمس بيت مال على حدة[١٧٥]. ونحن نعلم أن الخمس في عهد الرسول كان يوزع وفقا للآية الكريمة «واعلموا إنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل[١٧٦]»، وهناك أمثلة كثيرة عن ارسال الخمس إلى المدينة في العهد الراشدي وإلى دمشق في العصر الأموي[١٧٧]، وقد اختلف الناس بعد وفاة الرسول الكريم في سهم الله ورسوله وذوي القربى، إذ كان الخمس يوزع على خمسة أسهم، لله وللرسول سهم، ولذي القربى سهم، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم، ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى، وقسم على الثلاثة الباقين[١٧٨]. وقد رأى البعض أن سهم الرسول للخليفة من بعده، وبعضهم رأى أن سهم ذوي القربى لقرابة الرسول عليه السلام، بينما قالت طائفة منهم أن سهم ذوي القربى لقرابة الخليفة من بعده، ثم أجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح[١٧٩]. وورد في الجامع الصحيح للبخارى، أن قول الله عز وجل، فان لله خمسه وللرسول، يعني للرسول قسم ذلك، قال رسول الله (صلعم) «إنما أنا قاسم وخازن والله يعطي[١٨٠]».

---

(١٧٤) خليفة، ج ١ ص ٣٩٥، ٤١٩، ٤٣٢، ج ٢ ص ٤٨٧، ٥٤٥، ٥٥٥.

(١٧٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٩٥.

(١٧٦) سورة الأنفال، آية ٤١.

(١٧٧) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١٢٣، ص ١٨٢، ١٨٨، ١٩٣، ابن الأثير ج ٥ ص ١٥٩، ونلاحظ أن قتيبة في فتوحاته يوجه الخمس إلى الحجاج، ابن الأعثم، فتوح، ج ٧ ص ٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٧.

(١٧٨) أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣.

(١٧٩) المصدر السابق ص ٢٤، ٢٥، الصولي، أدب الكاتب ص ٧٣.

(١٨٠) البخارى، الجامع الصحيح، ج ٢ ص ٢٧٨، كتاب فرض الخمس.

ويبدو أن البعض كانوا يرون أن سبيل الخمس سبيل الفيء، يكون حكمه للإمام إن رأى ان يجعله لمن سمى الله جعله، وان رأى أن الأفضل للمسلمين والأوفر لحظهم أن يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوء بهم ومصلحة تعن لهم، مثل سد ثغر، واعداد سلاح وخيل وأرزاق أهل الفيء من المقاتلين والقضاة، وغيرهم ممن يجري مجراهم فعل(١٨١)؛ ويبدو أن الأمويين طبقوا هذا المبدأ، بل إن هناك روايات تشير إلى أن الخمس في العصر الأموي كان يسوغ للولاة أحيانا(١٨٢)، فلما جاء عمر بن عبد العزيز جعل للخمس بيت مال خاص، وجعله لمن سمّى الله، وعن عطاء بن السائب أن عمر بن عبد العزيز بعث سهم الرسول وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم(١٨٣)، كما أن عمر بن عبد العزيز طالب يزيد بن المهلّب بخمس ما أفاء الله عليه عند فتحه جرجان وطبرستان، وكان يزيد قد كتب إلى سليمان بأن الخمس قد بلغ ستة آلاف ألف(١٨٤)، فلما طالبه الخليفة بالمبلغ أخبره أنه فعل ذلك لكي يسمع الناس به(١٨٥)، فاضطر عمر بن عبد العزيز إلى سجنه لأنه عجز عن دفع المبلغ الذي هو حق من حقوق المسلمين(١٨٦). وكان ما يرد بيت المال من خمس افريقية ضخما حتى شاع لدى المشارقة أن هذا البلد أغنى بلاد الله طرا(١٨٧)، وما ذلك إلا لأن القادة العرب نظراً لمقاومة البربر الشديدة وكثرة انتقاضهم عمدوا إلى اعتبار البربر المقاومين لهم غنيمة يأخذ بيت المال منها الخمس من أرض ونعم وأموال، وبالرغم من أن الأراضي في اسبانيا قسمت قسمة الغنيمة، فان الوقت لم يسمح لموسى بن نصير أن يأخذ هذا الخمس كله، فبقيت بعض الأراضي دون تخميس، وكان في هذا اجحاف بحق بيت المال، ولذلك أرسل عمر بن عبد العزيز

---

(١٨١) ياقوت الحموى، معجم البلدان ج ١ ص ٤٢، ويؤكد ذلك ما ورد في صحيح البخارى، أن هناك أمثلة عديدة تعود إلى عهد الرسول تشير إلى أن الرسول (صلعم) كان يستخدم الخمس لنوائب المسلمين، وأن الخمس للامام، ج ٢ ص ٢٧٣، ٨٧.

(١٨٢) الطبري ج ٦، ص ٥٤٤.

(١٨٣) أبو يوسف الخراج، ص ٢٥.

(١٨٤) الطبري، ج ٦، ص ٥٤٤.

(١٨٥) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٥٧.

(١٨٦) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٥٧.

(١٨٧) د. أحمد بدر، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٤.

السمح بن مالك الخولاني من دمشق كوال للأندلس وكلفه القيام «باكمال التخميس وتمييز أرض العنوة عن أرض الصلح ليصح التخميس» وكان معه عدد من الجند يبلغ الخمسمائة حسب قول إحدى الروايات، وفي هذه الأوامر المعطاة له ما يفسح المجال للاعتقاد بأن عمر يرى أن بعض أراضي الأخماس كانت في أيدي الفاتحين، كما أن بعض أراضي الخراج اختلطت بغيرها، أي ربما اشتراها الفاتحون من أصحابها، فانقلبت من أرض خراجية تدفع نسبة عالية من الضرائب (مثالثة، أو مرابعة) إلى أرض عشرية، وقد رأينا أن عمر بن عبد العزيز قد منع هذا العمل في المشرق، وربما أراد أن يطبقه على المغرب، وفي كلا العملين ما يعرض مصالح النازلين في الأندلس، فلجؤوا إلى تعلتهم المعروفة، وهي الرغبة في العودة إلى المشرق، كما أظهروا خوفهم من أن يشاركهم القادمون الجدد في أراضيهم، فأقرّهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير، وأمر واليه أن يقر القرى بأيدي أربابها، وأن يقطع الجنود المرافقين له من أراضي الأخماس[١٨٨]. **أما بيت مال الفيء**، فكان يوضع فيه ما يرد من مال الجزية والخراج وعشور التجارة من أهل الذمة والحرب وصدقة بني تغلب، كما أن الفائض من الولايات في العصر الأموي كان يرسل إلى بيت المال بدمشق.

يذكر اليعقوبي «أن خراج مصر استقر في عهد معاوية على ثلاثة آلاف ألف دينار ولم يكن عمرو بن العاص يحمل منها إليه إلا الشيء اليسير، فلما مات عمرو حمل المال إلى معاوية، فكان يفرّق في الناس أعطياتهم ويحمل إليه ألف ألف دينار[١٨٩]».
أما ابن عبد الحكم والمقريزي فيشيران إلى أن مقدار المال الذي أرسله مسلمة بن مخلد والي معاوية على مصر (٤٧ ــ ٦٢ هـ) بعد أن أعطى أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز كان يبلغ ٦٠٠ ألف دينار فضلاً[١٩٠]، بينما يذكر ساويرس أن ما كان يحمل إلى بيت المال يقدر بمائتي ألف دينار بعد النفقة على الجند وما تحتاج إليه البلاد[١٩١]. وهذا

(١٨٨) أحمد بدر، المرجع السابق، ص ٤١، ٤٢.
(١٨٩) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٣٤.
(١٩٠) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٠٢، المقريزي، الخطط، ح ١ ص ١٤٥.
(١٩١) ساويرس، ج ٥ ص ١٨٩.

الاختلاف في الأرقام قد يشير إلى أن فضول الأموال التي ترسل كانت تختلف من فترة إلى أخرى تبعا لازدياد أو نقصان النفقات في الولاية. إلا أنه من الثابت أن مصر كانت ترسل الفائض إلى بيت المال في دمشق، أما في العراق فقد اختلف الوضع، إذ أن قبائل كل من البصرة والكوفة كانت ترى أنه لاحق للخلافة بالتصرف بأموال الفيء خارج نطاق المصر، وحاول عمر بن الخطاب مراعاة النظرة القبلية والتمشي معها، وأوصى قبل موته بأهل الأمصار خيرا... وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم(١٩٢)، وعندما كتب عمر إلى حذيفة «أن أعط الناس أعطياتهم وأرزاقهم فكتب إليه إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير، كتب إليه عمر إنه فيئهم الذي أفاء الله عليهم ليس هو لعمر ولا لآل عمر اقسمه بينهم(١٩٣)» وبالرغم من سياسة عمر هذه فان أهل الكوفة كانوا دوما يطالبون ألا يحمل فضل فيئهم عنهم وأن يسار فيهم بسيرة علي بن أبي طالب التي سار فيها في البلاد(١٩٤)، ولقد رأت القبائل العربية في انتصار معاوية وأهل الشام تهديداً لحقوقها في الفيء، لذا خطب الحسن بن علي القبائل العربية عند تنازله عن الخلافة لمعاوية وقال: «وقد أخذت لكم على معاوية عهد الله وميثاقه بأن يعدل بكم ويوفر فيئكم(١٩٥)»، وبقيت هذه النظرة طيلة الفترة الأموية(١٩٦)، واتهمت القبائل معاوية باستئثاره بفيئها حين كان يأخذ فضول بيت المال(١٩٧).

ويمكننا أن نأخذ فكرة عن فضول الأموال التي كانت ترسل، مما يذكره البلاذري عن المدائني عن مسلمة بن محارب أن زيادا كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف، ويعطي الذرية ستة عشر ألف ألف درهم، وينفق في نفقات السلطان ألف

(١٩٢) ابن سعد، الطبقات، ج٣ ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(١٩٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٥.

(١٩٤) الطبري، ج٦ ص ١١.

(١٩٥) تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، ص ١٢٧.

(١٩٦) الطبري، ج٥ ص ٤٠٣، ٥٠٩، ج٦ ص ٤٣، ٤٤، ١٠٥.

(١٩٧) الجاحظ ــ رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٤، ج٢ ص ١١، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٥٩م، ج٥، ص ١٣٠.

ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب ألفي ألف درهم، ويعطي للمقاتلة ستة وثلاثين ألف ألف ويحمل إلى معاوية أربعة آلاف ألف، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف ويحمل إلى معاوية ثلثي الأربعة آلاف ألف، لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة، وحمل عبيد الله بن زياد إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم فقال: «اللهم ارضَ عن ابن أخي(١٩٨)».

وعندما توفي معاوية دعا أهل الكوفة الحسين بن علي، ووصفوا معاوية بأنه غصبها فيئها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها(١٩٩). وظهرت الدعوة لتوفير الفيء في الثورات ضد الحكم الأموي، فالخوارج اتهموا الأمويين بابتزاز الفيء والاستئثار به(٢٠٠) واحتج العراقيون على الحجاج لاحضاره الجيش الشامي على حساب وارد العراق، وقام زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ، وكان في نص بيعته «وقسم هذا الفيء على أهله(٢٠١)». وخطب يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ الناس فقال لهم «إن لكم عليّ عهدا.... أن لا أنقل مالا من بلدة إلى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة ثغره، بما يعينهم، فان فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه(٢٠٢)». وهكذا نرى أن القبائل في العراق كانت ترى أن الدولة تستأثر بفيئها وتبتزها، ولعل هذا كان له أثره في موقف القبائل في العراق من الدولة الأموية.

بالرغم من عدم توفر الروايات التي تشير إلى ما كان يرد من ولاية افريقية، فإن دراسة العوامل التي أدّت إلى ثورة البربر سنة ١٢٣ هـ توضح أن ولاة افريقية اضطروا نظرا لما رسخ في المشرق من أفكار حول غنى المغرب أن يلجؤوا إلى بعض الوسائل القديمة في المصادرات بعد زوال مبرراتها، كي لا يظهروا لدى الخليفة كمقصرين عن

---

(١٩٨) البلاذري، أنساب، القسم الرابع، ج ١ ص ٢١٨، ابن الأعثم، فتوح، ج ٤ ص ١٨١.

(١٩٩) الطبري، ج ٥، ص ٣٥٢.

(٢٠٠) الطبري، ج ٥ ص ١٩١.

(٢٠١) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٧٢، البلاذري، أنساب، الجزء الثالث، تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت، طبعة أولى ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م ص ٢٣٨.

(٢٠٢) الطبري، ج ٧ ص ٢٦٩.

غيرهم، كما أن تعيين عبيد الله بن الحبحاب والياً على افريقية وهو الذي نفذ عملية المسح في مصر[٢٠٣]، مع تقدير جديد للضرائب، قد نستنتج منه رغبة الخليفة هشام ابن عبد الملك في مد هذه التنظيمات للمغرب، لا سيما أنه يرد في بعض روايات لابن عبد الحكم ذكر عرضي لعملياته التنظيمية، وذلك بتقسيمه المغرب الأقصى إلى قسمين، السوس الأدنى وهو طنجه وما والاها والسوس الأقصى[٢٠٤]. أما الأندلس فيرى الدكتور أحمد بدر أنه ليس هنالك إشارة البتة لإرسال الأموال من هذا البلد الغني سواء إلى والي افريقية أو خليفة دمشق[٢٠٥]. بالإضافة إلى فضول الأموال التي كانت ترسل إلى بيت المال في دمشق كان يرسل إلى الخليفة في العصر الأموي بهدايا النيروز والمهرجان، من الولايات الشرقية، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز نهى أن يذهب إليه في النيروز والمهرجان بشيء[٢٠٦]، وربما أعيد إرسال هذه الهدايا إلى الخليفة إثر وفاة عمر بن عبد العزيز.

بيت مال الصدقة

من الطبيعي أن يكون للصدقة بيت مال خاص، لأن لأموال الصدقة وجوه صرف غير مال الخراج، وفقا للآية الكريمة «وإنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين، وفي سبيل الله وابن السبيل[٢٠٧]». وكان عمال الصدقة يأخذون رزقهم من مال الصدقة بينما كان موظفو الدولة كلهم يأخذون أرزاقهم من مال الفيء، ولا يجوز نقل صدقات بلد إلى بلد غيره[٢٠٨]، إلا سهم سبيل الله في الغزاة فانه ينقل إليهم، لأنهم يسكنون الثغور[٢٠٩]، وكانت العشور تفرض على أهل الحرث، وعلى المسلمين صدقات أموالهم[٢١٠]. ويظهر أن الأمويين جعلوا العشور

(٢٠٣) المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٨٢.

(٢٠٤) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧، ٢١٨، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٥١ ــ ٥٢.

(٢٠٥) أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ج ١ ص ٣٤.

(٢٠٦) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن العزيز، ص ١٠٠، ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٧٦.

(٢٠٧) أبو يوسف، ص ٩٥، ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ٣٤.

(٢٠٨) أبو يوسف، ص ٩٦.

(٢٠٩) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٤.

(٢١٠) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٨٢.

وظيفة تجمع نقداً، فعن رواية عبد الله بن جعفر عن أبي المليح عن ميمون أن عامل الصدقة دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال: كم جمعت من الصدقة، قال كذا وكذا، قال، فكم جمع الذي قبلك، قال، كذا وكذا، فسمى شيئاً أكثر من ذلك، فقال عمر: من أين ذلك، قال: يا أمير المؤمنين إنه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدّان خمسة، وإنك طرحت ذلك كله، قال: لا والله، ماألقيته ولكن الله ألقاه[٢١١]. وكان عمر بن عبد العزيز دقيقاً جداً في صرف أموال الصدقة في وجوهها، فقد وفد عليه عاصم بن عمر بن قتادة وبشير بن محمد بن عبد الله بن زيد في خلافته، فدخلا عليه بخناصرة، فذكرا دينا عليهما، فقضى عن كل واحد منهما أربعمائة دينار فخرج الصك يعطيان من صدقة كلب مما عزل في بيت المال، قال محمد بن عمر، وكان ذلك العزل قدم به لم يوجد احد منهم يقضى عنه دين فأدخل فضله بيت المال عزلاً لأنه يقضى به عن الديان فهذا وجهه[٢١٢]، وعن محمد بن عمر أنه قضى عنه ابن أبي حيثمه وهو خليفة خمسين ومائتي دينار من صدقات بني كلاب وكتب بها، ذلك أنه لم يزل رأي عمر بن عبد العزيز والذي يشير به على من ولي هذا الأمر من أهل بيته، توفير هذا الخمس على أهله (الغارمين) فكانوا لا يفعلون ذلك، فلما ولي الخلافة، نظر فيه فوضعه في مواضعه الخمسة[٢١٣]، وفي طبقات ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز ربما أعطى المال يستألف على الإسلام وأنه أعطى بطريقا ألف دينار استألفه على الإسلام[٢١٤]. كما اتخذ عمر بن عبد العزيز دار طعام للمساكين والفقراء وأبناء السبيل ومنع أهله أن يصيبوا من تلك الدار شيئاً[٢١٥].

النقود المتداولة في الشام

كان بين الدولة البيزنطية وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى

---

(٢١١) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٧٧.
(٢١٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٧.
(٢١٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٧.
(٢١٤) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٨.
(٢١٥) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٧٩.

بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط ، وبألا يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية في البلاد الإسلامية التي كانت سابقاً تابعة للدولة البيزنطية(٢١٦). وقد عرف عرب الجزيرة النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية لصلتهم الوثيقة بعرب الشام. فقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحبشة والسواحل الافريقية ، وربما بعض ما يرد من الهند إلى الشام ، ويعودون بمنتجات الشام وبالنقود البيزنطية ، وكانت النقود البيزنطية المتداولة قبل الإسلام وبعده هي نقود فوكاس (٦٠٢ ــ ٦١٠ م) ونقود هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١ م) ، ولا بد أن تكون بعض نقود الأباطرة السابقين موجودة أيضاً بدليل أن النقود المقلدة من قبل العرب تحمل صورهم ، وكان النقد البيزنطي يسمى سوليدس Solidus ويزن ٤٫٤٨ غ تقريباً(٢١٧) ، أما النقد النحاسي فهو ما أطلق العرب عليه اسم فلس(٢١٨).

يتبين لنا مما ورد في المصادر التاريخية أن الجزية والخراج ، وأعطيات الجند في الشام ومصر كانت تدفع بالدنانير ، بينما كانت الدراهم هي العملة المستخدمة في العراق والمشرق ، وتشير المصادر إلى أن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ومصعب ضربوا الدراهم على الطراز الساساني(٢١٩) ، بينما سك معاوية في خلافته الدراهم والدنانير(٢٢٠) ، وأن الدنانير التي ضربها عليها تمثاله متقلداً سيفاً ، ولكن علماء الآثار لم يجدوا بعد ديناراً لمعاوية عليه تمثاله ، ومن الغريب الا يذكر المؤرخون القدامى شيئاً عن الصورة إلى أن أتى المقريزي فأعطانا معلومات أكثر تفصيلاً عن شكل النقود والمأثورات ، ولذلك يتساءل الأستاذ العش إذا كان المقريزي قد عثر على كتاب أو وثيقة ذكرت فيها هذه المعلومات(٢٢١).

---

(٢١٦) آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

(٢١٧) Ostrogorshy, Op. Cit., p.39.

(٢١٨) محمد أبو الفرج العش ، النقود العربية الإسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٢ .

(٢١٩) الأب أنستاس الكرملي ، النقود العربية وعلم النميات ، ١٩٢٩ م ، المقريزي ، كتاب النقود الإسلامية ، ص ٣٢ .

(٢٢٠) المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٢٢١) محمد أبو الفرج العش ، النقود العربية الإسلامية ، ص ٢٨١ .

ويجمع المؤرخون على أن عبد الملك هو أول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الإسلام، وإن كان المؤرخون يختلفون في السنة فإن عدداً كبيراً يؤكد أن ذلك تم سنة ٧٦ هـ[٢٢٢] وكانت قضية اصلاح النقود وتوحيدها في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ضرورة بالغة الأهمية لوضع حد للفوضى والصعوبات أثناء جمع الجزية والخراج، مثال على ذلك، أن الخليفة عمر قسّط الخراج في العراق ورقاً وعيناً، والدراهم تؤدى فيه عدداً، ففسد الناس فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم أربعة دوانق ويستبدون بالوافي ووزنه مثقال، فلما ولي زياد طلب بأداء الوافي فشق ذلك على الناس، فلما أصبح عبد الملك خليفة قدّر وزن الدرهم على نصف وخمس مثقال، وترك المثقال على حاله[٢٢٣]، ويذكر البلاذري أنه لما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير، فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم سنة ست وسبعين من الهجرة فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا إلا حبة بالشامي، وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى (أي لا زيادة فيه ولا نقصان) والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطين ونصف، وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي[٢٢٤].

ومرّ تعريب النقد في الواقع بمراحل قبل أن يصبح النقد عربيا خالصا، وقد وجد دينار في سورية حوالي ١٩٥٤م وانتقل إلى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي حيث هو محفوظ فيه الآن، وهذا الدينار العربي الجديد يعود إلى سنة ٧٤ هـ وهو يمثل على الوجه شخص عبد الملك واقفاً متقلداً سيفا مرتديا ملابس مزركشة، وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة «بسم الله، لا إله إلا الله وحده، محمد رسول الله» وعلى الظهر بدا في الوسط الصليب البيزنطي المحور وكتب حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة أيضاً «بسم الله» ضرب هذا الدينار سنة ٧٤هـ، هذا

---

(٢٢٢) الدينوري، ص ٣١٦، ابن قتيبة، المعارف ص ٢٤١، الطبري، ج ٦، ص ٢٥٦، ابن الأثير، ج ٤، ص ٥٤، القلقشندي، ج ١ ص ٤٢٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٧.

(٢٢٣) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ٢، ص ٣٢.

(٢٢٤) انستاس الكرملي، النقود العربية، البلاذري، ص ١٠، المقريزي ص ٣٤.

الدينار لا يزال فريداً في العالم ، وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ ـــ ٧٦ ـــ ٧٧ هـ[٢٢٥] ، وكان هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب ، حيث كان التعريب واضحاً ، وان كان التأثير البيزنطي لا يزال موجوداً ، أما الدنانير العربية الخالصة فلا تحمل صوراً للخليفة وإنما تحمل مأثورات عربية صرفة ، من ضمنها آيات قرآنية ، وقد اثنى ابن خلدون على ابداع النقد العربي الصرف بقوله «ونقش عبد الملك فيه كلمات لا صوراً ، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور[٢٢٦]» .

لا يحمل دينار عبد الملك الذي ضرب سنة ٧٩ هـ إلا الآيات القرآنية على الوجهين والأطراف ، وكان قطر الدينار الأموي ، بين ١٨ و ٢١ مم وكان وزنه بين ٢٠ر٤ و ٣٠ر٤ غرام وهو أقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي ، وكان ذلك ضرورياً من أجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزناً وقيمة[٢٢٧] . إلى جانب الدينار صك الأمويون عملة قيمتها نصف دينار وزنها ٠٦ر٢ غ و١٢ر٢ غ وثلث دينار وزنه بين ٣٩ر١ و٥ر١ غ .

والملاحظ أن مكان الضرب لم يظهر على الدنانير العربية على الأكثر ، وهذا يعني أن الدنانير كانت تضرب بدمشق في بادىء الأمر ، وقد جاء في رواية الوليد بن مسلم عن الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى صاحب بيت الضرب بدمشق : «أن من أتاك من فقراء المسلمين بدينار ناقص فابدله بوازن[٢٢٨]» . ويرى الأستاذ العش أن الدنانير الأموية العربية الصافية في أفريقية ضربت في دمشق لصالح المغرب ، إذ أنها شبيهة بالنقود الشرقية ، ولا تختلف إلا بذكر أفريقية ، وأن الدارس إذا أمعن النظر في الخط على هذه الدنانير يرى أنه لا يختلف عن الخط المشرقي وأسلوبه ،

---

(٢٢٥) Miles, The Earliest Arab Gold Coinage. 1967 p. 212-

(٢٢٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ص ١٩٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص ٢٣٧ .

(٢٢٧) محمد أبو الفرج العش ، النقود العربية الإسلامية ، ص ٢٧٦ .

(٢٢٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ .

وأنه يوجد في متحف دمشق دينار فريد ضرب لصالح افريقية سنة ١١٠ هـ حسب النمط المشرقي، كما يوجد دينار آخر في متحف دمشق ضرب سنة ١١٦ هـ، أما الدينار الموجود في برلين فقد ضرب سنة ١٢٢ هـ(٢٢٩).

ومرّ تعريب الفلوس البيزنطية بمراحل أكثر تعداداً وربما أطول أمداً، فقد قلد العرب الفلوس البيزنطية، ولكنهم أضافوا اسم مكان الضرب بينما كانت النقود البيزنطية عامة خالية من أسماء المدن السورية، ماعدا أنطاكية التي كان لها منزلة دينية، وقد وجدت فلوس نقش عليها اسم بيسان، بعلبك، دمشق، طبرية، إيلياء، فلما أصبحت النقود النحاسية عربية، وجد هناك أنواع عديدة تختلف في وزنها وحجمها ومأثوراتها بعضها مغفل، وبعضها يحمل مكان الضرب، وأخرى تحمل مكان الضرب والتاريخ، وفلوس تحمل اسم الخليفة ومكان الضرب والتاريخ أحياناً وأخرى تحمل اسم الوالي ومكان الضرب والتاريخ(٢٣٠). ولذلك فان المعلومات التي تقدمها العملة النحاسية أكثر أهمية من تلك التي تقدمها الدراهم أو الدنانير، فالدراهم كانت تحمل اسم مدينة الضرب، مما يشير إلى أن الخليفة فوّض الولاة بهذه المهمة، وكان عبد الملك قد كتب إلى الحجاج بضرب الدراهم وبعث إليه بالسكة، فسيرّها إلى الافاق، لتضرب الدراهم بها(٢٣١). واستمر الولاة بضرب النقود حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي أمر خالد بن عبد الله القسري والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السكك من كل بلدة إلا واسطا(٢٣٢)، وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي عندما عزل خالد سنة عشرين ومائة، فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان(٢٣٣).

---

(٢٢٩) Walker, A Catalogue of The Muhammaden Coins, in the British Museum, Vol. II p.100.

(٢٣٠) محمد أبو الفرج العش، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢٣١) انستاس الكرملي، النقود العربية وعلم النميات، البلاذري، ١٠، المقريزى ٣٤، ٣٦.

(٢٣٢) المصدر السابق، المقريزى، ص ٤٤.

(٢٣٣) المصدر السابق، المقريزى، ص ٤٤، ويوجد في المتحف الوطني بدمشق مجموعة من الدراهم تعود إلى مناطق مختلفة وإلى الفترة السابقة لولاية خالد القسري، هراة ٩٦ هـ، سرّق ٩٣ هـ، سابور ٩٣ هـ، دستوى ٩٢ هـ، اردشير خرّة ٩٢ هـ.

أثر النظام الضريبي على النشاط الزراعي

انتشر العرب بالفتوح في بلاد الشام كلها إلا أنهم لم يتعرضوا لجماعات القرى بأي أذى أو ضرر كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة، وكانت خطتهم منذ البداية قائمة على عدم الاضرار بالفلاحين، بل ان قادة العرب بذلوا جهودهم لتوفير الطمأنينة في نفوسهم وإبقائهم على الأرض، واعتبروا الفلاحين أحرارا، هذا مع اعـادة لتنـظيم الضرائب والاشراف على جبايتها، وجعل الخراج وفقا للمساحة ونوع الزرع وابطال الامتيازات السابقة، وهذه أمور لابد أن تنعكس على أوضاع المزارعين في المنطقة.

ومن الطبيعي أن تستمر أساليب الزراعة والحياة القروية على ما كانت عليه في العهد البيزنطي، إلا أن العرب وفروا للمزارعين استقراراً أكثر من الفترة البيزنطية المتأخرة المضطربة، وكان للوضع الجديد أثره، إذ اعتبرت أرض العنوة وهي الأراضي الريفية فيئا للأمة، أي أرضا خراجية مادام زراعها وفلاحوها عليها، في حين أن أراضي النبلاء وأراضي من قتل أو هرب اعتبرت صوافي، وهذا يعني أن أراضي الصوافي يمكن أن ينشأ عليها ملكيات جديدة، كما فتح المجال لاستغلال الأرض الموات والخالية وتوسيع نطاق الزراعة، وان كانت الاشارات إلى الأرض الموات في الشام محدودة، بعكس منطقة الجزيرة حيث يشار عادة إلى الأرض الخالية والمواطن النائية[٢٣٤]، ولذلك فإن الملكيات التي ظهرت في بادىء الأمر وفي عهد معاوية كانت عبارة عن اقطاعيات من أرض الصوافي التي منحها لأهل بيته وخاصته، وقد رأينا أن الأشراف كانوا يلحون في طلب الاقطاعات مما أدّى إلى نفادها في فترة عبد الملك ودفعته إلى أن يمنح اقطاعات من أرض خراجية صارت لبيت المال لوفاة أصحابها دون ورثة، ثم لم يلبث الوليد بن عبد الملك وسليمان من بعده نتيجة لالحاح الأشراف أن سمحا لهؤلاء بشراء الأراضي الخراجية. وإذا دققنا في الروايات المتعلقة بأصحاب الاقطاعات نجد أن جل ملاكي القرى من الأمراء الأمويين وبينهم بعض أشراف القبائل من مؤيديهم، وهذه كلها تشير إلى الأهمية المعطاة للزراعة والأراضي الزراعية من قبل الأمراء الأمويين، وكان أصحاب

(٢٣٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٤، ١٨٥.

هذه القرى يقيمون في العاصمة أو إحدى المدن الرئيسية، وهذا يعني أنهم يديرونها بواسطة وكلائهم[٢٣٥]، وأن أهل القرى هم مزارعون وفلاحون يعملون في أرض السادة الملاكين ربما لقاء نسبة من الحاصل، وقد يسّر ذلك أنها كانت لا تدفع سوى العشر[٢٣٦]. ويبدو اهتمام الأمويين بالزراعة ومشاريع الري في وقت مبكر، فقد حفر يزيد بن معاوية نهر يزيد وكان قبل ذلك نهراً صغيراً يسقي ضيعتين في الغوطة، فلما أصبح خليفة ورأى تلك الأراضي الواسعة التي ليس فيها ماء أمر بحفر ذلك النهر الصغير وتوسيعه. ويصف ابن عساكر يزيدا بأنه كان مهندسا وأنه احتفر نهرا سعته ستة أشبار في عمق ستة أشبار، وأن أهل الغوطة عندما حاولوا منعه أرضاهم، بأن ضمن لهم خراج سنتهم[٢٣٧]، كما بلغ عدد الأنهار المتفرعة عن بردى في عهد هشام بن عبد الملك ما يزيد عن ثلاثة عشر نهراً[٢٣٨]، وحفر هشام في الرصافة نهري الهني والمري، واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمري[٢٣٩]، وكان أهل بالس قد طلبوا من مسلمة بن عبد الملك أثناء توجهه غازيا إلى الروم أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم وأراضي قاصرين وعابدين وصفين، وهي قرى منسوبة إلى بالس، على أن يجعلوا له الثلث بعد العشر الذي يدفع للدولة[٢٤٠]. وعندما مصر سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة وبنى فيها احتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة واحتفر آباراً، وكان أول مابنى منها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجا متوسطا لها ثم اختط للمسجد خطة وبناه، فولي الخلافة قبل استتمامه فأكمله في خلافته[٢٤١]. ويعلق الدكتور أحمد طوقان على بناء سليمان للرملة «ان اختيار سليمان

---

(٢٣٥) المصدر السابق، ص ١٤٤، ١٥٦، الجهشياري ص ٦٠، ياقوت الحموي. ج ٢، ص ١٠١، ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ٥٨٧.

(٢٣٦) د. عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في الشام، مؤتمر بلاد الشام، ص ١٣٨.

(٢٣٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، المجلدة الثانية، القسم الأول، ص ١٥٢.

(٢٣٨) المصدر السابق ص ١٥٢، ويشير تيوفانس إلى اهتمام هشام بمشاريع الري والزراعة وذلك في أحداث سنة ٧٢٤م/١٠٦هـ/٦٢١٦ من تاريخ الخليفة.

(٢٣٩) البلاذري، فتوح، ص ١٨٤.

(٢٤٠) المصدر السابق، ص ١٥٦، ياقوت الحموي، ج ١ ص ٣٢٨.

(٢٤١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٩.

لتلك المنطقة ليس غريبا إذا عرفنا الحقيقة التالية ، كانت السهول المحيطة بالرملة والممتدة على طول الساحل الفلسطيني ملتفة الأشجار ، وافرة الثروة الحيوانية ، كما كانت المنطقة المجاورة للرملة تتمتع بثروة طبيعية جمة كالمياه والأنهار ، فاختيار سليمان بن عبد الملك لتلك البقعة يتمشى مع الفكرة الأساسية التي حدت بالأمويين إلى بناء منشآتهم عموما[٢٤٢] » . وفي الرد على الدكتور طوقان أتساءل لماذا نقل سليمان القصبة من اللد إلى الرملة مع أن اللد تقع في نفس المنطقة الخصبة الخيرة ؟ ولو أن اللد بقيت مزدهرة لأمكننا قبول رأي الدكتور طوقان ، أمّا وأنها قد خرّبت نتيجة لانتقال سكانها إلى الرملة فيعني أن هناك أسبابا أخرى غير التي ذكرت دفعت سليمان بن عبد الملك إلى بناء الرملة ، وهي رغبته في أن يعرف له ذلك كما عرف لعبد الملك بناؤه لقبة الصخرة وللوليد بناؤه لمسجد دمشق[٢٤٣] . ثم ان هذه المنطقة بالرغم من خصوبتها وكثرة فاكهتها ، إلا أنها ليست كما ذكر جمّة المياه والأنهار بل إن مياهها قليلة وجوفية بسبب شح الأمطار[٢٤٤] ، وهذا يفسر لنا اهتمام سليمان بحفر الآبار العذبة فيها واستمرار خلفاء بني أمية الإنفاق على آبار الرملة وقناتها ، فلما استخلف بنو العباس أنفقوا عليها ، وكان الأمر في تلك النفقة يخرج في كل سنة من خليفة بعد خليفة ، فلما استخلف المعتصم بالله أسجل بتلك النفقة سجلا ، فانقطع الاستئمار وصارت جارية يحتسب بها العمال[٢٤٥] ، وأصبح شربهم من الآبار الملحة ، والمترفون لهم صهاريج مقفلة ، وكانت أكثر البلاد صهاريج[٢٤٦] .

أما قصور الأمويين في البادية فان سوفاجيه وغرابار يحاولان البرهنة على أنها لم تكن مجرد منازل للنزهة بل مراكز للاستثمار الزراعي ، يدل على ذلك منشآت الري حولها من قنوات وصهاريج ومجاري لارواء حقول ومشاريع زراعية في منطقة بادية الشام ، وهذه القنوات والصهاريج وان كانت على آثار مشاريع سابقة ، إلا أنها تدل على تقدير

---

(٢٤٢) د . أحمد طوقان ، الحائر في العمارة الأموية ، مؤتمر بلاد الشام ، ص ١٢٤ .
(٢٤٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩ .
(٢٤٤) د . دويدرى ، جغرافية سورية والوطن العربي ، ص ٣٩ — ٤٠ .
(٢٤٥) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ .
(٢٤٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

الأمويين لأهمية الأرض وعلى احياء اراض خالية بعد الفتح، وقد توصل سوفاجيه إلى رأيه هذا اثر مسح أثري للمواقع الأموية في بوادي حماة وتدمر ومآب والبلقاء وشمال سورية والجزيرة الفراتية، فتبين له أن جميع المنشآت الأموية لها طابع خاص ثابت ومحدد، وهو قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيها آثار استغلال زراعي(٢٤٧). وما إن ظهرت دراسة سوفاجية سنة ١٩٦٧ حتى تأثر بها جرابار Grabar، وكانت بداية نظرية جرابار مقتصرة على قصر الحير الشرقي، وكانت البعثة الأثرية التي قامت بالحفر في قصر الحير الشرقي قد كشفت عن معصرة الزيتون والحمام وبعض البيوت داخل البناء الكبير وهي أمور لم تكن معروفة من قبل لدى علماء الآثار الإسلامية، ولكن غرابار لم يلبث أن عمّم ذلك على جميع هذه القصور، وذكر غرابار في دراسته لمؤتمر بلاد الشام سنة ١٩٧٤ أن هناك أكثر من مائتي مستوطنه أو مشروع زراعي يرجع تاريخها إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، وقال إن الهدف الأول من المنشآت الأموية في جميع الأحوال يرى في مثال قصر الحير الشرقي الذي هو عبارة عن استصلاح زراعي(٢٤٨).

هذه الاشارات سواء في مصادرنا أو ما توصل إليه علماء الآثار كلها تشير إلى اهتمام الأمويين بالزراعة في الشام، ولذلك نجد بعض المستشرقين أمثال بليايف ينوّهون بفضل العرب في ازدهار الزراعة في الشام، إذ عندما دخل العرب بلاد الشام كما يقول بليايف كانت مساحة الأراضي الصالحة للزراعة قد تقلصت كثيرا، وتدنى الانتاج الزراعي إلى مستوى منخفض بسبب ما أسفرت عنه حروب الروم والفرس من سلب ونهب(٢٤٩)، ونتيجة للسياسة المالية التي كان يتبعها الامبراطور هرقل، يضاف إلى ذلك أن وسائل الري من أقنية وترع كانت قد تهدّمت بسبب الاهمال، كما أن عدد سكان الريف الزراعي قد انخفض كثيرا بسبب نزوح الفلاحين عن ديارهم أو بسبب

---

(٢٤٧) Jean Sauvajet, Chateaux Omayyades de Syrie, Revue des Etudes Islamiques, XXXV, 1967. pp. 1-52.

(٢٤٨) Grabar, Early Islamic Settlements in the Badyaht al-Sham-in Conference on Bilad al-sham, Amman, University of Jordan, April, 1974.

(٢٤٩) بليايف، العرب والإسلام والخلافة العربية، بيروت، الدار المتحدة للنشر ١٩٧٣ ص ٢١١.

الوفيات من جرّاء الأوبئة المتعاقبة، فاستحالت الأراضي الزراعية المروية إلى قفار مجدبة، هذه الأراضي التي فتحها العرب لم تلبث تحت اشرافهم أن استحالت إلى حقول ومروج وحدائق وبساتين وكروم ذات عطاء عظيم(٢٥٠). والروايات المتعلقة بالشام في العصر العباسي في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث تشير إلى أن الزراعة كانت مزدهرة في الشام، وهذا دليل على أن المزارع لم يكن يشعر أن كل مايجنيه سوف يتوجه إلى الدولة، ولذلك لانجد ذكرا لهجرة الفلاحين من أرضهم في بلاد الشام كماحدث زمن هارون الرشيد عندما ترك بعض أهالي فلسطين أراضيهم هربا من كثرة الخراج، فوجه الخليفة هرثمة بن أعين لعمارتها، فدعا قوما من مزارعيها وأكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم، وأن يعاملوا معاملة أحسن مما مضى، فرجعوا فسمي هؤلاء بأصحاب التخافيف، ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت عليهم أراضيهم على مثل ماكانوا عليه وهم أصحاب الردود(٢٥١)، كما استاء الخليفة هارون الرشيد من واليه على دمشق الحسين بن عمار واتهمه بأنه ولاه «دمشق وهي جنة بها غدر تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري، واردة منها كفايات المؤن إلى بيوت أموالي، فما برح بك التعدي لارفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر، وأوحش من القفر»، فكان جوابه أنه والله لم يقصد لغير التوفير من جهته «ولكن وليت أقواما ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا إلى ميدان التعدي، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بأضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة، فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتي(٢٥٢)».

وقد شعر أهالي الشام بتأخر بلادهم الزراعي، فقاموا ببعض التحركات التي من شأنها اشعار السلطة بأوضاعهم السيئة، وحاول الخلفاء العباسيون اتخاذ بعض الاجراءات الاقتصادية لرفع مستوى البلاد الاقتصادي، أو العودة بها إلى ما كانت عليه في عهد الأمويين، فقد تصدى الخليفة المأمون لتعديل أراضي الشام، ففرّق المساح في كافة أجنادها وأقام شتاء سنة ٢١٤ هـ كله في دمشق لهذه الغاية(٢٥٣).

---

(٢٥٠) المرجع السابق، ص ٢١١ — ٢١٢.

(٢٥١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢٥٢) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨ ج ٢ ص ٢١٦.

(٢٥٣) المرجع السابق، ج ٢ ص ٢٣٤، ابن العديم، بغية الطلب، مخطوطة، مجلد ٤، ورقة ٩٧، ٩٨.

وكان العامل الاقتصادي أحد أسباب ثورة المبرقع اليماني سنة ٢٢٧ هـ في فلسطين والأردن وكان اتباعه، حسب رواية في الطبري، «قوم من فلاحي تلك الناحية وأهل القرى وأنهم في حدود مائة ألف». وتضيف رواية أخرى أنه لما حل موعد الحراثة انصرفوا إلى القرى إذ أن بعضهم كانوا حرّاثين وبعضهم من أرباب الأرضين، وبقي المبرقع في نفر زهاء ألف أو ألفين(٢٥٤).

هذه الروايات تشير إلى أن الشام شهدت فترة من الازدهار الزراعي في خلافة بني أمية لم تشهده بعد ذلك فترة طويلة، إذ أن خلفاء بني العباس وولاتهم لم يوجهوا اهتمامهم في بادىء الأمر للقيام باصلاحات غايتها تنمية الحياة الاقتصادية ودفع عجلتها إلى الأمام، وإنما كان همهم الوحيد القضاء على الأمويين وانصارهم ومصادرة أموالهم وأموال مؤيديهم، مما أسفر عن ثورات متكررة جعلت البلاد في وضع مرتبك وفي حالة شديدة من الفوضى.

أثر تعريب النقد الذهبي على العلاقات العربية البيزنطية والاقتصاد

لم يؤد الفتح العربي إلى تغييرات اقتصادية حاسمة في تجارة عالم البحر المتوسط، فان العرب لم تكن لديهم الرغبة في تحطيم ماضي مصر والشام الاقتصادي، كما أنهم لم يكونوا تجاراً يرتادون البحار، ولذلك تركوا ممارسة التجارة لمن كانوا يمارسونها سابقاً من سكان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية، كما أن العرب من النواحي الإدارية أبقوا الكثير مما كان متبعا في الشام ومصر في العهد البيزنطي مع إحداث التعديلات التي يقتضيها الوضع الجديد. وهناك أمثلة عدة على ذلك في هاتين المقاطعتين(٢٥٥)، فقد بقي الأقباط يصنعون أوراق البردي التي احتفظت بالشارات والتعابير المسيحية، التي كانت مستخدمة في العهد البيزنطي(٢٥٦)، وانتقلت دور

---

(٢٥٤) الطبري، ج ٦ ص ١١٦، ١١٧.

(٢٥٥) Lopez, Mohammed & Charlemagne, A Revision in Speculum, 1943, XVIII, p. 21.

(٢٥٦) البلاذري، فتوح، ص ٢٤١.

Grohman, Allgemeine Einfuhrung in der Arabischen Papyri Vien 1924, pp. 77, 92. The Kurrah Papyri from Aphrodite-The Oriental Institute, Chicago 1936, pp. 70-72.

الطراز في تنيس وتونا ودمياط والتي كانت تحتكرها الدولة البيزنطية إلى أيدي العرب ، واستمرت دور الضرب البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٦٩٢م/٧٣هـ النقد الأساسي المتداول في مصر والشام(٢٥٧) . ولم يختلف الأمر في الشام عنه في مصر ، فاعتماد معاوية ويزيد على النصارى وبقاء اللغة اليونانية لغة دواوين الخراج ، وتسامح الأمويين مع النصارى من أهل البلاد ، كل ذلك يشير إلى استمرار للماضي البيزنطي ، وبالرغم من التغييرات السكانية في منطقة الساحل الشامي والحروب المتكررة مع الدولة البيزنطية ، فان هذه الأمور لم يكن لها تأثير حاسم على الوضع الاقتصادي ، إذ أن النقد الذهبي البيزنطي بقي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط(٢٥٨) .

ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن الفتح العربي أدّى إلى بعض التغييرات من أهمها ايقاف ما كان يرسل إلى القسطنطينية من مصر من حبوب ، والتي أصبحت ترسل إلى مكة والمدينة ، مما اضطر هرقل إلى ايقاف توزيع القمح مجانا في العاصمة والاعتماد على مناطق أخرى تمدّ العاصمة بما تحتاجه ، وهذا بدوره أدى إلى استفادة سكان بعض المناطق الأخرى التابعة للدولة البيزنطية ، كالمناطق الزراعية في البلقان وآسيا الصغرى ، وجنوبي روسيا لأنها وجدت أسواقاً جديدة لمنتجاتها(٢٥٩) .

أما التغيير الثاني فهو التنحي عن كثير من القوانين التي سنّها جستنيان فيما يتعلق بالتصدير والاستيراد في القرن السابق ، ذلك أن العرب عندما سيطروا على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني وسيطروا كذلك على الشام ومصر ، لم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية ، كما أن حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير إلى ذلك الأدلة المختلفة ، لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر ، إلا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن ، لأن المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائياً . ويبدو أن الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٣م/٧٤هـ

---

(٢٥٧) Archibald Lewis, Naval Power in the Mediterranean, 500-1100 A.D.p.79.

(٢٥٨) Ibid. p.81.

(٢٥٩) Vernadsky, G. Sur L'origine de la Ioi Agraire, in Byzantium, 1925, IV pp. 169-180.

كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان، وإن كانت الضرائب الجمركية بالطبع تفرض على هذه المنتجات المستوردة، كما أن قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقاً يبدو وكأنها اختفت في هذه الفترة، وأصبح التجار أحراراً لا رقابة من الدولة عليهم بعد أن توقف اصدار القمح من الاسكندرية إلى العاصمة(٢٦٠)، وظهر قانون الملاحة الروداني الذي أصبح بموجبه ربابنة السفن أحراراً في أن يتوجهوا إلى المكان الذي يريدونه من أجل أخذ حمولتهم(٢٦١)، ولذلك فان القرن السابع بشكل عام يمكن اعتباره عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط(٢٦٢).

شهدت الشام مرحلة من الازدهار مماثلة لتلك التي شهدتها مصر في حوالي ٧٠٠م/٨١هـ، إذ أن علاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق ازدادت، فالساسانيون الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي تحطمت قوتهم على أيدي العرب، فعادت لهذا الطريق أهميته، واستفادت دمشق من فائض الأموال التي كانت ترسل إلى بيوت أموالها ومن أخماس الغنائم التي كان يرسلها القادة من الشرق والغرب، كما أن ازالة الحواجز التجارية القديمة بين منطقة العراق والشام قد ساعد على ازدهار التجارة مع الشرق، ولعلّ الساحل السوري فقط هو الذي كان يعاني أحياناً من تمرد السكان الجَراجمة مثلا ومن هجمات الأسطول البيزنطي أحياناً أخرى، فلم يصل إلى المستوى المرتفع في الثروة

(٢٦٠) Charanis, p. The Social Structure of The Later Roman Empire, in Byzantium, 1944-1945, XVII pp. 50-51.

(٢٦١) André M. Andreades, The Economic Life of the Byzantine Empire, In Byzantium, II p. 65.

يشير اندريادس إلى أن البعض ينسب هذا القانون إلى الأباطرة الايسوريين، ولكن اوستروغورسكي Ostrogorsky يبين أنه لا يمكن أن نقول أكثر من أن هذا القانون قد صدر ما بين ٦٠٠م و ٨٠٠، وهناك اشارة في الموسوعة البريطانية إلى هذا القانون ولكن دون ايضاح دقيق.

The largely mythical body of law attributed to the Rhodian mariners has been constructed from a few scattered references in the Digest. E.b. ed. 1970. Rrt. Maritime Law.

(٢٦٢) Archibald Lewis, Op. Cit. p.83.

التجارية والصناعية التي كانت تتمتع بها الأقسام الداخلية ، ومع ذلك لابد من أن نكون حذرين قبل إعطاء أحكام قطعية ، فإن هذه المنطقة الساحلية كانت ولا تزال قادرة على أن تمدّ الأسطول العربي بأعداد ضخمة من الأفراد ، كما أن قبرص بالرغم من الغزوات كانت قادرة على أن ترسل جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار إلى دمشق ومبلغا مماثلاً إلى القسطنطينية ، وهذا بدوره يشير إلى ازدهار تجاري .

ولذلك فان السنوات الخمسين الأولى من حكم العرب للشام ومصر لم تؤد إلى نتائج مفجعة بالنسبة للحياة الاقتصادية في القسم الشرقي من البحر المتوسط ، كما أنه ليس هناك دلائل تشير إلى تدهور الاقتصاد في الغرب ، ويقدم لوبيز Lopez أدلة قيمة على استمرار تجارة غير مضطربة نسبيا في كل البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السابع(٢٦٣) ، وتقدم ايطاليا دليلاً واضحاً على استمرار التجارة مع الشرق بشكل فعّال ولا سيما مع رافينا Ravenne(٢٦٤) التي كانت لها علاقات وثيقة مع القسطنطينية والاسكندرية(٢٦٥) . كما أن السوريين كانوا معروفين على نطاق واسع ، فأربعة من البابوات في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن كانوا سوريين ، كما وجد دير للسوريين في روما ، وهذا كله قد يشير إلى أن العلاقات مع الشام هي أقوى مما كان يعتقد(٢٦٦) . أما فرنسا فقد كانت المركز التجاري الأساسي للتجار السوريين ، وحتى سنة ٧١٦م/٩٨هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية وأوراق البردى ومنتجات أخرى(٢٦٧) . ونجد دليلاً على ذلك كما يقول بيرين في الامتياز الذي منحه الملك الميروفنجي في تلك السنة لدير كوربي Corbie باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس Fos . إن هذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من امتيازات في القرن السابق ، ومع ذلك فهنالك شواهد تشير إلى وجود أزمة اقتصادية في فرنسا

---

(٢٦٣) Lopez, Op. Cit. P. 22.

(٢٦٤) Diet, ch., Etudes Sur L'Administration Byzantine dans L'Exarchat de Ravenne, Paris, 1888, pp. 279-280.

(٢٦٥) Ibid., pp. 279-280.

(٢٦٦) Ibid., pp. 255-256.

(٢٦٧) Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, New York, 1939, p. 88.

واسبانيا في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين ، ومهما كانت عوامل هذه الأزمة فقد انعكست على النقد المستخدم عند القوط والميروفنجيين ، إذ ازداد الاعتماد على النقد الفضي ، بينما أخذ النقد الذهبي بالتضاؤل(٢٦٨) .

إن هذه الأدلة تشير إلى أن حوض البحر المتوسط كان وحدة مزدهرة سنة ٧٠٠م/٨١هـ ، فإذا درسنا الوضع الاقتصادي سنة ٧٥٢م/١٣٥هـ نجد كما يقول ارشيبالدلويس صورة مغايرة تماماً ، نجد مصر والشام في حالة من الاضطراب والفوضى ، وكذلك شمالي افريقية واسبانيا وفرنسا راكدة ولا نجد أثراً للسوريين والمصريين في الأسواق الغربية ، ونجد أن الأسرة الكارولنجية هي المسيطرة بدلاً من الميروفنجيين في اكس لاشابل Aix-La Chapelle والعباسيون بدلاً من الأمويين وعاصمتهم بغداد ، وكلتا العاصمتين تبعدان عن شواطيء البحر المتوسط . ولا شك أن أمراً هاماً قد حدث أدّى إلى مثل هذه الثورة الاقتصادية والسياسية العميقة(٢٦٩) .

ان تفسير هذه التغييرات الاقتصادية والسياسية يقع في التبدل الذي أصاب طبيعة النزاع بين الأمويين والبيزنطيين ، ما بين ٦٩٣ ــ ٧٥٢م / ٧٤ ــ ١٣٥ هـ ، ذلك أن الأسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم للاستيلاء على القسطنطينية كان عسكرياً بحتا في البدء . أما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها نرى تدخل العامل الاقتصادي . فبالإضافة إلى العداء العسكري والبحري أضيفت الحرب الاقتصادية ، وقد بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير الذهبية المعربة الأولى وأرسلها لجستنيان الثاني في القسطنطينية كاتاوة(٢٧٠) ، كما أن عبد الملك أمر أن تزال الشارات والتعابير المسيحية من أوراق البردى ، وأن تضاف التعابير الإسلامية(٢٧١) .

ومن الواضح أن عبد الملك أراد بعمله هذا أن يحرر الدولة الإسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا ، وأن يقيم وحدة اقتصادية مستقلة من جهة ، كما أنه أراد

---

(٢٦٨) Ibid., pp. 84-85.

(٢٦٩) Archibald Lewis, Op. Cit., P.88.

(٢٧٠) Ibid., p.89. Lopez. Op. Cit., p.21.

(٢٧١) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

بعمله هذا أن يحقق نوعاً من الضغط الاقتصادي على بيزنطة ، وكان جواب جستنيان على ذلك اعلان الحرب على العرب ، ولا شك أنه قام من ناحية أخرى بتدابير لقطع التجارة مع أعدائه ، وهذا هو التفسير الوحيد ربما لذلك التهجير الوحشي الاجباري لسكان قبرص الذين كانوا يتاجرون مع الشام ، فإذا كان هذا التعليل صحيحا فإنه يفسّر كذلك ثورة الأسطول في بند كبيرهايوت Kibyrrhaeot(٢٧٢) الذي يعتمد إلى حد كبير في تجارته على مصر ، وسيره نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان الثاني(٢٧٣) ، وقد يفسّر لنا كذلك لماذا أسهم تجار رافينا وهم الذين كانوا يمدون مصر بالأخشاب في سقوط ذلك الامبراطور(٢٧٤) ، كما أنه مما يثير الانتباه أن من أول أعمال تيبيريوس الثالث اعادة اسكان قبرص في ٦٩٨م / ٧٩هـ(٢٧٥) ، كما أنه لم يعد فقط القبارصة الذين تفرّقوا في المناطق التابعة لامبراطوريته وإنما حاول كما رأينا ارجاع أولئك الذين كانوا قد هربوا إلى الشام(٢٧٦) ، وربما حقق تيبيريوس بذلك نوعا من السلم الاقتصادي مع الأمويين لأننا لا نشاهد ضغوطاً اقتصادية تمارس من قبل الخليفة في دمشق في عهد ذلك الامبراطور .

ولكن ما أن عاد جستنيان إلى السلطة سنة ٧٠٥م / ٨٧هـ حتى نلاحظ عودة إلى ظهور حرب اقتصادية مرة ثانية ، فنلاحظ من جهة استمرار الوليد في عملية التعريب التي تمت في الشام والعراق في خلافة عبد الملك والتي لم يتم تطبيقها في مصر إلا في عهد الوليد بن عبد الملك(٢٧٧) . وتشير أوراق البردى ، أن الأوراق المعرّبة تماماً تعود إلى ٧٠٩م / ٩١هـ وأن آخر ورقة بردى تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود إلى

(٢٧٢) يضم بند الكبيرهايوت ، الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه
Ostrogorsky, Op. Cit., p.139.

(٢٧٣) Archibald Lewis, Op. Cit., P.89.

(٢٧٤) Diel, Exarchat, p.279-80.

(٢٧٥) George Hill., The History of Cyprus, Vol. I., pp.288-289.

(٢٧٦) يشير أوستروغورسكي إلى أن جستنيان نقل سكان قبرص إلى مقاطعة Cizicus التي كانت قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة لحصار القسطنطينية ، وكانت بحاجة إلى ملاحين متمرسين .
Ostrogorsky., Op. Cit., p.118.

(٢٧٧) الكندي ، ص ٥٨ .

(٢٧٨) Archibald Lewis. p.90.

٧١٩م/ ١٠١ هـ. كما أن الوليد هو الذي طبق في نفس السنة ٩١ هـ ولأول مرة الرقابة على سكان مصر، فقد طبق نظاماً صارماً أجبر فيه الافراد على حمل سجلاتهم، وألزم كل فرد يريد الانتقال من جهة إلى أخرى في أنحاء القطر المصري أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل سجله، وقد أمر الوالي بالقبض على كل شخص لا يحمل سجله معه، أما من فقد سجله أو أتلفه فقد كان الوالي يلزمه الحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير(٢٧٩)، كما أن مخطوطة سريانية لمؤلف مجهول تشير إلى أن الوليد أصدر عام ٧٠٨م/ ١٠٢٠ سلوقي/ ٩٠ هـ أمرا باحصاء المقيمين، وكذلك كل مسافر يعود إلى منطقته أو أرض أجداده أو مكان تولده(٢٨٠)، أي نلاحظ تشديداً على تحركات الرعايا نجد مايقابله عند حكام بيزنطة الذين بدأوا يتشددون كذلك على رعاياهم الذين يريدون التوجه إلى الأراضي العربية(٢٨١)، إلا أن الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها جستنيان الثاني وخلفاؤه هي التي كان لها أكبر الأثر، ومن الصعب إعطاء صورة متكاملة للنظام الذي طبق، في حين يمكن إعطاء الخطوط العريضة له في العودة إلى النظام التجاري المقيّد الذي كان متبعا في عهد جستنيان الأول وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها، كما أن بيزنطة استخدمت أسطولها لدعم ذلك النظام، وهنالك من الأسباب مايدفع إلى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي ٧١٥، ٧١٦م/٩٧، ٩٨ هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية على الولايات الأموية، وبعض المناطق المجاورة، والافتراض، كما يقول هايد Heyd، بأن هذا النظام قد طبق على الولايات العربية يزداد عندما نعلم أن آخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس Fos كانت ٧١٦م/٩٨ هـ، كما أن مملكة لومبارديا أوقفت استخدامها لأوراق البردى(٢٨٢)، أي أن البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الأراضي العربية، إلا إذا اتبعت هذه

---

(٢٧٩) ساويرس، ج ٥ ص ٧٠.

(٢٨٠) ص ١٧٦ من المخطوطة السريانية المترجمة إلى اللاتينية — ص ٢٣٣ من المخطوطة الأصلية.

(٢٨١) Archibald Lewis p.91.

(٢٨٢) Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsiq 1885, pp. 89-92.

لسفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة. وقد يفسر هذا توجه أسطول إسلامي ضخم في أواخر سنة ٩٩ هـ نحو القسطنطينية، إذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارية في الشام ومصر(٢٨٣).

إلا أن بيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار العرب كانت مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية، ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين استقبال التجار المسلمين، منها طرابزون Trebizond الذي كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة(٢٨٤). ويعلق لوبيز Lopez أنه بالرغم من أننا لا نملك دليلاً واقعياً، إلا أنه ليس ما يمنعنا من الافتراض أن هذا الاجراء قد يعود إلى سنة ٧١٦م/٩٨هـ، أو قبل ذلك، لأن اختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد، وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة إليها من مصر والشام المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين إلى بلاد ما بين النهرين التي لم تكن تشكل خطراً عليهم، وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح فيه للتجار بالدخول والخروج منه، لأننا إذا نظرنا إلى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة، فإن هذه التعليمات تشير بصراحة إلى أن تجار العرب كانوا يشجعون على المجيء إلى المدينة من القرن الذهبي حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة(٢٨٥)، وربما كان هذا الوضع مطبقا منذ العام ٧١٨م/١٠٠هـ، فالجامع الذي يقال أن ليون الأيسورى قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض(٢٨٦).

غير أن وضع نظام لتقييد التجارة شيء، وفرضه على الأعداء العرب أمر آخر،

---

(٢٨٣) Lopez, Op. Cit., pp. 26-28.

(٢٨٤) Lopez, Silk Industry in the Byzantine Empire, in Speculum, 1945, XX 26-27.

(٢٨٥) Ibid, p.27.

(٢٨٦) Archibald Lewis, Op. Cit., p.94.

إلا أن عاملين اثنين سهلا تنفيذه أكثر مما كان متوقعاً، العامل الأول، قوة الأسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا سنة ١٠٠هـ وأخذ يمخر عباب البحر المتوسط وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من الجزر في البحر المتوسط كجزر البليار، سارديني، كورسيكا، التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني، بالإضافة إلى سيطرة بيزنطة على مضيق مسينا وعلى مدخل البحر الادرياتيكي، ولذلك كان من السهل جدا منع أي سفينة تتوجه غرباً أو شرقاً من الاستمرار. أما العامل الثاني الذي ساعدهم، هو أن الطريق البحري المحاذي للساحل الجنوبي للبحر المتوسط من مصر إلى شمالي افريقية كان طريقاً خطراً للملاحة، والمرافيء الصالحة للسفن قليلة مابين برقة وطرابلس، ولذلك فان الطريق البحري المتبع هو طريق كريت قبرص، الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وبالرغم من أن الخط البحري المباشر من الاسكندرية إلى كريت كان مستخدما كذلك، إلا أن قوة الأسطول البيزنطي مكنته من أن يقطع بشكل فعال التجارة ليس مع الغرب فقط، وإنما بين الشام ومصر وشمالي افريقية أيضاً(٢٨٧). وإذا استطاعت سفينة أن تفلت من رقابة الأسطول البيزنطي في نقطة معينة، فهناك احتمال كبير أن يعترضها الأسطول في مكان آخر، ونظرة إلى شواطيء البحر المتوسط في هذه الفترة تبين لنا أن هذا الحصار الاقتصادي قد طبق وبشكل فعّال، لأننا إذا اتجهنا بأنظارنا إلى الشرق حيث كانت الاجراءات الاقتصادية والبحرية موجهة ضد مصر والشام بالدرجة الأولى، نلاحظ أن الشام سنة ٧٥٢م/ ١٣٥هـ قد خسرت مركزها التجاري الهام وبقيت عاجزة مدة عشرين عاماً عن تشكيل أسطول(٢٨٨). وانتقل الحكم إلى العباسيين، حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون، وخسرت دمشق مكانتها كمركز للخلافة الإسلامية، هذا في الشرق، أما في الغرب، فنجد أن فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر تمر بفترة ركود اقتصادي بعد سنة ٧١٦م، إذ لم نعد نرى تجارا سوريين في مواقعها الجنوبية أو تجارا من مناطق

(٢٨٧) Ibid., P. 95.

(٢٨٨) George Hill. Op. Cit., Vol. 290.

أخرى، كما أن المدن التي هدّمها الكارولنجيون بقيت مهدّمة[٢٨٩]، كما توقف سك النقود الذهبية مدة خمسين سنة ابتداء من منتصف القرن الثامن الميلادي، وبالرغم من أن بيرين Pirenne يتهم العرب بتحطيم وحدة البحر الأبيض المتوسط القديمة، فإن البيزنطيين في حربهم حتى الموت ضد الأمويين استخدموا كل الاجراءات الاقتصادية والبحرية للوصول إلى النصر في الفترة ما بين ٧١٥ ــ ٧٥٢م/٩٧ ــ ١٣٥ هـ؛ وقد ساعدت الظروف السياسية واضطراب الأمر في الشام وقيام الثورة العباسية بيزنطة على تحقيق مآربها، وبعملها هذا، حطمت بيزنطة النمط الاقتصادي القديم للحياة في بلدان البحر المتوسط، وهيّأت المجال لظهور نمط جديد.

(٢٨٩) Buckler. F.W. Harun al-Rashid, Cambdridge 1927, p.7.

الفصل الثالث

التنظيم العسكري

عناصر الجيش

لم يكن هناك في عهد الرسول ثمة فاصل بين مجتمع وجيش إذ أن الجماعة الإسلامية في المدينة بكاملها كانت تعتبر جماعة محاربة يتوجب على أفرادها المشاركة في الجهاد بشكل أو بآخر، وإن كان الرسول حريصا على أن لا يخرج معه إلا الراغب في الجهاد(١)، ثم سارت الأمور نحو وجود هذا التمايز بقدر ما كان الإسلام يتقدم وينتشر بين القبائل(٢)، إذ أصبح هنالك مسلم مجاهد، وآخر غير ذلك دعي بالاعرابي(٣). واستمر هذا التمايز وتضخم مع الزمن، ففي خلافة أبي بكر وأثناء الردة عمد إلى التكليف، فكلف من بقي على الإسلام والطاعة بمواجهة المرتدين من قومه، كما كلف أمراء بعض المناطق بضرب البعث على من لم يلحق طوعا في الجهاد، فأمر عثمان بن أبي

---

(١) ابن مسعد، الطبقات، ج ٢ ص ٢٧. الطبري، ج ٣ ص ١٠٧.

(٢) د. أحمد بدر، التنظيم العسكري عند العرب؛ مجلة «دراسات تاريخية»، العدد الرابع، نيسان ١٩٨١، ص ١١٨.

(٣) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٧ هـ/١٩٢٨م، ج ١، ص ٣٧٤. يذكر ابن رشد أنه ثبت أنه عليه السلام كان إذا بعث سرية قال لأميرها، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث أو خلال ... أدعهم إلى الإسلام فان أجابوك فاقبل وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، واعلمهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فان أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ....

العاص أن يضرب بعثا على الطائف على كل مخلاف بقدره، فضرب على كل مخلاف عشرين رجلا[4]، وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على أهل مكة وعملها خمسمائة مقو[5]، وعندما بدأت الفتوحات في عهد أبي بكر رفض الاستعانة بأحد من أهل الردة[6]. فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة، فأذن لهم عمر أن يشاركوا في الحرب ولكن كجنود في بادىء الأمر، يذكر الطبري أن عمر ندب أهل الردة فأقبلوا سراعا من كل أوب فرمى بهم الشام والعراق[7]، أشركهم عمر في الجهاد ولكنه لم يطمعهم في الرياسة كما يقول الشعبي[8]، وإنما يحد سلطا بهم دون المائة[9]. وقد اضطر عمر ازاء تردد العرب في الالتحاق بالجبهة الفارسية أن يعمد إلى وضع أسس القاعدة الجديدة للتجنيد حين نص على الالتزام إلى جانب التطوع، فكتب إلى عماله على الأقاليم «ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائهما أحدا من أهل النجدة، ولا فارسا إلا جلبتموه، فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه[10]». كما كتب لبعض قواده: «لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه الي والعجل العجل[11]». وقد اقتضت تلك القاعدة تنظيماً جديداً لضبط نشاطها، فكان أن أوجد عمر الديوان الذي كانت مهمته كما يقول ابن خلدون «احصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم[12]».

هذا ويمكن اعتبار وضع الديوان الخطوة الأساسية في تنظيم المقاتلة، لأن المسلم ما دام قد ضمن عطاءه وعطاء أهله، فقد لزمه الجهاد إذا دعي واستوفى شروطه، كما أن عمر أوضح منذ البدء أن العطاء هو لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم، وهم أهل

(٤) الطبري، ج٣ ص ٣٢٢.
(٥) المصدر السابق، ج٣ ص ٣٢٢.
(٦) المصدر السابق، ج٣ ص ٣٢٧، ٣٤١، ج٤ ص ٢٥.
(٧) الطبري، ج٣، ص ٤٤٨.
(٨) المصدر السابق، ج٤ ص ٢٥.
(٩) المصدر السابق، ج٣ ص ٥٥٧.
(١٠) المصدر السابق، ج٣ ص ٤٧٨.
(١١) المصدر السابق، ج٣ ص ٤٧٩.
(١٢) ابن خلدون، المقدمة، ج١ ص ٢٠٢.

المدائن فصاروا بعد إلى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر[١٣]، وقال: «الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم، ولم يفرض لغيرهم، ألا فيهم سكنت المدائن والقرى وعليهم جرى الصلح وإليهم أدى الجزاء وبهم سدّت الفروج ودوّخ العدو[١٤]». وإذا علمنا أن عمر وجه أوامره إلى أمراء الأجناد أن يتقدموا إلى الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون[١٥]، وأن الرجل إذا أخلّ بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان كانت تنزع عمامته ويقام للناس ويشهر أمره[١٦]، أمكننا القول بوجود جيش ثابت مهمته الجهاد ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين، ويرى البعض وجود تناقض في النصوص الواردة في هذا الموضوع فمرة نرى الخليفة يبيح الزراعة للجند وأخرى نراه ينهاهم عنها ويعاقب من يشتغل بها، وما ذلك إلا لأنه كان يحرمها على الجند النظامي ويبيحها للمتطوعين الذين يلتحقون بالجيش من البوادي والأمصار والبلاد المفتوحة، فهؤلاء كانوا يجنّدون وقت الحرب ويسرّحون وقت السلم وحظهم من الجهاد أسهمهم من الغنيمة فقط، ولا يمنعهم الخليفة من الزراعة.

ومن تتبعنا لجيوش الفتح والامدادات التي تتالت، يتبين لنا أن هذه الجيوش في الشام كانت تتألف بالدرجة الأولى من القبائل العربية ولاسيما اليمانية منها، بذكر ابن الأعثم أن الأزد في معركة اليرموك كانت في ذلك اليوم في القلب، وحمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم وكنانة وقضاعة ولخم وجذام وحضرموت ميمنة وميسرة، ولم يكن فيهم تميم ولا ربيعة لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص[١٧]. ونلاحظ منذ البدء استنادا إلى ما ورد عند ابن سعد والطبري اشتراك العجم الذين دخلوا في الإسلام مع العرب[١٨] وانضمت جماعات من الروم التي رغبت في الإسلام إثر معركة اليرموك وبعد

---

(١٣) الطبري، ج ٣، ص ٦١٩، ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١٠٧.

(١٤) الطبري، ج ٣ ص ٦١٥.

(١٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٦٢.

(١٦) ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٨٠.

(١٧) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ٢٥٤.

(١٨) الطبري، ج ٣، ص ٦١٥، ابن سعد، ج ٣ قسم ١ ص ٢١٩.

فتح قيسارية إلى عمرو بن العاص من الشام وسارت معه إلى مصر لفتحها[١٩]. ويذكر المقريزي عدد من رافق عمرو بن العاص من بني ينة مائة رجل ومن بني الأزرق أربعمائة رجل ومن بني روبيل ألف رجل[٢٠]. كما لم يخل جيش عمرو بن العاص في مصر من وجود جماعة فارسية، وقيل انهم قوم من الفرس الذين كانوا بصنعاء. وقد نزلت الفرس كما يقول ابن عبد الحكم بناحية بني وائل[٢١]، وكان سنبخت على عرافة الفارسيين وكان في شرف العطاء[٢٢].

نلاحظ أن قادة الفتح يستعينون كذلك في مناطق الثغور والمناطق المعرّضة لهجوم من القوى البيزنطية بالمعاهدين مقابل اسقاط الجزية، فقد صالح الجَراجِمة حبيب بن مسلمة الفهرى على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللُّكام وأن لا يؤخذوا بالجزية[٢٣]، وعندما أرسل أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسي للدخول في الدروب وراء الأعداء[٢٤] أشار عليه خالد أن يرسل معهم أدلاء يعرّفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على أعدائهم، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم فاختاروا لهم وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن إليهم وطرح عنهم الجزية[٢٥].

وبقيت الاستعانة بالمعاهدين مقصورة على مناطق الثغور في خلافة بني أمية، إلا أنهم لم يكونوا دائماً يطرحون عنهم الجزية، ففي أقصى الشمال عند التوغل في أرمينيا باتجاه الخزر في عهد هشام بن عبد الملك نجد أن مروان بن محمد وظف على أهل طبرسرانشاه عشرة آلاف مدى في كل سنة تحمل إلى أهراء الباب[٢٦] بعد أن صالحه،

---

(١٩) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٢٩.

(٢٠) أحمد بدر، التنظيم العسكري عند العرب، ص ١٢٠.

(٢١) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٢٢) ابن ماكولا، الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكنى والأنساب، الطبعة الثانية، بيروت، ج ٤ ص ٣٨٦.

(٢٣) البلاذري، فتوح، ص ١٦٤.

(٢٤) الطبري، ج ٤ ص ١١٢، الواقدي، فتوح، ج ٢ ص ٢، ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٩٣.

(٢٥) الواقدى، ج ٢ ص ٢.

(٢٦) البلاذري، فتوح، ص ٢١٠.

ملكها[٢٧]، وعلى صاحب طبرسرانشاه أن يكون في الساقة إذا بدأوا بمهاجمة العدو، وفي المقدمة إذا انصرفوا[٢٨]، كما أنه عندما سار إلى قلعة صاحب شروان وهي تدعى خرش أذعن بالطاعة والانحدار إلى السهل فألزمهم عشرة آلاف مدى في كل سنة وجعل على صاحب شروان أن يكون في المقدمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفي الساقة إذا رجعوا[٢٩]، ولكنه لم يوظف شيئاً على فيلانشاه وذلك «لحسن غنائه وجميل بلائه واحماده أمره[٣٠]» وإنما جعل عليه أن يغزو معهم فقط[٣١].

وعندما نقض جستنيان الثاني الهدنة سنة ٦٩٣م/٧٤هـ مع عبد الملك متخذا من مسألة الدنانير تعلة لنقض الصلح، التقى المسلمون بالجيوش البيزنطية بالقرب من قيسارية Caesarea في معركة سيباستبولس Sebastopolis[٣٢]، وكان جستنيان قد اتجه إلى محاولة استخدام السلاف في الدفاع عن الدولة، فجمع عدداً كبيراً من السلاف ووزعهم على أشد المناطق تعرضا لهجمات المسلمين في آسيا الصغرى والتي كانت في طريق زحفهم جنوب القسطنطينية، فكّون منهم فرقة كبرى بلغت (٣٠,٠٠٠) جندي وجعل مقرّها الرئيسي في بند الاوبسيكيون المطل على الدردنيل، وقد اغترّ جستنيان باستعداداته، ولكنه هزم هزيمة ساحقة كاد معها أن يخسر آسية الصغرى بكاملها، وانحاز عشرون ألفا من الصقالبة إلى المسلمين مما استثار حقد جستنيان فعمد إلى اجراء مذبحة فيمن بقي منهم بجيشه عند لوكاتا[٣٣]، ولذا غدا السلاف مستعدين لخدمة المسلمين في أي نضال حربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين، لاسيما وأنهم كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى. ويذكر المؤرخ ميخائيل السرياني

---

(٢٧) المصدر السابق، ص ٢٠٩.
(٢٨) المصدر السابق، ص ٢١١.
(٢٩) المصدر السابق، ص ٢١١.
(٣٠) المصدر السابق، ص ٢١٠.
(٣١) المصدر السابق، ص ٢١١.
(٣٢) تعرف هذه المنطقة اليوم باسم سولوسراي Sulu Saray

Ostrogorsky. Op. Cit., p.118.

(٣٣) Theophanes, Sixth Year of Justinian, 692. A.C.P. 558, 559.

George Hill. Op. Cit., 287.

←

أن عبد الملك أسكن هؤلاء الصقالبة الذين انحازوا إلى المسلمين منطقة أنطاكية[٣٤]، وربما دخل قسم من هؤلاء بعد ذلك في الإسلام، إذ يرد في أنساب الأشراف أن مروان ابن محمد كان له موالى من الخزر والصقالبة والروم[٣٥]، كما يذكر البلاذرى أن سلمان وزياد كانا من الصقالبة الذين رتبهم مروان بن محمد في الثغور[٣٦]، وعندما بنى مروان ابن محمد الخصوص شرقي جيحان، بنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا وأسكنها الفرس والصقالبة وأنباط نصارى وأعطاهم خططا في المدينة وأعانهم على البناء[٣٧].

أما إذا أردنا التعرّف على العناصر التي كان يتألف منها الجيش الشامي في العصر الأموي، فلا بد من دراسة النصوص المختلفة المتعلقة بالجيوش التي اشتركت إما بقمع الفتن أو الفتوح، ففي صفين تختلف الروايات في عدد جند معاوية مابين ٧٠ ألف[١٣٨] إلى بضع وثمانين ألفا[٣٩]، إلى مائة وعشرين ألفا[٤٠]، ولكنّها تتفق على أن جيش معاوية كان يتألف من القبائل العربية[٤١] التي قطنت أو كانت قاطنة في أنحاء الشام، وأن هذا الجيش كان جله يتألف من قبائل قضاعة واليمن ولا نجد ذكرا إلا لقيس دمشق[٤٢]، وعند الدينورى لقيس حمص[٤٣] (لأن منطقة قنسرين في ولاية معاوية للشام كانت لا تزال تابعة لجند حمص) أما الموالي فلا يرد ذكرهم الا كتابعين لأسيادهم[٤٤].

ويستبعد اوستروغورسكي رواية تيوفانس القائلة بأن جستنيان قضى على من بقي من الصقالبة لأن الصقالبة وجدوا في القرن العاشر في جند الاوبسيكيون.

(٣٤) George Hill. Op. Cit., P.288.

(٣٥) البلاذري، أنساب، القسم الثالث ص ١٢١.

(٣٦) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

(٣٧) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٣٨) خليفة، ج ١ ص ٢١٨.

(٣٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣ ص ٣٣٧.

(٤٠) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ١ ص ٣٨.

(٤١) خليفة، ج ١ ص ٢٢٢، الطبري، ج ٥ ص ١٤، ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٩٦.

(٤٢) خليفة، ج ١ ص ٢٢٢، الدينوري، ص ١٧٢.

(٤٣) الدينوري، ص ١٧٢.

(٤٤) الطبري، ج ٥ ص ١٩.

وبالرغم من أن الروايات المتعلقة بالجيش الذي أرسله يزيد إلى الحجاز لا تشير إلى القبائل وإنما إلى عدد المقاتلة الذين انضموا إلى مسلمة بن عقبة المرى من كل جند، أو عدد المقاتلة من أهل الشام عامة(٤٥)، فانه يمكننا القول ان دور الموالي في الجيش في الفترة السفيانية كان محدودا جدا، فمن جهة نرى أن المقاتلة الذين اشتركوا في معركة مرج راهط سواء مع الضحاك أم مع مروان كانوا كلهم من العرب(٤٦)، كما نستنتج من اقتراح عبيد الله بن زياد وعبد الرحمن بن عبيد الله الثقفي بجمع موالي بني أمية وتسليحهم أجمعين(٤٧) حتى يتسنى لهم دعم مروان، أن موالي بني أمية حتى هذه الفترة لم يكن يعتمد عليهم في القتال، ولكن هذا الاعتماد يزداد تدريجيا ابتداء من خلافة عبد الملك، فعندما ثار الجَراجِمة في جبل اللُّكام استطاع سحيم بن المهاجر أن يقضي على ثورتهم بجيش من موالي عبد الملك وموالي بني أمية، وجند من ثقات جنده(٤٨)، وأرسل عبد الملك أربعين رجلا من أهل فرغانة مع رجل من بصرى للقبض على الحارث الكذّاب الذي ادّعى النبوة وطلب منهم أن ينطلقوا معه ويطيعون(٤٩)، وعندما ثار يزيد بن المهلّب سنة ١٠١، جهز يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة وابن أخية العباس بن الوليد في سبعين ألف مقاتل، وقيل كانوا ثمانين ألفا(٥٠)، فلما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك فخطب ابن المهلّب الناس وقال: قد رأيت أهل العسكر وخوفهم، يقولون قد جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام؟ هل هم إلاّ تسعة أسياف سبعة منها الي وسيفان علي، وما مسلمة الاّ جرادة صفراء أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين(٥١)، أي بمعنى أن نسبة العرب إلى الموالي كانت ٧ : ٢، وإذا تبين لنا كذلك ظهور فرقة عرفت

(٤٥) اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥١، تهذيب دمشق، ج ٧ ص ٦٠.

(٤٦) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٨، الطبري، ج ٥ ص ٥٣٨، تهذيب، ج ٧. ص ٧.

(٤٧) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٨.

(٤٨) البلاذري، فتوح، ص ١٩٥، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٠٤.

(٤٩) ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٣٢٤.

(٥٠) ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٣، ٧٤.

(٥١) المصدر السابق، ج ٥ ص ٧٣، ٧٤، العيون والحدائق، ص ٧٠.

بالوضاحية لعبت دورها في القضاء على ثورة يزيد بن المهلّب[٥٢]، وأن وضاح كان مولى لبني أمية، وكان بربريا، وأن ياقوت الحموي اعتمد في قوله هذا على السكرى في قول جرير :

لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا
فأورث مجدا باقيا آل بربرا

أمكننا القول ان الوضاحية فرقة من الموالي، لا سيما أننا نرى هذا البيت في قصيدة لجرير (ضاربو هام الملوك) قالها أيام يزيد بن عبد الملك في أواخر حياته، حيث نراه يثنى على الموالي ويطيل في ربط العرب بالعجم بأبي الأنبياء ابراهيم الخليل. فيقول :

وأبناء اسحاق الليوث إذا ارتدوا
محامل موت لا بسين السّنّورا
فيوما سرابيل الحديد عليهم،
ويوما ترى خزّا وعصبا منيّرا
لقد جاهد الوضاح بالحق معلنا
فأورث مجدا باقيا آل بربرا
أبونا، أبو اسحاق يجمع بيننا
أب كان مهديا نبيا مطهرا
فيجمعنا والغر أبناء سارة
أب لا نبالي بعد من تعذّرا[٥٣]

ويستمر جرير في القصيدة في حوالي أربعة عشر بيتا، وهو في قصيدته هذه قد تراجع عن نظرته القديمة، نظرة الاشمئزاز من الموالي واحتقارهم[٥٤]، وقد سلك هذا

---

(٥٢) الطبري، ج ٦، ص ٥٩٥، ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٣، ٧٤.

(٥٣) ديوان جرير، دار صادر، بيروت، ص ١٨٥ — ١٨٧.

(٥٤) نستشف هذه النظرة من الأبيات التى قالها عندما هجا جرير بني العم الذين أعانوا الفرزدق، وكانوا قوما من أعالي فارس قد نزحوا إلى العراق ايام عمر وعاشوا بينهم فقال فيهم :

←

المسلك لاشتراك الموالي مع جيوش الخليفة في القضاء على ثورة يزيد(٥٥). ونستطيع أن نفهم موقف جرير هذا إذا عرفنا أن جريرا كان شاعرا سياسيا بالمعنى التام، شاعرا يحامي عن نظرية حق الأمويين في الحكم ويناضل عنهم ويسدد سهامه إلى خصومهم، وهو في تضاعيف ذلك يحفهم باطار رائع من التقوى والعمل الصالح مقررا أن شيعتهم على الحق وأن من يخالفهم من الشيع أهل باطل(٥٦).

يا آل مروان ان الله فضلكـــــم

فضلا عظيما على من دينه البدع

واعتمد مروان بن محمد على الوضاحية في القضاء على ثورة حمص(٥٧)، وكان عددهم ثلاثة آلاف كما استخدمهم مروان لقمع ثورة أهل الغوطة(٥٨)، ويرد كذلك اسم الذكوانية وأنهم موالي سليمان بن هشام بن عبد الملك(٥٩)، وكان مع مروان يوم معركة الزاب ثلاثة آلاف من المحمرّة ومعه الذكوانية والصحصحية والراشدية، بالإضافة إلى القبائل العربية، قضاعة، السكاسك، بني عامر، بني سليم، السكون، غطفان(٦٠). ويذكر خليفة ابن خياط أن مروان كان في مائة ألف من المقاتلة من أهل

←

سيروا بني العم، فالأهواز منزلكم ... ونهر تيرى، فلم تعرفكم العرب

الضاربو النخل لا تنبوا مناجلهم ... عن العذوق ولا يعييهم الكرب

وقال لطعمة بن قرط العنبري لما أراد أن يبيعه رفد القرى، وأن هذا يجب أن يتعفف عنه العربي ولا يأتيه إلاّ الموالي:

قالوا اشتروا جزرا منا فقلت لهم ... بيعوا الموالي واستحيوا من العرب

وقال في هجاء التيم:

وما جعل القوادم كالذنابى ... وما جعل الموالي كالصميم

(٥٥) د. نعمان محمد أمين طه ــ جرير، حياته، وشعره، دار المعارف، مصر، ص ١٧٥.

(٥٦) د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، الطبعة السادسة، دار المعارف، مصر، ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٥٧) الطبري، ج ٧ ص ٣١٣، ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٢٩.

(٥٨) الطبري، ج ٧، ص ٣١٣، ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٢٩.

(٥٩) الطبري، ج ٧، ص ٣١٢، ابن الأثير، ج ٥، ص ٣٢٤، وذكوان بن عبد الله مولى عبد الملك بن مروان.

(٦٠) الطبري، ج ٥ ص ٤٣٣.

الشام والجزيرة، وحشدت معه بنو أمية بأنفسهم وأتباعهم[٦١]، أما المحمرة فهم على الأكثر موالي مروان بن محمد من الخزر والصقالبة والروم[٦٢]، وقد رأينا أن الذكوانية هم من موالي سليمان بن هشام بن عبد الملك، فإذا اعتبرنا المحمّرة والذكوانية فرقا من الموالي أمكننا بالقياس أن نعتبر الصحصحية، والراشدية من الموالي كذلك لاسيما وأن الطبري يورد صراحة أسماء القبائل العربية التي اشتركت في معركة الزاب بالإضافة إلى هذه الفرق من الموالي، ثم اننا إذا رأينا كثرة موالي بني أمية في الأندلس الذين دعموا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام[٦٣]، استطعنا أن نستنتج أن الجيش الذي أرسله هشام بن عبد الملك للقضاء على ثورة البربر والذي دخل منه حوالي ١٠ آلاف مع بَلْج بن بِشْر إلى الأندلس كان يضم عددا لايستهان به من الموالي، وان لم يرد ذلك بشكل صريح عند ذكر الجيش الذي أرسل، وبالرغم من اسهام الموالي في الجيوش الأموية الشامية إلا أن دورهم يبقى متواضعا بالنسبة للمقاتلة من أبناء القبائل العربية.

أما فيما يتعلق بتحديد أعداد المقاتلة في الشام، فأمر فيه بعض الصعوبة لاشتراك المتطوعين، ومقاتلة من الأمصار الأخرى أحيانا، ففي الحملة التي وجهت للقسطنطينية في خلافة سليمان، بلغ الجيش الذي توجه مع مسلمة مائة ألف وعشرين ألفا حسب قول ابن العبري[٦٤] وخمسمائة ألف وثلاثين ألفا ممن يأخذون العطاء ويتقلبون في الرزق حسب رواية ابن قتيبة[٦٥]، وربما أشار ابن العبري إلى عدد المقاتلة من أهل الشام بينما يذكر ابن قتيبة عدد مقاتلة الجيش من أهل الشام والأمصار الأخرى التي اشتركت مقاتلتها في هذه الحملة، وفي نفس الوقت الذي اشترك فيه الجند الشامي في غزو القسطنطينية، نجد الطبري يذكر أن عدد المقاتلة الشاميين في جيش يزيد بن المهلّب الذي توجه لفتح جرجان بلغ ٦٠ ألفا[٦٦]، أي أن عدد المقاتلة في الشام في خلافة

---

(٦١) خليفة، ج ٢ ص ٦١١.
(٦٢) البلاذري، أنساب القسم الثالث، ص ١٢١.
(٦٣) ابن عذارى، ج ١، ص ٦٠، ٦١، ج ٢، ص ٦١ ـــ ٦٥.
(٦٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١١٤.
(٦٥) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٧٣.
(٦٦) الطبري، ج ٦ ص ٥٣٩.

سليمان بن عبد الملك بلغ مائة ألف وثمانين ألفا ، وربما ضم هذا العدد أهل الديوان والمتطوعة كذلك ، وفي تاريخ تيوفانس أن الصائفة التي توجهت سنة ١٠٨ هـ/٧٢٦م ضمت مائة ألف مقاتل ، (١٥) ألف مقاتل بأسلحة خفيفة بقيادة عامر بن ضبارة ، و (٨٥) ألف مقاتل بقيادة معاوية بن هشام بن عبد الملك وأنهم هاجموا نيقيا Nikaie من منطقة بيثينيا Bithynien[٦٧] ، وبالرغم من أن مسلمة بن عبد الملك كما يذكر البلاذري أسكن أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام في مدينة الباب والأبواب على العطاء في خلافة هشام[٦٨] ، وأن هشاما أرسل جيشا إلى الأندلس يتألف من سبعة وعشرين ألف مقاتل ، ستة آلاف من كل جند باستثناء جند قنسرين الذي اكتفى منه بثلاثة آلاف فقط[٦٩] ، فاننا نرى أن مروان عندما سار إلى الشام لخلع ابراهيم بن الوليد ، وجه ابراهيم الجنود مع سليمان بن هشام بن عبد الملك في عشرين ومائة ألف ، بينما كان مروان في ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وقنسرين[٧٠] ، وهذا يعني تسجيلاً مستمرا في ديوان العطاء في أجناد الشام ، وأن متوسط عدد مقاتلة جيش الشام كان يتراوح بين مائة ألف ومائة ألف وعشرين ألفا .

كان الجند الشامي على أهبة الاستعداد دائما طيلة خلافة بني أمية ، فالغزوات في الجبهة الشمالية ، والتي كانت تعتمد على جند الشام كانت متواصلة تقريباً بالإضافة إلى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة ، فإذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال الجند بقمع فتنة ، ولا شك أن نظام الصوائف والشواتي الذي ظل معمولاً به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومناورات جماعية ، جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين ، لأن بني أمية كما يقول البلاذري كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة[٧١] ، ولكن هذا لم يكن يمنع الراغبين في الجهاد من الاشتراك في

---

(٦٧) Theopanes. Tr. Leopold Breyer. P. 38.

(٦٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٩ .

(٦٩) أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٠ .

(٧٠) الطبري ، ج٧ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٧١) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٧ ، العيون والحدائق ، ص ٨٩ .

هذه الحملات من الزهاد والعباد والصالحين[٧٢]. بالإضافة إلى اشتراك جيش الشام والجزيرة في الصوائف والشواتي، كانت البعوث تضرب أحيانا على أهل المدينة، فقد ضرب الوليد بن عبد الملك البعث على أهل المدينة في سنة ٨٨ هـ، فذكر محمد بن عمر عن أبيه أن مخرمة بن سليم الوالبي، قال: ضرب عليهم بعث ألفين، وأنهم تجاعلوا[٧٣]، فخرج ألف وخمسمائة، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس[٧٤].

وعندما حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ بالناس، قدم المدينة فوافق قدومه موت سالم بن عبد الملك بن عمر بن الخطاب، فصلى هشام على سالم بالبقيع لكثرة الناس، فلما رأى كثرتهم قال لابراهيم بن هشام المخزومي: اضرب على الناس بعث أربعة آلاف فسمي عام الأربعة آلاف[٧٥]. وكان الناس إذا دخلوا الصائفة خرج أربعة آلاف من المدينة إلى السواحل، فكانوا هناك إلى انصراف الناس وخروجهم من الصائفة.

إلى جانب المقاتلة كان هناك الطلائع الذين يرتادون مكان نزول الجيش قبل نزوله وكان الخليفة عمر بن الخطاب يؤكد على أهمية هؤلاء في تتبع عورات العدو وأن يكون هؤلاء من أهل الرأى والبأس[٧٦]، ثم صاحب الأقباض، وصاحب المقاسم[٧٧] أو والي المقاسم، وقد توكل المهمة لشخص واحد يتولى جمع وتقسيم الغنائم[٧٨]، ثم هناك

(٧٢) مصعب الزبيري، نسب قريش ص ٣٣٩، ابن خلكان، ج ٢ ص ٤٢١، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤ ص ٤٠٦.

(٧٣) المعنى الاصطلاحي كما ورد في لسان العرب، أن يكتب الغزو على الرجل فيعطي رجلا آخر شيئاً ليخرج مكانه، وقيل الجعل والجعالة أن يكتب البعث على الغزاة فيخرج من الأربعة أو الخمسة، رجل ويجعل له جعل (لسان العرب، طبعة بولاق، سنة ١٣٠١ هـ، مادة جعل)، وفي حديث ابن سيرين أن ابن عمر ذكروا عنده الجعائل فقال: لا أغزو على أجر ولا أبيع أجرى من الجهاد.

(٧٤) الطبري، ج ٦، ص ٤٣٤.

(٧٥) الطبري، ج ٧ ص ٢٩.

(٧٦) النويرى، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٦ ص ١٦٩.

(٧٧) الطبري، ج ٣ ص ٣٩٧.

(٧٨) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١٢٦، الخولاني، تاريخ داريا، ص ٧٦، ٨٩.

أصحاب الساقة الذين يخلفون الجيش، بسوق الناس وحفظ ماعساه يسقط منهم أثناء السير، ويذكر ابن خلدون أن العرب كانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم وأحيائهم من الأهل والولد كثيرة، حتى في العهد الأموي ولذلك كانت عساكرهم كثيرة الحلل بعيدة مابين المنازل متفرقة الأحياء، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى[٧٩]، ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقيموه إذا ظعن وأن يرحلوا إذا رحل، ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنباع، وقصته في احراق فساطيط روح وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة[٨٠].

بالإضافة إلى الطلائع والساقة كان هناك السعاة الذين يقومون بحمل الرسائل والكتب بين القواد والولاة أو بين القواد والخليفة، كما وجدت بعض الفئات المدنية كالقرّاء والقصاص، وفئة العمال والفعلة والأطبة.

اعتاد المسلمون أول أمرهم أن يترنّموا أثناء معاركهم بالشعر الحماسي جريا على عادة العرب في جاهليتهم متخذين من الرجز وأنغامه مثيرا لنفوسهم ومنشطا لدوابهم، كما وجدوا في شعر حسان بن ثابت وابن رواحة معينا لا ينضب، فلما توالى نزول القرآن ونصحهم الله بالذكر في قوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون[٨١]»، صاروا يكثرون من تلاوته وذكر الله في حروبهم يتلمّظون به بلا صوت تلمّظ الأفاعي[٨٢]، ثم عرف جماعة منهم بحفظ القرآن يسمّون القراء، كانوا يخرجون من الجيش ويتفرقون بين صفوفه يسمعون الناس سورة الأنفال لما فيها من ذكر الثواب في الآخرة على الجهاد. وكان القارىء في الجيش الإسلامي في معركة اليرموك المقداد بن الأسود[٨٣]، ثم ازداد عدد القرّاء بعد ذلك بحيث أنهم شكلوا في العراق

---

(٧٩) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٨١٨.

(٨٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥ ص ١٤، ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٨١٨ شرف الدين بن يوسف الانصاري، التذكرة الأيوبية، ص ١٢٣.

(٨١) سورة الانفال، آية ٤٥.

(٨٢) ابن سعد، ج ٢ ص ١٠.

(٨٣) الطبري، ج ٣ ص ٣٩٧.

كتيبة عرفت بكتيبة القرّاء اشتركت مع ابن الأشعث في ثورته على الحجاج(٨٤). بالإضافة إلى القراء وجد القصاص منذ وقت مبكر، فكان أبو سفيان بن حرب هو القاص في معركة اليرموك(٨٥)، ولا شك أن عددهم ازداد في العصر الأموي، وإن كانت الروايات تشير إلى كثرتهم في المساجد وليس إلى دورهم في اثارة روح الفداء والروح المعنوية للجند أثناء القتال(٨٦).

وكان المسلمون أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد كما يقومون بالأعمال الأخرى اللازمة لهم من حفر الخنادق وإقامة التحصينات وزرع الحسك(٨٧) يشترك في ذلك كبيرهم وصغيرهم، فلما فتحوا الأقطار وكثر في أيديهم الرقيق كان من الطبيعي أن يستعينوا بهم على أعمال الجهاد الهينة كتعهد الجمال والخيل وحزم الأمتعة وحراستها في الحل والترحال، واقامة القناطر والجسور، لاسيما وأن العرب رأوا كثرة الأتباع لدى الفرس، فقد روى السرى عن شعيب عن سيف أن رستم خرج في عشرين ومائة ألف كلهم متبوع، وكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف وأنه خرج من المدائن في ستين ألف متبوع(٨٨). وكان هذا النظام متبعا كذلك عند البيزنطيين حيث كان قادتهم يحضرون معهم عددا من الغلمان بعضهم أرقاء وبعضهم خدم مأجورون، واستحسن

---

(٨٤) المصدر السابق، ج٦ ص ٣٥٠، ٣٥٧.

(٨٥) المصدر السابق، ج٣ ص ٣٩٧.

(٨٦) فيما يتعلق بالقاص ودوره في العصر الأموي يمكن العودة إلى كتاب الإدارة في العصر الأموي، ص ٣٣٢ ـــ ٣٣٤.

(٨٧) أصل الحسك الشائك في اللغة نبات له ورق كورق الرجلة، وعند ورقه شوك ملزّز وصلب ذو ثلاث شعب، تعلق ثمرته بصوف الغنم، ويظهر أن هذا الشوك كان كثير الوجود في بلاد العرب، فقد ضربوا بشوكه المثل في الصلابة، وقد استخدمه المسلمون في حروبهم، كما استخدمه الفرس والروم في التحصين، والرسول عليه السلام أول من استخدمه في الإسلام وذلك في حصار الطائف، ثم نرى المسلمين فيما بعد يصنعونه من أصابع حديدية مدببة لها شعب ثلاث أو أربع يبثونه حول الخنادق لمنع تقدم الخيل والرجال، وقد استخدم الفرس حسك الحديد في صد هجوم النعمان بن مقرّن (الطبري ج ٤ ص ١١٥، ١١٩) وقد ذكر صاحب آثار الأول، ما يفيد أن العرب أجادوا ذلك النوع من وسائل الدفاع وصار للحسك عندهم صنّاع يعدونه وعمال ينقلونه على الدواب، ويبثونه في الطرق التي يحتمل قدوم العدو منها. الحسن العباسي، آثار الأول في تدبير الدول، مخطوط بالمتحف الحربي بالقلعة برقم (٣٨٣) ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي ط مصر ١٣٠٥ هـ، ص ٢١٥.

(٨٨) الطبري، ج ٣ ص ٢١٥.

الامبراطور ليون تلك العادة وأوصى بتشجيع الفقراء من الفرسان أن يقتني كل أربعة أو خمسة منهم خادما وتابعا لحمل أمتعتهم التي لا يمكن حملها معهم بسهولة(٨٩).

وبالرغم من أن الاشارات إلى كثرة الاتباع لاترد صراحة في مصادرنا، فاننا نستطيع القول بأن العرب اتبعوا هذه الطريقة، فقد ورد في الطبري أن عدد رجال ابن الأشعث في معركة دير الجماجم كانوا مائة ألف ممن يأخذون العطاء ومثلهم من مواليهم(٩٠). كما أن مروان بن محمد في حربه سنة ١٢٧ هـ ضد الخوارج كان جيشه يضم الكثير من العبيد، ومما يدل على أن هؤلاء العبيد لم يكونوا مسلحين أو فرقة محاربة هو أن مروان عندما هزم ودخل الخيبرى حجرة مروان وقطع أطنابها، ورأى أهل معسكر مروان قلة من مع الخيبرى، ثار إليه عبيد من أهل العسكر بعمد الخيام فقتلوا الخيبرى وأصحابه جميعا(٩١). وفي تاريخ خليفة بن خياط أنه كان في حرس مروان رجل يقال له سليمان بن مسروح البربري فنادى في العبيد من اتبعني فهو حر، فاجتمع إليه من العبيد ثلاثة آلاف رجل فقتل الخيبرى(٩٢). كما أن مروان بن محمد في حربه مع سليمان بن هشام بن عبد الملك أرسل الفعلة بالفؤوس لقطع الأشجار ليعقدوا جسورا، ويجوزوا إلى عسكر سليمان(٩٣).

أما من حيث الأطباء ومن يعينهم في مداواة الجرحى، فقد كان الطب لدى المسلمين ضعيفا في عهد الرسول (صلعم) ولم يكن للمجروح في القتال من يقوم بعلاج جراحه إلا زوجه أو من يلوذ به من أهله، فقد كثرت الجراحات بالمسلمين يوم أحد وليس من يعني بجراحاتهم(٩٤). ولكن في معركة الخندق نجد ذكرا لامرأة يقال لها رفيدة في خيمة لها بمسجد المدينة تداوى الجرحى الذين يذهبون إليها، وعندما جرح سعد بن معاذ طلب الرسول من قومه أن يجعلوه في خيمة رفيدة(٩٥). ثم ان هذه المهمة

---

(٨٩) Dr. Omar. A History of the art of War. P. 190.

(٩٠) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧.

(٩١) الطبري، ج ٧ ص ٣٤٧.

(٩٢) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٦٩.

(٩٣) الطبري، ج ٧ ص ٣٠١.

(٩٤) الطبري، ج ٢ ص ٥١٤، ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ ص ٢٨.

(٩٥) الطبري، ج٢ ص ٥٨٢.

كما يبدو صارت من خصائص بعض النساء المسلمات المتطوعات، فعن أم عطية الأنصارية «كنا نغزو مع رسول الله (صلعم) فنداوي الجرحى ونمرّض المرضى وكان يرضخ لنا من الغنيمة[٩٦]»، أي يعطيهن ولا يضرب لهن بسهم كالرجال.

ونلاحظ أنه باتسّاع الفتوح وبعد الأسفار صار المسلمون يصحبون معهم نساءهم، فكان أول واجباتهن سقي المحاربين والعناية بالجرحى، وحمل الماء لهم ونقلهم إلى مكان أمين لعلاجهم، وحفر القبور لموتى المسلمين، «فكان النساء يطفن في أرض المعركة ومعهن أولادهن فيدفنون الشهيد، ويحملون الرثيث إلى النساء ويعالجونهم من كلومهم[٩٧]»، وأول ذكر للأطباء عند الطبري نجده في رواية سيف في قوله ان عمر بعث بالأطبة إلى سعد[٩٨]. وفي خلافة بني أمية نجد ذكرا لأبي الحكم الذي كان طبيبا نصرانيا عالما بأنواع العلاج والأدوية وكان طبيبا لمعاوية، وقد أرسله مع يزيد بن معاوية عندما ولاه الموسم متطببا له[٩٩]. وعندما وجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرى نحو الحجاز أصحب معه طبيبا[١٠٠]، ولا شك أن عدد الأطباء ومعاونيهم قد ازداد مع مرور الزمن بعد أن حذق العرب الطب من الفرس والروم.

التعبئة والقيادة

ما أن تم فتح الشام حتى عمد عمر بن الخطاب إلى تقسيم الشام إلى أجناد أو مراكز عسكرية أربعة هي جند حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين، ولقد أوجد معاوية فيما بعد جند قنسرين، وأوضح البلاذري أن هذه الأجناد كانت مراكز للمقاتلة يأخذون أعطياتهم من فيئها، وكان ديوان كل جند يضم سجلات بمقاتلة القبائل المقيمين في ذاك الجند ومن يلوذ بهم، ولذا نجد أن كثيرا من المصادر لا تذكر

---

(٩٦) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج ١ ص ٣٧٩.
(٩٧) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٥١٤.
(٩٨) الطبري، ج ٢ ص ٥٨٢.
(٩٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٥.
(١٠٠) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٤١.

أسماء القبائل التي اشتركت وإنما تشير إلى عدد المقاتلة من كل جند[١٠١]، وبالرغم من أن الروايات المتعلقة بالعرفاء ودورهم تكاد تكون معدومة، فإن الإشارة إلى جود عريف للسكاسك في الشام مثلاً[١٠٢]، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنه كان لكل قبيلة عريفها، كما كان الأمر في مصر والعراق في خلافة بني أمية[١٠٣]، وأن هذا العريف كان مسؤولاً عن أفراد قبيلته، ولكن ليست لدينا أدلة تشير إلى أن دورهم في الشام كان كدورهم في العراق حيث كان العرفاء مسؤولين عن أفراد عرافاتهم، وعن توزيع العطاء وعن الأمن والنظام في عرافاتهم[١٠٤]، وعن تقديم العدد اللازم من الجند عند ارسال البعوث[١٠٥].

أما تقديم العدد اللازم من المقاتلة في الشام فيبدو أنه كان يتم عن طريق الانتخاب أو القرعة، هذا ما نستنتجه من الرواية الواردة عند الطبري في صدد الكلام عن غزوة قبرص، إذ أن عثمان عندما أذعن لالحاح معاوية في غزو البحر، سمح له بذلك شريطة أن لا ينتخب ولا يقرع بينهم وإنما يخيرهم «فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه[١٠٦]».

---

(١٠١) اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٥١، تهذيب، ج ٧ ص ٦٠.

(١٠٢) تهذيب، ج ٥ ص ٢٥.

(١٠٣) أنظر كتاب الإدارة في العصر الأموي فيما يتعلق بالعريف وتطور واجباته، ص ٣١٩، ٣٢٤.

(١٠٤) عن أبي مخنف أن عبيد الله بن زياد حين ولاه يزيد الكوفة، أخذ العرفاء والناس أخذا شديدا وقال للعرفاء: اكتبوا إلى الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فبرىء، ومن لم يكتب لنا أحدا فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف، ولا يبغي علينا باغ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا ماله وسفك دمه، وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا، صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء (الطبري ج ٥ ص ٣٥٩).

(١٠٥) عندما قرر الحجاج ارسال عثمان بن سعيد لقتال شبيب الخارجي، دعا أصحاب الدواوين فطلب منهم أن يضربوا البعث على الناس، وأن يخرجوا أربعة آلاف من الناس من كل ربع ألف رجل، وأن يعجّلوا في ذلك، فجمعت العرفاء وجلس أصحاب الدواوين، وضربوا البعث فأخرجوا أربعة آلاف (الطبري، ج ٦ ص ٢٣١)، كما أن الحجاج دعا العرفاء وطلب منهم أن يلحقوا الناس بالمهلّب وأن يأتوه بالبراءات بموافاتهم (الطبري ج ٦ ص ٢٠٥).

(١٠٦) الطبري، ج ٤ ص ٢٦٠، ابن الأثير، ج ٣ ص ٩٦.

وكان سفيان بن عوف الأزدي قد اتخذ من كل جند من أجناد الشام أهل فروسة ونجدة وعفاف وسياسة للحرب، فكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به[١٠٧]، أي أنه كان ينتخب هؤلاء انتخابا، وربما كان ذلك يتم وفق المهمات التي توكل إلى القائد، وعندما عين عبد الملك بشر بن مروان والياً على العراق كتب إليه أن يبعث المهلّب في أهل مصره إلى الأزارقة، ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم لأنه أعرف بهم[١٠٨].

يتبين لنا مما تقدم أن التسجيل في الديوان يلزم المقاتلة البقاء ضمن نطاق جندهم ويلزمهم الخروج للقتال في نفس الوقت، إلا أن الانضمام إلى الديوان كان اختياريا من حيث المبدأ، كما لم تفرض الدولة على الفرد الانضمام إلى الديوان إلا وقت الضرورة، وفي حالة تسجيل الشخص في الديوان كان عليه الإجابة حين دعوته[١٠٩]، فإن الفرض لأناس في العطاء عند الحاجة[١١٠]، يشعر بأن الكثيرين لم يكونوا في الديوان والأمثلة المتعلقة بالعراق كثيرة[١١١]. ويبدو أن تعبير الفرض يشير إلى التسجيل لأول مرة في الديوان. يذكر أبو مخنف أن الحارث بن عميرة خرج لمحاربة الخوارج في «ألف من المقاتلة الأولى، وألفين من الفرض الذين فرض لهم الحجاج[١١٢]». كما يذكر المدائني أن أعرابياً من طيء خرج إلى الشام إلى بني عم له، فطلب صلتهم، فلم يعطوه طائلاً وعرضوا عليه الفرض فأبى ثم قدم قنسرين فأعطوه شيئاً قليلا وقالوا: تفترض، فقال:

أقمنا بقنسرين ستة أشهر
ونصفا من الشهر الذي هو سابع

(١٠٧) تهذيب، ج٣ ص ٤٥٥.
(١٠٨) الطبري، ج٦ ص ١٩٦.
(١٠٩) ابن سعد، ج٦ ص ٢٣٤.
(١١٠) الطبري، ج٥ ص ٦٢٠، ج٧ ص ٤٦٤، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، ص ٥٥٢.
(١١١) الطبري، ج٥ ص ٦٢١، ج٦ ص ٢٢٢، ج٧ ص ٤٦٤، ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١ ص ٢٧٤.
(١١٢) الطبري، ص ٢٢٠.

يؤمـون بي موقـــان أو يفـــرضون لي
إلى الري لا يسمع بذلك سامع[113]

لا شك أن هذه الأبيات تعكس وضع مقاتلة الشام الذين كانوا مصدر النجدات لاخماد الثورات أو للمعونة في الفتح، ولعل ذلك كان يدفع البعض إلى الامتناع عن التسجيل في الديوان كهذا الاعرابي الذي خشي أن يؤدي تسجيله في الديوان إلى ارساله إلى موقان أو الرى ولذلك نجد يزيد الثالث يعد في جملة وعوده التي أطلقها لنيل الدعم لحكمه، أن يبقي القوات الشامية في أرضها ولا يرسلها إلى الخارج كما جرى الأمر مرارا وتكرارا[114]. ومع ذلك نلاحظ أن التسجيل في الديوان في الشام كان يتم باستمرار، يدل على ذلك الأعداد الكبيرة من المقاتلة التي وجدت في دمشق عندما حاصرها عبد الله بن علي، فقد بلغ عدد الجند (٥٠) ألفا[115]، بينما نجد قلة عدد أهل الديوان في الكوفة مثلا في نهاية الدولة الأموية، فعندما كتب مروان بن محمد إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أن يوجه اثنى عشر ألفا من المقاتلة ويفرض لأناس آخرين ويلحقهم بنصر بن سيار كتب يزيد بن عمر إلى مروان، بأن ما معه من الجنود لا يفون باثنى عشر ألفا ويعلمه أن فرض الشام أفضل من فرض العراق، لأن عرب العراق ليست لها نصيحة للخلفاء من بني أمية وفي قلوبهم إِحَن[116].

تطور شكل التعبئة عندما اضطر القواد المسلمون إلى مواجهة جيوش الفرس والبيزنطيين الضخمة والتي كانت لا تقاتل إلا على نظام وتعبئة، ومعنى التعبئة لدى ابن خلدون: تقسيم الجيوش والعساكر أقساما لكثرتها ويسمونها كراديس، ويسوون في كل

---

(١١٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٠٤، ج ٥ ص ٢٢٥.
وموقان، ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منها، وهي بأذربيجان، كما يذكر ياقوت عن ابن الكلبي أن موقان وجيلان هما أهل طبرستان وأهله يسمونه موغان.

(١١٤) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٥١، الطبري، ج ٧، ص ٢٦٩.

(١١٥) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٣٤، تهذيب، تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٦٢.

(١١٦) الدينوري، الأخبار الطوال ص ٣٦٠.

كردوس صفوفه، ويرتبونها ترتيبا قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع، فالقائد أو الأمير العام في القلب ثم هناك الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة، فإذا تمَّ هذا الترتيب المحكم إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم أو اليومان بين كل عسكرين منها أو حسب حال الجند في القلة والكثرة، فحينئذ يكون الزحف بعد هذه التعبئة(١١٧)».

وعندما وصل خالد مددا لقوات الشام بناء على أمر أبي بكر وجد أن قتال الجند كان على تساند(١١٨)، كل جند وأميرهم لا يجمعهم أحد وهم متضايقون بمدد الروم، فبيّن لهم أنه لا يجوز لهم مقاتلة الروم وهم قوم على نظام وتعبئة بينما العرب على تساند وانتشار، وأن أبا بكر لو علم بالذي كان ويكون لجمعهم، وخوفا من أن يرفض رأيه، اقترح أن يتعاوروا الامارة، «فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم(١١٩)»، ونتيجة لذلك خرج خالد كما يقول السرى عن شعيب عن سيف في تعبية لم تعبّها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا إلى أربعين فجعل القلب كراديس وجعل القيادة لأبي عبيدة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، والميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص. وإذا قمنا باحصاء الكراديس في القلب والميمنة والميسرة لوجدنا أن القلب كان يضم ستة عشر كردوسا، بينما نجد عشرة كراديس في كل من الميمنة والميسرة، وإذا عرفنا أن المقاتلة كان يتراوح عددهم بين ٣٦ ألفاً إلى ٤٠ ألفاً أمكننا القول ان الكردوس كان يتألف تقريبا من ألف مقاتل، وعلى كل كردوس قائد، وهؤلاء يأتمرون بأمر قواد الميمنة أو الميسرة أو القلب، وهؤلاء بدورهم يأتمرون بأمر القائد الأعلى خالد ابن الوليد.

والقتال على التعبئة كما يقول ابن خلدون، مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين

---

(١١٧) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٨٢٤، ٨٢٥.

(١١٨) خرج القوم متساندين، أي على رايات شتى، إذا خرج كل بني أب على راية ولم يجتمعوا على راية واحدة تحت راية أمير واحد (الطبري ج ٣ ص ٣٩٦).

(١١٩) الطبري، ج ٣ ص ٣٩٦ ــ ٣٩٧.

في صدر الإسلام، أي الخلافة الراشدة ودولة الأمويين[120]، أي أن الأمويين استمروا في اتباع هذا النظام في تقسيم الجند إلى ميمنة وميسرة وقلب، ولكننا نجد عودة إلى نظام الصفوف في معركة صفين، إذ حرّض علي أصحابه فقال في كلام له: «فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص[121]». ويقدم لنا كل من الدينوري وخليفة بن خياط لوحة يكمل بعضها البعض، فيذكر الدينوري أن كل فريق منهم اصطف في سبعة صفوف، صفين في الميمنة وصفين في الميسرة وثلاثة صفوف في القلب وأن القائد العام أو الأعلى في جيش معاوية كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي دفع إليه معاوية باللواء الأعظم، ثم وجد قائد عام للرجالة وآخر للخيالة، وقائد للميمنة وآخر للميسرة وثالث للقلب، ثم كان لكل مقاتلة جند قائد ولكل قبيلة ضمن الجند قائدها وزعيمها[122]، أي نلاحظ أن رابطة النسب القبلية ظلت تراعى في تشكيل الكتائب أو وحدات الجيش التي تدخل ضمن وحدات أكبر قائمة على أساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات كرابطة القاعدة العسكرية أو الجند[123]. ويبدو أن الزحف بالصف استمر طيلة الفترة الأموية حتى خلافة مروان بن محمد الذي أبطل الصف وصار إلى التعبئة كراديس في قتال الضحاك الخارجي والخيبري من بعده[124]، ويورد الطبرى ذلك في قوله: فلما قتل الخيبرى سنة ١٢٧ هـ وبويع شيبان قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف منذ يومئذ، وجعل الآخرون يكردسون بكراديس مروان كراديس تكافئهم وتقابلهم[125].

القيادة

كانت القيادة منذ عهد الرسول تعهد إلى أشخاص يتمتعون بخصال معينة، فقد أثر عنه (صلعم) قوله: «اني لأؤمّر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه لأنه

---

(١٢٠) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٨٢٥.
(١٢١) ابن الأثير، ج ٣ ص ٢٩٧.
(١٢٢) الدينوري، ١٧٢، خليفة، ج ١ ص ٢٢٢.
(١٢٣) خليفة، ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢، الدينوري، ص ١٧١ — ١٧٢.
(١٢٤) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢ ص ٨٢٨.
(١٢٥) الطبري، ج ٧ ص ٣٤٩.

أيقظ عينا وأبصر بالحرب»، وبعث الرسول بعثا على رأسه عمرو بن العاص ومعه أبو بكر وعمر لعلمه بالحرب[126].

وعندما قرر أبو بكر توجيه الجيوش إلى الشام جعل القيادة للصحابة المشهود لهم بالحزم وبقوة الشكيمة عند القتال والقدرة على تنظيم الجند واعدادهم، وكان عمر كذلك يؤمر الصحابة «إذا وجد من يجزى عنه في حربه، فان لم يجد ففي التابعين باحسان[127]». وظلت قضية السابقة تراعى حتى في التعيين للقيادات الأصغر، فعندما سمح عمر لسعد بن أبي وقاص باستخدام المرتدين أمره أن لا يولي رؤساءهم على مائة[128]، ولكن عمرا شذّ عن قضية السابقة في تعيين أبي عبيد بن مسعود لأنه كان أول الناس انتدابا لحرب الفرس، إذ أنه عندما قيل لعمر بعد أن اجتمع البعث المقرر توجيهه إلى العراق: أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار، قال: «لا والله، لا أفعل، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابا». وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود وقيل سليط بن قيس، فأمّر أبا عبيد[129]، وعن رجل من الأنصار أن عمر رضي الله عنه قال لأبي عبيد «إنه لم يمنعني أن أؤمّر سليطا إلا سرعته إلى الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيات، والله لولا سرعته لأمّرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث[130]». كما أنه أوصى أبا عبيد أن يسمع من أصحاب النبي (صلعم) وأن يشركهم في الأمر[131]، ولكن شرط السابقة بدأ يتضاءل وان كان معاوية في الشام قد جعل القيادة للصحابة وأبنائهم

---

(١٢٦) النويري، نهاية الأرب، ج ٦ ص ١٥٢.

(١٢٧) الطبري، ج ٤ ص ٢٥.

(١٢٨) المصدر السابق، ج ٣ ص ٥٥٧.

(١٢٩) الطبري، ج ٣ ص ٤٤٥، البلاذري، أنساب ج ٥ ص ٢١٤.

(١٣٠) الطبري، ج ٣ ص ٤٤٥.

(١٣١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٤٥.

المشهود لهم بالكفاءة والاخلاص له بالإضافة إلى اعتماده على سادات القبائل في كل جند(١٣٢) .

أما في الفترة المروانية فنلاحظ ازديادا كبيرا في الاعتماد على أمراء بني أمية من آل مروان كقادة ، وإن بقي لسادات القبائل قيادة قبائلهم ، إذ نرى عبد الملك عندما حشد جيشا لقتال الروم واجتمع هذا الحشد خارجا من مدينة دمشق ، خرج إليهم عبد الملك فعبأهم فجعل على كل قبيلة من القبائل رجلا من ساداتهم يقتدون برأيه وينتهون إلى أمره ، وأمّر ابنه مسلمة بن عبد الملك عليهم وطلب منه عندما يعزم على حرب عدوه أن يجعل عمه محمد بن مروان على ميمنته وابن عمه محمد بن عبد العزيز على ميسرته(١٣٣) .

وبينما نجد معاوية يعتمد على قادة متعددين ينتمون إلى قبائل مختلفة لقيادة الصوائف والشواتي وفي قيادة الحملات الموجهة إلى أرمينية(١٣٤) ، نرى أن النسبة الكبرى من ولاة الصوائف والشواتي ومن قادة الجبهة الشمالية كانوا من أمراء البيت الأموي الذين تتابعوا على جهاد الروم(١٣٥) ، ويبدو أن خلفاء بني أمية كانوا يعلقون أهمية

---

(١٣٢) خليفة ، ج ١ ص ٢٢٢ ، الدينوري ، ص ١٧٢ .

(١٣٣) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٧ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(١٣٤) تظهر في خلافة معاوية أسماء قواد كانت لهم مكانتهم ، كعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، مالك بن هبيرة السكوني ، فضالة بن عبيد ، يزيد بن شجره الرهاوي ، وسفيان بن عوف الازدي ، وعبد الله بن قيس الفزاري (الطبري ج ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٥٢٠ .

(١٣٥) غزا محمد بن مروان والي الجزيرة الصائفة سنة ٧٣ ــ ٧٥ هـ وغزا الوليد بن عبد الملك سنة ٧٧ هـ ، ولعبد الله بن عبد الملك بلاء مذكور في غزوة المصيصة من الثغور الشامية (الطبري ج ٦ ص ٣٨٥) وفي عهد الوليد بن عبد الملك غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم سنوات ٨٦ هـ ٨٧ هـ ، ٨٨ هـ ، ٨٩ هـ ، ٩٠ هـ ، ٩١ هـ ، ٩٢ هـ ، ٩٣ هـ (الطبري ج ٦ ص ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ ، ٤٢٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩) ويذكر ابن العديم أن الوليد تولى الخلافة ومحمد بن مروان على ولايته فما زال كذلك حتى عزله الوليد سنة ٩٠ هـ وولى مكانه أخاه مسلمة ، فدخل مسلمة حرّان وكان أكثر مقامه بالناعورة وبنى فيها قصرا بالحجر الأسود الصلد وحصنا بقي منه إلى عهد ابن العديم برج . وكذلك ظهرت في الغزوات الموجهة لأرض الروم أسماء العباس بن الوليد سنة ٨٨ هـ ، ٨٩ هـ ، ٩٠ هـ ، ٩٣ ، ٩٤ هـ ، ٩٥ هـ . وقد عمر مرعش وحصنها وكان يقطع إليها بعثا من أهل قنسرين سنويا ، وعبد العزيز بن الوليد ، (الطبري ج ٦ ص ٤٥٤) وعمر بن الوليد سنة ٩٢ هـ (ج ٦ ص ٤٦٨) ومروان بن الوليد (ج ٦ ص ٤٦٩) .

كبيرة على هذه الحملات، ولذلك كانوا يسندون قيادتها لابنائهم، أو اخوتهم، لأنهم بعملهم هذا إنما يتابعون عملية الجهاد ضد أعداء المسلمين، كما أن هذه الحملات كانت تكسب الامراء هالة من المجد، بالإضافة إلى أن عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية على ما تتمتع به من نظام وسجايا حربية، ومن ثم كانت هذه الجيوش مصدر قلق لاباطرة بيزنطة، نجد ذلك منعكسا فيما كتبه الامبراطور ليون في الكتيب الذي أصدره والذي زاد عليه فوكاس Nicephorus Phocas إذ يبين أن البيزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة بدقة كخطط العرب، وأن القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج إلى كل قدراته الاستراتيجية والتكتيكية، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة، إذا أراد أن ينجح في صد العرب الكفرة(١٣٦).

ويرتبط بقضية الصوائف والشواتي على الأرض البيزنطية وضع نظام خاص لمعاملة الأسرى، ووسائل اطلاق سراحهم، ويقدم لنا المقدسي صورة عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية، ويشير إلى أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلاد الروم اشترط على ملك الروم أن يبني دارا بازاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه والأشراف،

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك جهزّ الجيوش إلى القسطنطينية سنة ٩٧ هـ واستعمل ابنه داود على الصائفة، وواصل مسلمة غزواته سنة ٩٦ هـ، ٩٨ هـ، وتوفي سليمان سنة ٩٩ هـ، وهو مرابط بدابق من أرض قنسرين. وفي خلافة هشام بن عبد الملك يبرز اسم معاوية بن هشام، سنة ١٠٧ هـ، ١٠٩، ١١١ هـ، ١١٢، ١١٣، ١١٤ هـ، ١١٦ هـ، ١١٧ هـ، (الطبري، ج٧ ص ٤٠، ٤٦، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ٩٩) تيوفانس، ترجمة ليوبولد Leopold Breyer ص ٤٦) بالإضافة إلى معاوية، قلد هشام كذلك أبناءه ابراهيم بن هشام، وسعيد بن هشام، وسليمان بن هشام. (الطبري، ج٧ ص ٤٣، ٩٩، ١٣٩) ويورد تيوفانس اسم سليمان بن هشام في غزوة سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩م ويشير إلى أن الجيش ضم (٩٠) ألف مقاتل، عشرة آلاف من ذوي الأسلحة الخفيفة، وان البطال كان مع سليمان في هذه الغزوة مع (٢٠) ألف فارس وسليمان في (٦٠) ألفا، (تيوفانس ص ٤٨، ٤٩).

(١٣٦) Dr. Omar. A History of The Art of War, p.208.

Tactica XVIII 120. «The Commander who has to meet them Will need all his stratigical ability, the troops must be well disciplined and courageous, if the barbarous and blaspheming Saracen is to be driven back».

إذا أسروا، ليكونوا تحت كنفه وتعاهده، فأجابه إلى ذلك فبنى دار البلاط[١٣٧]، ويضيف «ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه في إجراء وتعاهد وتنزه، وسائر الأسرى من عامة المسلمين مستعبدون ويستعملون في الصنائع، فالحازم إذا سئل عن صنعته لم يقرّ بها وربما اتجر الأسارى بينهم وانتفعوا، وكان البيزنطيون لا يكرهون أحدا على أكل لحم الخنزير ولا يشقون لسانا[١٣٨]»، أي أن الدولة البيزنطية كانت تراعي مبادىء التعاليم الإسلامية في معاملتها للأسرى المسلمين فلم تكره أحدا على تناول لحم الخنزير أو أي شيء يخالف السنن الإسلامية، ولعلّ هذه المعاملة الجيدة التي حظي بها الأسرى المسلمون تعود إلى ماتمتعت به الدولة الأموية من مهابة وجلال وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين.

أما نظام الفداء فلم يظهر بشكل واضح إلا في عهد الدولة العباسية، ويذكر المقريزي أن أول فداء وقع بمال في الإسلام كان أيام بني العباس ولم يقع في أيام بني أمية فداء مشهور، وإنما كان ينادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وبلاد ملاطية وبقية الثغور الجزرية، إلى أن كانت خلافة هارون الرشيد[١٣٩]، والروايات القليلة المتعلقة بالفداء في العصر الأموي تعود كلها إلى خلافة عمر بن عبد العزيز، إذ يذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز أرسل شخصا ليفادى الأسارى صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وحرهم ومملوكهم بما سئل عنه[١٤٠] بمعنى أنه قرر مفاداتهم بالمال، كما أنه ورد في طبقات ابن سعد أن عمر أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم[١٤١]، وكان عمر بن عبد العزيز يقبل فدية الأسير من أسرى العدو بالمال، فعن محمد بن عمر عن ابراهيم بن عبد الله... عن عمر بن عبد العزيز، أنه أتي بأسير أسره مسلمة بن عبد الملك، وأن أهله سألوه أن يفتدوه بمائة مثقال، فرده عمر

---

(١٣٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دمشق ١٩٨٠، ص ١٣٨.

(١٣٨) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٣٩، ابن رستة، الاعلاق النفيسة، طبعة ليدن ١٨٩١م ص ١٢٢، ١٢٣.

(١٣٩) المقريزى، الخطط، ج٣ ص ٦.

(١٤٠) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٠.

(١٤١) ابن سعد، الطبقات، ج٥ ص ٣٦٠.

وفداه بمائة مثقال[١٤٢]، وعندما أغار الروم على ساحل اللاذقية في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ وهدموا مدينتها وسبوا أهلها أمر عمر ببنائها وتحصينها، ووجّه إلى امبراطور الروم في فداء من أسر من المسلمين[١٤٣].

أما في العصر العباسي، فان كلا من الدولتين العباسية والبيزنطية قد حرصتا على سلامة كبار رجال الدولة الذين وقعوا أسرى في أيديهما ليبادلانهم بكبار رجال دولتيهما، وكان هناك مكان خاص على شاطيء آسيا الصغرى يسمّى اللامش[١٤٤]، وكان يسبق حركة التبادل ايفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرير أسس الفداء، ويتضح أن تبادل الأسرى كان يجرى طبقا لقواعد مرسومة ونظم خاصة[١٤٥].

الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام

عندما انطلقت جيوش الفتح العربية لم يكن مقاتلتها على مستوى واحد من حيث الآلة والسلاح، كما أن بعض الأسلحة التي استخدمها العرب كانت دون مستوى أسلحة الأعداء، فقد شبه الفرس نبال المسلمين يوم القادسية بالمغازل استهانة بها[١٤٦]، كما أن المقاتلة المسلمين الذين استخدموا الدرق أو الحجف كانوا قلة[١٤٧] إذ أن عامتهم كانوا يترسون بأشياء مختلفة حسب درجاتهم في اليسار والفقر، يقول الطبري: «وما عامة جننهم غير براذع الرحال قد عرّضوا فيها الجريد يترسون بها عن أنفسهم، وما عامة ماوضعوه على رؤوسهم إلا أنساع الرحال يطوى الرجل نسع رحله

(١٤٢) المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٦٠.
(١٤٣) البلاذري، فتوح، ص ١٣٩.
(١٤٤) المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ٦.
(١٤٥) المصدر السابق، ج ٣ ص ٦ — ٨.
(١٤٦) الطبري، ج ٣ ص ٤٩٦، البلاذري، فتوح، ص ٢٦٠.
(١٤٧) الدرق والحجف جمع درقة، وجحفه وهي كما في الافصاح، والقاموس المحيط ترس من جلد الابل أو البقر ليس فيها خشب ولا سيور من الجلد أو العصب، ولكن ورد في شرح البخارى مايفيد أن الدرقة زمن الرسول (صلعم) كانت تصنع من الخشب ثم تلصق عليها جلدة مساوية (القسطلاني، ارشاد السارى، ج ٥ ص ١٠٥) وهذا الشرح أدق إذ أن الجلد لايثبت وحده أمام طعنات السلاح إلا إذا كان مستنداً إلى جريد أو خشب يقوّيه.

على رأسه يتقي به، والفرس فيما بينهم بالحديد واليلامق[١٤٨]، وعندما حاصر المسلمون حمص بقيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد استمر الحصار طويلا، إذ تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلكم الشتاء، وكان أهل حمص يتواصون فيما بينهم ويقولون: «تمسّكوا فانهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطّعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون[١٤٩]»، بينما كان فرسان الروم يلبسون في أرجلهم أحذية حديدية طويلة، أما سواعدهم فكانت محصنة وأما أعضادهم فكان الكثير منهم يقيها بسوار ضيق من المعدن[١٥٠]، إذا فقد شاهد المسلمون أعداءهم يحصنّون أطرافهم بالحديد، ولاشك في أنهم غنموا دروعا كثيرة من الفرس والروم[١٥١]، ومن الطبيعي أن يعمدوا إلى تقليدهم، وقد كثرت الأموال بين أيديهم، وما هم أقل منهم في أية ناحية من النواحي الحربية، ونجح معاوية خلال ولايته على الشام أن يكّون جيشا منظما مدربا نتيجة للقّاءات المستمرة مع الامبراطورية البيزنطية لاسيما وأن معاوية ومن أتى بعده اتخذوا الجيوش البيزنطية كنموذج لقواتهم في السلاح والاستراتيجية[١٥٢]، ولذلك فان جيش معاوية في صفين كان مجهزا تجهيزا كاملا حتى أطلق عليه اسم الخضرية لاسوداده بالدروع والسلاح[١٥٣]، بينما لم

---

(١٤٨) الطبري، ج ٣، ص ٥٧٥.

(١٤٩) الطبري، ج ٣، ص ٦٠٠.

(١٥٠) Dr. Omar, Op. Cit., pp. 80, 90, 91.

(١٥١) الطبري، ج ٤ ص ٨.

(١٥٢) Dr. Omar. Op. Cit., P. 208. Tactica XVIII; 120.

كان البيزنطيون يعتمدون في حروبهم بالدرجة الأولى على فرق الخيالة الثقيلة السلاح التي يلبس أفرادها الخوذ الفولاذية والدروع المصفحة Scale Armour أو الدروع المزرّدة Coat of mail التي تغطي الجسم كله، وكانت أسلحتهم السيف والخنجر والرمح والنبل، أما خيولهم فكانت تحميها أطواق الصدر Breast Plates، وصفائح الجبهة Frontal Plates وتستخدم فرق الخيالة الخفيفة للهجوم السريع للاستطلاع ولارهاق العدو ومضايقته، وكان سلاح أفرادها الرئيسي النبال، أما المشاة ذو الأسلحة الخفيفة فكانوا يستخدمون النبال كذلك ولكن وجدت فرق تستخدم الرماح، بينما يستخدم المشاة ذوو الأسلحة الثقيلة الدروع المزّردة ويحملون الرماح والسيوف والتروس.

Wilhelm Ensslin, The Army and The Fleet, Byzantium, pp. 301-302.

(١٥٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣ ص ٣٣٧، المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٠، ٣٨٨، ويذكر المسعودي أن ميمنة معاوية كانت تضم ١٠ آلاف من مذحج وعشرين ألفا مقنعين بالحديد، وكان العرب يطلقون على الكتيبة المغطاة بالحديد، كتيبة خضراء (الطبري ج ٣ ص ٥٤).

يكن مقاتلة الخليفة علي بن أبي طالب على هذا المستوى، نستنتج ذلك من قول علي يحرّض أصحابه بأن يسووا صفوفهم كالبنيان المرصوص، وأن يقدّموا الدارع ويؤخروا الحاسر(١٥٤)، وكان سفيان بن عوف الأزدي في خلافة معاوية لا يجيز في العرض إلا رجلا بفرس ورمح ومخصف(١٥٥) ومسلة وترس وخيوط كتان ومخلاة ومبضع ومقود وسكة حديد(١٥٦). وعندما أرسل مروان بن محمد عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى إلى المدينة لقتال حمزة الخارجي قدمها في أربعة آلاف فارس عربي منهم من عليه درعان أو درع وسنوّر وتجافيف عدة لم ير مثلها في ذلك الزمان(١٥٧)، وإذا رأينا الامبراطور ليون يعترف بالرغم مما عرف عنه من تحامل على العرب بأن الجندي العربي لم يكن يفترق عن الجندي البيزنطي في السلاح ووسائل الدفاع وآلاته(١٥٨)، نتبين مدى التقدم السريع الذي أحرزه المسلمون ولاسيما مقاتلة الشام.

لم ينحصر هذا التقدم في الأسلحة الخفيفة التي يستخدمها الجندي فقط ووسائل الدفاع من ترس ودرع ومغفر وبيضة، وإنما في الأسلحة الثقيلة التي يشترك في استخدامها أكثر من جندي. يذكر ابن هشام في كلامه عن غزوة الطائف أن أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق هو الرسول (صلعم) رمى به أهل الطائف(١٥٩)، كما يرد عند ابن هشام والطبري أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا حنينا ولا حصار الطائف لأنهما كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابة والمجانيق والضبور(١٦٠)،

---

(١٥٤) ابن الأثير، ج ٣ ص ٢٩٧.

(١٥٥) المخصف، مخرز الاسكاف والجمع مخاصيف.

(١٥٦) تهذيب، ج ٦ ص ١٨٥.

(١٥٧) الطبري، ج ٧ ص ٣٩٩.

(١٥٨) Von Kremer. The Orient under the Caliphs. p. 328.

Dr. Omar. Op Cit., pp. 208-209.

(١٥٩) ابن هشام، السيرة، ج ٤ ص ٩٤.

(١٦٠) المصدر السابق، ج ٤ ص ٩٠، الطبري، ج ٣، ص ٨١، ٨٢. الدبابة والضبور، اسم الدبابة لغة مشتق من (دب يدب دبيبا إذا مشى على مهل) وسميت بذلك لأنها تدب حتى تصل إلى الحصون، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها في ثقب أسوارها بآلات الحفر. ويظهر أن الضبر نوع منها، أو هي الدبابة نفسها من ترادف الأسماء، ففي القاموس المحيط، أن الضبر جلد يغشى خشبا فيه رجال تقترب إلى الحصون للقتال، والجمع ضبور، وليست الدبابة شيئاً غير هذا. ويبين صاحب آثار الأول (ص

وإذا علمنا أن جرش من أرض البلقاء، والبلقاء من عمل دمشق، وأن هذه المنطقة كانت تحت الحكم البيزنطي، فمن الجائز أن يكون العرب قد نقلوا هذا السلاح عن البيزنطيين. ويرى فون كريمر أن العرب نقلوا عن البيزنطيين استعمال المنجنيق والعرّادة لرمي الكتل الصخرية، ويوافقه في هذا الرأي الدكتور أومار Omar[١٦١].

اضطر المقاتلة في الشام إلى استخدام المنجنيق عند حصارهم للمدن المحصنة، فقد حصر المسلمون دمشق سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامي والمجانيق[١٦٢]، وأغار مقاتلة أهل الشام على أطراف صقلية في ولاية معاوية وأخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموها رميا متداركا، إلا أن الحجارة التي استخدمت كانت معتدلة[١٦٣]. واستمر استخدام الحجارة سواء عندما حاصر عبد الملك قرقيسيا في طريقه لقتال مصعب بن الزبير[١٦٤]، أو في حصار مكة عندما توجه الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير[١٦٥]. وحتى مروان بن محمد الذي استخدم المنجنيق على نطاق واسع استعمل الحجارة فقط، إذ عندما حاصر مروان أهل حمص سنة ١٢٧هـ نصب عليها كما تذكر الرواية نيفا وثمانين منجنيقا وأنه طرح عليهم حجارتها بالليل والنهار[١٦٦]، ولكن مسلمة بن عبد الملك عندما هاجم مدينة الباب والأبواب حاصرهم ورماهم بالحجارة ثم بحديد اتخذه على هيئة الحجارة[١٦٧]. تجاه هذه الروايات نتساءل عن مدى الدقة فيما يرويه المسعودى عندما يذكر أن الحصين بن نمير السكوني رمى الكعبة بالأحجار والنار والنفط ومشاقات الكتان[١٦٨]، فهل نسب المسعودى إلى

← ٢١٤) ان الدبابة آلة تتخذ من الخشب الثخين الملزز وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجل مستدير وتحرك وربما جعلت برجا من خشب ودبر فيها هذا التدبير، وقد يدفعها الرجال فتندفع على بكر.

(١٦١) Von Kremer. Op. Cit., P. 327, Omar, Op, Cit., P. 219.

(١٦٢) الطبري، ج ٣ ص ٤٣٨، ابن الأثير ج ٢ ص ٤٢٨.

(١٦٣) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١٤٣.

(١٦٤) المصدر السابق، ج ٦ ص ٢٦٢.

(١٦٥) الطبري، ج ٦ ص ١٨.

(١٦٦) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣٢٦، ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٣٣.

(١٦٧) البلاذري، فتوح، ص ٢٠٩.

(١٦٨) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٧١.

فترة يزيد ما حدث في وقت متأخر بعض الشيء لكي يعلل بذلك احتراق الكعبة التي يقال انها احترقت أثناء الحصار(١٦٩)؟.

مهما يكن من أمر، فان الاشارات إلى استخدام المنجنيق وبأعداد كبيرة لايمكن أن تتوافر في الجيش مالم يكن لديه دار لصناعتها، وفرق تقوم على تجهيزها واعداد القذائف لها والعمل على صيانتها وحفظها سليمة صالحة للاستعمال.

إلى جانب آلات الهجوم لابد من أن نشير إلى وسائل الدفاع الثابتة التي كانت تستخدم وعلى نطاق واسع كالخندقة وبناء الحصون والأسوار، وأول من استخدم الخنادق في خلافة أبي بكر وأكثر منها العلاء بن الحضرمي أثناء قتاله المرتدين، فكان المسلمون والمرتدون هناك يحفرون الخنادق يتحصنون بها ثم يتراوحون القتال منها(١٧٠).

وفي أثناء الفتوح، كان الخلفاء ينصحون قوادهم بالتزام الخنادق خشية البيات، كما أنهم إذا حاصروا عدوا مخندقا على نفسه وأرادوا اشعاره بدوام الحصار ضربوا خندقا حول خندقه لييأس من فك الحصار ويبادر بالتسليم، وقد طبقت هذه الخطة في حصار مدينة هيت ليجبروهم على التسليم(١٧١)، ومن القواد الذين عرفوا بالتزام الخندقة في الميدان المهلّب بن أبي صفرة في حربه للخوارج، «وكان المهلّب شديد الاحتياط والحذر لاينزل إلاّ في خندقه وهو على تعبية ويتولى الحرس بنفسه(١٧٢)». وفي الحرب بين الحجاج وابن الأشعث خندق الحجاج على نفسه بالزاوية، وخندق عبد الرحمن على البصرة(١٧٣)، وخندق مسلمة بن عبد الملك في قتاله ليزيد بن المهلّب(١٧٤). ومع استخدام الخنادق كان لابد من التفكير في وسيلة لاقتحامها، ففي موقعة الأحزاب

---

(١٦٩) من أجل تعليل احتراق الكعبة يمكن العودة إلى كتاب الدكتور نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ١١٤ـ١١٥.

(١٧٠) الطبري، ج ٣ ص ٣٠٨، ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٥.

(١٧١) الطبري، ج ٤ ص ٣٨.

(١٧٢) ابن الأثير، ج ٤ ص ١٩٧، ١٩٨، ٣٨٨.

(١٧٣) المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٦٥.

(١٧٤) المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٠.

كانت محاولات قريش لاقتحام الخندق الذي حفره الرسول بدائية ، فكان أبطال قريش يدورون حوله يحاولون اقتحام الخندق ، من أضيق أماكنه ، ولم يفكر أحدهم في العمل على ردم جزء منه وعبوره لأنه كان مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها ، فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول أكثروا من استخدام الخنادق مهاجمين ومدافعين ، ففتحت أمامهم سبل الحيل ولعل خالد بن الوليد أول من عمد إلى قتل الابل المسنة ورميها مع رحالها في أضيق مكان منه أثناء فتح الأنبار(١٧٥) ، وفي حصار دمشق قطع المقاتلة الخندق وعلى ظهورهم القرب(١٧٦) ، وعندما خندق مسلمة بن عبد الملك فكّر يزيد بن المهلّب أن يرسل مع محمد بن المهلّب من يدفن خندق مسلمة بالبراذع والأكف والزّبل(١٧٧) .

وتطور عبور الخنادق بسرعة بعد ذلك ، ففي سنة ١٤٥ هـ عندما خرج محمد ابن عبد الله المحض بالمدينة أعاد حفر خندق الرسول حولها وبنى عليه جدارا من جهة العدو ، وأوقف عليه حراسا من أصحابه يدافعون عنه ، فلما جاءت القوات العباسية بقيادة عيسى بن موسى ، تقدّم بعض قواد عيسى إلى جداره في مائة من جنده فهدموه ، وانتهوا إلى الخندق ، فنصبوا عليه أبوابا خشبية ثم عبروه ، وفي رواية ثانية أنهم طرحوا حقائب الابل في الخندق ثم طرحوا أبوابا خشبية بقدر الخندق فجازت الخيل(١٧٨) .

الحصون والأسوار

كان عامة العرب في الجاهلية رحّلا أهل بداوة لايعرفون الحصون أو الاحتماء بالأسوار ، وإنما حصونهم ظهور خيولهم وشفرات سيوفهم ، وقد عرف الحصون منهم أهل الحيرة لمجاورتهم الفرس ، وأهل الشام لمجاورتهم الروم ، وعرفها أهل الحجاز عن طريقين بعد ذلك ، عن طريق رحلتهم إلى اليمن ذات القصور الشاهقة ، وعن طريق اليهود الذين نزحوا إليها من الشام بعد أن طردهم الرومان منها ، فأدخلوا إليها نظام الأطام والحصون ، وأدّى احتكاك المسلمين بقوات الروم إلى تزايد ادراكهم لأهمية الحصون

---

(١٧٥) الطبري ، ج٣ ص ٣٧٤ .

(١٧٦) المصدر السابق ، ج٣ ص ٤٣٩ .

(١٧٧) ابن الأثير ، ج٥ ص ٨٠ .

(١٧٨) الطبري ، ج٧ ص ٥٩٠ .

لاسيما أنهم، كما يقول كريزول Creswell ، في انطلاقهم للفتح، قد اتبعوا خطا يكاد يتفق مع خط الحجاز الحديدي في العصر الحديث، وكانت هذه الجيوش في طريقها تمر بسلسلة من قلاع الحدود الرومانية(١٧٩)، التي كانت تمتد من خليج العقبة إلى دمشق، ومن دمشق إلى تدمر، وقد وصف هذه الحصون كل من برونو Brunow ودومازيفسكي Domazewski في كتابهما القيم Die Provincie Arabie ، وأشهر هذه القلاع قلعة أذرع التي بناها تراجان، ويظهر أن تراجان بنى كذلك القلاع في اللجون والدّجانية Dejaniya وقلعة بشير التي تعود إلى عهد ديوكليسيان (٢٨٤ — ٣٠٥ م) وقلعة الضمير التي تعود إلى ١٦٢ م. كما أن بعض الأمراء الأمويين قد عاشوا في بعض قلاع الحدود الرومانية، فالوليد الثاني كان يقيم أحيانا في حصن الأزرق الذي تم تجديده بعد ذلك سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م، وكان في أيام الوليد قلعة رومانية، وعندما هوجم الوليد من قوات يزيد الثالث كان في حصن البخراء الذي هو اسم عربي لقلعة رومانية تقع على بعد (١٥) ميلا إلى الجنوب الغربي من تدمر(١٨٠). وفي قلب الصحراء وعلى مسيرة (٢٠) ميلا شرقي الزرقاء كانت هناك قلعة رومانية تعرف بتسميتها الحديثة بقصر الحلاّبات، وقد بدأ بتشييدها كراكلا سنة ٢١٧/٢١٣م وأتمها جستنيان سنة ٥٢٩م، وعلى بعد ١٥ ياردة من ركنها الجنوبي الشرقي يوجد مسجد صغير يرجع إلى النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، وقد بناه ولا شك أحد أمراء بني أمية الذي أقام في القلعة المجاورة، وكانت النتيجة كما يقول كريزول مزدوجة، فقد أعطت هذه الخبرة بالحصون الرومانية خلفاء بني أمية المعرفة الضرورية لبناء قلاعهم على الحدود البيزنطية، كما أنها أثّرت على طراز بنائهم لقصورهم(١٨١).

حظيت الثغور الشامية والجزرية باهتمام الخلفاء الأمويين، وكانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد

---

(١٧٩) Creswell, K.A.C. The Castra of The Roman Limes, Fortification in Islam, From the Proceedings of the British Academy, 1952- Vol. XXXVII London, 1952, p.89.

(١٨٠) Ibid., p.89.

(١٨١) Ibid., p.90.

عواصم[١٨٢]، وهي كورة قورس والجومة ومنبج وأنطاكية وبالس والرصافة، رصافة هشام، وكانت دابق هي القاعدة الرئيسية العسكرية في الداخل في العصر الأموي[١٨٣]، ثم أصبحت منبج هي مركز المنطقة التي أطلق عليها الرشيد اسم العواصم[١٨٤]، أما في الساحل فقد كانت أنطاكية هي المركز الرئيسي[١٨٥].

لم يهتم الخلفاء الراشدون ببناء الحصون أو مدن ثغرية شمالي الشام وراء أنطاكية، إنما بدأ الاهتمام في عهد بني أمية وخاصة في خلافة هشام بن عبد الملك، حتى أنه لم ينته عصر بني أمية حتى كان نظام التحصين البرى قد استكمل معالمه[١٨٦].

اهتم معاوية منذ أن كان واليا على الشام والجزيرة بمنطقة الثغور، فتعهد حصون مرعش والحدث[١٨٧]، واهتم بمنطقة منبج وبنى لها جسرا لمرور الصوائف إلى الأراضي البيزنطية منذ عهد عثمان. فلما توفي معاوية سنة ٦٠ هـ اضطر يزيد إلى توجيه اهتمامه إلى توطيد الكيان الداخلي، فاستغل البيزنطيون ذلك الوضع الداخلي للدولة الأموية وكثرت غاراتهم على الثغور وحاصروا مرعش التي تركها أهلها بسبب الضغط البيزنطي عليها[١٨٨]. كما هدد الروم ملطية في فترة الاضطراب السياسي[١٨٩]، مما دفع عبد الملك بمجرد أن قضى على منافسيه إلى أن يتخذ اجراءات سريعة وجريئة واستراتيجية، فاختار مواضع متقدمة في الأراضي البيزنطية تحل محل مرعش وملطية، وهي طرندة والمصيّصة، وقد بنى عبد الله بن عبد الملك ملطية سنة ٨٣ هـ[١٩٠]. كما أنه خرج سنة ٨٤ هـ على

(١٨٢) البلاذري، فتوح، ص ١٦٨، ياقوت الحموي، ج ٢ ص ٨٠.
(١٨٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢ ص ٤١٦.
(١٨٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٥.
(١٨٥) جون باجوت، الفتوحات العربية الكبرى، ترجمة خيري حماد، بيروت ص ٦٢٩.
(١٨٦) د. محمد عبد الهادي شعيرة، المرابطون في الثغور الإسلامية الرومية، بحث في كتاب إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين. ص ٤٣٢.
(١٨٧) البلاذري، فتوح، ص ١٩٢، ١٩٣.
(١٨٨) المصدر السابق، ص ١٩٢.
(١٨٩) المصدر السابق، ص ٨٩.
(١٩٠) البلاذري، ص ١٨٩.

الصائفة فابتنى المصيّصة وبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانا من الجند منهم ثلثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة[١٩١]، ومنذ أن بنيت المصيّصة كانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها في كل عام فتشتوا ثم تنصرف[١٩٢]، فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك أحاط المصيّصة بثلاثة حصون، هي حصن الربض[١٩٣]، ثم حصن المثقّب بناه حسان بن ماهويه الأنطاكي[١٩٤]، وحصن قطر غاش[١٩٥].

كذلك اهتم هشام بالطريق الداخلي الموصل بين أنطاكية والمصيّصة فبنى حصن مورة وحصن بغراس وحصن بوقا من عمل أنطاكية[١٩٦]. واهتم هشام بن عبد الملك بأمر ملطية عندما هاجمها الروم سنة ١٢٣ هـ فأرسل خيلا مع الرسول الذي خرج من ملطية مستغيثا وهو بالرصافة، ثم غزا هشام بنفسه ونزل ملطية وعسكر عليها حتى بنيت[١٩٧]، وفي سنة ١٢٥ هـ أعاد الوليد بن يزيد بناء حصن زبطرة، وكان هذا الحصن قد خرّبه البيزنطيون فاحتاج الأمر إلى إعادة بنائه[١٩٨]. وفي عهد مروان بن محمد تركز الاهتمام كذلك بالمصيّصة فبنى حصن الخصوص شرقي جيحان[١٩٩]، وحصن منصور بن جعونه بن الحارث العامري الذي تولى بناءه وأقام فيه مع جند كثيف من أهل الشام والجزيرة ليردّ العدو[٢٠٠].

البحرية

أدرك معاوية، منذ أن كان واليا على جند دمشق والأردن في خلافة عمر بن

---

(١٩١) المصدر السابق، ص ١٦٩، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٠٤.
(١٩٢) البلاذري، فتوح ص ١٦٩.
(١٩٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.
(١٩٤) المصدر السابق، ص ١٧١، ياقوت الحموي، ج ٥ ص ٥٤، وهو حصن على ساحل البحر قرب المصيصة.
(١٩٥) المصدر السابق، ص ١٧١.
(١٩٦) المصدر السابق، ص ١٧١.
(١٩٧) المصدر السابق، ص ١٩٠.
(١٩٨) المصدر السابق، ص ١٩٥.
(١٩٩) المصدر السابق، ص ١٧٠.
(٢٠٠) المصدر السابق، ص ١٩٦.

الخطاب، الخطر الذي يلوح في الأفق مهددا الشام بسبب وجود أسطول الروم قريبا من شواطئه، وافتقاره إلى وسائل الدفاع، ذلك أن معاوية كان قد اشترك في فتح كثير من المدن الساحلية التي قاومت مقاومة عنيفة نتيجة لتلقيها الامداد والمؤن من دولة الروم، وهذا ماضمن لها البقاء والمقاومة فترة أطول(٢٠١).

وقد نهج العرب في البدء سياسة بحرية دفاعية بوضع حاميات قوية في المدن الساحلية الهامة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقه وجبيل على الساحل الشامي(٢٠٢)، وفي مرمة حصونها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها(٢٠٣). ولكن إثر غارة الروم على الشام ومصر سنة ٢٥ هـ والتي كانت من أشد الغارات عنفا(٢٠٤)، تبين أن السياسة البحرية الدفاعية لم تعد كفيلة بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم وأنه لابد للعرب من الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها، لأنهم إذا نجحوا في ذلك أمكنهم أن يتصدوا للأساطيل البيزنطية قبل اقترابها من الساحل الشامي، فلما سمح عثمان لمعاوية بغزوها كتب إلى أهل الساحل يأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا(٢٠٥). وكانت هذه خطوة معاوية الأولى، إذ لم يلبث أن استولى المسلمون على أرواد Aradus(٢٠٦) ثم في عام ٣٥ هـ/٦٥٥ م أي بعد مرور أقل من عشرين عاما على نزول العرب لأول مرة إلى الشواطيء الشرقية للبحر المتوسط، عقد لواء النصر للعرب في الموقعة البحرية الكبيرة، ذات الصواري. وكان خوض معركة كهذه يتطلب عدة أمور، قواعد بحرية، وتشمل الأحواض وأماكن بناء السفن ومواد البناء ومهرة البنائين، ثم السفن الحربية ومايتبعها من ملاحين مدّربين وجنود بحريين وضباط. وكانت الاسكندرية قاعدة بحرية كاملة تشتمل على ميناء رائع، وأحواض

---

(٢٠١) Ostrogorsky. Op. Cit., P.104.

(٢٠٢) هناك أمثلة كثيرة في البلاذري عن هذه السياسة الدفاعية، فتوح، ص ١٢٤، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩، ١٥٠، ١٥٣.

(٢٠٣) البلاذري، فتوح، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢٠٤) Bury, A History of the Later Roman Empire, Vol. II p.288

(٢٠٥) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١١٨.

(٢٠٦) جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر، دار الكتاب، القاهرة، ص ١٨١.

متسعة لبناء السفن وبنائين من الاقباط[٢٠٧]، ولم يكن ينقص سوى الخشب الجيد الذي تفتقر إليه مصر، فلم يكن بد من جلبه من الشام أو غيرها من المناطق، وكانت موانيء الشام ولاسيما عكا وصور قواعد بحرية أبحر منها جزء من الأسطول الذي اشترك في ذات الصواري[٢٠٨]. ولكن الساحل الشامي كان في ذلك الوقت عاطلا من بناء السفن، فلما كانت سنة ٤٩ هـ وشنّ الروم غارة عنيفة على سواحل الشام، عمد معاوية إلى انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها إلى جانب دور الصناعة بمصر، لأن صناعة السفن كما يقول البلاذري كانت بمصر فقط[٢٠٩]. وقد فعل معاوية ذلك لكي يجد لديه أساطيل على أهبة الاستعداد، فجلب الصنّاع والنجارين إلى عكا من جند الأردن التي وقع اختياره عليها لينشيء بها أول دار لصناعة السفن بالشام[٢١٠]. وبقيت دور الصناعة في عكا حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي نقلها إلى صور[٢١١]، ولكن التعاون بين مصر والشام بقي مستمرا سواء في استخدام الأقباط كملاّحين في سفن الشام أو في استيراد الأخشاب التي تصلح لبناء السفن من الشام. ويظهر أن بناء السفن بمصر بالرغم من انشاء دار للصناعة في الشام، كان له شأن عظيم في العصر الأموي، فقد ألقت أوراق بردى أفروديتو Aphrodito ٧١٠ م/٩٢ هـ (وهي كوم أشقاو أو أشقوة[٢١٢]) شعاعا من النور على صناعة السفن في مصر، وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة المركزية لتلك المهارة، ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين، كما أنها تدل على أن

---

(٢٠٧) المرجع السابق، ص ١٨٢، وقد تخصص الأقباط في سد ثغرات واستخدام المسامير الحديدية في بنائها، وقد ثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت ألواحها أفضل من السفن التي تشد بالحبال (هو نيرباخ، فلهلم، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط، تطوان ١٩٥٤) عن تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم، طبعة ١٩٧٢، ص ٦.

(٢٠٨) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١٢٨.

(٢٠٩) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.

(٢١٠) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٢١١) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢١٢) جورج حوراني، المرجع السابق، ص ١٨٤، وكوم أشقوه على بعد نحو سبعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من طما في صعيد مصر.

القبط كانوا يجندون في صعيد مصر للعمل في أحواض السفن بالاسكندرية والاشتراك في الغارات السنوية Koursa بل انهم كانوا يرسلون للعمل في الأساطيل التي تتخذ قواعدها في الشام(٢١٣).

نتيجة لاهتمام معاوية بالأسطول وبالسيطرة على عدد من الجزر استطاع سنة ٥٣ هـ/٦٧٢م قسم من أسطوله أن يحتل ازمير، وأن يحتل قسم آخر شواطىء ليسيا Lycia وكيليكيا. وفي سنة ٥٥ هـ/٦٧٤م بدأ حصار القسطنطينية برا وبحرا، واستمر هذا الحصار مدة أربع سنوات كانت قطع الأسطول العربي خلالها تنسحب في الخريف إلى سيزيكس لتعاود الكرة في الربيع، وقرّر معاوية سنة ٥٦ هـ/٦٧٨م سحب قواته المحاصرة للقسطنطينية لشعوره بدنو أجله، وبأن بيعة يزيد ستلقى معارضة الكثيرين(٢١٤).

ولكي نأخذ فكرة عن مدى التقدم الذي أحرزه الأمويون في سياستهم البحرية يكفي أن نذكر بأن الأسطول العربي الذي توجه في خلافة سليمان بن عبد الملك لدعم القوات البرية ولاحكام الحصار على القسطنطينية برا وبحرا كان يتألف من (١٨٠٠) سفينة فيها سفن حربية Kampf Schiffen وسفن لنقل المؤن Proviant Schiffen(٢١٥) أصغر حجما ولكنها كانت تضم (١٠٠) من المقاتلين المسلحين تسليحا ثقيلا، وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا شديدا نتيجة للثلوج التي هطلت مدة مائة يوم في تراقيا مما عرقل عملية الحصار، واضطر المسلمون إلى تحمل الكثير من المشاق والجهد(٢١٦). وفي الربيع وصلت نجدات برية وبحرية لمسلمة بن عبد الملك، فقد وصل أسطول من مصر يتألف من (٤٠٠) سفينة، ويتألف كذلك من سفن حربية وأخرى لنقل المؤن، ووصل أسطول آخر من أفريقية مؤلف من ٣٦٠

---

(٢١٣) المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٢١٤) نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٨٨.

(٢١٥) Theophanes. Tr. by Leopold Breyer p.27.

(٢١٦) Ibid., p.28.

سفينة محملة بالأسلحة والمؤن ، إلا أن معظم هذه السفن ، كما يقول تيوفانس ، دمّرت نتيجة لاستخدام البيزنطيين للنار الاغريقية[٢١٧] .

هذا ويجب أن نشير إلى أنه بالرغم من وجود أسطول لدى البيزنطيين ، إلا أنه لم يكن يلعب إلا دوراً ثانوياً في العمليات الحربية[٢١٨] في الفترة السابقة للفتوح الإسلامية ، وكان سكان سواحل البحر المتوسط الشرقية هم الذين يظهرون تفوقهم في هذا المجال ، فلما لاحق معاوية القوات الامبراطورية بحرا وظهر أمام أسوار القسطنطينية ، بدأ انتباه البيزنطيين بشكل جدى لأهمية الأسطول وضرورة العناية به كقوة حربية وأصبحت المقاطعات الساحلية في آسيا الصغرى ، والجزر الايجية ، تمد الأسطول بالسفن والرجال ، وكانت المقاطعات البحرية الأساسية هي بند الكبير هايسوت Cibyrrhaeot نسبة إلى مدينة كيبيرا Cibyra في بامفيليا Pamphylia في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى ، ثم جند الدوديكانير أو البحر الايجي Dodecanese[٢١٩] . وقل الاهتمام بالأسطول في عهد الأسرة الايسورية ، فلما استولى الأندلسيون على كريت وظهرت قوة الأغالبة ، عاد الاهتمام ثانية إلى الأساطيل البحرية الحربية ، فظهر بند ساموس Samos غرب آسيا الصغرى ، كبند بحري ثالث ، وأصبحت هذه البنود كلها تحت قيادة قواد برتبة Strategoi ، كما أوجدوا قواعد في البنود الأوروبية خاصة في Cephalonia[٢٢٠] .

من الطبيعي أن يكون اعتماد العرب في الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط مصر ، وسكان الشام القدامى الذين مهروا في ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال[٢٢١] . وقد رأينا أن عثمان بن عفان عندما سمح لمعاوية بركوب البحر اشترط أن لا ينتخب بين الناس ولا يقرع بينهم وأن يخيرهم[٢٢٢] ، ولكن كان على من تطوع وأخذ

---

(٢١٧) Ibid., p.28.

(٢١٨) Wilhelm Ensslin, The Army & The Fyzantium. p.304.

(٢١٩) Ibid., p.304.

(٢٢٠) Ibid., p.304.

(٢٢١) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١١٨ ، ١٢٩ .

(٢٢٢) الطبري ، ج ٤ ص ٢٦٠ .

رزقه أن يلتحق(٢٢٣). ويبدو أن معاوية اعتمد في بادىء الأمر على اليمانية في غزو البحر لتفوقهم على القبائل القيسية في هذا المجال، والواقع أن عرب اليمن منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى عصر الفتوح الإسلامية وان كانوا قد قطعوا كل اتصال لهم بالبحر وأهملوا شؤونه لانصرافهم إلى التجارة البرية ابان الغزوين الحبشي والفارسي لليمن، فانهم لم يفقدوا تماما تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل وتجاربهم الماضية في ممارسة الملاحة والطواف بسفنهم في البحر الحبشي أو الاريترى وترددهم على موانيء البحر العربي والمحيط الهندي، فقد رسخت هذه التقاليد في كيانهم، وظلت كامنة في أعماقهم، إلى أن تهيأت لها ظروف مؤاتية للظهور منذ عصر الفتوحات، فنشطت بعد خمول. ونلاحظ أن القادة البحريين الذين تجرأوا على قيادة حملات بحرية في خلافة عمر ابن الخطاب كانوا من اليمانيين، فالعلاء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في البحر إلى فارس بغير إذن من عمر كان يمانيا حضرميا(٢٢٤)، وعلقمة بن مجزر المدلجي صاحب الحملة البحرية إلى الحبشة سنة ٢٠ هـ كان يمني الأصل لخميا(٢٢٥)، ومع ذلك نلاحظ أن المقاتلة العرب من اليمانية لم يكونوا متحمسين لغزو البحر، نستنتج ذلك مما يرويه ابن عساكر من أن شاعر اليمن عندما رأى اعتماد معاوية على اليمانية في الغزو البحري قال:

ألا أيها القوم الذين تجمعوا
بعكا أناس أنتم أم أباعر
أنترك قيساً آمنين بدارهم
ونركب ظهر البحر والبحر زاخر

ويروى أن شاعر اليمن لما قال هذه الأبيات رجع قومه جميعا عن وجههم، فلما بلغ معاوية ما كان منهم، دعاهم فسكّن منهم، وقال: «أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق

---

(٢٢٣) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١١٨.
(٢٢٤) الطبري، ج ٤، ص ٧٩ — ٨١.
(٢٢٥) المصدر السابق، ج ٤ ص ١١٢.

من الجبل وأقل مؤونة ، وأنا أعاقب بينكم في البر والبحر[٢٢٦] » ، ثم فعل ذلك ، أي أن معاوية وعد أن يعاقب بينهم في البر والبحر ، أي لم تنشأ لدى الأمويين في هذه الفترة فرق خاصة من المقاتلة تابعة للبحرية ، وان ظهر بعض القادة الذين اشتهروا بغزوهم في البحر ، كعبد الله بن قيس حليف بني فزارة الذي غزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر[٢٢٧] ، وجنادة بن أميه الأزدي اليماني[٢٢٨] الذي اعتمد عليه معاوية في غزو أرواد ورودس وكريت ، وخالد بن كيسان صاحب الروم في خلافة عبد الملك والوليد[٢٢٩] ، ولذلك نجد أن القتال في البحر كان أشبه ما يكون بالقتال في البر ، ويقدم ابن الأعثم صورة حية في معركة ذات الصوارى ، إذ عندما بلغ المسلمين خبر توجه ملك الروم قسطنطين بن هرقل في جمع كبير لغزو المسلمين في البحر ، كتب عثمان إلى معاوية وأمره أن يركب في البحر بجنود المسلمين من أهل الشام ، وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره أن يركب بأهل مصر ، فاجتمع أهل مصر وأهل الشام بساحل مدينة عكا في جمع كبير من العدة والعدد والسلاح ، ثم انهم حملوا الخيل معهم في المراكب ، وانطلقوا من عكا في خمسمائة مركب فيها رجالة مقاتلة والخيل والسلاح والطعام الكثير ، وخرج الروم في ألف مركب من مراكبهم فيها المقاتلة والنفط والنيران[٢٣٠] . وعندما رفض الروم اقتراح معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بالخروج إلى الساحل والاقتتال في البر ، ربط المسلمون المراكب بعضها إلى بعض واصطف المسلمون على جوانب المركب في أيديهم الرماح والسيوف والقسي والسهام ، واقتتل الفريقان وليس بينهم رمية سهم ولا طعنة رمح الا الضرب بالسيوف والبواتر والخناجر والسكاكين حتى احمر ماء البحر ، وقتل عدد كبير من المسلمين ومن الروم ، وبما أن عبد الله بن سعد أمير مصر وعد القبط من النواتية ثلاثة دنانير عن كل رجل من الروم يقتلونه ، فان القبط قتلوا منهم في ذلك قريبا من سبعمائة رجل[٢٣١] .

---

(٢٢٦) تهذيب ، ج ٥ ص ٣٠٥ .

(٢٢٧) الطبري ، ج ٤ ص ٢٦٢ ، ابن الأثير ، ص ٩٧ .

(٢٢٨) الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٠٩ .

(٢٢٩) المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٢٢ .

(٢٣٠) ابن الأعثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢٣١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٩ .

أما عن أشكال السفن الحربية ومعدّاتها في العصر الأموي، فان مصادرنا لا تمدنا بمعلومات على الاطلاق، وأكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيرا عن السفن المعروفة لدى الروم في ذلك العصر، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين، ويعتقد جورج حوراني، أن الأسطول العربي في معركة ذات الصواري كان يتكون من درامين من الطراز البيزنطي العادي وهي سفن حربية سريعة خفيفة تشتمل على طبقة أو طبقتين من المجاديف(٢٣٢). لأن سفن البحر المتوسط القديمة ذات الشرع المربعة كان يمكن استعمالها في الرحلة لا في الحرب، ومن الطبيعي أن تتنوع المراكب الحربية بعد ذلك في أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الاسماء المختلفة التي أطلقت عليها مثل الحرّاقات والشواني، والطرّادات والعشاريات والشلندات والمسطحات(٢٣٣)، ويمكن القول ان القوات البحرية لم تظهر بشكلها المنظم إلا في

(٢٣٢) جورج حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ١٨٣، والدرامين جمع درمونة معرّب dromon في اليونانية والتي يرجع إليها أيضا الكلمة المقابلة في السريانية.

Frankel, Die Aramaischen Fremd Worter, in Arabischen (Shiffahrt und see Verkehr) Leyden 1886, p.221.

(٢٣٣) ـــ محمد ياسين الحموي ـــ تاريخ الأسطول العربي، ط ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م ص ٣٦ ـــ ٤١

والحراقة: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر، وقال دوزى: هي نوع من السفن الخفيفة.

الشونة، المركب المعد للجهاد في البحر والجمع الشواني، وكان من أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي والرومي لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة للجهاد، وكانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلا، ويقابل الشونة في الفرنسية **Galere** وفي الايطالية **Galera**.

الطرّاد: سفينة صغيرة سريعة السير والجري، وقال دوزى هي نوع من المراكب الحربية أكثر شبها بالبرميل المائل من السفينة، وكان يستعمل غالبا في حمل الخيول والفرسان، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارسا، واستعملها الفرنج فأطلق عليها الاسبان اسم **Tarida** وأطلق عليها الطليان **Tartana** والفرنسيون اسم **Tartan**

العشارى، جمعها عشاريات، نقل المقريزى عن ابن الطوير أنها من توابع الأسطول وكان يسار بها في النيل، منها برسم الخليفة ومنها ماهو برسم ولاة الأعمال.

الشلندى: جمعها شلنديات، مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح وتعادل في أهميتها الشونه والحرّاقه وأصلها اللاتيني **Chelandium**

المسطح: وهذه من أكبر سفن الأسطول الإسلامي، وكانوا يجرونها في البحار خلف السفن الصغيرة لئلا تغرق هذه في واديها.

عهد المتوكل وفي مصر، عندما نزل الروم دمياط سنة ٢٣٨ هـ/٨٥٢م، إذ يذكر المقريزى «أنه وقع الاهتمام منذ ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب، ويشير المقريزى إلى أنه «كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة، ولكل واحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم، فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه[٢٣٤]»، أي ظهرت في هذه الفترة أهمية الأسطول وغزاة البحر، بحيث أن الناس أصبحوا يسعون بكل الوسائل للانضمام إلى هذه القوات البحرية، بينما رأينا أن المقاتلة من عرب اليمن في خلافة معاوية لم يكونوا متحمسين لغزو البحر مما دفعه إلى أن يعقب بينهم في البر والبحر، وهذا دليل على مدى التطور الذي أصاب البحرية في هذه الفترة الزمنية.

النظام المالي للجيش

لم يكن المقاتلة ينالون في البدء وقبل تنظيم ديوان العطاء سوى الأنفال والغنائم، وجماع معنى النفل والنافلة كما يرد في لسان العرب ماكان زيادة على الأصل، سميت الغنائم أنفالا لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم، والنفل، الهبة، والنفل، التطوع. وعن ابن السكيت: تنّفل فلان على أصحابه، إذا أخذ أكثر مما أخذوا عند الغنيمة، والنفل بالتحريك الغنيمة، وفي الحديث أن الرسول (صلعم) بعث بعثا قبل نجد، فبلغت سهمانهم اثني عشر بعيرا، فنفلهم بعيراً بعيراً، أي زادهم على سهمانهم، ويكون من خمس الخمس، وفي حديث ابن عباس «لانفل في غنيمة حتى يقسم جنّة كلها أي لا ينفل منها الأمير أحدا من المقاتلة بعد احرازها حتى يقسم كلها، ثم ينفله ان شاء من الخمس، فأما قبل القسمة فلا[٢٣٥]».

(٢٣٤) المقريزى، الخطط، ج ٣ ص ٦٠.

(٢٣٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة نفل.

أما الغنائم فهو كل ماغلب عليه المسلمون بالقتال[٢٣٦]، قل أو كثر حتى الابرة، والواجب في المغنم تخميسه إذ يقول الله تعالى في سورة الانفال «واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[٢٣٧]». أما الباقي فيقسم بين الجند من أهل الديوان وغيرهم[٢٣٨]، إذ قال عمر ابن الخطاب «الغنيمة لمن شهد الوقعة[٢٣٩]». وكان توزيع الغنائم يتم بالسوية للراجل سهم وللفارس سهمين[٢٤٠]. وكانت الغنائم تجمع عند نيلها لدى صاحب الأقباض ثم ترسل إلى صاحب المقاسم[٢٤١]، الذي ينادى على مابين يديه ويثمن. وقد أرسل معاوية إلى صاحب المقاسم بخاتم ذهب وفيه فص ياقوت أحمر من مغانم رودس وأمر أن ينادى عليه، ثم أخذه معاوية لنفسه وحسبه للمسلمين من سهمه[٢٤٢].

وبما أن عمر بن الخطاب رفض تقسيم الأراضي التي افتتحها عنوة وأجراها كلها مجرى أرض الصلح وتركها في أيدي أصحابها على الجزية والخراج، فانه اجتمع بالصحابة لتقرير الوجوه التي تصرف فيها واردات البلاد، فقرروا أن يكون من وجوه صرفها، توزيع الأعطيات على المقاتلة، فيذكر سيف أنهم اتفقوا على «فرض الأعطية من الجزاء على من صالح أو دعي إلى الصلح من جزائه مردود عليهم بالمعروف، وليس في الجزاء أخماس، والجزاء لمن منع الذمة، ووفى لهم فيمن ولي ذلك منهم ولمن لحق بهم وأعانهم[٢٤٣]». ويذكر سيف عن الشعبي ومحمد بن سيرين «فرض العطاء حين فرض لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم، الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولم

---

(٢٣٦) أبو يوسف الخراج، ص ١٦.
(٢٣٧) سورة الانفال، آية ٤١.
(٢٣٨) يحيى بن آدم، الخراج، ص ٣، أبو يوسف، ص ٢١.
(٢٣٩) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ٣٠.
(٢٤٠) الطبري، ج٣ ص ٤٤٠.
(٢٤١) الطبري، ج٣ ص ٣٩٧، ٤٣٦، الخولاني، تاريخ داريا، ص ٧٦.
(٢٤٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٢ ص ١٢٦، وقد يعهد الأمر إلى شخص واحد يقبض الغنائم ويقسمها فيسمى صاحب الأقباض والمقاسم.
(٢٤٣) الطبري، ج ٣ ص ٦١٨.

يفرض لغيرهم، ثم كتب في إعطاء أهل العطاء أعطياتهم عطاء واحداً سنة ١٥ هـ[٢٤٤] ».

ولعل إشارة سيف إلى أن العطاء وزع في سنة ١٥ هـ واقعية وتعبّر عما كان يجرى فعلا في الأمصار بعكس ما كان في المدينة من توزيع الأموال حين حضورها[٢٤٥]، ولذلك قيل عن توزيع الأموال بشكل راتب معين في كل سنة عطاء، ويبين ذلك الشعبي فيقول عمّن رأى عمر أنه قال لمّا فتح الله عليه، وفتح فارس والروم، جمع أناسا من أصحاب رسول الله، فقال: ماترون؟ فاني أرى أن اجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فانه أعظم بركة، ففرض الأعطيات[٢٤٦].

ويبدو أن العطاء بقي يوزع بالتساوي بين المقاتلة في العراق والشام حتى سنة ٢٠ هـ مع زيادة أهل البلاء في عطاياهم[٢٤٧]، وعن رافع مولى عمر قال: سمعت العباس بالجابية يقول لعمر: أربع من عمل بهن استوجب العدل، الأمانة في المال والقسم في السوية[٢٤٨] .... » ويذكر سفيان بن وهب الخولاني أنه لما اجتمع الفيء، أرسل امراء الأجناد إلى عمر بن الخطاب أن يقدم بنفسه، فلما قدم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فان هذا المال نقسمه على من أفاء الله بالعدل، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ليس أحد به أحق من أحد». ثم قسّم بين الناس فأصاب كل رجل منهم نصف دينار إذا كان وحده، فإذا كانت معه امرأته أعطاه دينارا[٢٤٩].

إلا أن زيادة وارد الدولة بعد استقرار الشام والعراق ومصر وحصول اختلاف في الرأى في أحقية المسلمين الأوائل ومن أسلم بعدهم في المدينة في نصيبهم من الأموال

(٢٤٤) المصدر السابق، ج٣ ص ٦١٥.

(٢٤٥) أبو عبيد الأموال، ص ٢٤٢.

(٢٤٦) أبو يوسف، ص ٤٩.

(٢٤٧) الطبري، ج٣ ص ٦١٦، رواية سرى عن سيف «القسم بالسوية وأن يعطى أهل البلاء على قدر بلائهم».

(٢٤٨) الطبري، ج٤ ص ٦٤.

(٢٤٩) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ، ج ١ ص ١٧٨، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٧٦.

وبين الفاتحين والروادف في الأمصار في وارد البلاد إضافة إلى توسع رقعة الدولة الإسلامية، كان دافعا لايجاد جهاز إداري ومالي جديد يتمشى والظروف الجديدة لهذه الدولة، فوضع ديوان العطاء على التفضيل[٢٥٠].

كان العطاء في الشام يتدرج بين أهل الأيام ومقاتلة اليرموك ومن أتى بعدهم والروادف، فعطاء أهل الأيام ثلاثة آلاف، وأهل اليرموك ألفان، ولأهل البلاء الرائع منهم ألفان وخمسمائة، وفرض لمن بعد اليرموك آلفا ألفا ثم فرض للروادف حسب تتابعهم المُثنّى، خمسمائة، الروادف الثّليث بعدهم ثلاثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم، وفرض للروادف الرّبيع على مائتين وخمسين وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين، كما أنه فرض لنساء أهل اليرموك مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء وجعل الصبيان سواء على مائة مائة[٢٥١]، ويذكر البلاذري أن عمر فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحدا عن ثلاثمائة، بينما يشير النص الذي أورده الطبري إلى أن الحد الأدنى كان مائتين[٢٥٢].

نلاحظ من هذين النصين أن المردود الدائم بالنسبة للمقاتلة أصبح العطاء، وأن عطاء مقاتلة العراق والشام كان بنسبة واحدة في هذه الفترة، وأن عمر اعتمد في فرض العطاء على قواعد معينة، وهي الرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته[٢٥٣]. أما في العهد الأموي، فنلاحظ أن الولاء للبيت الأموي والاخلاص له كان دافعا هاما لزيادة العطاء لأهل الشام، وظهر ذلك منذ خلافة معاوية الذي نقل بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق وزاد في عطاء

---

(٢٥٠) لم يلاق قرار عمر بوقف الأرض على جميع المسلمين استحسانا لدى المقاتلة وقالوا له بعد ذلك: «أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا». وقال عمر للأنصار بعد اتخاذه القرار: «وقد زعموا أني قد ظلمتهم حقوقهم». (أبو يوسف، الخراج، ص ٢٦).

(٢٥١) الطبري، ج٣ ص ٦١٤.

(٢٥٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٣٨.

(٢٥٣) ابن سعد، الطبقات، ج٣، قسم ١ ص ٢١٥.

أهل الشام وأنقص عطاء أهل العراق[٢٥٤]. كما أن عبد الملك وعد أهل العراق خلال ثورة ابن الأشعث أن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام، ولكن نظرا لرفض مقاتلة العراق بشروط عبد الملك، فانه لم يبر بوعده[٢٥٥]، أما الوليد بن يزيد الذي عرف بسخائه في العطاء فقد زاد عطاء جميع الأمصار، غير أنه مالبث أن زاد عطاء أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة[٢٥٦]، ومثل هذا الأمر منطقي لما عرف عن أهل الشام من ولاء للأمويين، ومع ذلك فلم تكن كل قبائلهم على نفس الدرجة من الولاء، ولذلك نجد أن معاوية لم يكن ليفرض في بادىء الأمر إلا للقبائل اليمانية، فلما قدم مسكين الدارمي الشاعر إلى معاوية وسأله أن يفرض له أبى فخرج مسكين وهو يقول:

أخـاك، أخـاك، إن من لا أخا لـــه
كساع إلى الهيجـــــا بغير سلاح

وقال أيوب السعدى، ولم يزل معاوية كذلك حتى أغزى اليمن وكثرت، وضعفت عدنان، فبلغ معاوية أن رجلا من أهل اليمن قال يوما، «لهممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزارى بالشام»، فلما بلغت معاوية فرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس وجعل مسكين في شرف العطاء[٢٥٧]، فإذا صحّت هذه الرواية فهي تشير إلى أن التسجيل في ديوان الجند لم يكن اعتباطيا أو مفتوحا للجميع، وإنما يخضع لتوجيهات من الخليفة، ونجد صدى لذلك أيضا في توجيهات عمر بن عبد العزيز وان كانت مبنية على أسس أخرى، فقد أمر واليه على مصر أيوب بن شرحبيل بفريضة للجند وطلب منه أن يلصق ذلك بأهل البيوتات الصالحة[٢٥٨]» كما أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى يزيد بن الحصين «أن مر للجند بالفريضة وعليك بأهل الحاضرة وإياك

---

(٢٥٤) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، ص ١٢٦، نقلا عن تيوفانس.

(٢٥٥) الطبري، ج ٦ ص ٣٤٧.

(٢٥٦) الطبري، ج ٧ ص ٢١٧، ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٦٨.

(٢٥٧) تهذيب، ج ٥ ص ٣٠٣.

(٢٥٨) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٦٨.

والأعراب، فانهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم[٢٥٩]» بمعنى أنه لا يجوز تسجيل أعرابي في ديوان الجند، ويعلق أبو عبيد على هذا الأمر: وليس وجه هذا عندنا أن يكونوا لم يروا لهم في الفيء حقا ولكنهم أرادوا أن لا فريضة لهم راتبة تجرى عليهم من المال كأهل الحاضر الذين يجامعون المسلمين على أمورهم ويعينونهم على عدوهم بأبدانهم وأموالهم، وهم مع هذا أهل المعرفة بكتاب الله وسنة رسوله والمعونة على إقامة الحدود، وحضور الأعياد والجمع وتعليم الخير فلهذا آثروهم بالأعطية الجارية[٢٦٠]، وفي كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم نلاحظ أنه يأمره أن يفرض للناس إلا لتاجر، ولما سئل سليمان بن يسار حول كتاب عمر قال: أصاب عمر، التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين[٢٦١]، بمعنى أن الفرض وهو التسجيل للمرة الأولى لا يكون لتاجر أو اعرابي وأنه يفضل أهل البيوتات الصالحة.

لم يكن عطاء المقاتلة في العهد الأموي بنسبة واحدة، فقد كان هناك حد أعلى للعطاء يدعى شرف العطاء، وبينما كان شرف العطاء محدداً بألفين وخمسمائة درهم في عهد عمر ومن تبعه من الخلفاء الراشدين[٢٦٢]، فانه انخفض في خلافة بني أمية إلى ٢٠٠٠ درهم. يذكر البلاذري أنه قتل مع الضحاك في مرج راهط ثمانون من الأشراف كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم[٢٦٣].

وإذا كان شرف العطاء قد أعطي في بادىء الأمر لأهل الأيام والفتوح الأولى مجازاة لهم لمساهمتهم في تلك الحروب الخطيرة وبلائهم فيها أو لمن قام ببعض الأعمال الإدارية والقيادية[٢٦٤]، فانه أضيف إليها في العصر الأموي الولاء لبني أمية مع التوريث

---

(٢٥٩) أبو عبيد، الأموال، ص ٢٢٧.

(٢٦٠) أبو عبيد، الأموال، ص ٢٢٧.

(٢٦١) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٣٥٥.

(٢٦٢) الطبري، ج٣ ص ٦١٤، ج ٤ ص ٧٥.

(٢٦٣) البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٦، ابن سعد، ج ٥ ص ٢٥٥.

(٢٦٤) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٤٣، البلاذري، فتوح، ص ٤٤٢.

في شرف العطاء الذي لم يكن يورث قبل ذلك، فقد اشترط حسان بن مالك بن بحدل وكان سيد أهل الشام على مروان ماكان لهم من شروط على معاوية وابنه يزيد منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه(٢٦٥)، ولا شك أنه كان يفرض في شرف العطاء لأشراف القبائل وساداتهم ومن يظهر البلاء في الحرب.

أما عدد من كان يفرض لهم في شرف العطاء فقليل إذا ماقيس ببقية الأعطيات، وان كنا نفترض أن نسبتهم في الشام أكبر مما هو في الأمصار الأخرى كمصر مثلاً حيث يذكر ابن عبد الحكم أن عدد المقاتلة المسجلين في الديوان زمن معاوية كان أربعين ألفاً وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين (دينار)(٢٦٦)، أما أغلبية المقاتلة فكان عطاؤهم يتراوح بين مائتين إلى ثلاثمائة إلى ألف وألف وخمسمائة درهم(٢٦٧)، ونلاحظ أن عدد المقاتلة في الشام الذين يأخذون عطاءاً مرتفعاً كان كبيرا، لأننا إذا اعتمدنا رواية أبي عبيد معمر بن المثنى المتعلقة بكتاب الحجاج إلى رتبيل يتبين لنا أنه كان مع عمارة بن تميم ٣٠ ألفاً كل واحد منهم يأخذ مائة درهم في الشهر أي ١٢٠٠ درهم في السنة، فقد كتب الحجاج إلى رتبيل: أما بعد فاني قد بعثت إليك عمارة بن تميم في ثلاثين ألفاً من أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا إمام ضلالة، يجرى على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم يستطعمون الحرب استطعاماً(٢٦٨).

بالإضافة إلى العطاء كان المقاتلون ينالون الرزق شهريا، فقد روى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب لما وصل الجابية، كان من جملة مافعله أنه دعا ابن قاطورا صاحب الأرض فقال: أخبرني ما يكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم؟ فأُتي بالمدى والقسط فقال يكفيه مديان في الشهر وقسط زيت وقسط خل، فأمر عمر بمديين

(٢٦٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٦.

(٢٦٦) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٠٢، المقريزي، الخطط، ج ١ ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢٦٧) الطبري، ج ٥ ص ٢٢٣، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ٣٥٤، ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٢ ص ٤٤، ٤٥.

(٢٦٨) الطبري، ج ٦ ص ٣٩٠.

قمحا فطحنا ثم عجنا ثم أدمهما بقسطي زيت ثم أجلس عليهما ثلاثين رجلا فكان كفاف شبعهم[٢٦٩] ، وكانت هذه المؤن تحفظ في هرى ثم توزع على المقاتلة[٢٧٠] .

كان المقاتلة يأخذون زيادة عن العطاء والرزق أموالاً إضافية تسمى المعاون ، وجدت هذه منذ أيام عمر بن الخطاب[٢٧١] ، فقد خطب حين أراد الرجوع من الشام إلى المدينة ، فبيّن لأهل الشام بأنه قضى ما عليه وأنه جنّد الجنود وهيأ لهم الفروج ووسع عليهم ما بلغ فيؤهم وما قاتلوا عليه من شامهم ، وأنه سمّى لهم أطماعهم ، وأمر لهم بأعطياتهم وأرزاقهم ومعاونهم[٢٧٢] ، وقد ارتفع مقدار المعونة في الشام حين دعوة المقاتلة إلى حملة مهمة أو للقضاء على ثورة ما ، فقد أعطى يزيد بن معاوية الجند الذين انتدبهم لمقاتلة ابن الزبير مائة دينار معونة فوق أعطياتهم[٢٧٣] . وعندما وجه مروان جيشا من فلسطين مع حبيش بن دلجة القيني إلى ابن الزبير في ستة آلاف وأربعمائة جندى ، قيل انه لم يقتل رجل من أصحاب ابن دلجة إلا كان أقل ما وجد معه مائة دينار[٢٧٤] .

وقد جعل عمر بن عبد العزيز العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء ، إلا أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين دينارا[٢٧٥] . وعندما أراد يزيد بن الوليد بن عبد الملك أن يوجه المقاتلة إلى الوليد بن يزيد قرر منح ١٠٠٠ درهم معونة لمن ينتدب لقتال الوليد ونظرا لقلة من تقدم رفع القيمة إلى ١٥٠٠ درهم ثم إلى ٢٠٠٠ درهم[٢٧٦] .

وهكذا نرى أن بني أمية في الشام استصلحوا الجند بإدرار أرزاقهم وسدّ حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر غنائمهم وبلائهم ، سئل عمرو بن معاذ وكان على

---

(٢٦٩) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الأولى ، ص ٥٥٦ .

(٢٧٠) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٠ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢٧١) الطبري ، ج ٤ ص ٤٣ ، ٦٥ .

(٢٧٢) الطبري ، ج ٤ ص ٦٥ .

(٢٧٣) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٤٨٣ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ١١٢ .

(٢٧٤) البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٥١ .

(٢٧٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢٧٦) الطبري ، ج ٧ ص ٢٤٢ .

الصوائف، بما قدرت على جيوش الصوائف؟ وكان يغزو في كل سنة ويجر الجيوش إلى بلاد الروم، فقال بسمانة الظهر والقديد وكثرة الكعك[٢٧٧].

كان العطاء يدفع سنويا للمقاتلة في المحرم عند بداية السنة الهجرية في خلافة عمر بن الخطاب[٢٧٨]، كما أنه ما بلغ الناس عاشوراء قط في أيام زياد إلاّ وطائفة يأخذون العطاء، وكان زياد إذا أهلّ المحرّم أخرج للمقاتلة أعطياتهم[٢٧٩]، غير أن دفع العطاء في وقته المحدد لم يكن أمراً ميسوراً دائماً وخاصة إذا لم يصل الخراج في وقته المعين، أو بسبب الاضطرابات، وفي هذه الحال كان العطاء يدفع أقساطا أو يؤخر دفعه عن الموعد المقرر، فقد وعد يزيد بن معاوية الناس أن يجمع لهم عطاءهم كله، إذ أن معاوية كان يخرج لهم العطاء ثلاثاً[٢٨٠]، كما أننا نرى يزيد بن الوليد يعد المقاتلة أن يدفع لهم عطاءهم كل سنة ورزقهم كل شهر[٢٨١]، وهذا يعني أن الأعطيات أحياناً لم تكن توزع سنوياً ولا الأرزاق شهريا، كما أن الخليفة إذا كان بحاجة إلى الأموال أخذها من بعض الولايات، فكان هذا يؤدي إلى حبس العطاء عن مقاتلة ذلك المصر، فقد اضطرت الأحداث الداخلية مروان بن محمد إلى تأخير العطاء عن ديوان مصر، ثم دفعهم في العام التالي معتذراً لهم بقوله، «اني إنما حبست عنكم العطاء في السنة الماضية لعدو حضرني، فاحتجت فيه إلى المال، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة[٢٨٢]».

ويعود لزياد بن أبيه فضل تنظيم العطاء في العراق على أسس جديدة غير تلك التي كانت متبعة سابقاً والتي أصبح فيها لكل عشيرة عريف خاص بها يتولى توزيع

---

(٢٧٧) الطرطوشي، سراج الملوك، الطبعة الأولى، ١٣١٩ هـ ص ١٠٦.

(٢٧٨) الطبري، ج ٤ ص ٤٣. في رواية سيف أن عمر كتب إلى سعد بن مالك وإلى عتبة بن غزوان أن يتربعا بالناس في كل حين ربيع في أطيب أرضهم، وأمر لهم بمعاونهم في الربيع من كل سنة وباعطائهم في المحرّم من كل سنة.

(٢٧٩) البلاذري، أنساب، ج ٤، قسم ١ ص ١٩.

(٢٨٠) ابن كثير، البداية والنهاية، طبعة القاهرة، ج ٨ ص ١٤٣.

(٢٨١) الطبري، ج ٧، ص ٢٦٩، خليفة، ج ٥ ص ٥٥١.

(٢٨٢) المقريزى، الخطط، ج ١ ص ١٧٣.

لعطاء على أفراد عشيرته المثبتين في الديوان(٢٨٣). وبما أن هذا التنظيم هو تنظيم منطقي يسهل تطبيقه، وكان مطبقا كذلك في مصر على هذا الأساس(٢٨٤)، يمكننا أن نفترض بأن توزيع العطاء في الشام كان يتم وفقا للمبدأ ذاته، لاسيما وأن هناك اشارة إلى وجود عريف للسكاسك(٢٨٥)، ووجود عريف لكل قوم(٢٨٦).

أما عطاء الأسرى، فليس بين أيدينا سوى نص واحد يعود إلى عهد عمر بن عبد العزيز يتعلق بالأسارى بالقسطنطينية، إذ أنه كتب إليهم حسب رواية ابن عبد الحكم: «أما بعد فانكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلاّ خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، واني قد بعثت إليكم بخمسة دنانير خمسة دنانير، ولولا أني خشيت ان زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم(٢٨٧)»، بمعنى أن عطاء الأسير كان يعطى لأهله، لا بد أن هذا المبدأ كان مطبقاً في الفترات السابقة، فخلفاء بني أمية كان يهمهم أمر مقاتلتهم في الشام ويستبعد أن يكونوا قد أهملوا أمرهم وأمر أسرهم، وهذا بدوره يقتضي تسجيلاً في الديوان لمن يقتل أو يفقد أو يؤسر. وقد اتخذ عمر بن عبد العزيز اجراءات معينة متعلقة بالغائب، فإذا كان قريب الغيبة أعطى العطاء لأهل ديوانه، وان كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكل عنده بوكالة ببينة على حياته فيدفع العطاء إلى وكيله(٢٨٨)، أما إذا مات أو قتل كان ما يستحق من عطائه موروثا عنه على فرائض الله تعالى وهو دين لورثته في بيت المال(٢٨٩). واختلف الفقهاء في استيفاء نفقات ذريته من عطائه في ديوان الجيش فبعضهم يقول ان ورثته يحالون على

---

(٢٨٣) القلقشندي، ج ١ ص ٤٢٤، ابن سعد، ج ٦، ص ٦٣، ١٣٥.

(٢٨٤) المقريزى، الخطط، ج ١ ص ٣٩٣، ياقوت الحموي، ج ١ ص ٤٩٢.

(٢٨٥) تهذيب، ج ٥ ص ٢٥.

(٢٨٦) المصدر السابق، ج ٦ ص ١١٧.

(٢٨٧) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٤٠.

(٢٨٨) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٣٥٧.

(٢٨٩) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٦.

مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته، والبعض الآخر يرى أنه يستبقي من عطائه نفقات ترغيباً وتشجيعا للجنود على التجنيد[٢٩٠].

واختلف الفقهاء كذلك في سقوط عطائه إذا حدثت به عاهة تمنعه من القتال، فالبعض يرى أن عطاءه يسقط لأنه في مقابل عمل لم يعد يستطيع القيام به، والقول الثاني انه باق على العطاء ترغبيا في التجنيد والارتزاق[٢٩١].

كان على أهل العطاء أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة، ويذهبوا للقتال عندما يضرب عليهم البعث ويدعون إلى الخدمة[٢٩٢]، ويظهر أن هذا كان منذ البداية كما يتضح من قول عمر بن الخطاب: «لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف، ألفا يجعلها في أهله، وألفاً يزودها معه، وألفاً يتجهز بها وألفاً يترفق بها[٢٩٣]». وروى الهيثم ابن عدى عن ابن عباس الهمداني وغيره أن كثير بن شهاب كان على الرى ودستبى وقزوين كان إذا غزا أخذ كل امرىء ممن معه، بترس ودرع وبيضة ومسلة وخمس ابر وخيوط كتان ومقص ومقراص ومخلاة[٢٩٤]، ووجه عمر بن عبد العزيز كتابا إلى ولاته حين أخرج العطاء جاء فيه: «لايقبل من رجل له مائة دينار إلا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل[٢٩٥]».

وكان أخذ العطاء يحتم على صاحبه أن يقوم بالغزو، إلا أنه كان باستطاعة من لا يريد الغزو أن يخرج بدلاً، ويروى المدائني أنه لم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلاً. وكان لهشام بن عبد الملك مولى يقال له يعقوب، فكان يأخذ عطاء هشام مائتي دينار ودينار، فيأخذها يعقوب ويغزو، وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان، وفي بعض ما يجوز لهم المقام

---

(٢٩٠) الماوردي، ص ٢٠٦.

(٢٩١) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(٢٩٢) الطبري، ج٦ ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٢٩٣) المصدر السابق، ج٣ ص ٦١٥.

(٢٩٤) البلاذري، فتوح، ص ٣١٤.

(٢٩٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٥٨.

ويوضع به الغزو عنهم[٢٩٦]، أي بامكان أهل العطاء التخلص من البعوث إذا عملوا في الوظائف التي تقتضي البقاء في المصر أو إذا أرسلوا عنهم بديلاً، أما العرفاء فكانوا لا يشاركون في البعوث والقتال في أكثر الأحيان، «لأنهم خلفاء الغزاة في عيالهم[٢٩٧]»، ولكن هذا لا يمنع من مشاركتهم في القتال إذا دعت الحاجة إلى ذلك[٢٩٨]، لأنهم كانوا يعدون من أهل الديوان ويأخذون العطاء.

وهكذا يتبين لنا من دراستنا للتنظيم العسكري في الشام أن الجيش الشامي كان يتألف بالدرجة الأولى من القبائل العربية المقيمة في الشام، وبما أن القبائل اليمانية والقضاعية كانت تؤلف الأكثرية، فمن الطبيعي أن يتألف الجيش في معظمه من هذه القبائل بالإضافة إلى القبائل القيسية التي كان مستقرها الجزيرة وجند قنسرين، ولكننا نلاحظ استفادة بني أمية من كل الطاقات البشرية، فقد استعانوا بأهل الذمة في مناطق الحدود والثغور، كما أنهم استخدموا الموالي الذين ازدادت نسبتهم في الفترة المروانية حيث ظهرت لدينا فرق خاصة، كالوضاحية والذكوانية والحمرّة وغيرهم، ولكن القيادات العليا في الشام بقيت بيد العرب من الصحابة وأبنائهم ومن أشراف القبائل في الفترة السفيانية وبيد أمراء بني أمية في الفترة المروانية، ولا سيما في قيادة الصوائف والشواتي، إذ أن أمراء بني أمية كانوا يعلقون أهمية كبيرة عليها لأنهم انما يتابعون عملية الجهاد ضد أعداء المسلمين من جهة كما أنها كانت تكسبهم هالة من المجد من جهة ثانية، ثم ان عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية على ماتتمتع به من نظام وسجايا حربية، ولقد بقيت القبيلة أو العشيرة عنصراً مكوناً بارزاً في مجال التعبئة سواء في اعتمادهم على نظام الصف أو الكراديس أو عندما تدمج لغايات عسكرية أو مالية في تنظيمات أكبر. ونلاحظ في مجال الأسلحة ووسائل الدفاع وآلات الحصار أن مجال الاقتباس يظهر واضحاً، إلاّ أن التطور الذاتي والابتكار على شكل استجابة ناجحة لمتطلبات التطور قد سارا جنبا إلى جنب مع

---

(٢٩٦) الطبري، ج٧ ص ٢٠٢.

(٢٩٧) تهذيب، ج٧ ص ١٥٢.

(٢٩٨) الطبري، ج٦ ص ٢٥٤، ٢٥٥.

الاقتباس ، ويكفي أن نقارن بين البداية والأوج وبينهما مدة لا تتجاوز الخمسين سنة في كثير من الأحيان سواء على صعيد العدد أو على صعيد الآلات والعدد ، حتى نرى هذه القفزة الواسعة التي حققها العرب عامة ومقاتلة أهل الشام خاصة .

الخاتمة

ألقت هذه الدراسة الضوء على أهمية بلاد الشام في صدر الإسلام ، لا سيما عندما أصبحت الشام الولاية المركزية في عهد بني أمية ، فأضحت لها المكانة السياسية الأولى وتمتعت بقوة عسكرية فائقة وبأوضاع إدارية واجتماعية متميزة ، فالأكثرية الساحقة من الروم ومرتزقتهم نزحوا عن المدن الساحلية والداخلية الهامة ولحقوا بهرقل إلى آسيا الصغرى والقسطنطينية . والقبائل العربية النصرانية ، التي كانت تشكل نسبة سكانية لا يستهان بها في الشام قبل الفتح ، اعتبرت اجتماعيا بمستوى العرب المسلمين الفاتحين عندما اعتنقت الإسلام ، والدليل على ذلك هو الازدياد المستمر في أعداد المقاتلة العرب في كل جند ، وهذا الازدياد لم يكن ناجما عن هجرة القبائل من الجزيرة العربية فقط ، وإنما عن اعتناق القبائل العربية النصرانية للدين الإسلامي . كما أن معظم العرب في الشام في العصر الأموي كانوا من عرب الجنوب ، باستثناء جند قنسرين حيث كانت الأكثرية قيسية ، وأصبح العرب يشكلون الغالبية الكبرى من السكان في معظم الأجناد سواء في المناطق الساحلية أو الداخلية ، إلا في جند دمشق

حيث نلاحظ أن السكان في مدن جند دمشق الساحلية كان أكثرهم من اليهود والفرس نتيجة للسياسة التي اتبعها معاوية وعبد الملك من بعده .

ونظرا لسياسة التسامح الديني التي اتبعها خلفاء بني أمية ، وعدم فرض ضرائب اضافية على أهل الذمة ، كما حدث في العراق ومصر مثلاً ، بقيت النصرانية واسعة الانتشار نسبيا بين السكان من غير العرب ، ومن ثم فان النسبة الكبرى من الموالي وفقا للروايات المتوافرة كانوا موالي عتاقة ينتمون إلى أصول مختلفة ، وكان خلفاء وأمراء بني أمية يملكون أعداداً كبيرة منهم ازدادت في الفترة المروانية نتيجة للفتوحات في الشرق والغرب . ولذلك ازداد اعتماد خلفاء بني أمية في هذه الفترة على الموالي في كل دوائر الدولة ، كما ظهرت فرق للموالي ، كالوضاحية والذكوانية والمحمّرة ، شاركت في قمع الثورات التي نشبت ضد الأمويين ، ولكن القيادات في الجيش في الشام بقيت تسند إلى العرب ، إلى أبناء الصحابة وأشراف القبائل في الفترة السفيانية ، وإلى أمراء البيت المرواني خاصة وبني أمية عامة في الفترة المروانية ، كما أن بعض الوظائف الأساسية بقيت تسند إلى العرب ، كولاية الأجناد والقضاء والشرطة ، أما المستشارون والوزراء فكان منهم العرب ومنهم الموالي .

ونتيجة لسياسة معاوية المالية التي أصبح على الولايات بموجبها ارسال الفائض من الأموال إلى بيت المال المركزي ، تدفقت الأموال على الشام بالإضافة إلى أخماس الغنائم التي كانت ترسل إليها مما أدّى إلى ازدهار الشام وتمتع أهلها كافة بمميزات خاصة ، فعطاء مقاتلة الشام كان أكثر من عطاء المقاتلة في الأمصار الأخرى . كما لا نجد ذكرا لضرائب إضافية كتلك التي فرضت في العراق ومصر ، مما أدّى إلى ازدهار الزراعة لعدم شعور المزارع بأن كل مايجنيه سوف يتوجه

إلى الدولة، ومن ثم لانجد ذكرا لهجرة الفلاحين من أرضهم، كما حدث في العراق ومصر في العصر الأموي، أو كما حدث في الشام زمن هارون الرشيد عندما ترك بعض أهالي قرى فلسطين أراضيهم هربا من كثرة الخراج. وشهدت الشام كذلك ازدهاراً تجارياً نتيجة لسيطرة العرب على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني وسيطرتهم كذلك على الشام ومصر،، فلم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية. كما أن حكام القسطنطينية في هذه الفترة، كما تشير إلى ذلك مختلف الأدلة، لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر، لأن المنع كان يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين، ويبدو أن الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٣ م/٧٤ هـ كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان. كما أن قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقاً يبدو وكأنها اختفت، ولكن عندما عمد عبد الملك ابن مروان إلى تحرير الدولة الإسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا وإلى اقامة وحدة اقتصادية مستقلة من جهة، وإلى تحقيق نوع من الضغط الاقتصادي على بيزنطة من جهة أخرى بسكّه للدنانير العربية الإسلامية، نلاحظ أنه أضيفت الحرب الاقتصادية إلى العداء العسكري البري والبحري. ولكن عدم فرض خلفاء بني أمية قيودا على التجارة الخارجية للدولة الإسلامية، كتلك التي فرضها البيزنطيون، أدى إلى سحب تجارة منتجات العالم العربي وتجارة الحرير والتوابل، التي كان البيزنطيون بأمس الحاجة إليها، من مصر والشام المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين إلى العراق. ومما ساعد البيزنطيين على اغلاق البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الشام ومصر، قوة الأسطول البيزنطي

الذي خرج منتصرا سنة ١٠٠ هـ، وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من جزر البحر المتوسط التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني. فإذا أضفنا إلى ذلك انقسام الصف الأموي سنة ١٢٦ هـ إثر مقتل الوليد بن يزيد، وانقسام كلمة أهل الشام الذين كانوا يشكلون القاعدة المتينة والجبهة المتراصّة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها، فانه لم تأت سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢م حتى كانت الشام قد خسرت مركزها السياسي والتجاري الهام، فقد انتقل الحكم إلى العباسيين، وأصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون، وخسرت دمشق مكانتها السياسية الهامة، ولم تستعدها، إلا فترة من الزمن وإلى حين، في عهد كل من نور الدين وصلاح الدين، حيث عادت إلى مسرح الأحداث كعاصمة كبرى لزعيمين عظيمين من زعماء العالم الإسلامي، وحظيت ابّان حكمهما بقدر كبير من العز والمجد والازدهار.

المصادر والمراجع

★ المصادر العربية

- الأبشهي (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشهي) ، (ت ٨٥٠ هـ) **المستطرف في كل فن مستظرف** وبهامشه كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات للامام تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد ابن حجة الحموي .
- ابن ابكار (اسكندر بن يعقوب) .
نهاية الأرب في أخبار العرب ، مرسيليا ، ١٨٥٢ م .
- ابن أبي حديد (عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسين) (ت ٦٥٦ هـ) ، **شرح نهج البلاغة** ، ١٧ ج ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ابن أبي دينار ، **المؤنس في أخبار افريقية وتونس** ، تونس ، ١٣٨٦ هـ .
- ابن أبي السرور (أبو الحسن علي بن أبي عبد الله بن محمد) .
بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ، مطبعة النجاح ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩م .
- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجي) ، (ت ٦٦٨ هـ) .
عيون الانباء في طبقات الأطباء ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ابن الأعثم (أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي) ، (ت ٣١٤ هـ) .
الفتوح ٧ أجزاء ، تحقيق الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ١٣٨٨ ــ ١٣٩٤ هـ/١٩٦٨ ــ ١٩٧٤م .

☐ الأزدي (أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس بن القاسم)، (ت ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) تاريخ الموصل، تحقيق الدكتور علي حبيبة، القاهرة، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.
☐ الاصطخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي).
المسالك والممالك، تحقيق دى غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٢٧.
☐ الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين)، (ت ٣٥٦ هـ):
١ ــ **مقاتل الطالبيين**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩ م.
٢ ــ **الأغاني**، ١٨ ج، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧ ــ ١٩٦١.
☐ الأنصاري (شرف الدين موسى بن يوسف).
التذكرة الأيوبية، مخطوطة في المكتبة الظاهرية برقم ٧٨١٤.
☐ بحشل (أسلم بن سهل الرزاز الواسطي)، (ت ٢٩٢ هـ).
تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد.
☐ البخاري، **الجامع الصحيح**، ٤ أجزاء، طبعة ليدن.
☐ أبو البقاء (عبد الله محمد البدري المصري الدمشقي).
نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١ هـ.
☐ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر):
١ ــ **فتوح البلدان** ــ تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
٢ ــ **أنساب الأشراف**، **الجزء الأول**، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.
القسم الأول من الجزء الرابع، مؤسسة الدراسات الافريقية الإسلامية، الجامعة العبرية، القدس ١٩٧٢.
القسم الثاني من الجزء الرابع، مكتبة المثنى، بغداد.
القسم الثالث، **العباس بن عبد المطلب** وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى، بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.

الجزء الثالث، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودى، بيروت الطبعة الأولى، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م.
الجزء الخامس، مؤسسة الدراسات الشرقية، الجامعة العبرية، القدس، ١٩٣٦.
☐ البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل).
كتاب البدء والتاريخ، الجزء الثاني، باريز ١٩١٩.
☐ البيروني، **الآثار الباقية في القرون الخالية**، طبعة ليبزك، ١٩٣٢ م.

- البيهقي (أحمد بن الحسين).
  سنن البيهقي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، طبعة أولى، ١٣٥٤ هـ.
- ابن تيمية، **السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية**، دار الكتب العربية، بيروت.
- التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ج ١، القاهرة، الطبعة الأولى.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب):
  ١ ــ **البيان والتبيين**، تحقيق حسن السندوبي، دار الفكر، بيروت.
  ٢ ــ **كتاب التاج في أخلاق الملوك**، تحقيق فوزي عطوى، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.
  ٣ ــ **العثمانية**، طبعة القاهرة، ١٩٥٥ م.
  ٤ ــ **ثلاث رسائل**، القاهرة، الطبعة السلفية، ١٣٤٤ هـ.
- جرجس بن العميد، **تاريخ ابن العميد**، ليدن.
- جرير، **ديوان جرير**، دار صادر، بيروت.
- الجمحي (محمد بن سلام)
  طبقات الشعراء، طبعة أوفست، دار النهضة، عن طبعة ليدن، ١٩١٣ م، بيروت.
- **الجهشيارى كتاب الوزراء والكتاب**، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ الشابي، طبعة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م.
- ابن الجوزى (أبو الفرج) (ت ٥٩٧ هـ)
  تاريخ عمر بن الخطاب، دار احياء علوم الدين بدمشق.
- ابن حبيش (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف)
  الفتوح، مخطوطة منسوخة من مكتبة الدكتور سهيل زكار.
- حسان بن ثابت، **الديوان**: تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤ م.
- ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي)
  جمهرة أنساب العرب، نشر وتحقيق د. ليفي بروفنسال، دار المعارف مصر.
- الحميرى (عبد المنعم)
  الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٨ م.
- ابن حنبل (أحمد بن محمد) (ت ٢٤١ هـ)
  المسند، ٤ أجزاء، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩ م.
- أبو حنيفة (النعمان بن ثابت) (ت ١٥٠ هـ)
  جامع المسانيد، جزءان، حيدر أباد، ١٣٣٢ هـ.
- ابن خرداذبة (عبيد الله بن عبد الله) (ت ٢٧٢ هـ)

المسالك والممالك، تحقيق دى غويه، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٩،، اوفست مكتب المثنى، بغداد.

- ☐ ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي) (ت ٨٠٨ هـ) المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧١ م.
- ☐ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، جزءان.
- ☐ خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة**، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دمشق ١٩٦٧.
- ☐ الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب) (ت ٣٨٧ هـ) **مفاتيح العلوم**، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.
- ☐ الخولاني (القاضي عبد الجبار)

  تاريخ داريا، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٦٩ هـ، ١٩٥٠ م.
- ☐ الدينوري (أحمد بن داود) (ت ٢٨٢ هـ)

  الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الاقليم الجنوبي، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ☐ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) (ت ٧٤٨ هـ/١٣٧٤ م).

  سير أعلام النبلاء، ٨ أجزاء، **مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م**.
- ☐ الرازى، **التفسير الكبير**، المجلد الثامن، الطبعة الثانية.
- ☐ ابن رجب (عبد الرحمن بن أحمد) (ت ٧٥٩ هـ).

  الاستخراج لأحكام الخراج، تحقيق عبد الله الصديق، القاهرة ١٩٣٤ م.
- ☐ **ابن رستة (أبو علي أحمد بن عمر) (ت ٣٩٠ هـ).**

  الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١ م.
- ☐ ابن رشد (محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي)

  بداية المجتهد ونهاية المقتصد، جزءان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٧ هـ/١٩٢٧ م.
- ☐ أبو زرعة (عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان) (ت ٢٨١ هـ)

  تاريخ أبي زرعة، جزءان، تحقيق شكر الله بن نعمة الله الفرجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ☐ ساويرس، **سير الآباء البطاركة**، الجزء الخامس، باريز، ٩١٠.
- ☐ ابن سعد (محمد) (ت ٢٣٠ هـ).

  كتاب الطبقات الكبير، الأجزاء السبعة الأولى، ليدن ١٣٢٢ هـ.
- ☐ السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) (ت ٩١١ هـ):

١ ـــ **الاقتراح في علم أصول النحو** ، تحقيق أحمد صبحي فرزات ، استانبول ، مطبعة كلية الآداب ، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م .

٢ ـــ **تاريخ الخلفاء** ، تحقيق لجنة من الأدباء ، دار الثقافة ، بيروت .

☐ الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد)

الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٥١ م .

☐ الشافعي (محمد بن أدريس) (ت ٢٠٤ هـ)

الأم ، ٦ أجزاء القاهرة ، ١٣٢١ هـ ١٣٢٦ هـ .

☐ ابن شداد (عز الدين أبي عبد الله بن علي بن ابراهيم الحلبي) (ت ٦٨٤ هـ)

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الأول من القسم الأول ، تحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ١٩٥٣ م .

تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق الدكتور سامي الدهان .

☐ الصابي ، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

☐ الصولي (محمد بن يحيى (ت ٣٣٦ هـ) .

أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .

☐ ابن طباطبا (محمد بن علي) (ت ٧٠٩ هـ) المخري في الآداب السلطانية ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٣٤٥ هـ/١٩٢٧ م .

☐ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠ هـ)

تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية .

☐ الطرطوشي (محمد بن الوليد)

سراج الملوك ، المطبعة الأزهرية المصرية ، الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ .

☐ ابن طولون (شمس الدين)

الثغر البسام في ذكر من ولى قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٦ م .

☐ ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي) (ت ٤٦٣ هـ)

الأنباه على قبائل الرواة ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .

☐ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) (ت ٢١٢ هـ)

سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م .

فتوح مصر وأخبارها ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٠ م .

☐ ابن عبد ربه **العقد الفريد** ، ٧ أجزاء ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الابياري ، ١٩٤٩ ـــ ١٩٦٨ .

☐ ابن العبرى (غريغورس أبي الفرج بن هارون الملطي)

تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
☐ أبو عبيد (القاسم بن سلام) (ت ٢٢٤ هـ)
كتاب الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة.
☐ ابن العديم (كمال الدين، أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله) (ت ٦٦٠ هـ)
زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سامي الدهان.
☐ ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار المغرب**، جزءان، دار بيروت صادر، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.
☐ ابن عساكر (القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي)
تاريخ مدينة دمشق، المجلدة الأولى والثانية، تحقيق صلاح الدين المنجد.
المخطوطة، رقم ٣٣٧٠، نسخة سليمان باشا العظم، المكتبة الظاهرية.
☐ العمرى **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، مطبعة الدار، مصر.
☐ أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا) (ت ٧٣٢ هـ)
المختصر في تاريخ البشر، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني.
☐ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني)
كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ.
☐ أبو الفضل النيسابوري، **مجمع الأمثال**، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.
☐ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) (ت ٢٧٦):
١ ــ **عيون الأخبار**، مجلدان، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ/١٩٣٠م.
٢ ــ **المعارف**، تحقيق محمد اسماعيل عبد الله الصاوى، بيروت، ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م.
٣ ــ **الامامة والسياسة**، جزءان، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
☐ قدامة بن جعفر، **نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٦ هـ.
☐ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.
☐ القشيرى (أبو علي بن سعيد بن عبد الرحمن القشيرى الحرّاني) (ت ٣٣٤ هـ)
تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله والتابعين والفقهاء والمحدثين، حقق وعلق حواشيه وقدم له طاهر النعساني.
☐ القسطلاني (شهاب الدين أحمد بن محمد)
ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى، طبعة بولاق، ١٣٢٧ هـ.
☐ القلقشندي (أحمد بن عبد الله) (ت ٨٢١ هـ):

١ ــ **مآثر الانافة في معالم الخلافة**، جزءان ــ الكويت ١٩٦٤ م.
٢ ــ **صبح الأعشى**، ١٤ جزء، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م.

☐ ابن قيم الجوزية (الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر) (ت ٧٥١ هـ)
أحكام أهل الذمة، جزءان، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٦١ م.

☐ ابن كثير (اسماعيل بن عمر) (ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية في التاريخ، الجزء السادس، القاهرة.

☐ ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب)
جمهرة النسب، الجزء الأول، مخطوطة برقم /٣٨٢/ في مركز الوثائق والتوثيق، الجامعة الأردنية.

☐ الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) كتاب الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨ م.

☐ ابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ)
السنن، القاهرة، ١٣١٣.

☐ ابن ماكول (ت ٤٧٥ هـ، ١٠٨٢ م)
الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى، ٧ أجزاء، الطبعة الثانية، بيروت.

☐ مالك بن أنس، **المدونة**، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٢٤ هـ.

☐ المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي)
رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، نشر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥١ م.

☐ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصرى البغدادى) (ت ٤٥٠ هـ):
١ ــ **الأحكام السلطانية**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٧٣ م.
٢ ــ **أدب القاضي**، تحقيق محي الدين هلال السرحان، بغداد، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.

☐ المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) (ت ١٨٥ هـ)
الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت.

☐ المسعودى (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (ت ٣٤٦ هـ):
١ ــ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٤ أجزاء، دار الأندلس.
٢ ــ **التنبيه والأشراف**، تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوى، مكتبة المثنى، بغداد.

☐ ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب) (ت ٤٢١ هـ).

كتاب تجارب الأمم ، الجزء الخامس ، مطبعة التمدن الصناعية بمصر ، القاهرة ، ١٣٣٢ هـ .

- ☐ مصعب الزبيري (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله) (ت ٢٣٦ هـ)
نسب قريش ، تحقيق أ . ليفي بروفنسال .
- ☐ المقدسي (شمس الدين) (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تعليق غازى طليمات ، طبعة ١٩٨٠ م .
- ☐ المقرى التلمساني (أحمد بن محمد)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، دار بيروت صادر ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
- ☐ المقريزى (أبو العباس أحمد بن علي) (ت ٨٤٥ هـ) :
١ ــ **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ، ثلاثة أجزاء دار التحرير للطبع والنشر ، عن طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
٢ ــ **البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب** ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ .
- ☐ ابن منظور ، **لسان العرب** ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
- ☐ مؤلف مجهول (من القرن الثالث الهجري)
أخبار العباس وولده ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري ، والدكتور عبد الجبار المطلبي ، بيروت ١٩٧١ م .
- ☐ مؤلف مجهول ، **العيون والحدائق في أخبار الحقائق** (من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم) مكتبة المثنى ، بغداد .
- ☐ مؤلف مجهول ، **تاريخ الخلفاء** ، بيروت ١٩٧١ .
- ☐ ميخائيل السمعاني ، **سيرة يوحنا الدمشقي** ، مطبعة القديس بولس ، لبنان ، ١٩٠٢ م
- ☐ النابغة الذبياني ، **الديوان** ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار بيروت صادر .
- ☐ نصر بن مزاحم ، **وقعة صفين** ، القاهرة ، ١٣٦٥ هـ .
- ☐ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (ت ٧٣٣ هـ) **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، الجزء الحادي والعشرون ، تحقيق محمد علي البجاوى ، الجزء الخامس والسادس ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- ☐ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى) (ت ٢١٣ هـ)
السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- ☐ أبو هلال العسكري ، **الأوائل** ، جزءان ، تحقيق محمد المصرى ، وليد قصاب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، إحياء التراث العربي .
- ☐ الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب)
صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

☐ الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر)

فتوح الشام ، جزءان ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

☐ ابن الوردى (عمر بن مظفر)

تاريخ ابن الوردى ، النجف ١٩٦٩ م .

☐ وكيع (محمد بن خلف بن حيان)

أخبار القضاة ، جزءان ، تعليق عبد العزيز مصطفى المراغي ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧ م .

☐ ياقوت الحموى ، **معجم البلدان** ، خمسة أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م .

☐ يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣ هـ)

كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

☐ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب) :

١ ــ **تاريخ اليعقوبي** ، جزءان ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م .

٢ ــ **كتاب البلدان** ، ليدن ، ١٨٩١ م .

☐ أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم)

كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

الآثار ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ .

★ المراجع العربية والمترجمة

- ☐ د. ابراهيم أحمد العدوى:
  - ١ ــ **الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية**، مكتبة النهضة، مصر، ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م.
  - ٢ ــ **الأساطيل العربية في البحر المتوسط**، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٥٧.
- ☐ د. احسان صدقي العمد، **الحجاج بن يوسف الثقفي**، بيروت ١٩٧٣ م.
- ☐ د. احسان النص، **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**، منشورات، دار اليقظة العربية، بيروت.
- ☐ أحمد أمين، **فجر الإسلام**، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩ م.
- ☐ د. أحمد بدر:
  - ١ ــ **دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة**، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
  - ٢ ــ **تاريخ المغرب والأندلس**، دمشق، ١٩٨٠.
  - ٣ ــ **التنظيم العسكري عند العرب المسلمين**، بحث في مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع، ١٩٨١م.
- ☐ د. أحمد شفيق، **الرق في الإسلام**، تعريب أحمد زكي، المطبعة الأميرية، طبعة أولى، ١٣٠٩ هـ.
- ☐ د. أحمد مختار العبادى، د. السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، طبعة ١٩٧٢م.
- ☐ آدم ميتز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٤٠م.
- ☐ أنستاس الكرملي، **النقود العربية وعلم النميات**، طبعة ١٩٢٩م.

☐ بتلر، **فتح العرب لمصر**، ترجمة محمد فريد أبو حديد، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٥١ هـ/١٩٣٣م.

☐ بليايف، **العرب والإسلام والخلافة العربية**. الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣م.

☐ ترتون، **أهل الذمة في الإسلام**، ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م.

☐ جواتياين، س. د. Goiti Yayen **قداسة بيت المقدس وفلسطين في صدر الإسلام**، تعريب الدكتور عطية القوصي، وكالة المطبوعات.

☐ جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤م ــ الجزء السادس، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦م.

☐ جورج فضلو حوراني، **العرب والملاحة في المحيط الهندي**، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، مراجعة الدكتور يحيى خشاب، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة.

☐ جون باجوت، **الفتوحات العربية الكبرى**، ترجمة خيرى حماد، بيروت.

☐ حبيب الزيات:

١ ــ **الديارات النصرانية في الدولة الإسلامية**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٨م.

٢ ــ **سمات النصارى واليهود في الإسلام**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٠م.

☐ حسام السامرائي، **المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية**، ١٩٧١م.

☐ حسين مولوى، **الإدارة العربية**، ترجمة ابراهيم أحمد العدوى، ١٩٥٨م.

☐ الخضري، **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية**، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٣٤٨ هـ/١٩٣٠م.

☐ دوسو، **العرب في سورية قبل الإسلام**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، مراجعة محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩.

☐ د. رجاء الدويدرى، **جغرافية سورية والوطن العربي**، مطبعة طربين، دمشق، ١٩٨١م.

☐ الزركلي. **الأعلام**، أحد عشر جزءا، ١٩٧٠م.

☐ ستيفن رونسيمان، Steven Runciman، **الحضارة البيزنطية**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م.

☐ سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، دار المعارف، مصر.

☐ سعيد الأفغاني، **في أصول النحو**، دمشق، ١٣٧٠ هـ/١٩٥١م.

☐ شكرى فيصل، **المجتمعات الإسلامية**، دار العلم للملايين، بيروت.

☐ شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي**، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.

- ☐ صالح أحمد العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩ م.
- ☐ صلاح الدين البحيرى، **جغرافية الأردن**، عمان، ١٩٧٣ م.
- ☐ الطحاوى، **مشكل الآثار**، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند، حيدر أباد، الطبعة الأولى، ١٣٣٣ هـ.
- ☐ ظافر القاسمي:

١ ـــ **نظام الحكم في الشريعة والإسلام**، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م.

٢ ـــ **نظام الحكم في الشريعة والإسلام، السلطة القضائية**، دار النفائس، بيروت، ١٣٩٨ هـ.

- ☐ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، **التراتيب الإدارية**، فاس، ١٣٤٩ هـ.
- ☐ عبد الرحمن زيدان، **كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة**، الرباط، ١٩٦٢ م.
- ☐ عبد السلام محمد هارون، **الألف المختارة من صحيح البخارى**، بيروت ١٩٧٩ م.
- ☐ د. عبد العزيز الدورى:

١ ـــ **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي**، بيروت ١٩٦٩.

٢ ـــ **العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام**، بحث ألقي في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، جامعة الأردن، ١٩٧٤ م.

٣ ـــ **نظام الضرائب في صدر الإسلام**، ملاحظات وتقييم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية، بدمشق، الجزء الثاني.

- ☐ عبد العزيز فهمي، **مدونة جستنيان في الفقه الروماني** (ترجمة) دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٦ م.
- ☐ عبد القادر بدران، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير للامام الحافظ** المؤرخ علي بن الحسن ابن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م.
- ☐ د. عدنان البني، **تدمر والتدمريون**، رسالة دكتوراة منسوخة، دمشق، ١٩٧٧ م.
- ☐ ابن العربي، **أحكام القرآن**، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م.
- ☐ علي أحمد الجرجاوى، **حكمة التشريع وفلسفته**، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٣٨ م.
- ☐ علي حسني الخربطلي، **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي**، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩ م.
- ☐ عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، بيروت، لبنان.
- ☐ د. فاروق عمر، **طبيعة الدعوة العباسية**، الطبعة الأولى، ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠ م.
- ☐ فان فلوتن، **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمة حسن ابراهيم حسن،

محمد زكي ابراهيم، **الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥ م.**

- فتحي عثمان، **الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري**، الكتاب الأول، الدار القومية للطباعة والنشر.
- فلهوزن، **تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية**، ترجمة محمد عبد أبو ريدة.
- فنسنك، **مفتاح كنوز السنة**، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصر، ١٩٣٤ م.
- فيليب حتى:

  ١ ــ **تاريخ سورية ولبنان**، ترجمة د. حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨م.

  ٢ ــ **تاريخ العرب مطول**، ثلاثة أجزاء، ترجمة الدكتور جبرائيل جبور، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٥٢ م.
- د. فؤاد أحمد طوقان، **الحائر، بحث في القصور الأموية في البادية**، وزارة الثقافة والارشاد، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ١٩٧٩ م.
- د. محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.
- محمد ضياء الدين الريس، **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية**، الطبعة الثالثة دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- محمد أبو الفرج العش، **النقود العربية الإسلامية**، مصدر وثائقي للتاريخ والفن، بحث ألقي في المؤتمر الدولي لبلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٧٤ م.
- د. محمد عبد الهادي شعيرة، **المرابطون في الثغور الإسلامية الرومية**، بحث في كتاب إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين.
- محمد كرد علي:

  ١ ــ **خطط الشام**، ٦ أجزاء، دمشق ١٩٢٦ م.

  ٢ ــ **الإسلام والحضارة العربية**، جزءان، القاهرة، ١٩٦٨ م.

  ٣ ــ **أمراء البيان**، دار الأمانة، بيروت، الطبعة الثالثة.

  ٤ ــ **غوطة دمشق**، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ــ الطبعة الثانية.
- محمد ياسين الحموى، **تاريخ الأسطول العربي**، ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م.
- د. محمد يوسف موسى، **نظم الحكم في الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

□ مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، منشورات دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٥ م.

□ د. منير العجلاني، **عبقرية الإسلام في أصول الحكم**، دمشق، الطبعة الأولى.

□ د. نبيه عاقل:

١ ـ **خلافة بني أمية**، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥ م.

٢ ـ **الامبراطورية البيزنطية**، دمشق، ١٩٦٩ م.

□ نجدة خماش، **الإدارة في العصر الأموي**، دار الفكر، دمشق ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.

□ د. نعمان محمد أمين طه، **جرير، حياته وشعره**، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر.

□ نولدكه، **أمراء غسان من آل جفنة**، ترجمة الدكتور بندلي جوزي، والدكتور قسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٣.

□ يوسف الياس الدبس، **تاريخ سورية الدنيوي والديني**، الجزء الثاني، المجلد الرابع، بيروت، ١٨٩٩ م.

الجزء الثالث، المجلد الخامس، بيروت، ١٩٠٠ م.

* المصادر والمراجع الأجنبية

BIBLIOGRAPHY:

Arculfus, The Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land about the year 670 A.D.
Translated and annotated by the Rev. James Ros. Macpherson, London, 1889.

Bell, Gertrud, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, The Clarendon Press, 1914.

Brown, A Literary History of Persia, London, 1959.

Buckler, F. W. Harun al-Rashid. Cambridge, 1927.

Bury, A History of the Later Roman Empire, London, 1889.

Caetani, L., Annali dell Islam, Milan 1904 1918, Vol. III, Vol. V.

Cocke, G.A., A Text Book of North Semetic Inscriptions Oxford, 1903.

Creswell, K.A.C.:

1. Early Muslim Architecture, Oxford, The Clarendon Press, 2nd Edition.

2. Fortification in Islam before 1250 A.D. From the Proceedings of the British Academy, 1952, Vol. XXXVII.

Dennette, Daniel, C., Conversion and the Poll-tax in Early Islam, Cambridge, 1950.

Diel, Ch., Etudes Sur L'Administration Byzantine dans L'Exarchat de Ravenne, Paris, 1888.

Duchesne, L. Autonomie Ecclesiastique, Eglises Séparees, 1896.
Gregory. J.W.., The Rift Valleys of East Africa, London, 1971.
Grohman, Allgemeine Einfuhrung in der Arabischen Papyri, Wien 1924.
Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsig, 1885.
Hill, George. The History of Cyprus, Vol. I. to the conquest by Richard Lion Heart, Cambridge University Press. 1940.
Hodgson, Marshal, G.S., The Venture of Islam, Conscience and History in a World of Civilization, The University of Chicago Press.
King. L. C. The Morphology of the Earth, New York, 1962.
Levy, Reubens, The Social Structure of Islam, 2nd Edition, Cambridge University Press.
Lewis, Archibald, R., Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100.
Lokkegaard, Frede, Islamic Taxation in the classical Period, Copenhagen, 1950.
Mclean Harper, George, Village Administration of the Roman Province of Syria, Princeton, 1908.
Michel Le Syrien, Chronique, Edition et Traduction de Y. B. Chabot. t. II.
Miles, The Earliest Arab Gold Coinage, 1967.
Omar Charles, K.B.E., A History of the Art of War in the Middle Ages, Vol. I, A.D. 378-1278- Burt Franklin, New York.
Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Tr. Joan Hussey, Oxford, 1956.
Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, New York, 1939.
Lane Pool, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925.

Le Strange:

1. Palestine Under the Moslems, Published for the Committee of the Palestine Exploration Fund 1890.

2. The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1980.

Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzans, des 8 Jahrhundert 717-813 Aus der Welt Chronike des Theophanes, Ubersetzt, eingeleitet und erklart Von Leopold Breyer, Wien. 1957.

Thomas Bishop of Marga, (A.D. 840) The Historia Monastica, Edited from Syriac Manuscripts in the British Museum and other Libraries. By E.A. Wallis Budge, Vol. II. The English Translation, London, 1893.

Tritton, A. S., The Caliphs and their Non-Muslim Subjects, Oxford University Press, 1930.

Von Kremer, Kulture Geschtlisché Streifzug auf dem Gebeit des Islames, Calcutta, 1950.

Walker, A Catalogue of the Muhammaden Coins in the British Museum, Vol. II.

The Arab Byzantine and Post Reform Coins.

Washington, Irving, Lives of the Successors of Mohammet, Vol. II. London, 1850.

Wiet, Gaston, L'Egypte Musulman, Précis de L'Histoire d'Egypte, t.II.

Willibald, The Hode poricon of St. Willibald 754. A.D. Translated by the Rev. Conon Brownlow, M.A. London, 1891.

Articles:

Andreades, Andre, M., The Economic Life of the Byzantine Empire, Population, Agriculture, Industry, & Commerce, In Byzantium II. An Introdution to East Roman Cibilization ed. by Norman H. Baynes & H. St. B. Moss.

Cahen, Claude, Economy, Society, Institution, The Cambridge History of Islam, Vol. II. The Cambridge University Press.

Charanis, P., The Social Structure of the Later Roman Empire, in Byzantium, 1944-1945 XVII.

Ensslin, Wilhelm, The Emperor and Imprial Administration, in Byzantium X.

Grabar, Early Islamic Settlements in the Badyaht al-Sham, in Conference on Bilad al-Sham, Amman University of Jordan, April, 1974.

Lopez:

1. Silk Industry in the Byzantine Empire, in Speculum, 1945, XX.
2. Mohammed & Charlemagne, A Revision in Speculum, 1943, XVIII.

Sauvajet, Jean, Chateaux Omayyades de Syrie, Revue des Etudes Islamiques 1967 XXXV.

Vasiliev, A. A., Byzantium and Islam, in Byzantium XI.

Vernadsky, G., Sur L'origine de La Loi agraire, in Byzantium, 1925. IV.

Islamic Encyclopaedia, New Edition.
Encyclopaedia Britannica, 15th Edition.
The Modern Encyclopaedia, First Edition, 1961.

Abstract

The social and administrative conditons in al-sham (Syria) during the early Islamic period is the theme of this study; it commences with the definition of al-Sham, its historical and geographical boundaries during the period under study.

The first part deals with the different social classes and their part in administration, governing and stabilizing the rule of the omayyads, therefore, the first chapter is concerned with the peoples in al-Sham, before the conquest, the regions of their settlement and their attitude towards the conquest.

The second chapter discusses the new distribition of the peoples after the conquest, especially the Arabs, and discusses the factors that affected their settlement in the different regions (al-Ajnad).

The different social classes, their social position and their part in administration and governing, are discussed in chapter three.

The fourth and the fifth chapters deal with the part of the people of al-Sham in stabilizing the rule of the Umayyads in Syria, Iraq, and in Africa, the conquests they achieved, and the advantages they acquired.

The second part of this study is concerned with the administrative, fiscal and military systems.

In dealing with the administrative system, the administrative

divisions were discussed as well as the important officials, their duties and responsibities and the different state departments (Dawawin)-

Taxation, tax collection, and the measures that were carried Out by Caliph Omar, and then by the Omayvads, as Well as the coinage used and the striking of the first Arab gold coinage and its consequences are presented in detail in dealing with the fiscal system.

The elements of the Syrian army, leadership, and mobilization, means of defence and fortification, the organization of the Diwan and the Ata of the Muqetilah in al-Sham are dealt with in the last chaper.

The conclusions that I have come into are presented throughout the dissertation, amongst them are the following-

1- Al-Sham's position was unique, speaking from a social point of view, and the social problems that arose in Iraq were not felt so strongly in Syria, for most of the Byzantines and their mercenaries in the coastal and internal cities left Syria and followed Hercules to Asia Minor: the Christian Arabs in Syria before the conquest formed quite a Considerable proportion of the population, and when they adopted Islam they were not regarded as clients; but were socially regarded as the Moslem Arabs who joined the armies of the conquest; this could be deduced from the increase in the numbers of the Muqatilah in each region, and this increase of course was not due to migration only, but to the adoption of Islam by the Christian Arabs.

2- Most of the Arabs in al-Sham during the Omayyad period were of Yamanite or Guda'i origin, with the exception of the region of Qinnisrin; but while the Arabs formed the majority of the coastal cities of Jund Homs, the population of the coastal cities belonging to the Jund of Damascus were mostly

composed of Jews and persians, and because of the Caliph's tolerant and indulgent policy towards the Dhimmis, Christianity remained widely spread in Syria specially in Palestine.

3- The factors that defined the social position of the Moslem Arabs changed gradually in consequence of the political developments after the battles of Siffin and Marj-Rahit. The companions of the prophet, their sons, and the commanders of the conquest enjoyed the most distinguished position at first; but after the battle of Siffin and the support Mu'awiyah received from the southern tribes, who formed the majority of the Arabs in Syria, he had to change his policy and depend more and more on the notables of the tribes whether in governing the different regions of al-Sham or in commanding the armies sent against Byzantiun or against Armenia in the North. After the battle of Marj-Rahit, the highest position was that of the princes of the house of Marwan and the Omayyads in general, then came the notables of the tribes and of course all the true and loyal supporters of the Umayyads.

4- The Marwanid period showed an increase in depending on Arab governors sent from al-Sham to the two most important districts, Iraq and Egypt, and it showed also an inclination to depend more and more on the clients (al-Mawali) especially the freed slaves (Mawali al 'Itaqah) in the different departments of the state and in sending them as governors especially to Africa; but the dependence of the state on the Dhimmis in administration decreased at the end of the Omayyed period in al-Sham.

5- As al-Sham was the central district, the duties of the most important officials were somewhat different from those of the same officials in the other districts, and the state departments (dawawin) were greater in number and importance.

6- Although al-Sham was the first country conquered - yet the traditions concerning the treaties with the different cities show that the Arabs distinguished clearly from the very beginning between the poll-tax (al-jizyah) and the landtax (al-kharaj) and while the jizyah in Syria at the beginning was one dinar, Omar I changed it later to a graded tax of four dinars maximum for the well to do with reductions for the middle class and the poor, this seems to have taken place in the year 640 A.A. 20 A.H. forTheophanesmentions that in the thirtieth year of Heracules, Omar made a census of all the lands, man, animals and palms; but as the traditions concerning the kharaj land and the Sawafi lands are very few in comparison to those connected With Iraq. it was necessary to depend on them in order to clarify and illustrate the ones concerning Syria specially if there were hints allowing such comparisons, and an interpretation for the term Sulh and Unwah has been presented.

7- When Mu'awiyah became Caliph he made it clear that the different districts should particpate in sending the overflow of their income to the central treasury in Damascus (Bayt Mal al-Fay), this procedure was carried out by all the other Caliphs and traditions directly or indirectly allude to this fact except where Spain is concerned. The Arab tribes in Iraq in general and the tribes of al-Kufa in particular resented this procedure which aroused their wrath against the Omayyads and the people of al-Sham, who enjoyed a number of priviliges denied to others, for example, the traditions do not mention extra taxes being collected from the people in Syria like the ones mentioned in Iraq and Egypt.

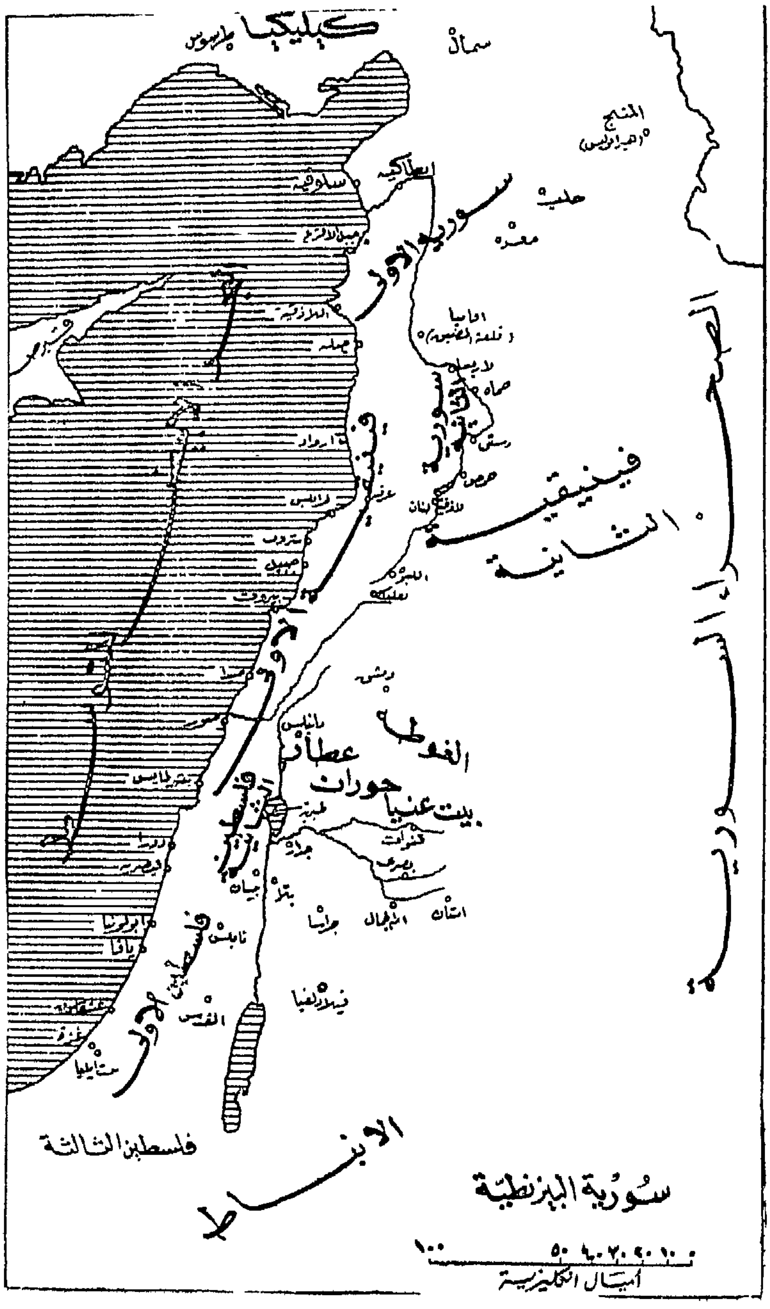
8- the important political and economic changes following the striking of the Arab gold coins have been discussed-

9- The Army of al-Sham was mainly composed of Arabs, and the Yamanites and Quda'i tribes formed the majority, it was natural that most of the Muqatilah were from these tribes in

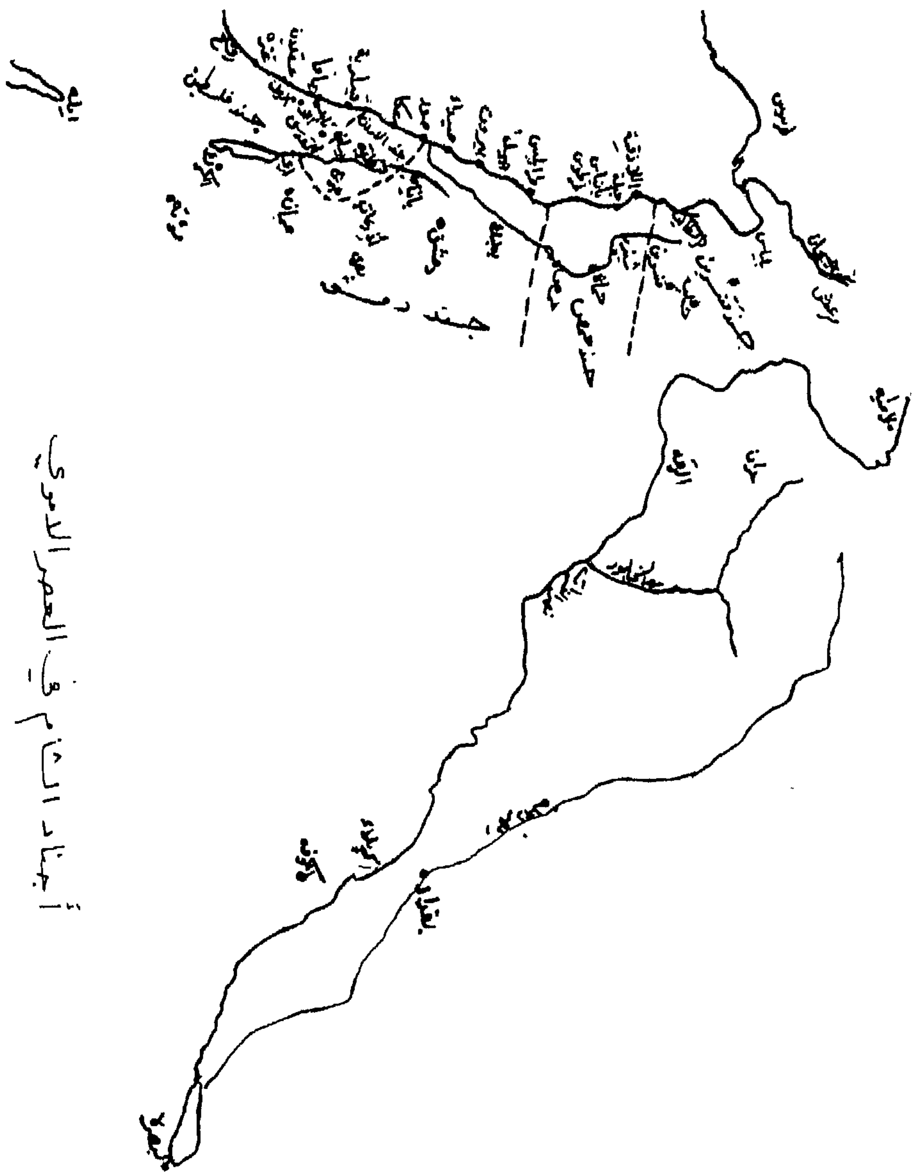
addition to the Qaysites in Qinnisrin and al-Jazirah; but the Omayyads made use of all the man-power, so they used the Dhimmis in the frontier lines as well as the Mawali later on, for we read of Mawali troops during the Marwanid period; yet the leadership remained in the hands of the Arabs, the companions of the prophet, their sons, and the notables of the tribes during the sufyanid period, and the princes of the house of Omayya during the Marwanid period specially in leading the summer and winter expeditions (al-Sawa'if wal-Shawati).

The tribes and clans in al-Sham still formed the prominent parts in mobilization, even when when they were incorporated in larger organizations for military or fiscal purposes.

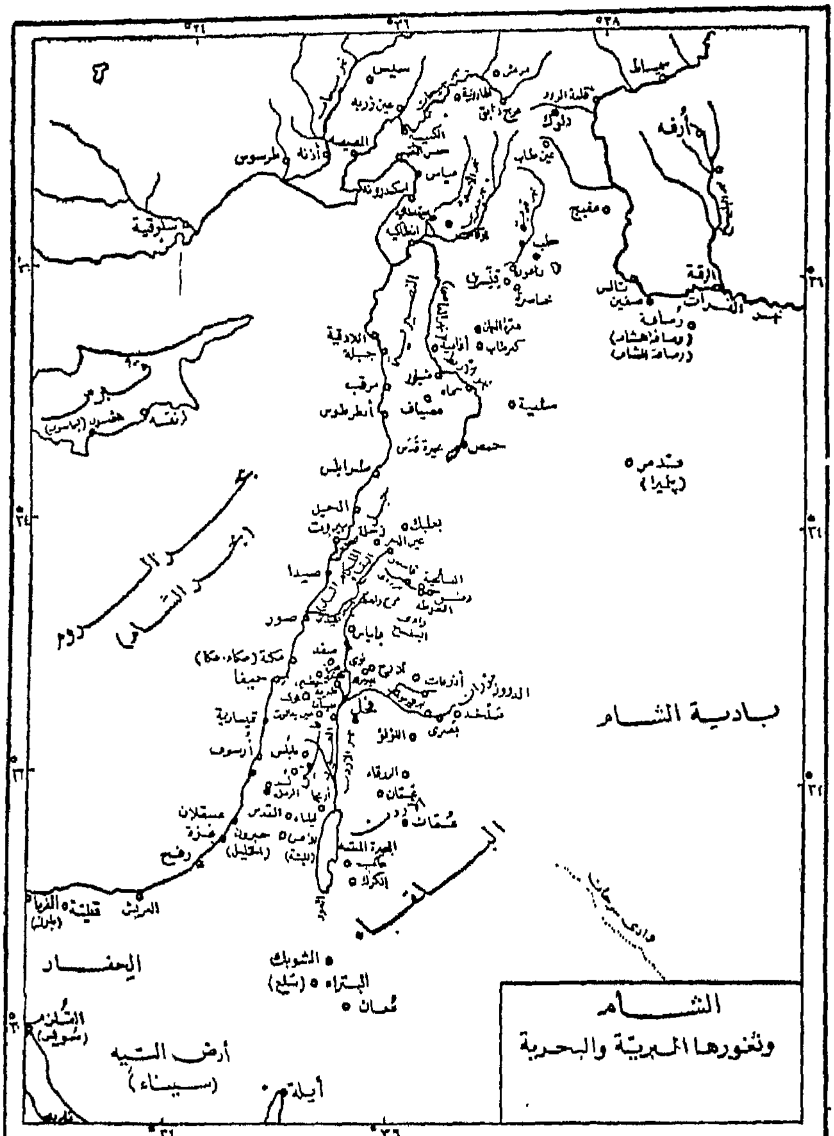
خرائط توضيحية



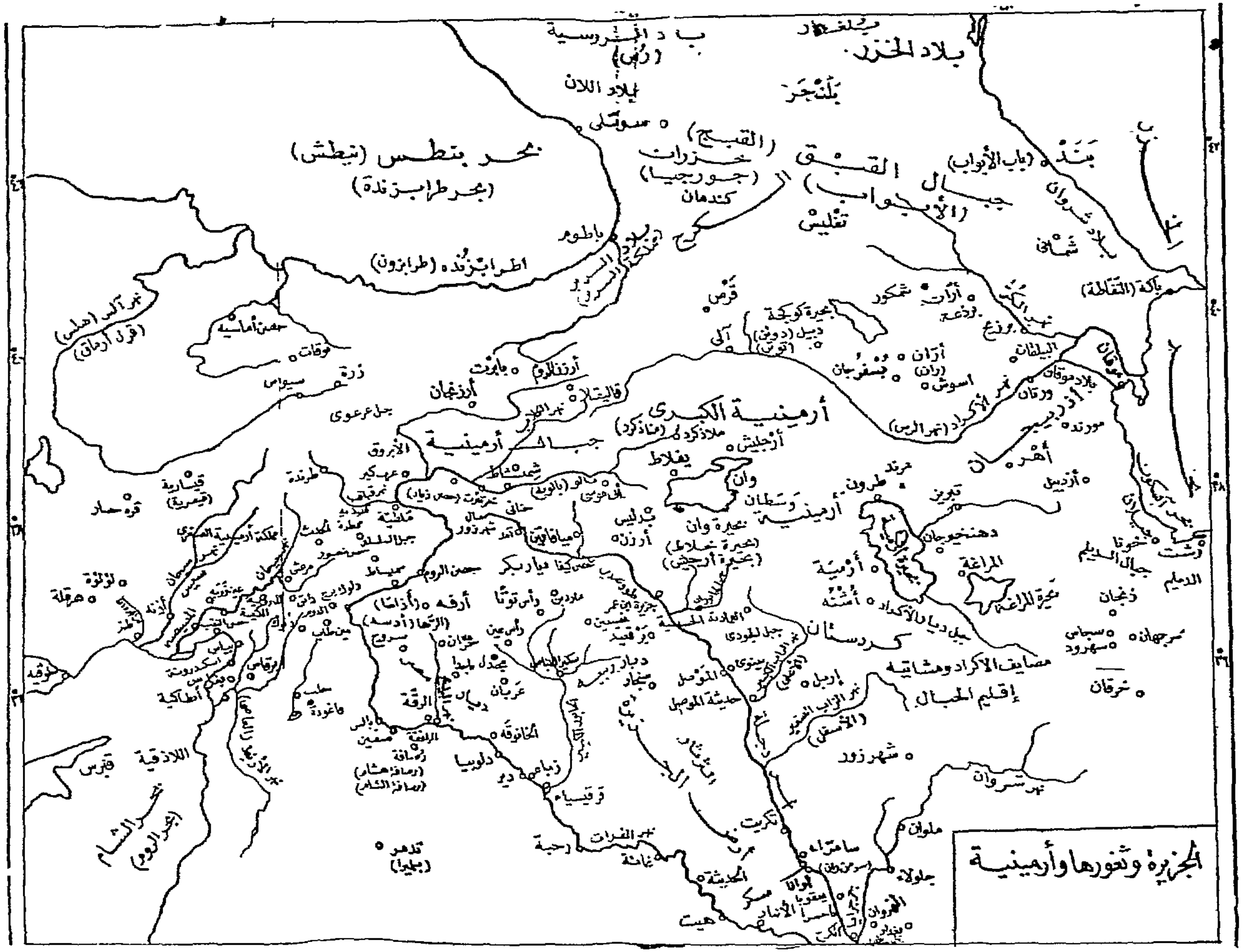
كيليكيا
سورية الأولى
انطاكية
سلوقية
حلب
اللاذقية
حماه
فينيقية الثانية
بيروت
الغوطة
حوران
بيت عنيا
بصرى
فلسطين الأولى
نابلس
يافا
القدس
فلسطين الثالثة
الانباط
سورية البزنطية
أميال انكليزية

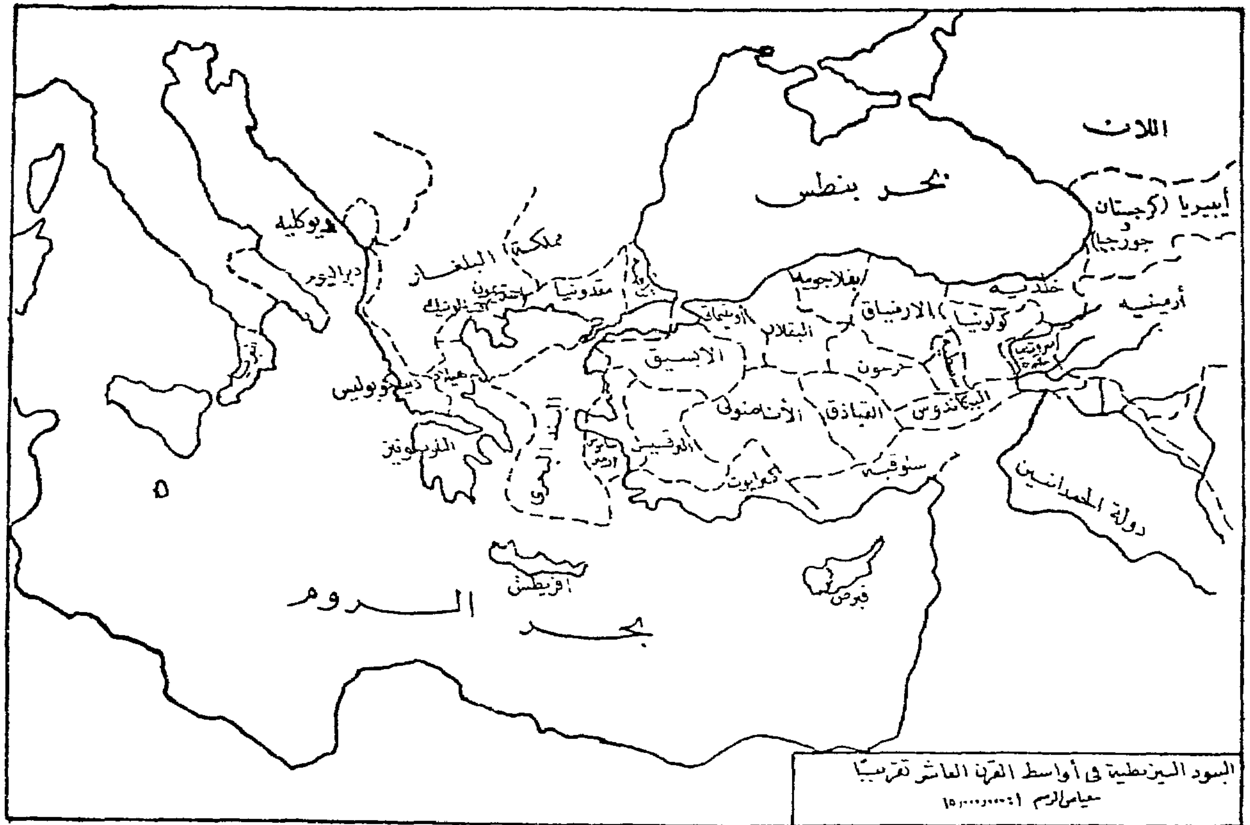


أجناد الشام في العصر الأموي

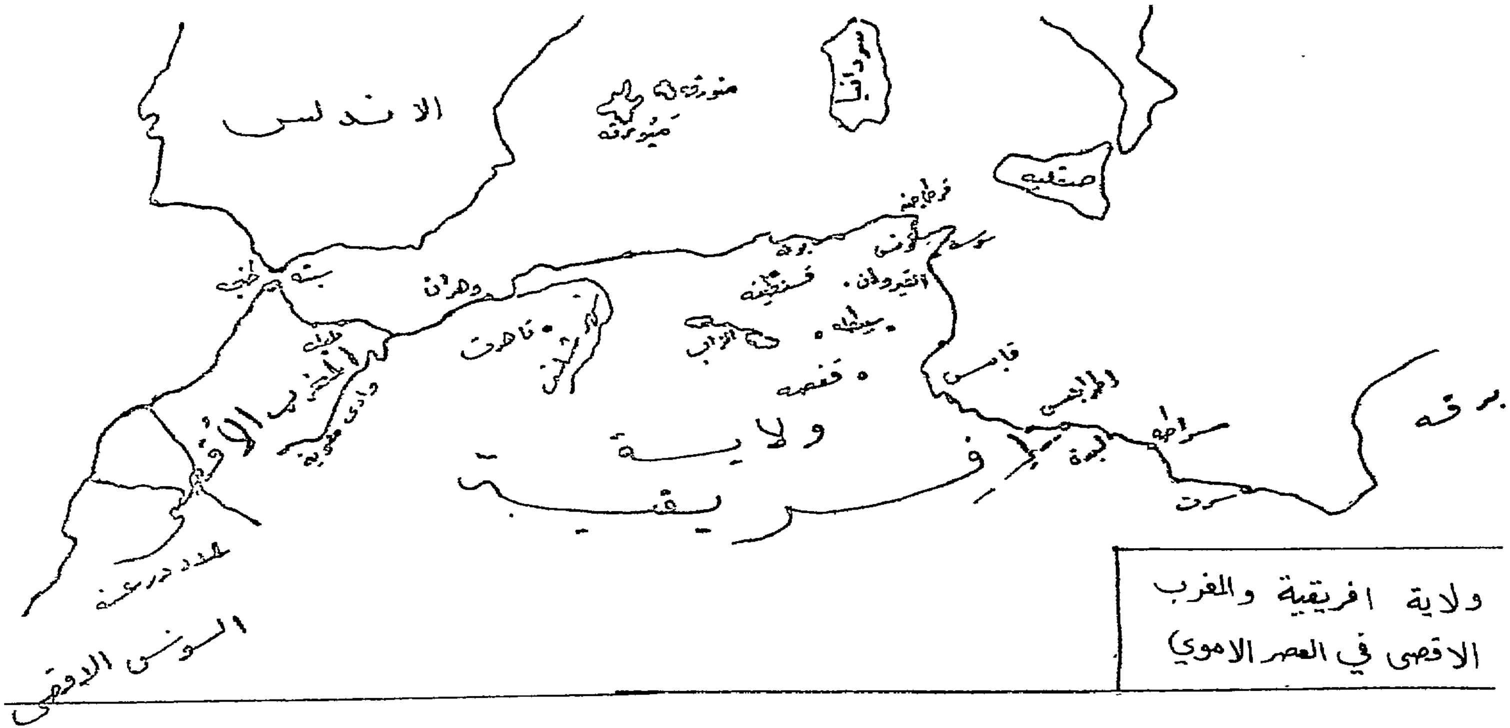


نقلاً عن : (د. ماجد والبنا : الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى)


الجزيرة وثغورها وأرمينية
بلاد الخزر
بلنجر
بلاد اللان
بحر بنطس (نيطش)
(بحر طرابزندة)
اطرابزندة (طرابزون)
جبال القبق (جبال الأبواب)
خزران (القبج)
(جورجيا)
كندمان
تفليس
باب الأبواب
بلاد شروان
شماخي
باكة (الفاطة)
برذعة
أران
البيلقان
قرس
آني
بحيرة كوكجة
دبيل (دوين)
أرمينية الكبرى
أرمينية
جبال أرمينية
ملازكرد (مناذكرد)
أرجيش
خلاط
وان
بحيرة وان
سلماس
أرمية
تبريز
المراغة
بحيرة المراغة
أردبيل
أذربيجان
أهر
مورند
زنجان
الديلم
جبال الديلم
سهرورد
قزوين
شهرزور
شروان
حلوان
جلولاء
بغداد
سامراء
تكريت
الحديثة
هيت
عانة
رحبة
نهر الفرات
قرقيسياء
الرقة
الرافقة
صفين
بالس
الرصافة
حران
رأس عين
دارا
نصيبين
سنجار
الموصل
حديثة الموصل
إربل
الزاب الأعلى
الزاب الصغير
كردستان
جبل الجودي
جزيرة ابن عمر
حصن كيفا
ميافارقين
ديار بكر
ديار ربيعة
ديار مضر
آمد
سميساط
حصن الرومانة
ملطية
قاليقلا
أرزنجان
زيطرة
طرندة
قيسارية (قيصرية)
قوهسار
سيواس
زرة
توقات
حصن أماسية
نهر آلس (هاليس)
(قزل إرماق)
جبل عرعوى
اللاذقية
قبرص
بحر الشام (بحر الروم)
أنطاكية
حلب
تدمر
أنطرطوس
مرعش
المصيصة
أذنة
طرسوس
منبج
سروج
الرها (أذاسا)
أرقة
دلوبيا
الخانوقة
(الرمادان)
بابوت
آخلاط



نقلا عن: Vasiliev L'Empire Byzantine



ولاية افريقية والمغرب
الاقصى في العصر الاموي

الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

خرائط توضيحية

الشام في صدر الاسلام: من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية: دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية / نجدت خماش. ــ ط. ١. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٧. ــ ٤٣٨ ص. : خرائط؛ ٢٥ سم.

١ ــ ٩٥٦٠٤ خ م ا ش ٢ ــ العنوان ٣ ــ خماش

مكتبة الأسد

رقم الايداع ــ ٩٥٢ / ٧ / ١٩٨٧

رقم الاصدار ٢٨٤

طلاس